الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان-

كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ وعلم الآثار

شعبة التاريخ

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الاسلامي في العصر الوسيط موسومة بـ

العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا في الفترة [ق7-10هـ/13-16م]

لجنة المناقشة:

أ.د. بوحسون العربي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. مبخوت بودواية	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ.د. بن معمر محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	عضوا
أ.د. بن نعمية عبد المجيد	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	عضوا
أ.د. هلايلي حنيفي	أستاذ التعليم العالي	جامعة بلعباس	عضوا
د. بن داود نصر الدين	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	عضوا

السنة الجامعية 1434 -1435هـ/ 2013 -2014م

الإهداء

إلى من ربياني صغيرا و رافقاني في حياتي مرشدين ناصحين فكانا

بذلك نبراسا أضاء لي دربي

إلى زوجتي التي قاسمتني حلو ومر هذه الحياة فكانت لي سندا يخفف

عني عناء وأعباء الحياة

إلى أولادي مروة محمد رضا وآلاء

إلى كل إخوتي وأخواتي

أهدي هذا العمل

شكرو عرفان

من لم يشكر الناس لم يشكر الله، من هذا المنطلق أتقدم بشكري الجزيل إلى كل من علمني حرفا في جميع أطوار ومستويات تعليمي، إلى المشرف الأستاذ الدكتور مبخوت بودواية الذي لم يبخل علي بنصائحه السديدة القيمة طيلة مشواري الدراسي لمرحلة ما بعد التدرج، إلى كل أساتذة قسم التاريخ بجامعة أبي بكر بلقايد يتلمسان،و إلى كل من قدم لي المساعدة أو النصيحة في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد،و إلى من سيتجشم عناء قراءته وتصويب أخطائه



مقدمـــــة

إن مصير الأمم مرهون بما تمتلكه من قوة اقتصادية تساعدها على الصمود أمام عاديات وفواجع ونكبات الزمن، وعسكرية تنافح بها عن حدودها ضد كل متسلط معتد، وسياسية تساعدها على كسب الصديق والحليف القوي وترهيب ورد العدو، والقاعدة تقول بأن العلم والعمل هما أساسا امتلاك القوة الاقتصادية والعسكرية اللتان تظهرانها بمظهر القوي المحترم سياسيا،لأن الدولة لا تكون محترمة في مجال الصراع إلا إذا امتلكت القوة وأظهرتها، ومن هذا المنطلق أو الزاوية ارتأينا أن نطرق باب العلاقات السياسية والاقتصادية التي جمعت بين ضفتي المتوسط –بلاد المغرب وجنوب غرب أوروبا –بما احتوته هذه المنطقة من كيانات سياسية لا تعرف الثبات أو الاستقرار خاصة في المرحلة التي نود تسليط الضوء عليها وهي الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري، محاولين كشف العلاقة القائمة بين الجانب الاقتصادي والسياسي من تلك الروابط التي جمعت بينها، واستخلاص الأثر الذي يتركه كلا الجانبين على الآخر.

إن الواقع المرير الذي عاشته بلدان المغرب بداية من القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي ولا تزال تعيش آثاره وترسباته لا يمكن البتة فصله عما دار في بلاد الأندلس من أحداث، لأن هناك أحداثا دقيقة جرت بتلك المنطقة غيرت وجه العالم الإسلامي و لولاها لكان وجه العالم مخالفا لما هو عليه اليوم حسب بعض المؤرخين.

أما الإشكالية التي رأيناها مناسبة وخادمة لموضوع بحثنا فتمثلت في: ما طبيعة العلاقات السياسية التي ربطت بين الإمارات المغربية الثلاثة ودول جنوب غرب أوروبا ؟ وما هي العوامل الموجدة والمتحكمة فيها؟

ومن خلالها سنحاول الإجابة عن جملة من التساؤلات التي تراود كل باحث في هذا الشأن وهي:

هل كانت العلاقات السياسية والدبلوماسية بين المنطقتين ترجمة لنوايا أوروبية تخفي ولعا وشغفا بما تحتويه بلاد المغرب من طاقات سواء إن كانت على المستوى الاستراتيجي أو الاقتصادي؟ أو كانت طموحا إلى ما هو أبعد، خاصة إذا ما علمنا أنها تعد قفلا لإفريقيا ومساحلة للحوض الغربي للبحر المتوسط ومسيطرة على جزء من منفذ بحري هام هو البوغاز أو جبل طارق ؟

هل كانت هذه العلاقات وخاصة العسكرية العدائية امتداد للحروب الصليبية التي ابتدأتها الدول النصرانية في المشرق تهدف الى القضاء على كل ما يمت بصلة للإسلام ،أم كانت غايتها تصفية أخر قلاع المسلمين في الأندلس؟

اتبعنا في بلوغ مقاصد بحثنا هذا خطة تتشكل من مقدمة تلخص أهمية وجوانب البحث المختلفة، ثم فصلا تمهيديا عنوناه ب: الخارطة السياسية للمنطقة تضمن ثلاث مباحث أولها يعالج سقوط الدولة الموحدية –العوامل والأسباب–، والثاني ظهور الإمارات المغربية الثلاث –حفصية– زيانية –مرينية–متبعين في ذلك التسلسل الكرونولوجي التاريخي، أما الثالث فتضمن الخارطة السياسية لجنوب غرب أوروبا، وتعرضنا فيه لأهم القوى السياسية التي رافقت ذلك التحول في الجزء الأوروبي المقصود بالدراسة، أي جنوب غرب أوروبا ممثلا في شبه الجزيرة الابيرية وفرنسا وشبه الجزيرة الايطالية .

كما اشتمل البحث على بابين، أحدهما خصصناه للعلاقات أو الروابط الاقتصادية والثاني للجانب السياسي من تلك العلاقات.

ارتأينا أن نبدأ بحثنا هذا بالجانب الاقتصادي – بكل ما تحتويه الكلمة من معاني– لإدراكنا بأن هذا الجانب كان المحرك الأساسي لأي عمل سياسي أو دبلومـــاسي بين

الإمارات الإسلامية والأمم النصرانية، خاصة إذا ما علمنا أن جزءا هاما من مكونات تلك العلاقات الدبلوماسية أوجدته العلاقات الاقتصادية، وقد ضمنا هذا الباب ثلاثة فصول، تناول الأول منها الواقع الاقتصادي لبلاد المغرب- أي الضفة الجنوبية الغربية للمتوسط- وتضمن الفصل الثاني الواقع الاقتصادي للضفة الشمالية الغربية له- شبه الجزيرة الابيرية وشبه الجزيرة الايطالية وفرنسا- وتعرضنا فيه للأسس الثلاثة التي يقوم عليها اقتصاد أي بلد وهي الزراعة والصناعة والتجارة مع التطرق للعوامل التي أدت إما لازدهارها أو تراجعها ونكوصها،أما الفصل الثالث من هذا الباب فعنوناه ب-التبادل التجاري طبيعته تقنياته ووسائله.

أما الباب الثاني فخصصناه للروابط السياسية، وتضمن هو الآخر ثلاثة فصول خصصنا كل فصل منها لدراسة إمارة من إمارات بلاد المغرب وما كان لها من علاقات مع ما قابلها من دول في الضفة المقابلة من المتوسط،ثم أنهينا بحثنا هذا بخاتمة ضمناها أهم النتائج التي استخلصناها منه وأتبعناها بجملة من الملاحق التي رأيناها خادمة للبحث أو موضحة لبعض جوانبه.

وبخصوص المنهج المتبع عبر مراحل البحث فكان تاريخيا وصفيا تحليليا،إذ حاولنا من خلال معطيات ثابتة من رسائل وإفادات بعض الرحالة والمؤرخين أن نستنتج ونستخلص العلاقات التي سادت بين دول المنطقة، سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي وما كان ينتابها من تغيير قد تسهم فيه عوامل اقتصادية متعلقة بالتجارة أو سياسية مرتبطة إما بالممالك الإسلامية المتبقية في بلاد الأندلس أو محاولات من دول أوروبا لمد نفوذها إلى المنطقة أو نتيجة للتدخل في الصراع الدائر بين دول بلاد المغرب.

لقد حاولنا قدر الإمكان إثراء موضوع الرسالة حتى لا تكون تكرارا أو إعادة صياغة لما ورد في بعض الكتب أو الرسائل مستعينين ببعض المصادر المتخصصة والمصنفات المعاصرة عربية وأجنبية وإثارة بعض القضايا التي كنا نجد نفسنا مضطرين للتطرق لها ولو بصفة عرضية أو مقتضبة ضمن متن أو هوامش البحث.

وفي الأخير نود عرض بعض المشاكل التي اعترضتنا في انجازنا لهذا البحث والتي تصادف كل باحث يقدم على ارتياد ميدان البحث في التاريخ أو غيره من العلوم، منها قلة إن لم نقل انعدام المصادر الجغرافية المتمثلة في كتب الرحلة التي واكبت الفترة المدروسة ومن ثمة حاولنا قدر المستطاع الاقتراب منها والاعتماد على بعض الإسقاطات بالمقارنة بين ما كان منها سابقا للفترة أو متأخرا عنها باعتبار أن بعض الأمور الطبيعية وحتى الاقتصادية قد تستمر لفترات طويلة فتصبح من العادات الاقتصادية إن صح التعبير،إضافة إلى تشعب الموضوع والارتباطات البيداغوجية التي لا تترك لنا مجالا واسعا للتنقيب والبحث عن المصادر وما تحتويه من معلومات.

و في الأخير أود أن أنبه إلى أنني لا أدعي الكمال أو المثالية فيما كتبت أو وصلت إليه من نتائج،وإنما أقر بأنه مجرد إسهام بسيط في إبراز هذا الجانب من العلاقات، وأعتبره زاوية قابلة للإثراء،كما لا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدنا من قريب أو بعيد في انجاز هذا البحث، وعلى رأسهم الأستاذ المحترم مبخوت بودواية المشرف على هذا العمل،ولجنة المناقشة التي ستتشرفنا بمناقشته ونرجو من الله أن يسدد خطانا ويوفقنا في انجازه وإخراجه إخراجا حسنا وما توفيقنا إلا بالله.

عرض و تحليل لأهم مصادر ومراجع البحث

اعتمدنا في بحثنا هذا على جملة من المصادر والمراجع، منها ما كان له علاقة مباشرة بموضوع البحث أي المتخصصة ومنها ما يمس جانبا أو حيزا معينا منه، ومنها ما تطرق لجزئية منه بشكل عرضي فقط، ومن هذه المصادر:

فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب: لابن الحاج النميري وهو عبارة عن رحلة من نوع خاص، وقد عاصرت فترة حكم أبي عنان المريني 729-759ه/1328م /1358م ، أي فترة الاستقرار والازدهار واكتمال نضج دولة بني مرين وبلوغها القمة التي تم فيها انجاز أهم الآثار والمشاريع الكبرى، بل هو بطل هذه الرحلة التي قام بها نحو الجزائر، ويتناول الكتاب سياسة هذا السلطان والنشاط التجاري والتطور الزراعي والصناعي للمملكة على عهده، مع إعطاء وصف مبدع لتلك الرحلة التي قام بها إلى قسنطينة ومنطقة الزاب مصطحبا في ذلك جيشه وأسطوله، ولهذا يجب على الباحث الأخذ بعين الاعتبار ما قد يرد في الكتاب من مبالغات وتمجيد لهذا السلطان.

الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، وهو من الكتب التي ألفت في القرن التاسع الهجري 861ه/1475م أثناء توليه منصب قضاء الأمحال على عهد السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي،أي بعد أن أنهى ابن خلدون كتابه العبر ووفاته سنة 1405/808م، ولذا نجده يعتمد جملة من المعلومات استنادا إليه، لكنه في نفس الوقت استعمل مصادر خاصة جعلته ينفرد ببعض المعلومات عن غيره، وفي نفس الوقت نجده يهمل الكثير من الأحداث التفصيلية،لأنه ركز على شخصية الخليفة وما يتصل بمفاخر الدولة الحفصية كما يشير إلى ذلك العنوان.

تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان :وهو لصاحبه المؤرخ والأديب إسماعيل بن يوسف الخزرجى الأنصاري المعروف بابن الأحمر، الغرناطي الأصل، وهو من الكتب الهامة التي تفيدنا في

الدراسات التاريخية الخاصة ببلاد المغرب والأندلس،وقد أقام صاحب العمل في مدينة فاس المغربية وتوفى بها،ولهذا نجده حاقدا على بني زيان ملوك تلمسان،محطا من شأنهم في كثير من المواقع، وممجدا للمرينيين لدرجة تفوق الواقع، لهذا فعلى الباحث المعتمد عليه أن يضع في حسبانه تلك الأمور ويحاول أن يجد ما يوازي تلك الأحداث في مصادر أخرى.

تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية: لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي،يعتبر الكتاب تاريخا موجزا لبلاد المغرب في الفترة الممتدة من القرن 6ه/12م إلى القرن 9ه/15م،ويعتبر مؤلفه شاهد عيان لكثير مما حدث في الدولة الحفصية بتونس، أما أهميته فتكمن في أنه أرخ لفترة شحت فيها مصادر التاريخ خاصة ما يتعلق بالقطر التونسي بعد نهاية ابن خلدون، إذ انقطع من يؤرخ له بنفس الطريقة المحكمة، ولذا كان هذا الكتاب المنهل الوحيد لاستقصاء أخبار تلك الفترة،وقد اعتمده الكثير من المؤرخين كمصدر لهم مثل ابن أبي دينار في كتابه المؤنس في تاريخ افريقية وتونس.

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية العبد الحقيقة: وهناك اختلاف كبير حول مؤلفه فهناك من ينسبه إلى مؤلف مجهول، ومنهم من ينسبه إلى ابن أبي زرع الفاسي صاحب كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس نظرا لما وجدوه من تشابه كبير بين المؤلفين من حيث العبارات والأسلوب المستعمل في سرد الأحداث، وهو مهم جدا وخاصة بالنسبة للباحث في تاريخ الدولة المرينية،وهو يستعمل نفس أسلوب ابن الأثير في تجميع الأحداث التاريخية أي الحوليات –كل سنة بما احتوته من أحداث– لكن رغم ذلك فلم يعرف هذا الكتاب رواجا على أهمية ما فيه من أخبار، إذ لم يقع النقل عنه إلا في مواقع

قليلة وعبر إشارات عابرة ككتاب روضة النسرين في دولة بني مـرين لإسـماعيل بـن الأحمر وهو كغيره من المصادر المغربية كان ممجدا وبدرجـة مبـالغ فيهـا للمـرينيين وملوكهم.

العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوقي سنة 808ه/1405م ، والذي هو عبارة عن موسوعة عظيمة،احتوت المقدمة التي تمثل أولى أجزائه الكثيـر من النظريات وصنوف الحكمة في عادات وطباع البشر وعمرانهم والتي تساعد كثيرا في فهم الكثير من الأحداث التاريخية، أما أجزاؤه السبعة المتبقية فتحمل في طياتهـا تاريخـا عاما لأخبار العرب وأجيالهم وأخبار البربر وأجيالهم ودولهم، وبذلك فهو يعتبر من أهـم الكتب التاريخية التي ألفت في تاريخ العرب والعجم، أما الجزء الذي اعتمـدناه بدرجـة كبيرة فهو الجزء السادس والسابع الخاص بالإمارات المغربية الثلاث وما ربطها بعلاقات مع مملكة بني نصر والممالك النصرانية –قشتالة ،أراغون، ليون والبرتغال– ويبدو ابـن خلدون على عكس أخيه يحيى ناقما على بني عبد الواد وخاصـة يغمراسـن بـن زيـان مؤسس الدولة انطلاقا من سياسته تجاه بني مرين وبني الأحمر .

"بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد":لصاحبه أبي زكرياء يحيـى بـن خلدون (734هـ/1333م/780هـ1378م) تحقيق عبد الحميد حاجيات، وألفرد بل–الذي درس بتلمسان–و حققه انطلاقا من خمس نسخ عربية ترجمت الى الفرنسية، والذي تناول بالدراسة منطقة المغرب الأوسط منذ عهد الولاة إلى غاية قيام دولة بني زيان ومن حكمها من سلاطين انتهاء بعهد أبي سعيد وأبي ثابت ابني عبد الرحمن بن يحيى ويعتبر مصـدرا مهما للباحث في تاريخ الدولة الزيانية وعلى عكس باقي المؤرخين فقد كان مجاملا إن لم نقل مبالغا في تمجيد بني زيان وملوكهم وهذا ما يتطلب منا تحري الحقيقة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، المولود ببلدة مقرة بشرق الجزائر والمتوفي سنة 1041ه/1632م، والذي جال في دول عدة في المشرق والمغرب العربيين وكان معجبا الى درجة كبيرة بالوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب ما جعله يخصص جزءا هاما منه لهذه الشخصية، وهو يحمل في طياته معطيات سياسية واقتصادية كثيرة تخص منطقة بلاد الأندلس وبلاد المغرب، وقد اعتمدنا عليه في استنتاج بعض الأمور الاقتصادية والسياسية المتعلقة.

– كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى: لصاحبه أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي والذي تناول بالدراسة تاريخ المغرب الأقصى بصفة مفصلة حتى الاحتلال البرتغالي لموانئ المغرب الأقصى، ولم يخلو من إشارات للوضع السياسي للمناطق المجاورة، ومن هنا اعتمدناه في استقاء بعض الأحداث باعتبار أن المنطقة تشكل وحدة جغرافية ذات تاريخ ومصير مشترك، وما يعاب عليه أن هناك تكرارا كثير لما ورد في كتاب العبر لابن خلدون وتمجيده للعنصر المريني بشكل مبالغ فيه وتحقير لكل من يخالف سياسة بني مرين مثل بني الأحمر وبني زيان وخاصة يغمراسن.

– نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر: لمؤلف أندلسي مجهول، وتناول فيه صاحبه آخر أيام المسلمين في بلاد الأندلس وما تعرض له الموريسكيون من معاناة وتشريد من طرف النصارى في إطار ما عرف بحرب الاسترداد ومحاكم التفتيش ونزوحهم للعدوة المغربية ويبين في نفس الوقت الهوان الذي آلت إليه بلاد المغرب الإسلامي بما فيها ما تبقى من الشطر الأندلسي.



الفصل التمهيدي

الخارطة السياسية للمنطقة

المبحث الأول: الخارطة السياسية لبلاد المغرب

1/الدّولة الموحدية (السقوط وأسبابه):

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتطرق لدراسة أي دولة كانت دون الرجوع إلى أصولها التاريخية، كما أنه لا يمكن فهم ما يجري بها من أحداث وتطورات إلا بوضعها في سياقها وإطارها التاريخي والجغرافي، باعتبار أن التاريخ سلسلة من الأحداث المترابطة، والمؤثرة والمتأثرة يبعضها البعض، فلا يمكن أن نأخذ الحدث التاريخي منفصلا عن الماضي ولا أن نوقف أثره عند نهايته، وبذلك فقد أصبح لزاما على المؤرخين المحدثين تحقيق الآثار والمخلفات ونقدها لاستخراج الوقائع الجزئية ثم محاولة ربطها ببعضها بأدق طرق الاستقراء والاستنتاج فيصبح التاريخ بذلك علما من العلوم، من هنا ارتأينا أن نبدأ دراستنا هاته، بإعطاء لمحة ولو وجيزة عن الدولة الموحدية التي

خرجت من صلبها الدويلات البربرية المغربية الثلاث[1]، التي هي جزء أو طرف فاعل ومهم في موضوع بحثنا هذا، وكذا لما كان لها من أثر في توجيه سياسة تلك الدويلات من جهة وسياسة دول جنوب أوروبا تجاهها من جهة أخرى.

إن أهم حدث عظّم ومجد الدولة الموحدية وخلفائها في العالم الإسلامـــي

والمسيحي أيضا، هو انتصارها العظيم في موقعة الأرك[2]،بقيادة أبي يعقوب يوسف بن عبد

المؤمن والذي يشبهه البعض بالجنرال[3]، ورغم أن الدولة الموحدية كانت أول تجربة ناجحة

لإقامة إمبراطورية بربرية تذوب وتتصهر فيها الفوارق والحزازات القبلية الضيقة، إلا أنها استطاعت أن تقيم حكومة مبنية على أسس عقدية واقتصادية وعسكرية وتنظيمية أكثر واقعية من سابقتها المرابطية، فلا أحد ينكر أن هذه الدولة كانت من أعظم الدول في

---

[1]. أي الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى سنة 627هـ/1229م،الدولة الزيانية في المغرب الأوسط سنة 636هـ/1238م والدولة المرينية في المغرب الأقصى سنة667هـ/1269م.

[2]. الأرك أو(Alarcos) بالاسبانية،وهو حصن منيع يقع على حدود مملكة قشتالة مع الدولة الإسلامية بالأندلس بمقربة من قلعة رباح أول حصون أذفونش بالأندلس،الحميري(محمد بن عبد المنعم)،صفة جزيرة الأندلس،ط2،نشر وتصحيح وتعليق،ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، لبنان1408ه / 1988م ، ص13-14.

[3]. *Robert Corvenin, Histoire de l'Afrique-des origines aux XVI Emme siècle, Payot, paris, tome1, p331.*

التاريخ الإسلامي بما تمكنت من تحقيقه، بتوحيد المغرب بأقسامه المختلفة[1] بالإضافة إلى بلاد الأندلس، ولعلها كانت بذلك آخر دولة في المغرب وحدت هذه الأرجاء الواسعة.

تمتعت الدولة الموحدية في بداية عهدها بالقوة العسكرية والنماء الاقتصادي والثراء العمراني والثقافي والسمعة السياسية، والتي كان من مظاهرها إقبال ممالك أوروبا على عقد اتفاقيات تجارية معها[2]، لكن انتصار موقعة الأرك بما كان له من أثر في توطيد حكم المسلمين ما لبث أن أعقبه انكسار، إذ منذ ذلك الحين وألفونصو الثامن الملك القشتالي يفكر في محو عار تلك الهزيمة التي كانت تؤرقه وتثير في نفسه نوازع الانتقام، ولهذا نجده يلجأ إلى مهادنة الموحدين بعد المعركة لينقض العهد بعدها[3]،لكن بعد أن حصّن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية،وتحالف مع ملك بيزة[4] وأراغون[5]سنة 607هـ/1210م، وألـــــــــــــــــــّب بقية مسيحيي أوروبا ضد المسلمين، ليغير بعدها على مدن الأندلس،حينها قرر الناصر[6] خوض غمار هذه الحرب، وكاتب زعماء بلاد المغرب يدعوهم للجهاد، فأجابه خلق كثير[7]، وسار بقواته إلى الأندلس ففتح قلعة رباح[1]،حينها استغاث ألفونصو الثامن بأهل

---

[1]. أي المنطقة الممتدة من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن سواحل البحر المتوسط شمالا إلى مشارف إفريقيا المدارية جنوبا،

[2]. من تلك الممالك نجد فرنسا والإمارات الايطالية كفلورنسا ،نابولي ،البندقية وغيرها ،انظر،يحيى بوعزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر،المؤسسة الوطنية للمطبوعات الوطنية الجزائرية،1965م، ص115.

[3]. المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب" ،تحقيق وشرح صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى،المكتبة العصرية –صيدا- بيروت، 1426هـ/2006م،ص234.

[4]. مدينة ايطالية اشتهرت بجرس برجها الرخامي تقع على ضفتي نهر أرنو وبها جامعة تأسست سنة 1343 .

[5]. مملكة اسبانية قوية كانت منفصلة ليتم توحيدها مع قشتالة سنة 1479. سيأتي تفصيل في هذا الشأن ضمن هذا الفصل التمهيدي .

[6]. هو أبو عبد الله محمد بن أبي يوسف ،عاصره المؤرخ عبد الواحد المراكشي،وكان يعرفه معرفة شخصية ،إذ أورد له وصفا مورفولوجيا وسيكولوجيا،انظر المراكشي عبد الواحد،نفس المصدر السابق، الدين الهوا ري ،المكتبة العصرية –صيدا بيروت،الطبعة ص226.

[7]. سالم السيد عبد العزيز ،تاريخ المغرب الكبير،دار النهضة العربية، بيروت،لبنان،ج2، ص، 819.

ملته وحثهم على حماية دينهم، فاستجابوا له[2]، وأكسب حملته طابعا صليبيا حينما باركتها الكنيسة والبابا، ويلتقي الطرفان في المعركة النهائية عند جبل الشارات في15صفر609هـ/ 16 يوليو 1212م وتبدأ معركة العقاب[3]التي انجلت عن هزيمة المسلمين، وفرار السلطان محمد الناصر مكرها إلى مراكش أين توفـــــــــــــــــــــــــي في شعبـــــــــــــــــــــــان 610هـ/1213م، فانطلقت جيوش المسيحيـــــــــــــــــــــــــــــــــن تخضع المـــــــــــــــــــــــــدن الإسلاميــــــــــــــــــــــة تباعـــــــــــــــــــــــــــــــا(قرطبة[4] 633هـ /1236م وجيان[5] 643هـ/1246م، واشبيلية[6] 645ه /1248مـ)، ليبدأ

---

[1]. مدينة حسنة بالأندلس ،بين قرطبة و طليطلة وهي من أعمال جيان امتازت بحصونها المنيعة وهي ليست بالمدينة القديمة لأنها كانت محدثة على أيام بني أمية،انظر ،الحميري،المصدر السابق،ص163.

[2]. الحميري عبد المؤمن،صفة جزيرة الأندلس، من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ليفي بروفنسال القاهرة،1937،ص137.

[3]. وقعت المعركة في واد يسميه الأسبان "نافاس" قرب بلدة" تولوسا" ولهذا فهي تعرف عندهم بمعركة" لاس نافاس دي تولوسا" ووقعت أيضا قرب حصن أموي قديم يسمى العقاب (بضم العين)ولذلك تسمى في التاريخ العربي والإسلامي باسم معركة العقاب، أو معركة حصن العقاب،وللاطلاع على خصائص المنطقة الطبيعية والنباتية ،أنظر محمد بن أحمد الأندلسي (ابن جبير)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، لبنان-مصر،ص172 .

[4]. قاعدة الأندلس وأم مدائنها ،وكانت مستقر خلافة الأمويين بها، وهي في الأصل تتكون من خمس مدن متتالية تفصل بينها مجموعة من الأسوار وهي تشتهر بأسواقها وفنادقها وحماماتها وصناعاتها المتنوعة.انظر الحميري،المصدر نفسه، ص153.

[5]. مدينة بالأندلس وصفت بأنها كثيرة الخصب وكثرة لحومها وعسلها ومياهها كان بها أكثر من ثلاثة ألاف قرية ،تقع في سفح جبل عال . انظر أبو عبد الله بن عبد المنعم (الحميري)، صفة جزيرة الأندلس-منتحبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2،تحقيق وتعليق ليفي بروفنصال،دار الجيل ، بيروت-لبنان 1988/1408، ص70-71.

[6]. مدينة جليلة بالأندلس ،بينها وبين قرطبة مسيرة ثلاثة أيام،أو ما يعادل ثمانين ميلا، وهي مدينة قديمة أزلية وأصل تسميتها -أشبالي- باللاتينية والتي تعني المدينة المنبسطة وينسب بناؤها إلى يوليوس قيصر الذي جعل منها أم قواعد الأندلس ،الحميريـ،المصدر نفسه، ص19.

طموحه إلى العدوة [1] المغربية، فيضرب دولة الموحدين في عقر دارها، فلم يبق للمسلمين بالأندلس سوى غرناطة[2] التي صمدت خلف حصونها المنيعة ردحا من الزمن تحت حكم بني الأحمر إلى غاية 1492م[3]

عوامل الضعف والسقوط:

إن للدولة أعمارا كما للإنسان كما وسبق أن أشار إلى ذلك ابن خلدون[4]،فهي تمر خلالها بمرحلة الشباب والقوة ثم الضعف والانهيار، والدولة الموحدية لم لم تشذ عن هذه القاعدة، لكن الأسباب التي كانت وراء عملية السقوط كثيرة فهناك من يرجع أسبابها إلى عملية الإقطاع التي منحها الموحدون لبني زيان وبني حفص في المغرب الأوسط والأدنى، وضعف السلاطين بداية من عهد الخليفة الناصر[5]،إذ تولى الحكم بعده سلاطين ضعاف الشخصية،انغمسوا في الملذات وتجاهلوا القاعدة التي تقول

---

[1]. العدوة بكسر العين أو فتحها المكان المرتفع ،قال الليث :العدوة صلابة من شاطئ الوادي ،ويقال عدوة ويقال في التنزيل: إذ انتم بالعدوة الدنيا، وهم بالعدوة القصوى. وقال الفراء: العدوة شاطئ الوادي،الدنيا مما يلي المدينة والقصوى مما يلي مكة ،قال ابن السكيت :عدوة الوادي وعدوته جانب الوادي وحافته والجمع عدى بكسر أو ضم العين .ابن منظور،لسان العرب، دار صادر،ط3، بيروت2004، ج10، ص70و71.

[2]. غرناطة مدينة تقع إلى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة الأيبيرية،خلف الوادي الكبير، تقع بها جبال الثلج، و هضاب البشرات،تخترقها جملة من الأنهار منها نهر شنيل أحد فروع الوادي الكبير،عاصمتها غرناطة،ويرى البعض أن أصل التسمية لاتيني،granata التي تعني الرمانة،لما اشتهرت به من حدائق مليئة بالرمان،ويسميها البعض ومن بينهم ابن سعيد، دمشق الأندلس لاستقرار أهل الشام بها عند دخولهم الأندلس، ولما تحتويه من مياه وأشجار،المقري، نفس المصدر،ج2، ص857.

[3]. في هذه السنة تم طرد المسلمين من آخر معقل لهم ببلاد الأندلس وهو غرناطة مركز وعاصمة دولة بني الأحمر، وفي نفس هذه السنة تم اكتشاف العالم الجديد من طرف الملاح البرتغالي كريستوف كولومبوس ليعتبر هذا التاريخ حدا فاصلا بين العصر الوسيط والحديث.

[4]. يرى ابن خلدون بان دولة تمر كالإنسان بمرحلة النشأة و الشباب ثم الشيخوخة والهرم ثم السقوط والوفاة وان عمرها عمرها يقدر بثلاثة أجيال أي ما يعادل المائة وعشرون عاما، انظر عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص134-135.

[5]. تختلف الروايات حول كيفية وفاته فمنهم من يرى بأنه مات تأسيا على هزيمته في العقاب، ومنهم من يرى بأنه مات مسموما كابن أبي زرع ، وآخرون إلى عضة كلب كالحميري،أو نوبة صرع كابن عذارى المراكشي،أو بسبب سكتة في دماغه،أحدثها ورم أصابه، وكان ذلك يوم الأربعاء 10شعبان 610هـ حسب عبدا لواحد المراكشي،المصدر السابق، ص 236.

بأن الترف مظهر من مظاهر النضج واكتمال قوة الدولة لكنه في نفس الوقت مؤذن بخرابها وزوالها[1]، وهذا ما يعبر عنه عبد الحليم عويس ب-التكاثر المادي- والذي يرى بأنه من بين أهم أسباب سقوط وضياع الأندلس[2]، وهذا مصداقا لقوله تعالى﴿وإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[3]،ومن أمثال أولئك السلاطين، الخليفة يوسف المستنصر[4]، والعادل الذي خالف عليه عرب الخلط سنة 624ه/1227م فبدا من الواضح أنه فقد هيبته وضعفت يداه في القبض على أزّمة الدولة، وهذا ما جعلهم ومشايخهم يفقدون هيبتهم[5].

وهناك أسباب أخرى أكثر تجدرا و لا تقل عنها أهمية وتفاعلت معها لتؤدي إلى تسريع عملية السقوط وهي:

يأتي في مقدمة تلك الأسباب الحرب الصليبية التي أعلنها الأسبان على دولة الموحدين عبر مراحل متعددة والتي تطوع فيها الرجال من دول غربي أوروبا وباركتها الكنيسة والبابا من ايطاليا[6]، إذ نودي كل الناس لشرف الدفاع عن الدين والوطن وهزمهم لجيش الناصر بن المنصور في موقعة حصن العقاب 609 هـ/1212م التي كانت إيذانا

---

[1]. يرى ابن خلدون بأنه يمكن تلافي هذا السقوط السريع وإطالة عمر الدولة وذلك إذا قام صاحب الدولة باتخاذ أجناده من أهل البداوة والخشونة أي من زناتة والعرب واستكثر منهم وترك أهل الدولة المتعودين على الترف فتستجد بذلك الدولة عمرا آخر سالما من الهرم، عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان2001، ص 465 -468-469.

[2].عبد الحليم عويس، التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس،ط1،دار الصحوة للنشر والتوزيع،القاهرة،1994م، صص30-31.

[3]. سورة الإسراء،الآية 16.

[4]. روجي لي تورنو ،حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر،ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب 1982، ص115.

[5]. من مظاهر فقدان الهيبة إن خلفاء الموحدين أصبحوا عرضة للاغتيالات ،ومن ذلك الخليفة العادل الذي دخلوا عليه قصره وقبضوا عليه ثم قتلوه بعد أربعة عشرة يوما من خلعه، انظر، ابن القطان المراكشي،نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، ط1، تحقيق محمود علي مكي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان،1990،ص24.

[6]. *Victor Duruy, histoire du moyen Age-depuis la chute de l empire de l occident jusqu'au milieu du Xv siècle ; 13 édition, librairie hachette, Paris 1890 , p516.*

ببداية النهاية لهذه الدولة في بلاد الأندلس، وكانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير،فلم يعد للموحدين القدرة على المواجهة أو رد الاعتداءات الخارجية لما صحب ذلك من انهيار للروح العسكرية.

إن الوهن الذي بلغته الدولة الموحدية كان سببا في تعرضها إلى التمرد من قبل فئات وقبائل أخرى وحرك أطماع بعض الأمم النصرانية[1]، لتدخل في حلبة المعارك على امتداد أكثر من خمسين سنة، مثل ثورة مدينة قفصه في تونس 575ه/1178مـ بزعامة علي بن المعز،المعروف ب-الطويل-[2] في أعقاب ثورة قبائل الهلاليين في تونس وغيرها، ثم ثورة الجريد وعماله، الأمر الذي أرهب الخليفة يوسف واضطره إلى الانتقال من مراكش لقمعها بنفسه[3]، كما تفاقمت الأحداث في شرق الأندلس عندما ثار محمد بن مردنيش فنازل مدينة جيان وخضع له واليها محمد بن علي الكومي، ليتجه بعدها لمنازلة قرطبة التي استعصت عليه فرحل عنها[4]، أما غانم بن مردنيش الذي كان قد عينه عبد المؤمن في حياته قائدا لأسطول الموحدين فاستولى على بلنسية[5] و مرسية وتحالف مع القشتاليين لدعم ثورته، فتمكن من مهاجمة قرمونة[6] وهدد قرطبة بالاحتلال، و استفحل شره بعد وفاة عبد المؤمن إذ وجد ابنه يوسف نفسه بين نارين: نار الفتن التي اندلعت في إفريقيا وثورة غانم بن مردنيش في الأندلس فاضطر إلى عقد تحالف مع القشتاليين ليتمكن

[1]. مثل أدفونش بن شانجة (ألفونصو بن سانشو) الذي نازل قرطبة وشن الغارات على جهات مالقة ورندة وغرناطة ،ثم نزل أستجة وتغلب على حصن شنغيلة وأسكن بها النصارى ،انظر عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج6، ص324.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون، ج6، ص323.

[3]. نفسه، ج6، ص323

[4]. نفسه، ج6، ص318.

[5]. مدينة تقع في شرق الأندلس،بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ستة عشر يوما ،وهي مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس وامتازت بأسواقها وكثرة تجاراتها وهي تبعد عن البحر بثلاثة أميال .انظر الحميري،المصدر السابق،ص47.

[6]. مدينة بالأندلس في الشرق من اشبيلية بينها وبين أستجه خمسة وأربعون ميلا وهي مدينة كبيرة قديمة وأصل الكلمة لاتيني ((كارب موية)) التي تعني صديقي،الحميري،المصدر السابق، ص158.

من محاصرته فثار محمد بن سعد بن مردنيش داعيا إلى تحرير الأندلس من حكم الموحدين فاستولى على وادي آش وغرناطة بمساعدة صهر ابن همشك [1].

إن اتساع الدولة الموحدية وافتقارها إلى نظام قوي يسيطر على جماعة سياسية متناثرة تحت سلطة مركزية من جهة، وبعد العاصمة مراكش عن شمال إفريقيا والأندلس من جهة أخرى جعل مهمة التحكم في تلك الأجزاء شيئا صعبا، خاصة في ظل انعدام الثقة بين الحكام والرعية،وهذا حسب رأينا ما أصبح قاعدة تاريخية لا تشذ عنها دولة توافرت فيها نفس تلك المواصفات أو الشروط[2].

ويرى حاجيات عبد الحميد، أن أهم سبب في ذلك هو الهزيمة التي مني بها الجيش في معركة العقاب، التي لم تكن حتما نهاية لهذه الدولة، لكنها فككت أوصالها وصدعت الصرح الذي شيده عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه وتأزم الوضع بين السادة والأشياخ الذين مثلوا القبائل المناصرة للدعوة الموحدية[3]، ولقد كان تخاذل وتقاعس الجيش عن أداء مهامه المنوطة به سببا فيها،خاصة على عهد الخليفة الناصر،إذ بوفاة الخليفة أبي يعقوب يوسف انقطع العطاء الذي كان يجزل به للجند كل أربعة أشهر، فيذكر المراكشي أن الجيش خرج إلى معركة العقاب وهو محبط، فوصل الأمر ببعض أفراده لحد أنهم لم يسلوا سيفا ولم يشرعوا رمحا[4].

أما محمد الهادي الشريف فيرى بأن الظلم والاستبداد الذي تعرض له سكان افريقية من طرف الموحدين الذين عاملوهم بجفاء من خلال إخضاع جميع الأراضي التي

---

[1]. نجيب زبيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس، ط1، تقديم احمد بن سوده، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1415ه / 1995م، ج2، ص349-350.

[2]. من ذلك الإمبراطورية العثمانية والبريطانية والفرنسية والروسية التي اشتركت كلها في المساحة الشاسعة إضافة إلى أنها ضمت أجناسا وقوميات مختلفة أرادت إخضاعها في بوتقة واحدة تتماشى مع أهدافها وسياستها.

[3]. حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الثاني، حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1983،ص11.

[4]. المراكشي عبد الواحد ، المصدر السابق، ص235.انظر أيضا الحميري، المصدر السابق، ص137-138.

سيطروا عليها لضريبة الخراج[1] –تلك الضريبة التي لم يكن يدفعها حسب رأيه سوى الكفار– ،جعل سكان افريقية يعملون على التخلص من حكمهم الاستبدادي[2].

وما زاد الطين بلة وعمّق أسباب الزوال هو ضعف أمر حكام هذه الدولة لما كان بينهم من الفرقة [3] نتيجة لصغر سنهم[4] وانصرافهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية[5]، فلم يعد هناك اهتمام بالنظم والمؤسسات، واستأثر ذوي قرباهم بالنفوذ، واستقلالهم من أجل مصالحهم الخاصة مما ساعد على ازدياد حدة الثورات الداخلية التي لاحقت الخلفاء الموحدين، كثورة والي مرسية –أبي عبد الله محمد– الذي أعلن عن نفسه خليفة وتلقب بلقب العادل، مما اضطرهم إلى حكم استبدادي قائم على القتل وسفك الدماء، ومن ثم سارت الأمور على هذا النحو من الضعف الذي أدى إلى نهاية الدولة بالصورة التي انتهت إليها، فكان ضعف السلطة الموحدية في المحافظة على الدولة في المغرب والأندلس

---

[1]. هي نسبة من المال تؤخذ على الأراضي التي فتحها المسلمون ووزعت عليهم تقسيما كتقسيم الغنائم،فعلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب حينما فتح المسلمون أرض العراق فرأى بان لا تقسم بين المسلمين وتبقى بأيدي أصحابها على إن يدفعوا مقابل ذلك الخراج.

[2]. يبدو أن التاريخ يعيد نفسه فعلا فهذا الجور والتمييز بين المسلمين حدث مع بني أمية حينما خمسوا البربر ووضعوا إشارات على أكتافهم تمييزا لهم عن العرب الأمر الذي ساعد على انتشار المذاهب الخارجية واعتناق أهل بلاد المغرب لها، انظر موسى لقبال،المغرب الاسلامي –منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج–،سياسة ونظم.ط2،المؤسسة الوطنية للكتاب،1984م،ص107–108.

[3]. التنسي محمد بن عبد الله، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ،تحقيق وتعليق محمود بوعياد، ص 112.

[4]. فقد بويع الخليفة المستنصر وهو طفل لم يبلغ الحلم إذ كان عمره آنذاك لا يتجاوز السادسة، انظر،عبد الرحمن بن خلدون،العبر،ج6،ص337.انظر ايضا، ابن عذارى المراكشي،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ط1، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني محمد بن تاويت محمد زنيبر عبد القادر زمامة، دار الغرب الاسلامي، بيروت –لبنان– 1406ه/1985م ،قسم الموحدين، ص265.

[5]. من مظاهر ذلك انشقاق البيت المالك على نفسه إذ تحارب أهله فيما بينهم واستنجدوا بالعدو الذي كان يتربص بهم الدوائر مثل الخليفة العادل الذي تحالف مع مملكة قشتالة ضد أخيه المأمون وسلمه جملة من الأراضي الأندلسية، وكذا البياسي الذي أعلن اعتناقه للنصرانية والذي قال فيه صاحب:هذا موحدي آخر يعلن تنصره في مشهد حافل بحضور ألفونصو العاشر ملك قشتالة وقد قال في ذلك الحفل ((أشهدكم يا من حضر من المسلمين والنصارى واليهود أنني قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة وكنت اكتمه وأنا الآن أبحته وأظهرته وأن دين المسيح بن مريم هو الدين القويم =الأزلي)) وهذا مأدى إلى قيام الرعية عليه وقتله وبعث رأسه الى اشبيلية، انظر ابن عذارى المراكشي،المصدر السابق،قسم الموحدين، صص270– 272–273.

قد أدى إلى ظهور هذه الزعامات المحلية التي استقلت في أماكنها بالمغرب وأقامت دولا لعبت دورا لا يماثل الدولة الموحدة الواحدة[1].

كان من نتائج الصراع على العرش أن تقلصت أراضي الدولة وقلت دور الصناعة وجاءت الطامة الكبرى على الأسطول الموحدي لما خرجت سبتة قاعدة الأسطول من أيدي خلفاء مراكش منذ أن ثار السيد أبو موسى أخو المأمون عليه سنة 627ه/1230م ولحقتها بجاية التي ضمها الحفصيون سنة 629ه/1232م بعد أن استقلوا بافريقية في العام نفسه، ولا شك أن ضعف السلطة المركزية كان العامل الحاسم في انهيار الأسطول لأنه كان تابعا للخليفة رأسا.

وحسب رأينا الخاص فإن أهم عامل كان وراء عملية السقوط هو قيام هذه الدولة على فكرة دينية ضيقة، سرعان ما تبلورت لتأخذ بعدا سياسيا إضافة إلى عدم ارتقائها لمستوى سياسي عال، في ظل التكافل الأوروبي الصليبي الذي واكب ذلك، وتحولها إلى ارستقراطية وراثية تغلب فيها المنفعة الخاصة، وتوضع فوق مصلحة الدولة.
وهذا ما يخالف تماما الأسس التي جاء بها ابن تومرت، ورحب بها البربر وأفضت إلى تشييدها، فكانت في أمس الحاجة إلى رئيس مثله قادر على أن يعيدها إلى قوتها السابقة[2].

امتد وجود الدولة الموحدية لأكثر من مائة وخمسين عاما، لكن هذه الفترة الطويلة كانت مليئة بالحروب، إذ قضت خمسين سنة في محاربة دولة المرابطين قصد الحلول محلها في بلاد المغرب الأقصى والأندلس، فلم يشمل عهد الازدهار إلا عهود عبد المؤمن وأبي يعقوب والمنصور والناصر، وهو في حده لم يكن سالما من الاضطرابات والانتفاضات سواء في الأندلس أو في بلاد المغرب، كما أن وقوع الخلفاء الموحدين في فخ الخطأ بخروجهم عن المثل العليا للدولة الموحدية التي ينتسبون إليها صرف الناس

---

[1].عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة 1994، المجلد 3،ج5و6، ص17.

[2]. روجي لي تورنو، المرجع السابق، ص102.

والأنصار عن مآزرتهم والدفاع عنهم، كما أنهم لم يكونوا متزعمين لقبيلة تؤمن بتلك الدعوة ففقدوا بذلك أهم عنصر ومقوم للملك وهو العصبية الدموية كما نظّر لذلك ابن خلدون[1].

2/ظهور الإمارات المغاربية:

شجع ضعف الموحدين وسياستهم التي لم يعد مرغوبا فيها من بعض القبائل البربرية على إزالة ملكهم والحلول محلهم، ففي الوقت الذي بدأت تظهر فيه أعراض الضعف والاضمحلال على دولتهم ،كانت هناك حركة عكسية تتجه نحو تأسيس ممالك و إمارات على حساب أراضيها، ثم تعمل فيما بعد على التوسع على حساب القوى الأخرى لأن كل منها لم تكن تعترف بالأخرى وترى نفسها الأجدر بالخلافة.

أ-الدولة الحفصية:

إن اتساع الدولة الموحدية من جهة وضعفها وعدم قدرتها على السيطرة على مجريات الأمور من جهة أخرى أسهم بشكل كبير في تقسيمها ومن ثمة أفولها، إذ أن ما كان يقوم به بنو غانية[2]حكام الجزر الشرقية (البليار) من تهديد لممتلكاتها بالإغارة على افريقية وتونس وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي[3] كما فعل أسلافهم المرابطون[1]،

---

[1]. محمد العروسي المطوي،السلطنة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1406ه/1986م، ص75-76.

[2]. تعود أصول هذه التسمية إلى يحيى المسوفي الذي كان مقدما عند يوسف بن تاشفين لمكانته في بني قومه وكان قد زوجه امرأة من أهل بيته تسمى غانية فولدت له محمدا ويحيى الذين نشآ في ظل يوسف بن تاشفين وكفالته.انظر، ابن الخطيب لسان الدين،الإحاطة في أخبار غرناطة،ط1،تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1397ه-1977م، ج4، ص344.

[3]. يرى المطوي العروسي بأن العوامل التي شجعت ودفعت علي بن غانية في الثورة على السلطة الموحدية لم تكن كلها مغربية أو افريقية بل إن هناك عامل خارجي تمثل في قدوم الغز الأتراك من البلاد المصرية واستيلائهم على قسم كبير من افريقية سواء في طرابلس الغرب أو في الجنوب التونسي بقيادة قراقوش الأرميني، انظر محمد المطوي العروسي، المرجع السابق، ص17.

متبعين في ذلك أسلوب الأرض المحروقة[2]، جعل هذه الإمبراطورية المتهالكة تعزم أكثر على الحفاظ على ما تبقى من ممتلكاتها والظهور بمظهر القوي أمام باقي الحركات الانفصالية وذلك بخضد وكسر شوكة يحيى بن أبي إسحاق بن غانية المنورقي زعيم الحركة، فرأى الخليفة الموحدي أبو عبد الله الناصر لدين الله ابن المنصور (595ه/1199م-611ه/1214م) أن يضع أكبر رجال دولته - أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص- شيخ قبيلة هنتاتة[3] واليا على افريقية[4]، هذا الأخير الذي تمتع باستقلالية كبيرة في ذلك الجزء الهام من الإمبراطورية،

فبدأ عمله بالانتصار الكبير الذي أحرزه على يحيى بن غانية في إقليم الزاب[5]عام 604هـ/1207م، والذي كان في الواقع إنهاء لدولة بني غانية وعرب بني هلال في

---

[1]. ومن ذلك محاولة عبد الله بن غانية السيطرة على جزيرة يابسة من أيدي الموحدين سنة 596هـ/1200م لكن الأسطول الموحدي استردها منهم بعد الاشتباك معهم في معركة بحرية، كما استعادوا مدينة تونس والمهدية من بني غانية وأحلافهم من عرب بني هلال .

[2]. يقول ابن الأثير في هذا ((وقد اعتمد -ابن غانية- كل مفسد في الأرض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحرم وقطعوا الأشجار))،انظر ابن الأثير،الكامل في التاريخ،ج11، ص520.

[3]. كان آنذاك عميد شيوخ الموحدين وأعلاهم مرتبة ومكانة وكانت له بالناصر صلة نسب وثيق إذ كان متزوجا بأخته ابنة يعقوب المنصور ،انظر عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس،عصر المرابطين والموحدين، ط2،مكتبة الخانجي -القاهرة1411ه/1990م،ج2،ص270.وربما يعود السبب في هذا التعيين إلى مرتبته في البلاط الموحدي فبتعيينه يتم إبعاده عن حاشية البلاط الموحدي حتى يخلو لها الجو،انظر المطوي العروسي،المرجع السابق، ص98.

[4]. إفريقية أي صاحبة السماء،وقال آخرون سمية بهذا الاسم لأن افريقس بن أبرهة بن الرايش غزى نحو الغرب حتى انتهى الى طنجةفي أرض بربر وهو الذي بنى افريقية وباسمه سميت ،وقيل نسبة الى افريق بن ابراهيم عليه السلام من زوجته الثانية ....وحد افريقية طولها من برقة شرقا الى طنجة الخضراء غربا وعرضها من البحر الى الرمال التي في أول بلاد =السودان. انظر أبي عبيد (البكري) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الاسلامي ،القاهرة ، دت، ص21.

[5]. الزاب كلمة ،أي الشيء الجاري أو انسل هاربا ،وهو أيضا اسم لملك قديم من ملوك الفرس هو زاب بن توركان بن منوشهر حفر عدة حفر بالعراق سميت باسمه،وبالتالي فهناك زوابي عدة منها زابيا العراق الأسفل والأعلى،أما الزاب المقصود هنا فهو الزاب الكبير الذي منه بسكرة وتوزر و قسنطينة و طولقة و ققصة ونفزاوة و نفطة و بادس،والقال الأصم المنورقي الزاب أيضا كورة صغيرة يقال لها ريغ وهي كلمة بربرية معناها السبخة ،و الزاب أيضا كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان و سجلماسة.انظر

افريقية والمغرب الأوسط، وتثبيتا لأقدام أبن أبي حفص، فبدأت بذلك ملامح انقسام دولة الموحدين إلى قسمين و ظهور دولة جديدة.

لقد رأى أن استمرار نفوذ الموحدين في افريقية لن يثبت إلا بالاستيلاء على جزر البليار باعتبارها قاعدة لبني غانية ومصدرا متاعبها، فنجح أسطوله في السيطرة على هذه الجزر وقبض على –ابن غانية– وأرسل به إلى مراكش، ثم بدأ في تتبع آثار بني غانية في افريقية ليتحرك بجيشه سنة 601ه/1204م نحو افريقية فيستولى على تونس والمهدية، ويفر يحيى بن غانية وأهله إلى صحراء برقة[1] وينقطع خبره بعدها[2]،حينها قرر الخليفة أي بعد أن أفاء على افريقية ظل الرضا وضرب عليهم سرادق الحماية على حد تعبير ابن خلدون[3]، وضع رجل يسد فيه مسد الخلافة ويقيم بها شؤون الملك، فوقع اختياره على أحد أقربائه وهو الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي[4] نظرا للأهمية التي كانت له ولأبيه في دولة بني عبد المؤمن، ونظرا لأن أباه المنصور كان قد أوصاه به وبإخوته[5]،لإدارة افريقية بعد رجوعه إلى المغرب –مراكش–لأنه ورغم كل ذلك كان يخشى أن يخالفه ابن غانية إلى افريقية وأن مراكش بعيدة عنها وبذلك يتطلب الأمر جهدا

الحموي(أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان1397ه/1977م،ص124.أما لدى الوزان فهو يمتد من تخوم المسيلة غربا حتى بلاد الجريد بتونس شرقا،ومن جبال بجاية شمالا حتى تقرت وورقلة جنوبا،أهم مناطقه ومدنه بسكرة وطولقة المشهورتان بتمرهما. الوزان (الحسن بن محمد الفاسي)،وصف إفريقيا،ط2، ترجمة محمد حجي،ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان–1983م، ج 2، ص138 و ما يليها.

[1]. برقة بفتح أوله والقاف اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وافريقية، واسم مدينتها إنطابلس وتفسيره الخمس مدن ،وهي أرض ذات خيرات واسعة ،انظر،ياقوت الحموي،المصدر السابق، ص388–389 .

[2]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج6،ص373.

[3]. نفسه،ج6، ص373– 374.

[4]. نسبة إلى قبيلة هنتاتة، التي تسمت باسم جدهم هنتات بلسان المصامدة، انظر عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج6،ص370– 371.وحول أمر التولية وحيثياتها انظر التجاني(أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد)،رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب،الدار العربية للكتاب، ليبيا–تونس،1981م.ص362.

[5]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج6، ص374

ووقتا لنجدتها إن استصرخته[1]، ورغم رفض هذا الأخير إلا أن الناصر ألح في طلبه وأرسل إليه بابنه يوسف فاستجاب لطلبه شريطة التحاقه بالمغرب بعد ثلاث سنوات يتم فيها ترتيب أمور افريقية[2]، فقعد مقعد الإمارة بقصبة تونس في السبت العاشر من شوال سنة 603هـ/1206مـ.

إذن مثلت هذه التولية بداية لقيام ولاية مستقلة في افريقية تتمتع باستقلال تام بعيدا عن سيطرة الدولة المركزية في مراكش، فكانت بذلك سليلة هذه الدولة بانتمائها لها انتماء عضويا –أي بانتساب الحفصيين إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن محمد بن الهنتاتي–[3]كما كان أبو حفص كان أحد العشرة المقربين من المهدي، ومن بين الأوائل الذين بايعوه من قومه[4].

وبالقضاء على آخر فرصة لبني غانية، أراد عبد الواحد بن أبي حفص العودة إلى مراكش وإنهاء مهامه في افريقية إلا أن الناصر ألح على بقائه ومواصلة مهامه فرضخ للأمر دون أن يظهر عليه ما يدل على رغبته أو نيته في الانتقاض أو شق عصا الطاعة عن السلطة المركزية[5]، وبوفاة أبي محمد عبد الواحد621هـ/1224م والذي خلفه ابنه أبو عبد الله أبي حفص والذي أصدر في حقه أبو العلاء إدريس المأمون[6]،أمرا بإقامته بإقامته واليا على افريقية وحصر ذلك في أهل بيته، فسار إلى تونس مع أخويه أبي زكريا يحيى وأبي عبد الله اللحياني، فكان ذلك التاريخ إيذانا بميلاد الدولة الحفصية واتخاذ بني حفص لتونس عاصمة لها،بينما كان أبو زكريا يحي أول من استقل بافريقية.

---

[1].عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج6، ص374.

[2]. نفسه،ج6، ص374

[3]. ينتهي نسب الحفصيين إلى محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الحطاب رضي الله عنه. انظر عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص371.

[4]. انظر عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق، ج6، ص370.

[5]. محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 101.

[6]. تاسع خلفاء الموحدين (626–629هـ/1229–1232م) –والذي كان قد بعث به إلى تونس للإقامة فيها إلى جانب عبد عبد الواحد بن أبي حفص ليكون رقيبا عليه.

ب/الدولة الزيانية :

بالمقابل كان بنو زيان الذين استوطنوا نواحي تلمسان[1] في العشر الثـاني من المائة السادسة بعدما قضوا مدة من الزمان في الصحراء يعيشـون عيشـة الرحـل وينتجعون المراعى الممتدة من سجلماسة إلى زاب إفريقيا[2]، وقـدتم ذلـك علـى عهـد الموحدين، إذ دخلوا في خدمتهم وحكموا بعض تلك المناطق باسمهم[3]، مكافأة لهـم علـى منعهم سقوط هذه المدينة في أيدي بني غانية،إذن فقد دخل بنو عبد الواد المغرب الأوسـط في غضون الاندفاع الزناتي العام على بلاد المغربين الأوسط والأقصى نتيجـة ضـعف صنهاجة ومصمودة وفراغ البلاد ممن يحميها من الغزاة[4]، وبما أن الحفصيين كـانوا قـد سبقوهم بالانفصال وتكوين إمارتهم التي بسطت سلطانها على شرقي المغـرب الأوسـط واحتلوا بجاية وإقليم الزاب ووصلوا بحدودهم الى المجرى الأعلى لنهر الشلف، وبما أن بقية المغرب الأوسط من مصب نهر الشلف الى مجرى نهر الملوية وقاعدته تلمسان بقـي منطقة فراغ فقد استقرت وتوسعت به مجموعة قبائل بني عبد الواد أو بني زيان[5]، والواقع

---

[1]. هناك مجموعة من الشروح بخصوص أصلها فحسب ابن خلدون أن ((اسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين تلم وسين ومعناها تجمع من اثنين ،يعنون إلى البر والبحر)) المصدر السابق،ج7، ص156-157.وهناك من يرى بأنها كلمة تعني الجمع بين التل والصحراء كيحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات،المكتبة الوطنية،الجزائر1400هـ-1980م، ج1،ص85. كما يورد تفسيرا آخر وهو أنها اسم علم مركب من تل التي تعني لها وشان التي تعني شأن أي لها شأن، نفسه ص85، ونلاحظ أن كلا التعليلين السابقين يصبان في نفس الاتجاه إذ نجد تلمسان تتوسط الصحراء والتل معا.

[2]. يحيى بن خلدون، المصدر السابق،ج1، ص 104-186.

[3].ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان،ط1، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية-مصر،1421-2001، ص10،انظر أيضا يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر،المؤسسة الوطنية للمطبوعات الوطنية الجزائرية،1965م، ص125، انظر أيضا أندري فرنيان،أندري نوشي و ايف لاكوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح اسطنبولي ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1984، صص113-114.

[4]. ابن الأحمر، المصدر السابق، ص10.

[5]. نفسه، ص10، نلاحظ هنا أن ابن الأحمر يستخف بهذا الفصيل البربري ويتجاهل مجهوده في توطيد نفوذه بالمنطقة.

والواقع أن الخليفة أبو العلاء إدريس الموحدي المأمون عقد لهم على تلمسان[1] ليتولاها "جابر بن يوسف" فحصنوها لتصبح إقطاعا ثابتا لهم[2]،فأخذ اسمهم وشأنهم يعلو،إذ عمل هذا الأخير على إخضاع بطون قبيلة بني عبد الوادي فقتل خلال محاصرته لمدينة ندرومة الواقعة إلى الشمال من مدينة تلمسان التي أبت الانضواء تحت لوائه ،وذلك بعد ثلاث سنوات من امرته629هـ/1231-1232م [3] .

خلف الحسن بن حيون أباه لكنه سرعان ما تنازل عنها أي بعد ستة أشهر حسب صاحب البغية[4] لعمه عثمان بن يوسف وذلك لكبر سنه، فاستبد بأمور المملكة ليعزل ويولى أبو عزة زجدان بن زيان[5]خلفا له وبإجماع من بني عبد الواد، واستطاع إخضاع كل البطون المتواجدة بتلمسان، باستثناء بني مطهر أبناء عمومتهم الذين نكثوا عنه[6]،وهذا ما دفعه لمقاتلتهم مع حلفائهم من بني راشد، وبعد معارك عدة قتل سنة633هـ/1235م ، فقدم بنو عبد الوادي أخاه يغمراسن بن زيان عن طريق البيعة،كملك مستقل عن الموحدين ((استبد بالأمر عليهم وتحلى بحلية الملك وجرى على مرتبته، ولم يبق عليهم غير الدعاء على المنابر))[7].

---

[1]. كانت تلمسان قبل يغمراسن تتكون من بلدتين: تلمسان وهي الحصن أوالقصبة، وتاجرارت، وكانت فيها مساكن الناس فضم يغمراسن الاثنتين إحداهما إلى الأخرى وحصنهما معا وجعل تلمسان الجديدة هذه قاعدة المغرب الأوسط كله، انظر،ابن الأحمر، المصدر السابق، ص10.

[2]. ابن خلدون يحيى،المصدر السابق،ص198،انظر أيضا، ابن الأحمر،المصدر السابق،ص10.

[3]. التنسي،المصدر السابق ،ص113.

[4]. ابن خلدون يحيى،المصدر السابق،ص200.

[5]. نجد هذه التسمية لدى التنسي في كتابه نظم الدر،ولدى يحيي بن خلدون في كتابه البغية،ج1 ص200. بينما يخالفهم عبد الرحمن بن خلدون في ذلك فيذكره ب :زكران بن زيان بن ثابت الملقب بأبي عزة.المصدر السابق،ج7،ص153.

[6]. التنسي، المصدر السابق، ص113.

[7]. أحمد بن عبد الله القلقشندى، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج،ط2،مطبعة حكومة الكويت، 1985، ج2،صص101- 102.

بتعيين بني عبد الواد ليغمراسن،تكون قد نحتت لهم إمارة كبيرة، قامت في تاريخ المغرب بدور كبير،ب عد أن انشأ لتلمسان القوة الاقتصادية بسياسته الذكية والماهرة[1]((إذ كان من أشد الحي بأسا وأعظمهم في النفوس مهابة وجلالة وأعلمهم بمصالح قبيلته وأقواهم كاهلا على حمل الملك واضطلاعا بالتدابير والرياسة))[2]وهذه حسب رأينا الخصال التي يتوجب توفرها في أمير يحكم قبيلا بربريا تغلب عليه صفة الجموح والتحرر، والعداء المستمر مع القبائل المجاورة والرافضة للخضوع والاعتراف بسلطتهم.

إن المتتبع لتاريخ الدولة الزيانية يدرك بأنها مثلت ببقائها واستمرارها معجزة تاريخية، نظرا لما واجهته من أخطار وعلى مستويات عدة، فكان موقعها الجغرافي والسياسي حساسا، بوقوعها بين دولتين كلاهما تدعي لنفسها شرعية وأحقية خلافة الدولة المؤمنية،وخاصة الدولة الحفصية أشد الطامعين في السيادة على تلمسان وإزالة بني عبد الواد منها أول الأمر[3] لأن مؤسسيها كانوا يرون أنفسهم الوريث العضوي للموحدين،لأنهم ينحدرون من أبي حفص الهنتاتي أحد العشرة المقربين من ابن تومرت والذي توارث أبناءه حكم افريقية في خدمة أبناء عبد المؤمن، ليستخلصوه لأنفسهم فيما بعد[4] وكأني بها وقعت بين فكي كماشة،أو بين شفتي الرحى كما يحلو للكثير وصف وضعها هذا.

لم يكد يغمراسن يستقر في البلد ويقيم إمارته فيها سنة 1235م حتى هاجمه أبو زكريا الحفصي طامعا في البلد سنة 1242م، لكنه تمكن من رد هذه الغارة، ليوالي أمراء بني مرين المحاولات من جهتهم لإخضاع تلمسان دون توفيق[5]،ولو أن يغمراسن هو الذي

---

1. حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ،العصر الحديث للنشر والتوزيع، المجلد الثاني،ج3، ص134-135.

2. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص162.

3. ابن الأحمر، المصدر السابق، ص17.

4. سليمان عشيراتي ،الشخصية الجزائرية،الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص149.

5. ابن الأحمر،المصدر السابق، ص18.

الذي كان البادئ بالعدوان والتحرش ضد المرينيين وممتلكاتهم، وذلك من خلال إقحام نفسه في الصراع الدائر بين يعقوب بن عبد الحق المريني وبين أبي دبوس خليفة الموحدين الذي كاتب يغمراسن يستعين به ضده فسارع إلى الاستجابة لهذا الطلب[1].

كان هدف يغمراسن من وراء ذلك هو إثبات وجوده أمام من تجاهله واستصغره هو وإمارته –أي المرينيين والحفصيين–وفي نفس الوقت استغلال فرصة وجود الحليف لإضعاف قوة بني مرين الطامعة في أرضه ومملكته[2]، لكن العكس هو ما حدث لأن يعقوب المريني ترك حصار مراكش واتجه إلى فاس ليهيأ جيشا ويتجه به الى تلمسان في منتصف محرم سنة 666ه/1267م مارا بأكرسيف ثم على تافرطاست ليلتقي الطرفان عند وادي تلاغ[3]، وحسب الناصري فان المعركة كانت طاحنة وعنيفة بين الطرفين لأن كلاهما كان يرى في الانتصار على الغريم نقطة ارتكاز ودفع لبلوغ الهدف أي الظهور بمظهر القوي من طرف بني عبد الواد والحفاظ على المملكة من الهجمات المرينية على الحدود الغربية، واثبات القوة وتقصير المسافة في إخضاع المملكة من قبل المرينيين، ومما يدل على مصيرية المعركة أن ((النساء برزن في القباب سافرات على سبيل التحرش والتحريض))[4].

التحم الجيشان يوم الاثنين 12جمادى الثانية 666ه/يناير 1267م، وكان النصر حليف بني مرين وكانت الخسارة كبيرة لبني زيان إذ فقد يغمراسن أكبر أولاده وولي

---

[1]. الناصري السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ط1، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،المغرب1997م،ج3،ص25، انظر أيضا،ابن الأحمر،المصدر السابق، ص18.

[2]. في هذه الفترة كان بنو مرين قد سيطروا على حوض نهر سبو وممر تازا المؤدي إلى بلاده ولهذا أراد بذلك التحالف كبح جماح هذا التقدم وتأخيره.

[3]. الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج3،صص25–26.

[4]. نفسه، ج3، ص26.

عهده أبو حفص عمر بن يغمراسن وقتل الكثير من رجاله لكنه ومع ذلك أبدى صبرا وجلدا وواصل قيادة جيشه المنهزم حاميا لظهره إلى أن بلغ بسائط تلمسان[1].

رغم كل ما كابدته هذه الدولة من محن وحروب وحصار بسبب موقعها، إلا أن ابن الأحمر يرى أن قيامها لا يرجع إلى مهارة منشئيها -بنو زيان-،بل يرجع إلى ضربة الحظ التي ساقتهم إلى تلمسان، وأن استمرارها -لمدة حوالي ثلاثة قرون -لا يرجع إلى صلابة بنيان الأسرة التي أقامتها ومن أيدها من الأسر الزنّاتية، بقدر ما يرجع إلى حصانة موقع المدينة تلمسان وقدرته على مقاومة عوامل الانهيار[2].

فكما أوضحنا سابقا، فقد ارتبط مصطلح المغرب الأوسط بالدولة الزيانية لكننا إذا تتبعناها تاريخها فلا نجدها قد أخضعته كلية إلا في فترة وجيزة من الزمن، وذلك في عهد أبي حمو موسى الأول الذي استطاعت قواته الوصول إلى إقليم 1 (710ه/ـ1309م) ودفع نفوذ الحفصيين إلى الوراء، ثم يواصل زحفه فيستولى على مدينة دلس[3] والجزائر[4] ومتيجة حتى وصل إلى أزفون الحالية،وافتك بجاية و قسنطينة من الحفصيين سنة729هـ/1328م[5]، وتكون بذلك قد بلغت أوج امتدادها.

---

[1]. الناصري السلاوي،المصدر السابق، ج3، ص26.

[2]. ابن الأحمر،المصدر السابق، ص15.

[3]. أو تدلس وتبعد بحوالي 50 ميلا عن شاطئ البحر المتوسط ،اشتهر أهلها بالصباغة والعزف على العود، كما اشتهرت بغزارة إنتاجها للقمح ،انظر الوزان،المصدر السابق،ج2،ص42.

[4]. جزائر بني مزغنة أو مزغنا أو مزغنان أو مزغناي هي منطقة الجزائر ،عاصمة الجمهورية الجزائرية الحالية،وفي كل هذه الأسماء فتح الميم،ومز غنى اسم لقبيلة بربرية سكنت هذه المنطقة في القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي، وهي بطن من بطون صنهاجة .من كتاب نور الدين عبد القادر،صفحات في تاريخ الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العصر التركي، طبعة قسنطينة 1965، ص31،.أما عن أصل التسمية فنجد يحي بوعزيز يرجح الرواية التي ترجعها إلى صخور كبيرة متقاربة تشبه الجزر في شكلها ووضعها الطبيعي ومنها الصخرة التي بنا عليها الأسبان قلعتهم المشهورة سنة1510م، يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص13، أما الوزان فيرى بأن سبب التسمية هو مجاورة هذه المدينة لجزر البليار،لكنه يتفق مع الآخرين في أن قبيلة تدعى مزغنة هي التي بنتها،الوزان، المصدر السابق،ج2، ص37.

[5]. يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص127.

لم تلبث هذه الإمارة أن وقعت في أيدي بني مرين، الذين استولوا عليها مدينة بعد أخرى، ودخلوا تلمسان سنة 737هـ/1337م على عهد السلطان أبي تاشفين،واحتفظوا بها قرابة قرن من الزمن،حتى دبت فيها الحياة من جديد، إذ استغل بنو زيان تواجد الأمير المغربي أبو الحسن بالقيروان عام 749هـ /1348م ليخضعوا ندرومة ومازونة[1] ومليانة[2]
والمدية[3] وتنس[4] وبرشك[5] ودلس وشرشال[6] والجزائر التي سيطروا عليها وقتلوا الأمير أبو أبو سعيد وأبو ثابت، ليعيد أبو حمو موسى الثاني بعثها باسم إمارة بني زيان سنة 760هـ/1358م مستعينا ببني حفص .

---

[1]. مازونة مدينة صغيرة على بعد نحو 60 كلم غربي مدينة الشلف الحالية، تم اختطاطها سنة 565هـ على يد بني منديل ابن عبد الرحمن المغراوي احد زعماء قبيلة مغراوة وكانت على عهد الإدريسي مدينة آهلة وعامرة بالأسواق والبساتين،وتجري بها العديد من الأنهار ،أنظر،الوزان ،المصدر السابق، ج2،ص 36.

[2]. مدينة كبيرة جدا حسب وصف الحسن الوزان لها بناها الرومان، تقع على بعد نحو أربعين ميلا من البحر أي عن مدينة شرشال، اشتهرت بإنتاجها للجوز لدرجة أنه كان لا يشترى ولا يقتطف،أطلق عليها الرومان اسم ماكنانة وحوله العرب إلى اسمها الحالي،انظر الوزان، المصدر السابق، صص34-35، انظر أيضا، ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج2،ص48، الإدريسي، المصدر السابق،ج1،ص253، 257.

[3]. مدينة تقع على بعد 80 كلم جنوب الجزائر العاصمة وهي أهم مدن ولاية التيطري أما " لمدية"بدون ألف فهي حسب ابن خلدون قبيل من بطون صنهاجة ،سميت البلد باسمهم ، العبر،ج 6ص356.انظر أيضا ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج5،ص53.

[4]. تنس مدينة قديمة قربة من البحر اشتهر سكانها قديما بفضاضتهم وغلظتهم وكانت في تاريخها كله خاضعة لملك تلمسان وهي في الأصل مستودع تجاري قرطا جني قديم أقام الرومان مكانه مدينة كارطيناس –كارط تنس–ومنها جاءت تسميتها الحالية.لمزيد من المعلومات انظر ابي عبيد البكري، المصدر السابق، ص61.

[5]. برشك اسم لمدينة كانت معروفة في القرون الوسطى، وكانت تقع على شاطئ البحر، بين شرشال وتنس، ولم يبق لها لها اليوم أي اثر،ولد بها الفقيهان أبو يزيد عبد الرحمان وأبو عيسى ابني الإمام ، كما مر بها الوزان خلال رحلته بالمغرب.

[6]. شرشال مدينة فينيقية ساحلية كانت تعرف قديما ب:"ايول"عمرها الرومان واستقر بها الملك يوبا الثاني ،ثم خربها الو الو ندال واعتبرت ملاذا لأهل الأندلس النازحين من غرناطة.الوزان،المصدرالسابق،ج2،ص34.الإدريسي،المصدر السابق،ج1،ص258.

إذن يعتبر يغمراسن بن زيان عاهل السلالة العبدوادية الزيانية وباعثها إلى حيز الوجود،إذ حاول بعد استقلاله بتلمسان، أن يجعل منها مملكة عصرية ، تحظى بنوع من النظام الذي يضمن استمراريتها[1].

كباقي الإمارات والممالك فإن للسلطان ولي عهد يخلفه عند مماته، وغالبا ما يكون أكبر الأبناء سنا مع وجود بعض الاستثناءات التي أوكلت فيها ولاية العهد إلى الأخ، مثلما حدث مع عثمان بن يغمراسن الذي تولى السلطة بوفاة أخيه الأكبر يحي لكن في حياة أبيه، ولقد تم اختيار مدينة تلمسان عاصمة لملكهم نظرا لجاهزيتها بما تحتويه من مآثر عمرانية وهذا ما ندركه من خلال قول ابن خلدون "ولم يزل عمران تلمسان يتزايد ،وخطتها تتسع، والصروح بها بالآجر والقرميد تعالى وتشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم"[2]،هذا الى جانب موقعها الممتاز.

ج-الدولة المرينية:

كان فصيل بني مرين [3] هو الأكثر ميلا إلى الاتجاه الانفصالي من غيرهم لأنهم اعتبروا أنفسهم ورثة الموحدين من منطلق أنهم الوحيدون الذين تحملوا عبء القضاء على دولة المرابطين، فقد عملوا على مساعدة الموحدين في تأسيس دولتهم وتثبيت أقدامهم في بلاد المغرب،فكانوا بذلك عنصرا من عناصر القوة وسندا هاما لها،فبهم أقام الله تعالى في المغرب الدين وبسيوفهم قمع بجزيرة الأندلس المشركين وأبقى بها دماء المسلمين على حد تعبير ابن أبي زرع[4]، لكنهم بالمقابل اكتسبوا واطلعوا معهم على الكثير من الخبرات

---

[1]. انظر عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق،ج7، ص79.

[2]. نفسه، ج7، ص78.

[3]. المرينيون فخذ قوي من قبيلة زناتة البترية ،وهم ينتهون في نسبهم إلى جدهم الأعلى مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن،ويجمع المؤرخون على نسبهم العربي، أمثال ابن أبي زرع(علي الفاسي)،الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط –المغرب-1392ه/1972م، ص14.

[4].ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، ص13.

القتالية التي امتصوا رحيقها وأضافوا إليها قوتهم وخبرتهم وجلدهم، فاستطاعوا عبر مراحل متعددة التفوق على معلميهم الموحدين[1].

استطاع المرينيون وبعد صراع طويل ومرير مع الموحدين تشكيل دولتهـــــــــــــــــــــم على أرض بلاد المغرب الأقصى، ويعتبر عبد الحق بن محيو المريني[2] الممهد الأول لظهورها وذلك بأن نقل مؤسسيها –بنو مرين–من مرحلة البداوة والتنقل في الصحراء إلى مرحلة الاستقرار، فكان بذلك خير أمير يقوم بأمرهم على حد ما ذكره العلامة بن خلدون[3]، لتبدأ مع ذلك مرحلة التفكير الجدي أو العملي لتكوين دولة لهذا الفصيل في تلك الأرض، لأن المرينيين لم يفكروا في الدخول إلى المغرب الأقصى والاستقرار فيها بصفة نهائية إلا في سنة610هـ/1213م، أي في أعقاب هزيمة للموحدين بحصن العقاب[4]،بينما يرى ابن عذارى أن ذلك كان سنة 601هـ/1204م فخالف بذلك كل الروايات التي أجمعت على التاريخ المذكور سابقا وهي الأقرب إلى الصواب، إذ أن المرينيين لم يفكروا في الاستقرار ببلاد المغرب الأقصى إلا بعد أن اضطربت أحوال الموحدين بعد الهزيمة المذكورة وتراجع قدراتهم الدفاعية، فأصبحت بذلك كالرجل المريض الذي لا يستطيع متابعة ما يجري حوله، أو الدفاع حتى عن ما بحوزته من أرض، فيصف لنا ابن أبي زرع صاحب الذخيرة السنية تلك الحالة فيقول:((أصبح المغرب خاليا قد باد أهله ورجاله وفني خيله، وحماته وأبطاله، وقتلت قبائـــــــــــــــله

---

[1]. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر الإسلامي في العصر المريني،ط2،دار القلم، الكويت، 1408ه/1987م، ص10.

[2]. يروي ابن أبي زرع انه كان قليل الولد –ربما الذكور–فرأى رؤيا في منامه فسرها له الشيوخ والصالحون بأنها رؤيا خير وبأنها له عز وتمكين وملك له ولعقبه عن قريب،فاقبل بعدها على الزواج من أربع نساء فأنجب منهن أبنائه.انظر ابن أبي زرع ،المصدر السابق، ص31–32.

[3]. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7،ص224.

[4]. نفسه، ج7، ص224.

وأقياله[1]، وقد استشهد الجميع في غزاة العقاب، فأقفرت بلادهم فعمرها البوم والسّباع والذئاب))[2]، وقد خالف روجي لي تورنو كذلك هذا التاريخ وذكر بأن دخول بني مرين إلى المغرب الأقصى كان سنة 612هـ/1215م.

إذن استغل المرينيون الضعف الذي آل إليه أمراء الموحدين وخاصة على عهد يوسف المستنصر، الغلام الذي لم يبلغ الحلم[3]، والمنشغل عن القيام بالأمور السياسية وتدبير أمور الملك والدولة، ليوسعوا نفوذهم في بلاد المغرب الأقصى مستعملين في ذلك كل وسائل الإرهاب والقوة[4]، الأمر الذي دفع بالمستنصر الى حشد الجيوش للقضاء على حركتهم، فالتقى الجمعان عند وادي نكور، فكان الانتصار للمرينيين والإدبار للموحدين الذين تركوا كل ما يمتلكون من أموال وأمتعة فأصبحت مغنما لأعدائهم[5]،وفروا إلى فاس وتازى عرايا يستترون بأوراق المشغلة[6].

كانت هذه الواقعة عامل دفع قوي للمرينيين للاستمرار في التوسع على حساب ممتلكات الموحدين، إذ هاجموا بعدها مدينة تازة واستولوا عليها[7]، ليتعرضوا بعدها لانقسام خطير أصبح يهدد كيانهم سنة 614هـ/1217م[8]، ونظرا لأنهم كانوا من أقوي

---

[1]. أو الأقوال والمفرد قيل، وروي عن النبي أنه كتب لوائل بن جحر ولقومه: من محمد رسول الله إلى الأقوال العباهلة، وفي رواية أخرى، إلى الأقيال العباهلة، قال أبو عبيدة: الأقيال ملوك باليمن دون الملك الأعظم، واحدهم قيل، يكون ملكا على قومه و مخلافه ومحجره، وقال غيره سمي الملك قيلا لأنه إذا قال قولا نفذ قوله ،انظر ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت–لبنان، ج11، ص 576.

[2]. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص24.

[3]. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص224.

[4]. نفسه،ج7، ص224

[5]. نفسه،ج7، ص224–225.

[6]. نبات معروف لدى أهل المغرب، فسميت الموقعة التي دامت أربعة أيام بعام المشغلة، انظر عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص225.

[7].عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7،ص254.

[8]. حدث ذلك حينما اعتمل الحقد في نفوس بني عسكر بن محمد المريني تجاه ابن عمهم حمامة بن محمد الذي ترأس بني مرين وهم يرون بأنهم أحق بذلك لما كان لهم من دور في مقارعة وهزيمة الموحدين ،فحالفوا قبائل عرب رياح.

القبائل العربية رجالا ومالا وبأسا لحداثة عهدهم بالتوحش على حد تعبير ابن خلدون[1]، فإنهم دخلوا بذلك في مرحلة التقاتل، ففي شهر جمادى الثانية سنة 614ه/1217م التقى أبناء العمومة في- بواجرهان-بالقرب من وادي سبو[2]، فدارت بينهم حروب طاحنة قتل فيها الأمير عبد الحق في 22 جمادى الثانية 614ه/1217م وولده الأكبر إدريس[3]،ليدخل إدريس[3]،ليدخل بنو مرين مرحلة المطالبة بالثأر من بني عسكر وعرب رياح من قبل أبناء أبناء وإخوة إدريس وهذا ما تم لهم بالفعل،وقد عزز هذا الانتصار أبو سعيد عثمان بن عبد الحق المعروف بأردغال-أي الأعور بلغتهم-[4] والذي تولى الأمر بعد أبيه، سنة 1217/614 وأنهى الحرب الدائرة بين بني مرين وعرب رياح لصالحه وهذا ما أكسبه ولاء الكثير من القبائل المغربية، بينما استعمل القوة مع تلك القبائل التي تناوشه وترفض طاعته[5]، فخضعت له جميع قبائل البلاد وتملك جميع بوادي المغرب من وادي ملوية إلى رباط الفتح[6]، وفرض عليهم المغارم والخراج ووضع لذلك عمالا خاصين[7]، فأصبح المرينيون بذلك مهابي الجانب من طرف الموحدين الذين توجب عليهم التعامل معها بحذر ولين[8].

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7، ص225.

[2]. نهر بالمغرب ينبع من جبل سليلكو في الحوز بإقليم مملكة فاس ويصب في المحيط الأطلسي قرب بلدة تسمى المعمورة، انظر الوزان، المصدر السابق،ج2، ص248.

[3]. عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق ،ج7،ص225

[4]. نفسه،ج7، ص225.

[5]. انظر ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص36.

[6]. نفسه، صص36-37، انظر ابن أبي دينار(أبو عبد الله الرعيني) المؤنس في أخبار افريقية وتونس،ط3، دار المسيرة-تونس-1993م، ص127.

[7]. عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق ،ج7،ص226. ابن أبي زرع، المصدر السابق، صص36-37.

[8]. ما يدل على هذا الاتجاه أن الخليفة الرشيد الموحدي بعث في سنة 637ه/1239م مع ابن وانودين أحمالا من الكساء الشرقية البديعة والمتعددة الأنواع لتوزع على بني عبد الحق وأشياخ بني مرين،انظر، عبد الله عنان، المرجع السابق،ج4-قسم الموحدين، ص410 .

استغل أبو سعيد عثمان الظروف التي آلت إليها بلاد المغرب، وانفراط عقد الأمن بها بعد أن أفلتت أزّمة الأمور من أيدي الموحدين وانقطاع الحرث بذلك واشتداد الغلاء[1]،فعقد مؤتمرا دعا إليه أشياخ بني مرين بين من خلاله أن خلع طاعة الموحدين قد تهيأت له الظروف وأصبح أمرا واجبا.

بوفاة أبي سعيد عثمان[2] خلفه أخوه محمد بن عبد الحق الذي واصل فتوحاته لكثير من مناطق المغرب[3]، وفي حركة جريئة وحاسمة قرر أن يواجه –ابن وانودين– فدارت بين الجانبين حرب طاحنة انتصر فيها المرينيون واستولوا على محلة بن وانودين بما تحتويه من دواب وأمتعة وغيرها ليفر بجلده إلى قصر عبد الكريم[4]، أين التحق بأولاده وعياله وكان ذلك في سنة 638ه/1240م.

أدرك الموحدون مدى خطورة الأمر الذي أصبح يهدد كيانهم في الصميم فجمعوا ما تبقى لديهم من رجال –موحدين عرب وروم–وأسلحة ليلاقوا جيش بني مرين عند بلدة (كرث)[5]، لكنهم انهزموا هزيمة شنيعة فاستولى المرينيون على إثرها على كل ما معهم من الأموال والخيل والرجال والسلاح[6]، ليلجأ بعدها الرشيد إلى المهادنة من جديد، فدارت فدارت بينهم –المرينيون– وبين الرشيد مهادنات ومراسلات[7].

---

[1]. ابن أبي زرع،المصدر السابق، ص 36، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7،ص226،

[2]. قتل أبو سعيد عثمان بن عبد الحق سنة 637ه/1239م من طرف علج من علوجه في وادي رادات ثم هرب قاصدا إلى ابن وانودين الذي قيل أنه حرضه على قتله .انظر ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق،ج4، ص411

[3]. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص289.

[4]. قصر عبد الكريم مدينة على ساحل البحر المغرب قرب سبتة مقابل الجزيرة الخضراء من الأندلس وربما قيلت بالتاء بالتاء المثناة، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص360.

[5].كرث بالضم ثم السكون وثاء مثلثة ،مدينة في أقصى المغرب قرب بلد السودان، انظر ياقوت الحموي،المصدر السابق،43، ص446.

[6]. ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، صص63-64 .

[7]. ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق،قسم الموحدين3، ص307.

إن هذه الهدنة لم تكن لتطول،إذ وبمجيء –السعيد الموحدي–جهز جيشا كبيرا قوامه عشرين ألف جندي[1] ليلتقي الجيشان بالقرب من مدينة فاس فهزم المرينيون وقتل الأمير القائد –محمد بن عبد الحق– في سنة 642ه/1244م، فارتدوا من أحواز فاس إلى المناطق التي يسيطرون عليها.

لم تكن هذه الهزيمة سوى انتكاسة آنية جعلت المرينيين يقيّمون الموقف من جديد ويضعون خطة لبدء مرحلة جديدة من مراحل تأسيس دولتهم، إذ بمجرد عودتهم من أرض المعركة بايعوا –أبا بكر بن عبد الحق– أخ –محمد بن عبد الحق –سنة 642ه/1244م[2]، والذي أعلن تبعيته لبني حفص في افريقية،كخطة وإستراتيجية لكسب نوع من الشرعية باعتبار أن بني حفص قد خلعوا طاعتهم عن الموحدين واستقلوا بدولتهم وحتى يأمن جانبهم فلا يفتح على نفسه جبهات قتال عديدة، في وقت كان يغمراسن ابن زيان قد تهادى مع السعيد الموحدي ووافقه على التعاون معه لقتال بني مرين، وهذا ما لم يرض الطرف الحفصي أيضا لأنه يرى نفسه أحق بخلافة الموحدين،وأن أي تعاون معهم يعني تحطيم جهودهم وآمالهم في بلوغ هدفهم .

إذن بعد تجميع القوى راح الأمير المريني في تنفيذ خطته فابتدأ بمكناسة الزيتون[3] التي يئس أهلها من نصرة السعيدالموحدي فبايعوه وفتحت المدينة صلحا سنة643ه/1245م وأرسل أهلها بيعتهم إلى الأمير الحفصي أبي زكريا يحيى[4].

أصبح الأمر يقض مضجع السعيد الموحدي حين رأى أطراف بلاده تتآكل، فبنو حفص اقتطعوا افريقية وأعلنوا أنفسهم خلفاء شرعيين لهم، ويغمراسن ابن زيان استقل

---

[1]. انظر عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7، ص171،ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص290.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص171، ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، صص66–67.

[3]. مكناسة الزيتون هي المنطقة المجاورة لمنطقة مكناس الحالية،اشتهرت بكثرة زيتونها فأطلق عليها هذا الاسم، انظر، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني (المكناسي) ،الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الرباط– المغرب– 1371ه/1952م، ص 3.

[4]. انظر ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، صص70–71.

بتلمسان وما والاها من أراضي المغرب الأوسط، وابن هود الذي اقتطع عدوة الأندلس وأقام فيها دعوة ابن العباس، وبنو الأحمر في الجانب الآخر من عدوة الأندلس رفعوا دعوة بني حفص، وأخيرا بنو مرين الذين يطمحون الى حيازة باقي المدن المغربية، فجهز جيشا في سنة 645ه/1237م وسار به حتى نزل بوادي بهت[1]،ولما رأى أبو يحيى المريني أنه لا قبل له به خرج نحو الأحواز،ودارت بينهما مساومات كان يغمراسن بن زيان وما حازه من أراضي جوهرها، إذ عرض على السعيد التكفل به و بقبيلة من بني زيان، لكن وبعد تفكير ومشاورات رفض السعيد مطلبه مكتفيا ببقائه بموضعه من قلاع الريف وأن يبعث إليه بحصة من الفرسان[2]،لأن أشياخ الموحدين أشاروا إليه بعدم الإقبال على تلك الخطوة[3].

بعد أن استتب الأمر للأمير يحيى في فاس عمل بعدها على قطع الطريق أمام الموحدين وعزلهم في نطاق ضيق وقطع اتصالهم بالشمال المغربي، لكن ذلك لن يتم له إلا بإخضاع سلا[4] ورباط الفتح، فالتقى بجموع الخليفة المرتضى بنواحي مكناسة، فهزمه وغنم

[1]. بهت وادي ينبع من جبال الأطلس بالمغرب ويتجه مجراه نحو الشمال لينتشر في أحد سهول أزغار أين يتحول إلى مستنقعات وبحيرات، الوزان، ج2، ص248،انظر عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7، ص172، انظر أيضا ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، ص76، ابن عذارى المراكشي،المصدر السابق،ج3، ص464.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص173، ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، ص87.

[3]. مما أشاروا به إليه " إن الزناتي أخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه فتخاف أن يصطلحا ويجتمعا على حربك،فتكون المشقة بهم أعظم والمقاساة في حربهم أشد فرجع عن ذلك"انظر ابن أبي زرع،الذخيرة السنية ، ص78،ابن أبي زرع،الأنيس المطرب، ص293.

[4]. سلا مدينة أزلية بناها الرومان ،وبعد تأسيس مدينة فاس انضوت سلا تحت سلطة ملوكها وهي مبنية على شاطئ المحيط الأطلسي في موقع جميل غير بعيد عن الرباط أي بحوالي ميل ونصف. انظر،الوزان،المصدر السابق، ج1، ص207.

منه الكثير من العتاد والأمتعة[1]، ثم تقدم الأمير بعدها نحو الغرب ففتح سلا[2] ورباط الفتح[3] سنة 649ه/1251م وعين عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق[4]،

كانت الخطوة الموالية للمرينين هي الاستيلاءعلى سجلماسة[5]ودرعة[6] الإستراتيجيتين، الميدان فأخضعوهما سلميا عن طريق اتفاق سري مع أحد زعماء سجلماسة[7] الذي قبض عليه وسهل المهمة أمام أبي يحيى[8]، لكنها ثارت ضده وطمع فيها يغمراسن ابن زيان الذي التقى بجيشه مع أبي يحيى، فاضطر للتراجع إلى بلده لما رآه من رباطة جأش عند المرينيين[9].

---

[1].ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق،ج4، ص490، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص258،انظر أيضا ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، ص87.

[2]. سلا مدينة أزلية بناها الرومان ،وبعد تأسيس مدينة فاس انضوت سلا تحت سلطة ملوكها وهي مبنية على شاطئ المحيط الأطلسي في موقع جميل غير بعبد عن الرباط أي بحوالي ميل ونصف، انظر الوزان،المصدر السابق، ج1، ص207.

[3]. رباط الفتح مدينة كبيرة أسسها الخليفة المنصور ملك مراكش يمر على طولها من جهة الشرق نهر أبي رقراق حيث يصب في البحر وقد بناها لتكون مكانا متقدما من بلاد الأندلس والتي يستطيع فيها هو و جيشه الإقامة بها طوال فصل الصيف وهذا بعد أن أشير إليه بسبتة ورفضها لعدم اتساعها لعملية التخييم بسب عقم الأرض،انظر الوزان، نفس المصدر، ج1، ص201.

[4]. هو يعقوب بن الأمير عبد الحق بن أبي بكر بن حمامة بن محمد،أمه زاكية مباركة أم اليمن بنت محلي البطوئي الزناتي،ولد في سنة 607هوقيل في سنة تسع وستمائة اشتهر بورعه وتقواه وكرمه وجوده لم تتهزم له قط راية ولم ينكسر له جيش .انظر ابن أبي زرع ،الذخيرة السنية، ص86.

[5]. سجلماسة بكسر أوله و ثانيه، وسكون اللام مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان،بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب وهي في منقطع جبل درن،وهي في وسط رمال كرمال زرود وقد اشتهرت ببساتينها ونخيلها.انظر ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج3، ص192.

[6]. درعة إقليم بالمغرب الأقصى وإليها يعود نسب أبو العباس الناصري السلاوي صاحب كتاب الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى.

[7]. هو ابن القطراني الذي أسند إليه ولايتها فيما بعد.

[8]. عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7،صص115-116.

[9]. الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص19.

بمجيء –يعقوب بن عبد الحق– على إثر وفاة والده، تعرض لمزاحمة شديدة من ابن عمه عمر بن أبي يحيى الذي انفرد بمكناسة وجعل يغمراسن يطمع في القضاء على المرينيين، لكنه هزم على إثر التقائه بجيوش يعقوب بن عبد الحق[1]، فكان على الأمير يعقوب أن أن يستعيد مكناسة الزيتون إلى نفوذه وكذا مدينة سلا التي استعادها المرتضى الموحدي، وهذا ما تم له بعد أن أخرج عامل الموحدين أبي يعلى منها، ثم أخرج منها النصارى الذين استولوا عليها بحركة غدر ومخادعة[2]، وبعد أن استرجع أنفاسه خرج بقواتـــــــــــــــــه إلى تامسنا[3] فأخضعها لحكمه، ثم استولى على أنفا[4] لبني مرين[5]، حينها لجأ المرتضى من جديد جديد إلى سياسة المهادنة والموادعة، فأرسل بهدية إلى الأمير يعقوب ومعها رسالة من صلحاء وشرفاء وشيوخ الموحدين يطلبون فيها الصلح، فقبل به الأمير يعقوب شريطة أن يكون نهر أم الربيع حدا فاصلا بين المرينيين والموحدين[6]،كما عمل يعقوب على تصفية الأجواء مع يغمراسن يغمراسن بن زيان واتفقا على المحافظة على السلم ووضع أوزار الحرب بينهما[7].

لم يكن في نية يعقوب التوقف عن ملاحقة الموحدين والاستيلاء على ممتلكاتهم، فقد دارت المعركة الموالية عند خطوط التماس التي رسمها الصلح الزائف بينهما، وهي موقعة –أم

---

[1]. ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، ص93.

[2]. وبدا في الاتصال بتجار السلاح وأدوات الحرب والقتال من نصارى الأسبان الذين كان ترددهم على مدينة سلا وقد انتهز هؤلاء النصارى فرصة انشغال المسلمين بعيد الفطر واستولوا على المدينة بينما ظل يعقوب بن عبد الله متحصنا برباط الفتح انظر عبد الله عنان، تاريخ المغرب والأندلس، ص29.

[3]. إقليم تابع لمملكة فاس ،يبتدئ غربا عند أم الربيع وينتهي إلى أبي رقراق شرقا والأطلس جنوبا وشواطئ البحر المحيط شمالا طوله من الغرب إلى الشرق ثمانون ميلا ومن الأطلس إلى المحيط نحو ستين ميلا ،وكان منطقة زاهرة بما احتواه من مدن (نحو أربعين مدينة) وقصور (ثلاثمائة قصر)ومن مدنه أنفا المدينة العظيمة ،ومدينة المنصورة المغربية،انظر الوزان،المصدر السابق،ج1،ص194 –196–197.

[4]. أنفا(الدار البيضاء الحالية) مدينة عظيمة تقع بإقليم تامسنا ،أسسها الرومان على شاطئ المحيط الأطلسي على بعد نحو ستين ميلا ،أرضها كانت خصبة تجود بإنتاج الحبوب انظر،الوزان ،المصدر السابق،ج1، ص196–197.

[5]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7، ص179..

[6]. ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب، ج1، ص202، ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، ص104.

[7]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص178، الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج2،ص11.

الرجلين- التي هزم فيها الموحدون شر هزيمة[1]، فتكون الأبواب قد انفتحت أمـــــــــــــــــــــــــام المرينيين لاقتحام مركز الدولة وعاصمتها مراكش،فجهز يعقوب لذلك جيشا ضخما سار به نحوها فواجهته جيوش الموحدين بقيادة أبي العلاء إدريس (أبي دبوس)، ودارت بينهم معارك ضارية استمرت قرابة شهرين[2]، دخل الأمير يعقوب بعدها في اتصالات سرية ومشاورات مع أبي دبوس،كان من بين ما جاء فيها أن يزوده يعقوب بما يحتاج إليه من مال وعتاد وجند مع ضمان فتحها واقتسام ملكها مناصفة بينهما بعد ذلك[3]،فاستحسن الأمير الأمر وأمده بكل الوسائل والدعم،فاستطاع والدعم،فاستطاع أبو دبوس اقتحام المدينة بسهولة وعلى حين غفلة من المرتضى الذي لم يكن يعلم ما يدبر لعاصمته في الخفاء، ليفر هو ووزيره أبو زيد بن يعلو في 22 محرم سنة665ه/1266م[4].

لم يف أبو دبوس بعهده واستأثر بالحكم لنفسه، و راسل أبا يوسف يعقوب قائلا له عن طريق رسوله ((ما بيني وبينه عهد إلا السيف،ارجع إليه ومره أن يبعث بيعته وأقره على ما بيده من البلاد ....))[5]، وكان بإمكان أبي يوسف أن يقضي على أبي دبوس ويدخل ويدخل العاصمة لو لا استنجاده بيغمراسن الذي قام بشن غارات على أطراف المغرب وخاصة بلاد ملوية[6] .

جهز أبو يوسف جيشا عظيما و أصر على إنهاء الصراع مع أبي دبوس وحسمه،وحين كاد الجيشان أن يلتقيا تظاهر يعقوب بالفرار والإدبار من الحرب وذلك

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص179، الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج3،ص12. ابن أبي زرع،الذخيرة السنية، ص105.

[2]. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص107.

[3]. نفسه، ص132-134، عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق ،ج7، ص 182، الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج2،ص13.

[4]. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص135.

[5]. نفسه، ص136، انظر أيضا ابن أبي دينار،المصدر السابق، ص129.

[6]. نفسه، ص130، انظر أيضاعبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص180.

قصد إبعاد عدوه عن مراكش التي قد يلجأ إلى التحصّن بها، وأن يقطع عليه أي إمدادات قد تصل إليه،حتى إذا بلغ –وادي غفو– كر عليه أبو يوسف والتحم حينها الجيشان، وحاول أبو دبوس الفرار من المعركة نحو مراكش[1]، لكن خيل أبي يوسف تعقبته وقتلته وحز رأسه وأخذ إلى السلطان يعقوب الذي سجد لله شكرا، وكان ذلك يوم الأحد 2 محرم سنة ثمان و ستين وستمائة[2]،فكان هذا الانتصار طيا لآخر صفحة من صفحات دولة الموحدين بالمغرب،وبداية لصفحة جديدة لدولة جديدة على أرض المغرب وهي الدولة المرينية التي أصبحت تسيطر على المغرب الأقصى من وادي ملوية وجبال الأطلس الوسطى شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا، ومن رباط تازة[3] وجبال غمارة شمالا حتى مراكش ووادي تنسيفت[4]جنوبا[5].

المبحث الثالث:الخارطة السياسية لجنوب غرب أوروبا

لم يكن جنوب غرب أوروبا بمعزل أو بمنأى عن ما يحدث في ما يقابله من الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، إذ بدأت بعض الدول الأوروبية تتأهب لإحراز مكاسب على حساب الصراع الدائر بين المرابطين والموحدين، وكانت في ذلك خير معين لملوكها

---

[1]. االناصري السلاوي، المصدر السابق،ج2،ص13.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج6، ص261.

[3]. تازة مدينة كبيرة بالمغرب الأقصى، تمتاز بخصوبة أرضها،أسسها الأفارقة القدماء على بعد نحو خمسة أميال من الأطلسي وتبعد عن فاس بنحو 50 ميلا وعن البحر ب130 ميلا وعن البحر المتوسط بسبعة أميال.انظر الوزان، المصدر السابق،ج1، ص354.

[4]. تنسيفت نهر كبير بالمغرب الأقصى ،ينبع من الأطلس شرق مراكش ويجري نحو الشمال،انظر الوزان،المصدر السابق،ج2، ص244.

[5]. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس–عصر المرابطين والموحدين– ، ص570.

لتحقيق هذا الهدف[1]، وذلك بعدما أصابها من القوة بعد الضعف على حد تعبير ابن خلدون[2]، عموما يمكن أن نصور الخارطة السياسية للمنطقة كالآتي :

1/في شبه الجزيرة الأيبيرية:

أ/في بلاد الأندلس[3]: عندما بدأت سلطة الموحدين تتراجع في الأندلس ظهرت شخصيتان قويتان هما:بنو مردنيش[4] في بلنسية وبنو هود في مرسية، فقد انتهز بنو هود فرصة الاضطراب في الأندلس للسيطرة على شرق الأندلس، وفي نفس ذلك الوقت ظهر بنو الأحمر، واجتهد مؤسس الأسرة هو الآخر في إنشاء دولة في شرق شبه الجزيرة،وفي سنة 629ه/1231م وجد بعض الأنصار الذين يساعدونه في تحقيق هدفه و أولهم بنو أشقيلولة أصحاب مالقة ووادي آش، وفي العام التالي أعلنت بلاد جيان ووادي آش وبياسة

---

[1]. من بين أولئك الملوك ألفونصو هنريكيز–الذي بدأ بإعادة ترميم القلاع وتأهيلها على الحدود الجنوبية لمملكته، فأسس قلعة جيرمانيلو *Germanelo* وأعاد تأسيس قلعة ليريا عام 538/1144هـ، وكان الملك هنريكيز يهدف من وراء ذلك إلى السيطرة على أهم قاعدتين من قواعد غرب شبه الجزيرة الأيبيرية آنذاك وهما شنترين ولشبونة لما لهما من موقع جغرافي ومكانة اقتصادية وعسكرية هامة،انظر محمود محمد احمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال–السياسة الخارجية لألفونصو هنريكيز ملك البرتغال–1128–1185–،ط1،عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية 1995، ص97.

[2]. يقول ابن خلدون ((..كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي–المتوسط– في الشمال قد صار لهم التغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم،فملكوا جزائره مثل سردانية و ميورقة و صقلية وملأت أساطيلهم فضاءه ثم تخطوا إلى سواحل الشام وبلاد المقدس فملكوها، وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كان سورة الإسلام فيه لا تقاوم إلى آخر أيام الموحدين بكثرة أساطيله ومران راكبيه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أياما ،ثم فشل ريح الفرنج واختل مركز دولتهم بافرنسة وافترقت طوائف في أهل برشلونة و جنوه و البنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم وشرع في ذلك أهل بجاية ...)) عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج 6، ص714.

[3]. هناك من الكتاب العرب ،من يطلق كلمة الأندلس على شبه جزيرة ايبيريا المكونة من دولتي اسبانيا والبرتغال الحاليتين والذي كان بطريق التغليب ،لكن الواقع إن لا يشمل سوى اقليما في جنوب اسبانيا،وقد أخذ العرب التسمية من إسم سكانها الأصليين الفنداليين *Vandales* فقالوا فنداليسيا أو فندالوزيا . انظر سامي الكيالي،في الربوع الأندلسية ، مكتبة الشرق، حلب ، سوريا، 1936 ، صص15–16.

[4]. وهم نظراء بني الأحمر في الحكم وهما أبو محمد عبد الله و أبو إسحاق إبراهيم ابنا أبي الحسن بن أشقيلولة، انظر عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7، ص–262–265.

تأييد دعوته إلى إنشاء دول، وقد جعل بنو نصر -غرناطة- مركزا لدولتهم ثم ضموا إليها مالقة والمرية، أما مدينة لورقة فلم تدخل في سلطانهم إلاّ في سنة 663ه/1264-1265م، وللتغلب على المنافسات أعلن نفسه مطيعا لفرناندو الأول ملك قشتالة(1217-1252م) ودفع له إتاوة، واضطر في نفس الوقت إلى تأييده في الاستيلاء على اشبيلية في سنة 645ه/1247م وأيده في توسيع مجال سلطانه في جنوب الأندلس، وعندما توفي فرناندو الأول وخلفه ابنه ألفونصو العاشر استمر في تأييده وأداء الإتاوة له وهنا أصبحت مملكته وهي غرناطة الدولة الوحيدة المستقلة في جنوب الأندلس، وقد امتدت من جبل طارق إلى المرية وسيطرت على جبال رندة وجبال البيرة.

2-الممالك النصرانية:

شهدت تغييرات سياسية كثيرة وفي فترات ليست بالمتباعدة رافقت حروب الاسترداد وانكماش ملك المسلمين بها واتساع ملك المسيحيين على حسابها من جهة أخرى، فعلى آخر أيام الموحدين كانت مقسمة إلى دول أو إمارات أوردها عبد الواحد المراكشي، وهي: مملكة أراغون وقشتالة، ليون ونبرة[1]، لكن لم يفصل هذا الأخير في أصولها أو جذورها التاريخية وكيفية تشكلها ولذا وجب علينا أن نبحث في ذلك[2].

أ-مملكة قشتالة[3]: أكبر الممالك النصرانية مساحة، وأوفرها قوة وموردا، تقع شرقي الجزيرة جنوبي جبال البرتات، وكانت الممالك النصرانية الأخرى تشعر بالنفور منها لما

---

1. المراكشي عبد الواحد، المعجب، ص234.

2. انظر خريطة اسبانيا في العصر الوسيط،الملحق رقم1.

3. يعرفها الحميري بأنها عمل من الأعمال الأندلسية،قاعدته قشتالة فسمي العمل بها،فما خلف الجبل المسمى بالشارات في جهة الجنوب يسمى إشبانيا،وما خلف الجبل من جهة الشمال يسمى قشتالة وفيها قال شاعر

الروم تضرب في البلاد وتغنم   والعرب تأخذ ما بقي المغرم

والمال يورد كله قشتالـــــــــــة

فــــــــــالله يلطف بالعباد ويرحـــــــــم

يدعيه ملوكها من السيطرة الأدبية عليها[1]، انطلاقا من مظاهر القوة تلك التي تمتلكها، ومن بين ملوكها المشهورين ألفونصو–الأدفنش– الذي ذكره عبد الواحد المراكشي[2]، ومنذ اتحادها مع ليون سنة628ه/1230م فقد أصبحت أعظم ممالك اسبانيا وأكبرها فشكلت بذلك شريطا شاسعا يمتد في وسط الجزيرة بين مملكة البرتغال وغربا وأراغون شرقا ملتفا حول مملكة غرناطة من الشمال الشرقي والغرب[3]، ومن الواضح أن نشأة قشتالة ارتبطت في التاريخ بالصراعات الدينية التي نشأت بين المسلمين والمسيحيين بشبه الجزيرة الأيبيرية، مما ترك أثره واضحا في دستورها ونظمها، فالملوك وصلوا إلى مكانتهم كقادة حربيين لا كزعماء سياسيين، ومن ثمة فقد ظلت هذه الصفة غالبة عليهم، وظلت المملكة الأكبر والأعظم قوة في إسبانيا خلال القرن الرابع عشر ومعظم الخامس عشر الميلاديين.

ب/ <u>مملكة أراغون[4]:</u> ثاني مملكة في شبه الجزيرة الأيبيرية من حيث المساحة، تقع شرقي الجزيرة الأيبيرية جنوبي جبال البرتات، تألفت من اتحاد ثلاثة أقاليم هي أراغون وقطلونيا وبلنسية في سنة533ه/ 1138م[5]، وذلك على يد الكونت –رامون برنجير الرابع –أمير برشلونة، لكن لم يكن الاتحاد بين هذه الأجزاء الثلاثة متينا بسبب تمسك كل منها بقوانينه ونظمه وعدم رغبته في التخلي عنها في سبيل وحدة المملكة[6]، ولما توفى هذا الأمير في سنة 557ه/ 1162م خلفه على العرش ولده ألفونصو الثاني الذي تسمى هو

انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص162.

[1]. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة،1417ه/1997م، ص595.

[2]. المراكشي عبد الواحد، المعجب، ص234.

[3]. انظر الخريطة ضمن الملاحق.

[4]. مملكة أراغون بغين معجمة مضمومة وهم القطلان، وتقول العامة الكتيلان،ويعرفها الحميري بأنها((اسم بلاد غرسية بن شانجه، تشتمل على بلاد ومنازل وأعمال))انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص12.

[5]. سعيد عبد الفتاح عاشور،أ وروبا في العصور الوسطى –التاريخ السياسي– ط8، مكتبة الأنجلو –المصرية 1985، ص546.

[6]. نفسه، ص 546.

الآخر بملك أراغون وقطالونية، وبقيامه على رئاسة أراغون عاد إليها ثبت الملوك الأقوياء الذي انقطع بوفاة ألفونصو المحارب *Aphonse le combatant* سنة 529ه/ 1134م، ونظرا لما كان بين ملوك قشتالة وأراغون من علائق المصاهرة[1]، فقد طبعت العلاقات بين المملكتين بالود والملاطفة، فكان أن اجتمع ملكا الأمارتين سنة566ه/1170م، وقد حضر هذا الاجتماع أكابر الأحبار والأشراف من المملكتين واتفقا على تسوية سائر الشؤون والخلافات القائمة بين المملكتين، وعقدا لذلك حلفا ضد باقي الملوك والأمراء ما عدا ملك انجلترا هنري الثاني،لأن ألفونصو الثامن كان قد عقد خطبته على ابنته الأميرة -الينور-[2]، وهكذا استمرت العلائق بينهما في عهد ألفونصو الثاني، وزميله الفتى ألفونصو الثامن ملك قشتالة، وكانت تجمع بينهما بالأخص سياسة موحدة نحو فتوح الاسترداد في أراضي الأندلس وذلك وفق برنامج مشترك تحددت ملامحه فيما بعد بين الملكين بمعاهدة -كسولا-سنة 1179م[3].

يعتبر الملك -خايمي الأول- *Jacmé1er* المؤسس الحقيقي لمملكة أراغون وموطد استقلالها، إذ استطاع بعد حكم طويل أن يضاعف رقعة مملكته بالقضاء على دولة الإسلام في جزر البليار وشرقي الأندلس وهو ما لقب من أجله—بالفاتح— *le conquérant* ولما توفي قسمت مملكته بين ولديه، فتولى حكم أراجون و قطلونية وبلنسية ولده الأكبر بيدرو *Pedro*، بينما تولى حكم الجزائر والإمارات الفرنجية فيما وراء جبال -البرانس- ولده الأصغر خايمي *Jacmé* على أن هذا التقسيم لم يدم طويلا[4].

---

[1]. بزواج القيصر -ألفونصو ريموندیس ملك قشتالة من ابنة عاهل أراغون -رامون برنجير الرابع- الملكة برنجيلا.

[2]. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس -العصر الثالث ، ص584.

[3]. كاسولا Cazola بلدة التقى بها ملك أراغون و ملك قشتالة في سنة 1179م قصد التكتل ضد الجبهة الإسلامية في الأندلس ومن ثم تحديد مناطق النفوذ بها لكليهما فخصت مملكة أراغون بمنطقة بلنسية جنوبا حتى ثغر لقنت وخصت قشتالة بالفتوح في سائر الأراضي الواقعة جنوب هذا الثغر، انظر عبد الله عنان، المرجع السابق،ج3، ص586.

[4]. عبد الله عنان، المرجع السابق، ج3، ص607 .

لكن رغم كل هذا إلا أن كبار النبلاء تمتعوا بنفوذ واسع جعل منهم شبه أنداد للملك،ولعل هذا ما كان سببا جعل هؤلاء النبلاء يتكاتفون للمحافظة على وحدة المملكة عكس ما كان عليه الأمر لدى نبلاء قشتالة من تفرق الكلمة وانعدام الوحدة حتى عبر عن ذلك أحد المعاصرين بقوله ((إن تفريق نبلاء أراغون أمر لا يقل صعوبة عن توحيد نبلاء قشتالة))[1].

ج/مملكة ليون: ثالث الممالك الاسبانية، تتربع على مساحة صغيرة، لكن وبالرغم من ذلك كانت قوية الشكيمة، ممتنعة وراء جبالها الوعرة وحرصها الدءوب على الاستقلال[2]، من بين من ملكوها- فرناندو- الذي تعرفه الرواية العربية بالببوج [3] والذي كان مترددا خلال فترة حكمه بين محالفة الموحدين وبين خصومتهم، إذ بوفاة القيصر ألفونصو ريمونديس سنة 1157م ،قسمت مملكته بين ولديه،فاختص الأكبر وهو سانشو بملك قشتالة،أما الأصغر وهو فرناندو فاختص بملك ليون،و تسمى المنطقة ببلاد البشكنس في التواريخ العربية وعاصمتها بنبلونة[4]،استقلت وانفصلت عن قشتالة وفقا لوصية القيصر ألفونصو ريمونديس،وكانت في تلك الأثناء ضعيفة تشق طريقها بصعوبة، ولم يكن لها تأثير كبير في سير الأحداث الهامة في شبه الجزيرة،وكان التوتر يسود بينها وبين قشتالة[5].

وفي سنة 1197م قام القشتاليون والبرتغاليون بغزو أراضي ليون وجليقية و رأى ألفونصو التاسع عندئذ أن يعود إلى مسالمة قشتالة، وأن يعيد معها أواصر المودة والتفاهم، وقد تحقق ذلك بزواجه من الأميرة برنجيلا ابنة ألفونصو الثامن، لكن البابوية

---

[1]. سعيد عبد الفتاح ،المرجع السابق، ص546.

[2]. شكيب أرسلان،الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية،ط1،المطبعة الرحمانية، مصر 1355ه/1936م، ج1، ص328.

[3]. ومعنى هذا الاسم بالعربية الكثير اللعاب، انظر عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص235.

[4]. عبد الله عنان ،الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا،ط2، مكتبة الخانجي،القاهرة-مصر-1417ه/1997م، ص307.

[5]. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس،ج3، ص584.

عادت فاعترضت على هذا الزواج الثاني لملك ليون وطالبت بإلغائه بسبب القرابة، وظلت الأمور تتأرجح بين الخصومة والمسالمة، ونظرا لما قامت به البابوية من جهود متوالية في التقريب بين الملوك النصارى، فقد نجح ملك قشتالة ألفونصو الثامن سنة 1208م من إقناع خصمه القديم ألفونصو الثاني بإحلال التفاهم والوحدة محل الفرقة والخصام، فكان من نتائج ذلك أن وقف إلى جانبه في معركة حصن العقاب 1212م[1].

<u>مملكة نافار:</u> كان وضعها شبيها بوضع دولة بني زيان، إذ كانت تقع بين جارتين تتنافسان على الزعامة وهما أراغون وقشتالة،كانت قد اتحدت مع أراغون تحت حكم ألفونصو المحارب، ثم انفصلت عنها عند وفاته سنة 1134م،فأصبحت مملكة مستقلة تحت حكم ملكها -غرسيا رميريز- حفيد -سانشو الكبير-،وبوفاته سنة 1150م ارتسمت ملامح سياسة قشتالة و أراغون المتمثلة في تنفيذ جملة من الاعتداءات عليها[2]،واستمرت الصراعات مع الجارتين على عهدي سانشو السادس وسانشو السابع الملقب بالقوي والذي ذهب الى حد التحالف مع الموحدين أعداء الملة، ضد أبناء أرضه ودينه الذين تكررت اعتداءاتهما على مملكته واقتطاع أراضيها من الجانبين[3]،لكنه وبداية من سنة1207م بدأ التقارب بين هذه الإمارات وذلك بانعقاد اجتماع وادي الحجارة[4] بين ملك قشتالة ألفونصو الثامن وسانشو السابع ملك نافار،ليعقد السلم أيضا بين نافار و أراغون، وهذا ما كان له أثره الكبير على وحدة صف ملوك النصارى وتكوين جبهة موحدة في معركة العقاب 1212م ضد الموحدين[5].

---

1. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس ،ج3، ص595.
2. نفسه ،ج3، ص607.
3. نفسه، ج3، ص608.
4. مدينة تعرف بمدينة الفرج بالأندلس، وهي بين الجوف والشرق من قرطبة، وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا امتازت بأسوارها الحصينة وخصبها الكبير، انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص193
5. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس،ج3، ص608.

مملكة البرتغال[1]:تقع غرب شبه الجزيرة الأيبيرية، تطل على المحـيط الأطلسـي مـن الناحية الغربية، ورغم وحدة الرقعة الجغرافية إلا أن أهلها تمتعوا بخواص تميـزهم عـن سائر الاسبان في شرق الجزيرة ووسطها[2]،كانت بينها وبين مملكة ليون مشاكل حدوديـة ولذلك فلم تكن تعرف تخومها الاستقرار والثبات وخاصة من الناحية الجنوبية تبعا لأحداث حركة الاسترداد[3]، ولهذا ارتأى ألفونصو التاسع أن يرتبط مع ملك البرتغال سانشو الأول برباط المصاهرة، وعقد بالفعل زواج ألفونصو التاسع بالأميرة- تريستا -ابنة سانشو سنة 1191م وذلك بالرغم من القرابة الوثيقة بين الزوجين، إذ كانـت أم ألفونصـو -دونيـا أوراكا- هي أخت سانشو، ومن ثم فان البابوية لم توافق على هذا الزواج، وأصدر البابـا -سلستينو- قراره بإبطاله واضطر ألفونصو التاسع بعد أن رزق من هذا الزواج بثلاثـة أولاد،أن ينزل عند إرادة البابوية وأن ينفصل بالطلاق عن زوجته سنة 1194م[4]،إذن اشتد ساعد المملكة في ظل الملك ألفونصو هنركيز الذي استطاع أن يوطد استقلال ها ويحميـه ضد دعاوي قصر قشتالة في السيادة، وقد كان للبابوية فضل في اتخاذ صفة الملك المستقل ،ومن ثمة فقد كان للبابوية نفوذها على العرش البرتغالي،وكغيره من القياصرة فقد عمـل هنركيز على إنشاء جماعات الفرسان الدينية قصد الاستعانة بها في محاربة المسـلمين [5]، وبالفعل فقد كرس كل نشاطه لغزو الأراضي الإسلامية بداية بأشـبونة 1147سـنة، ثـم شنترين وقصر أبي دانس في سنة 1160وبوفاته 1185خلفه ابنه سانشو الأول الذي كان كأبيه يضطرم حماسة لغزو الأراضي الإسلامية والقضاء على بقايا الحكم الإسلامي فـي البرتغال،فنجد صاحب الاستقصاء يبين لنا مدى الشراهة التي أصبحت لدى البرتغـاليين

---

[1]. تسمى مملكة البرتغال أو البردقيز، انظر الناصري السلاوي،الاستقصاء،ج2،ص92.وهي تقع ضمن منطقة لوزيتانيا (لجدانية)بالقسم الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية ،انظر محمد محمود أحمد النشار،المرجع السابق، ص33.

[2]. انظر محمد محمود أحمد النشار ،نفس المرجع، ص33.

[3]. نفسه، ص36.

[4]. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج3، ص595.

[5]. نفسه،ج3، ص609.

في منافسة الأسبان للسيطرة على ما وقع في حوزتهم من الأراضـــي ومنهـــا الأراضـــي الإسلامية فيقول((كان جنس البرتغال وهو البردقيز في هذه السنين قد كثر بعد القلة واعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الأقطار وســما إلــى تملــك الأمصار...))[1]

لكن رغم ذلك ظل المسلمون يحتلون الرقعة الجنوبية من البرتغال تتوسطها مدينة شلب[2] التي قام بمحاصرتها باعتبارها أهم القواعد الإسلامية الباقية وذلك بمساعدة القوات الصليبية المسافرة إلى المشرق 1189م واحتفظ بها لمدة عامين قبل أن يستردها الخليفــة المنصور سنة 1191م[3] ودخلت المملكة في صراع مع البابوية بسبب رفضه لأداء الجزية التي تعهد والده هنركيز بأدائها للكرسي الرسولي نظير حمايته ضد دعاوي قشتالة، وكــذا مع الأحبار ولا سيما أسقف بورتو وأسقف قلمرية، إذ أصدر الأساقفة ضده أكثر من قرار بالحرمان الكنسي والذي لم يرفع عنه إلا بعد موته مارس 1211م لتدخل البرتغال بعــده في حرب يمكن أن نسميها بحرب الوراثة، إذ بعد اعتلاء ولده ألفونصو الثــاني-البــادن- العرش نشب خلاف مع أخواته اللائي كان والدهن قــد أوصــى لهــن بــبعض القــلاع والأراضي اللائي رفضن الاعتراف له بالسيادة عليها لتنشب الحرب بين الملك وأخواتــه وتتدخل البابوية في الأمر، وأصدر مندوبو البابا قرارا بالحرمان ضد الملك،ولمــا تفــاقم النـــــزاع تـــــدخل البابـــــا وحـــــل الإشـــــكال بـــــأن يعهـــــد بتلـــــك

---

[1]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج2، ص92.

[2]. بكسر أوله وسكون ثانيه وباء موحدة ،مدينة بغربي الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام وهي غربي قرطبة وهي قاعدة ولاية أشكونية وبينها وبين قرطبة عشرة أيام للفارس المجد.انظر ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج3، ص257.

[3]. عبد الله عنان،المرجع السابق، ج3،ص610.

الأمـــاكن إلـــى فرســـان الداوية[1]مع خضوعها للملك ويذهب دخلها للأميرات[2].

2/شبه الجزيرة الايطالية: على غرار شبه الجزيرة الأيبيرية كانت هي الأخرى تشهد انقساما شديدا استمر الى غاية العصر الحديث، وكان العداء شديدا بين كياناتها السياسية والذي كانت تحركه المطامع التجارية، كما كانت في ذلك العهد وهي تستعد لدخول عصر النهضة مقسمة سياسيا إلى دويلات و إمارات ووحدات سياسية تحكمها أسر معينة لا تكاد الحروب تتوقف بينها، وكانت أراغون تملك منها المناطق الجنوبية (جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا) مملكة الصقليين ومدينة نابولي،عموما يمكن أن نرسم أو نحدد ملامح خارطتها السياسية في العصر الوسيط على النحو التالي.

1–فلورنسا: تقع في شمال غرب ايطاليا، وهي دولة مدينة تتمتع بحكم ذاتـــي، عرفـــت أزهى عصورها في الفترة الممتدة من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر، وكان يشوب الحياة السياسية بها منازعات طبقية عنيفة بين النبلاء والأثرياء من جهـــة، وبـــين أفراد الطبقة الكادحة أو الدنيا من جهة أخرى[3]، ظهر بها حزبان كبيران أحدهما يناصـــر الإمبراطورية وهو حزب الجولف[4]،و الآخر يناصر البابوية وهو حزب الجبليين[1]، الأمـــر

[1]. الداوية أو فرسان المعبد (*(Templers)*) *Templiers* نشأت إلى جانب هيئة الاسبتارية على أساس حربي يرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة1118م عندما وضع أساسها هيو دي باينزHugues de Payens وغيره وقد اختارت هذه الهيئة جزءا من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ببيت المقدس ليكون مقرا لها ،ومن هنا جاءت تسميتها باسم فرسان المعبد التي خرفت في اللغة العربية الى كلمة الداوية ،وقد نمت الداوية والاسبتارية نموا سريعا في القرن 12 وزادت أملاكها عن طريق الهبات والهدايا والغزو والنهب حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثراء.انظر محمود سعيد عمران ،حضارة أوروبا في العصور الوسطى ،ط1،دار المعرفة الجامعية ،1998.ص111،انظر أيضا
M Lecuppre Gilles, histoire médiévale, pp26-27-45.

[2]. عبد الله عنان، المرجع السابق،ج3،ص611.

[3]. كان دانتي الييجيري الأديب عضوا في مجلس المائة ثم مستشارا لمدة شهرين بهذه الإمارة.

[4]. كانت غالبية أعضائه من الطبقة الوسطى التي اكتسبت ثروتها من التجارة ،وغلب عليهم التمسك بالدين والتعصب لآرائهم.

الذي أدخل الإمارة في جو من التناحر والفوضى السياسية بين أكبر الأسر الفلورانسية وهما:أسرة ألبيزي*(Albizzi)*و مديتشي *(Medici)* اللتان تكونتا من أكبر التجار والمصرفيين بالمدينة[2] انتهى بانتصار الأخيرة في النصف الأول من القرن الخامس عشر ميلادي لتدخل الإمارة فترة من الاستقرار والهدوء السياسي.

2- نابولي: تشتمل على الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الايطالية مضافا إليها جزيرة صقلية،كانت هي الأخرى تعمل ما في وسعها لإحراز أو إيجاد موطئ قدم لها ضمن تجارة الشمال الإفريقي[3]، ونظرا لإستراتيجية موقعها فقد بدأ التنافس يشتد حولها بين فرنسا وإمارة أراغون قصد السيطرة عليها،مستغلين في ذلك حالة الضعف التي آلت إليها ايطاليا بشكل عام،وقد انتهى هذا الصراع بفوز اسبانيا واستحواذها على جزيرة صقلية، ويذكر القلقشندى أن صاحبتها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي كانت تعرف بجوانا[4].

ميلانو:تقع في الشمال الغربي لشبه الجزيرة، ظهر بها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر حكم شبه عسكري[5] فأصبحت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تنيب عنها أحد الرجال العسكريين في حكم الولاية،كما ظهرت جماعة من المرتزقة *condottieri* تختص بصناعة الحرب، فظهرت أسرة سفورزا *"Sforza"* التي سيطرت على شؤون الحكم بالإمارة في منتصف القرن الخامس عشر والتي نشأ بينها وبين البندقية صراع للسيطرة على الجزء الشمالي من ايطاليا[6].

---

[1]. كان معظم أعضائه من الواقعيين،كان اهتمامهم بالشعب قليلا،فقد انشغلوا بتحقيق مطامحهم الشخصية،مع العمل في نفس الوقت على استمالة الشعب الى جانبهم عن طريق منحه نوعا من الديمقراطية وإشراكه في إدارة شؤون الدولة.

[2] . *M Lecuppre Gilles, op.cit, p36.*

[3].*Mas Latrie, op.cit, introduction, p162.*

[4]. القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الانشا،ج8،ص55.

[5]. فاروق عثمان أباضه، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية2003 ، ص50.

[6]. *Mas Latrie, op.cit, Introduction, p252-332.*

البندقية[1]:تقع في شمال شرق ايطاليا، تطل على البحر الأدرياتي تميزت عن غيرها من الإمارات الايطالية باستقرار نظام الحكم بها، والذي قام على مؤسسات تشريعية هامة،كالمجلس الكبير ومجلس الشيوخ ومجلس العشرة، وكان على رأس الحكومة " الدوج"[2] الذي ينتخب لهذه الوظيفة مدى الحياة[3]،ومع كل ذلك فان السلطة والنفوذ كانت متركزة بيد الطبقة التجارية التي كانت تركز تجارتها مع بلاد المغرب وخاصة الأوسط والأدنى وهذا من خلال الوثائق التي تختص بهذا الجانب[4]، ونظرا لمحاولتها التدخل في الشؤون الداخلية لايطاليا، فقد ظهر التدخل الأجنبي من طرف فرنسا واسبانيا، وأدخلها في صراع مع غيرها من الإمارات، ومما تجدر الإشارة إليه أن مظاهر الإقطاع انعدمت بهذه الإمارة لانعدام السبب وهو عدم امتلاكها لمساحات أو أراضي كثيرة صالحة للزراعة.

جنوه: تقع في شمال غربي ايطاليا تقع على سهل ضيق على طول خليج جنوه ومنحدرات الجبال المجاورة وفي القرن الثاني عشر انضمت الى الصليبيين فكونت مستعمرات تجارية على طول سواحل الحوض الشرقي للمتوسط وفي ق13[5] سيطرت على وسط البحر المتوسط بما في ذلك جزيرتا كورسيكا وسردينيا، وحاولت الحفاظ على هاته المكانة ودخلت

---

[1]. تشكلت من العناصر الايطالية الفارة من غارات قبائل الهون في القرن الخامس ميلادي،والتي وجدت في الجزر البعيدة عن الساحل ملاذا آمنا من غزواتهم،ثم ولوا وجوههم نحو البحر مكونين مراكز تجارية تتعامل مع المناطق المجاورة التي جلت لها أموالا طائلة.

[2]. الدوق بالضم،كلمة ذات أصل لاتيني"Doge "وتعني الشخص الذي يمتلك أعلى مراتب الشرف والسمو بعد الأمير،وكان يختص بإدارة إقليم أو منطقة معينة،بينما تعني الكلمة في العربية،الحمق، والدائق هو الهالك حمقا.أنظر ابن منظور، المصدر السابق، ج10، ص 108.

[3]. فاروق عثمان أباضه، المرجع السابق، ص52.

[4] *.Mas Latrie, op.cit, Introduction, pp263-266-270.*

[5] *.Ibid, Introduction, p29.*

سلسلة من الحروب ضد المدن الساحلية الأخرى قصد السيطرة على التجارة في هذا الشطر الشرقي من المتوسط ومن بين المدن التي دخلت معها في تلك الحروب فيينا التي انتهت بهزيمتها جنوة عام 1830م لتبدأ في فقد قوتها تدريجيا وقد شهدت صراعات دامية بين النبلاء حول من يسيطر على الحكم انتهت بالإطاحة بنظامهم ليمتلك حاكم يسمى الدوج *le doge de gene* الذي ينتخب من أفراد عائلة بارزة والذي كان يقوم بنفسه بتعيين قناصله في الخارج[1]، ولا يستبعد ما لاتري أن تكون هذه المدينة قد قامت باعتداءات ضد عاصمة الحماديين بجاية لكن دون الإعلان عن سبب الاعتداء والذي لا يستبعد أن يكون اقتصاديا[2].

الصقليتين [3]:كانتا محكومتين من قبل أسرة آل آنجو،ولعل من أبـــرز شخصـــيات هـــذه الأسرة شارل دانجو *Charlesd'Anjou* الذي استحوذ على اهتمام المعاصرين في النصـــف الثاني القرن الثالث عشر الميلادي، وهو ينحدر من العائلة الملكية الحاكمة الفرنسية، و هو الأخ الأصغر لملك فرنسا (لويس التاسع)(1226-1270)،وقد صوره المؤرخون صـــورة غاية في القتامة ووصفوه بأنه كان شريرا وناكثا للعهد وماكرا وعلى استعداد ليغرق فـــي الدماء من يبدي أقل مقاومة لحكمه[4]،فقد كان شجاعا لدرجة التهور، وطموحه لا ينتهي عند حد، إضافة إلى غروره واعتزازه بأصله الفرنسي، وهذا ما دفعه إلى الإساءة في معاملته لأهل الصقليتين وامتصاص مواردهم وإغراقهم في بحر من الدماء، الأمر الذي ولد فـــي نفوسهم جروحا غائرة كرهتهم فيه وفي العنصر الفرنسي ككل،وهو ما أدي إلـــى انفجـــار

---

[1] . *voir, Mas Latrie, op.cit, Introduction, p88.*

[2] *.Ibid,Introduction,p35.*

[3]. *The two sicilies* يقصد بها جزيرة صقلية و جنوب ايطاليا ،اللتان تم توحيدهما على يد روجر الثاني النورماني الذي اتخذ لقب ملك في رأس سنة 1130م في عاصمته بالرمو.

[4] *.Jordan.E. les Origines de la domination Angevine en Italie, Paris 1909, pp410-415.*

ثوري عنيف في صقلية في 29 مارس 1282م أطاح بشارل آنجو وقضى على طموحه في غزو العالم[1].

كانت صقلية منذ وفاة فريدريك الثاني647ه/1250م مسرحا لمعركة طويلة بين أنصار البابا وأنصار ذرية الإمبراطور،غير أن البابا (اينوسان الرابع)*Innocent IV* قد عمد في 651ه/نوفمبر 1254 إلى تعيين موظف جديد على رأس قنصلية صقلية بتونس وهو(سارج *Serge* ابن أندري كابيونو *André Del Campo*في الحين الذي كان فيه أحد أبناء الإمبراطور غير الشرعيين والمدعو (منفريد) *Manfred* يستعد للاستيلاء على جنوب ايطاليا بعدما تم إقرار نسبه لأبيه[2].

لقد خلف ملك أراغون بيدرو الثالث الذي لم ينجب أولادا أخوه خايم الثاني ملك صقلية، فأصبح التاجان من جديد على رأس ملك واحد مدة بضع سنوات[3].

---

[1]. إسمت غنيم، شارل دانجو وسياسته في الصقليتين، دار المعارف1992، صص5-6 .

[2]. روبار برانشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13الى نهاية القرن 15م، ط1، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1988م،ج1، ص74.

[3]. نفسه،ج1، ص138.

الباب الأول

العلاقات الاقتصادية

بين دول المغرب وجنوب غرب أوروبا

الفصل الأول

الواقع الاقتصادي في بلاد المغرب

المبحث الأول: الواقع الاقتصادي في المغرب الأدنى

اكتسى اقتصاد المغرب الأدنى في العصر الوسيط صبغة ريفية وحضرية في آن واحد، لكنه ارتكز بشكل كبير على الزراعة وتربية الماشية، وقد ساعد اتساع نطاق حياة الترحال المترتب عن الغزوة الهلالية، على تعويض زراعة الأرض بتربية الماشية في مناطق واسعة من البلاد[1]،لكن هذا لم يمنع من مزاولة نشاطات اقتصادية وبالأخص الزراعية والحرفية في أنحاء أخرى من افريقية.

أولا:الزراعة:

[1]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2،ص457.

1-عواملها وإمكاناتها: توافرت بالدولة الحفصية أو بالمغرب الأدنى مجموعة من العوامل الطبيعية التي ساعدت على نجاح بعض الزراعات ولو أنها كانت قليلة ومحدودة مقارنة بالمغرب الأقصى والأوسط كما سنرى، ومنها.

أ-الشبكة المائية:تواجدت بالمنطقة جملة من الأودية والأنهار ساعدت على إنجاح وإنعاش الزراعة بها ومنها.

أ1/واد البربر: وينبع من بعض الجبال المتاخمة لإقليم مدينة أوربس،و هو كثير الانعراجات يجري بين التلال والجبال ويصب في البحر المتوسط قرب مرسى خال يسمى طبرق[1].

أ2/مجردة : ينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب قرب مدينة تبسة متجها نحو الشمال إلى أن يصب في المتوسط في المكان المسمى غار الملحعلى،بعد نحو أربعين ميلا من تونس ويفيض كثيرا أيام الشتاء.

أ3/واد ملاق: ينبع من منطقة بالقرب من تبسة ويصب بعد ذلك في المجردة[2].

أ4/واد قابس: وهو جدول ماء نابع في صحراء إلى جهة الجنوب، ينحدر عبر سهول رملية ليصب في المتوسط قرب مدينة قابس وهو حار جدا[3].

أ5/وادي زرود :في قبلة القيروان بينها وبينه أميال يسيرة و أصله من موضع يعرف بفران وهذا الوادي يمر في طريقه على مزارع تسقى منه وينتفع به فيها[4].

---

[1]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص253.

[2]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص253.

[3]. نفسه،ج2،ص253.

[4]. التجاني(أبو محمد عبد الله بن أحمد)، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب،الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس 1981، ص118.

من هنا نلاحظ أن المغرب الأدنى يعتبر فقيرا من حيث الثروة أو الشبكة المائية، ويعود السبب في ذلك إلى طبيعة التكوين الجيولوجي للمنطقة، إذ لا تتواجد به قمم أو سلاسل جبلية تحجز الكتل الهوائية الرطبة أو كميات هامة من التساقطات تغذي تلك الأودية، وكذلك لطبيعة الأرض الصحراوية والرملية التي لا تسمح بوجود أودية دائمة الجريان وطويلة لمساميتها، و لتبخر جزء هام منها، وما يدل على ذلك النقص، هو أن أهلها كانوا يأخذون منها الماء في قنوات محكمة البناء ليرسل بواسطة آلة مكونة من عجلة (ناعورة) يحركها بغل أو جمل فتسقي المزروعات[1]، وعاصمة السلطنة التي كانت فقيرة من ناحية الثروة المائية حتى أن أهلها كانوا ينشؤون أماكن خاصة لتجميع مياه المطر ليستفيدوا منها بينما استأثر القصر السلطاني بالساقية التي كانت تأتي من ناحية زغوان[2]، ومدينة

القيروان التي يصفها العبدري أيضا بأنها ليس لها بر ولا بحر ولا شجر وأنها وضعت في سبخة قرعاء لا ماء لها ولا مرعى ولا تنبت أصلا [3].

ب-السهول: وأهمها

ب1/سهل أوربس[4] : سهل جميل جدا، وهو زهرة أقاليم إفريقية كلها،أرضه خصبة جدا منبسطة تماما مع سهول كبيرة في السقي، وتزود هذه البادية بلاد تونس كلها بالقمح والشعير،ويقول فيها الوزان لو عرف هؤلاء الملوك ما تشتمل عليه هذه المنطقة من خصب وإنتاج سواء في الحبوب أو الماشية أو في غزارة المياه ونقاوة الهواء لهجروا

---

[1]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص75.

[2]. محمد العبدري، رحلة العبدري، مخطوط،ورقة رقم 21.

[3]. نفسه، ورقة 31.

[4]. أوربس،إسم لمدينة عريقة بناها الرومان، تقع على بعد نحو 30 كلم شرق الكاف. انظر الوزان، المصدر السابق، ج2، ص65.

تونس بلا شك، ويعرف الأعراب ذلك كله فيأتون كل سنة إلى بادية أوربس ويملئون أكياسهم قمحا دون أن يؤدوا أي ثمن[1].

ب2/سهول رادس : وهي عبارة عن مزارع متسعة تجود بكل أنواع المحاصيل الزراعية[2].

ب3/سهول القصبة[3]: تمتاز بأراضيها الخصبة، لكنها على آخر أيام الدولة الحفصية لم تعد مزروعة بسبب عجز ملوك تونس وكسل سكانها الذين أصبحوا يموتون جوعا رغم وجود تلك الأراضي بأيديهم[4].

ب4/سهل بنزرت: وهو سهل يمتاز بفساحته وعظمة إنتاجه، لكن ونظرا لأن أهله كانوا مثقلين بالضرائب فأنهم كانوا متثاقلين في زراعته أو استنباته[5].

وهناك جملة أخرى من السهول المتواجدة بالمنطقة، مثل تلك التي تواجدت بجزيرة شريك[6]، والتي كانت معروفة بالخصب والبركة ((ففيها خصب زائد على غيرها من الأرضين)) على حد تعبير التجاني[7].

ونجد العبدري يصف لنا قسنطينة ببلد الوضع العجيب والموضع الخصيب اذ جمعت بين المنعة والحصانة والخصب الوفير والتي صارت بفضله وبفضل موقعها ورياضها كالحسناء[8]

---

1. الوزان، المصدر المصدر السابق،ج2،ص65.
2. التجاني،المصدر السابق،ص5
3. مدينة عتيقة بناها الرومان تبعد ب 34 ميلا عن تونس،وعلى أيام الوزان كانت أسوارها لا تزال قائمة والتي بنيت بصخور ضخمة منحوتة، الوزان، المصدر السابق، ج2، ص67.
4. الوزان، المصدر السابق ،ج2،ص67.
5. نفسه، ج2، ص67.
6. تنسب الى شريك العبسي أحد العاملين عليها، وهو والد قرة بن شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك.
7. التجاني، المصدر السابق، ص11.
8. العبدري، رحلة العبدري، مخطوط،ورقة 17.

ج-اليد العاملة: كباقي دول المغرب فقد كان اعتماد سكان افريقية بالدرجة الأولى على الزراعة، ولهذا فقد وجد هذا القطاع ما يكفيه منها.

2/ الإنتاج الزراعي: ويمكن تقسيمه الى قسمين:

أ/الإنتاج النباتي: كانت أرض المغرب الأدنى تجود بشتى أنواع الغلال وهناك من المناطق ما اشتهرت ببعض المحاصيل فتعدت بذلك شهرتها الآفاق.

فبالنسبة للحبوب نجد زراعة الشعير منتشرة بمناطق عديدة وواسعة من إفريقية لأنها مثلت آنذاك الحبوب الأكثر استهلاكا لدى الحفصيين[1]، أما القمح الصلب-دون سواه- فقد اشتهرت به سهول باجة حتى ظهر فيها المثل القائل((لو كانت هناك باجتان لفاق عدد حبات القمح عدد حبات الرمل))[2]، إضافة إلى سهول بنزرت وسهل ماطر العظيم والكبير

الخصوبة المنتج إلى أقصى حد[3]، وكذا منطقتي قسنطينة وعنابه[4].

أما محصول الزيتون فتواجد وبكميات عظيمة بطبلبة وبسوسة[5] واشتهر بجودته وكثرة الزيوت المستخرجة منه،كما تواجد بالمنستير[6] عدد لا حصر له من أشجاره[1] إضافة بجربة التي كان أكثر شجرها الزيتون[2].

---

1. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص458 .
2. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص66 .
3. نفسه،ج2، ص68. انظر أيضا، روبار برانشفيك، المرجع السابق ،ج2، ص458.
4. روبار برانشفيك، المرجع السابق ،ج2، ص 458.
5. سوسة مدينة تقع على المتوسط وتبعد بنحو12 ميلا شرق المنستير ،انظر الوزان، المصدر السابق،ج2،ص83-85.
6. المنستير هو رباط بتونس شيده هرثمة ابن أعين عام 180ه/796م على يدي زكريا بن قادم، لاتزال بعض آثاره قائمة وهو عبارة عن مساحة مربعة يحيط بها من الخارج سور كبير مشيد من الحجر وفي زواياه أبراج دائرية

اشتهرت افريقية بإنتاجها للتمور وذلك لغلبة الطابع الصحراوي على معظم أرضها، فنجد زراعة النخيل قد انتشرت في مناطق عدة منها وبالأخص في قابس[3] التي احتوت على أعداد كثيرة منها، وبقابس[4] -جنة الخلد وإستبرقها- التي بها من الجواسق والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف[5]، وكذا بطرة وبشرى -قاعدتي بلاد نفزاوة- إذ كانتا محفوفتين بالنخيل فكان بهما التمر المفضل على جميع البلاد[6]،إضافة إلى منطقة قرية -الزارات- التي كانت ذات نخل كثير وماء غزير[7].

أما التفاح فتواجد بتبسة[8] وبجربة التي قال فيها التجاني((...وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير لما يوجد بها من شجره منه صفاء وجفافا وطيب مذاق وعطارة استنشاق ورائحته توجد من المسافة المديدة والأميال العديدة))[9]،كما اشتهرت به ميلة التي أخذت اسمها منه-أي الاسم اللاتيني ميله الذي يعني التفاح[10]،وتواجدت على حواف المدن العديد من البساتين التي اشتملت على كل صنوف الفواكه كالبرتقال والليمون

للمراقبة.انظر الرقيق القيرواني،تاريخ افريقية والمغرب ،ط1،تقديم وتحقيق،محمد زينهم ومحمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1994، ص124

[1]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص85.

[2]. التجاني، نفس المصدر، ص 122.

[3]. مدينة بين طرابلس و صفاقس ثم المهدية على ساحل البحر فيها نخل وبساتين غربي طرابلس الغرب بينها وبين طرابلس ثمانية منازل وهي ذات مياه جارية من أعمال افريقية في الإقليم الرابع فتحت مع القيروان سنة 27،انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج4، ص289.

[4]. مدينة بحرية صحراوية فان الصحراء متصلة بها ،والبحر على ثلاثة أميال منها، ويقال أنه لا يجتمع في مائدة صيد البر وصيد البحر وأصناف التمر إلا في مائدة من يسكن قابس.انظر التجاني ،المصدر السابق، ص87.

[5]. التجاني، المصدر السابق، ص86.

[6]. التجاني،المصدر السابق، ص142.

[7]. نفسه، ص119.

[8]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص13.

[9]. التجاني، المصدر السابق، ص 122.

[10]. ميله، تبعد عن قسنطينة بحوالي 12 ميلا وهي مدينة قديمة من بناء الرومان)) التفاح .

بحواف مدينة تونس[1]، والتين بجزيرة جربة و بقرطاجنة[2] ، وطرة وبشرى التي تواجد بها بها سفرجل قل في جميع البقاع ما يناظره أو يقرب منه، لطيب طعمه وضخامة جرمه وكثرة مائه وخلوص صفائه، وليس يشبهه إلا السفرجل الموجود بتاجورة -من قرى طرابلس- إضافة إلى أصنـــــــاف الكمثـــــــــري بديـــــــع الشكل شهي الأكــل الذي قلمـــــــــا يوجد مثله طيـــــبا[3]،والتين بقسنطينة وبسوسة [4] ورادس وجربة[5].

أما بالنسبة للمحاصيل الصناعية النباتية، فقد تواجد الكتان ب -نبلة-[6]، كما كان ينبت إلى جانب القنب وبكثرة ببجاية[7]، والسّكر بحقول قمارت[8] وكمرت[9] المجاورة لقرطاجنة،لكن لم يكن أهل تونس على دراية بكيفية تصنيعه أو استخراجه .

كما كانت تنمو بعض النباتات العطرية التي حظيت بعناية الإنسان، وأخرى صبغية تنمو بصفة طبيعية أو تلقائية وبعض النباتات التي كانت تستعمل كعلف للماشية[10].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الزراعة في إفريقية استفادت بشكل كبير من تجربة ومهارة الأندلسيين المهاجرين إليها لا سيما في ضواحي العاصمة تونس[11].

---

[1]. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص77.

[2]. نفسه،ج2،ص69.التجاني، المصدر السابق، ص122.

[3].التجاني، المصدر السابق، ص154.

[4]. الوزان، المصدر السابق ،ج2، صص15-82.

[5]. انظر،التجاني، المصدر السابق، ص5.

[6]. نبلة مدينة صغيرة بناها الرومان على ساحل البحر على بعد اربع فراسخ من تونس من جهة الشرق كانت تسمى في القديم نيابوليس أو المدينة الجديدة.الوزان،المصدر السابق،ج2، ص62.

[7].الوزان، المصدر السابق،ج2، ص102.

[8]. قمارت مدينة تقع على 3 فراسخ من تونس الى الشمال وكانت تسمى قديما فلاشيا،انظر الوزان، المصدر السابق،ج2، ص82.

[9]. كمرت تقع على بعد نحو ثمانية أميال شمالي تونس ،انظر الوزان، المصدر السابق،ج2، ص82.

[10]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص457.

[11]. نفسه،ج2، ص457.

ب2/الإنتاج الحيواني: سادت حرفة الرعي و تربية الحيوان في مناطق متفرقة من تونس، لكننا سنقتصر هنا على أهمها،فقد تواجدت الماشية بميلة وبقسنطينة[1] و الخيل بعنابة[2]،أما تربية الأبقار فسادت بالمناطق الساحلية أين يتوفر الكلأ و المناخ المناسب لعيشها[3]،وكذا تربية الإبل بالمناطق الداخلية و الصحراوية،وتربية النحل و الدجاج و الحمام لدى السكان المستقرين في المدن و الأحواز[4].

أما الصيد البحري فقد مثل موردا هاما من موارد الرزق لدى الحفصيين،ويعود السبب حسب ما أورده بعض الرحالة و الجغرافيين الى فقر السكان و فاقتهم التي دفعتم الى التركيز على هذا النوع من الصيد،إضافة إلى موقع افريقية شبه الجزري، إذ تمتلك واجهتين بحريتين على المتوسط: شمالية وشرقية ولهذا فقد مورست حرفة الصيد في عدة مناطق نذكر منها: صفاقس التي كان أهلها يصطادون كمية وافرة من الأسماك تفوت الإحصاء، ومنها سمك (سباريس)، ويعود ذلك الى افتقارها لكل شجر أو فاكهة أو ماء على حد تعبير التجاني، ناهيك عن صوف البحر-الإسفنج- الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية إضافة الى الخز[5].

أما بنزرت فاحتوت على بحيرة كان يصطاد بها الكثير من السمك، وخاصة سمك -المرجان الكبير- الذي يزن من خمسة إلى ستة أرطال، وعند انتهاء شهر أكتوبر يصطاد منها نوع آخر من السمك يسميه الأفارقة -زرافة- وهو الذي يحمل اسم لاتشيا في روما (هو الشابل)،أما قابس المدينة البحرية الصحراوية -لان الصحراء متصلة

---

1. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص15.
2. انظر الوزان،المصدر السابق،ج2، ص8-15.
3. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص457.
4. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص457.
5. التجاني، المصدر السابق، ص68، انظر أيضا روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص457.

بها،والبحر على ثلاثة أميال منها- فيؤثر أو يقال عنها((انه لا يجتمع في مائدة صيد البر وصيد البحر وأصناف التمر إلا في مائدة من يسكن قابس))[1].

ثانيا الصناعة:

أ/ مقوماتها:

أ1 **الطبيعية:** توافرت بالمنطقة جملة من المواد الأولية أو الخام التي استعملت في الكثير من الصناعات منها ما هو نباتي كالزيتون وقصب السكر و الحبوب ومنها ما هو حيواني كالأصواف والجلود ومنها ما هو معدني،وبما أنه سبق لنا وأن عرضنا المصدرين الأولين فسنكتفي هنا بذكر ما احتوى عليه المغرب الأدنى من معادن لكن ما يمكن ملاحظته أنها أفقر مناطق بلاد المغرب الثلاثة من هذه الناحية.

إن أهم مورد معدني تمثل دون شك في الملح الذي كان يستخلص من ملاحة أو ربوة الوطاية الواقعة شمال غربي بسكرة وكذا من سبخة رأس المخبز الواقعة غربي زوارة[2]،أما بجاية وتحديدا بجبال زوارة فتواجدت معادن الشب والحديد الذي كانت تصنع به السبائك وتستعمل كعملة[3] والذي لم يكن كافيا لتلبية الحاجات المحلية فكان من اللازم اللجوء إلى الاستيراد لسد العجز[4]، وبمدينة زوارة[5] تواجد الجير أو الجبس ومنها كان ينقلان إلى طرابلس[6]، أما الرصاص فتواجد ببعض أقاليم الدولة الحفصية، لكن دون معرفتنا بمناطق استخراجه تحديدا لأننا استقينا ذلك من جملة المعاهدات (1251-1271-1391-1438م) التي عقدت بين البندقية والحفصيين لحصولها على حرية استخراجه من

---

[1]. التجاني،المصدر السابق،ص87.

[2]. روبار برانشفيك، المصدر السابق،ج2،ص239.

[3]. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص102. انظر أيضا، روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2،ص275.

[4]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2،ص240.

[5]. زوارة منطقة تقع على بعد خمسين ميلا شرق جربة .

[6]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص96.

تلك الأقاليم وإعفاءه من الأداءات الجمركية[1]،أما العاصمة تونس فاشتهرت برخامها فيصفها العبدري ((بأنها في نهاية الاتساع ونهاية الاتقان والرخام بها كثير وأكثر أبواب ديارها معمول منه))[2].

أ2:البشرية:توافرت بشكل كبير لكن ما ميزها هو تركزها في قطاعات صناعية محدودة والتي مثلت في الواقع مصدر دخل هام لأصحابها وللسلطنة.

ب/الإنتاج الصناعي: إن ما ميز الدولة الحفصية واختصت به هو النسيج،نظرا لتوافر مادته الأولية،ومن المراكز التي ظهرت بها هذه الصناعة نجد بجاية التي كانت تصنع بها كمية كبيرة من القماش الخشن مما توافر لديها من الكتان والقنب الكثير[3]،وسوسة التي تنسب إليها الثياب الرفيعة السّوسية التي كان يشتغل بها معظم سكانها فكان المسافرون يقصدونها من الآفاق لاقتنائها[4]،ونفس الشيء بالنسبة لتونس المدينة التي كان جل سكانها نساجون لما كانت تدره عليهم من أموال، إذ كانت تباع في إفريقيا كلها وبأثمان باهظة لأنها رفيعة ومتينة[5].

ومن جهة أخرى فقد اختصت صفاقس بعمل الثياب الرفيعة الملوكية من صوف بحرها، وجزيرة جربة التي ليس بافريقية لما ينسج من أثوابها نظير، وهذا ما أعطى الجزيرة شهرة بعيدة[6]،أما قسنطينة فاشتهرت بأقمشة الصوف والتي كان أصحابها يحملونها الى نوميديا قصد بيعها هناك[7].

---

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2،ص275.

[2]. العبدري، رحلة العبدري، مخطوط ،ورقة رقم 21.

[3]. الوزان،المصدر السابق، ج2،ص102.انظر أيضا، روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2،ص458.

[4]. التجاني، المصدر السابق، ص25-26.انظر أيضا الوزان، المصدر السابق،ج2،ص84.

[5]. الوزان، المصدر السابق، ص74.

[6]. التجاني، المصدر السابق، صص68-122.

[7]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص59.

وبخصوص باقي الصناعات فكانت محدودة الانتشار، ومنها الصناعات الغذائية التي اشتملت على جملة من الفروع منها عصر الزيتون واستخراج الزيوت، وخاصة في سوسة لما كان بها من شجر الزيتون الذي تستخرج منه كمية وافرة من الزيت[1]،كما انتشرت صناعه الدقيق على طول المجاري المائية أو على المساقط المائية أين أقيمت الأرحاء، كتلك التي كانت بمدينة أوربس[2]،أما صناعة الشمع والعطور فقد كانت منتشرة بتونس وغيرها من المناطق[3].

أما صناعة الزّليج فلم تتوطن بتونس المدينة إلا حوالي ق 8ه/ 14م تحت تأثير الأندلسيين النازحين إليها، ومن بين من تعاطوا صناعة الزليج في العاصمة الحفصية الولي الصالح سيدي قاسم الزليجي أصيل مدينة فاس وذلك في أواخر ق9ه/15م[4].

كما انتشرت صناعة الأباريق والأواني وخاصة بمدينة سوسة التي كانت تزود بها الساحل كله بما في ذلك تونس[5]،إضافة إلى الصناعات الجلدية بتونس التي كانت تنتج البلاغي[6] على غرار ما كان في مدينة فاس المغربية مستغلة في ذلك ما تحصل عليه من جلود الحيوانات.

---

[1]. نفسه،ج2،ص83. انظر أيضا، روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص458.

[2]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص65.

[3]. ابن الشماع(أبو عبد الله محمد بن أحمد)، الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية،تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م، هامش رقم1، ص57.

[4]. انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص242–243.

[5]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص84.

[6]. انظر،ابن الشماع، المصدر السابق، ص57،.انظر أيضا روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2،ص458.

إضافة الى هذا فقد تواجدت صناعات حرفية أخرى كالخزف وصناعة الحصائر والحلفاء والدباغة وصناعة البلور والشمع والصابون والنقش على الجبس أو الخشب وصناعة البناء[1].

3/التجارة الداخلية:

إن الدارس للواقع الاقتصادي في المغرب الأدنى في العهد الحفصي يدرك أن السواد الأعظم من السكان كانوا فقراء، وأن معظمهم كانوا إما صيادين أو نساجين، وهذا ما كان يدفعهم في بعض الحالات إلى التعامل مع تجار أجانب بصفة فردية وغير رسمية وخاصة الوافدين إليها من أوروبا، وهذا ما كان يوقعهم في معاملات تجارية غير عادلة.

لم يمنع هذا الوضع من وجود أسواق وخاصة بتونس التي لم تكن على نفس النظام والتنوع والتخصص كما كانت عليه نظيراتها في الكثير من البلاد العربية والإسلامية عامة والمغربين الأقصى والأدنى خاصة، باستثناء تونس المدينة، ويعود السبب في نظرنا إلى محدودية الإنتاج الصناعي و الزراعي، لأن التجارة في الحقيقة ما هي إلا مرآة تعكس وضعيتهما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الى فقر معظم السكان كما سبق وأن ذكرنا.

---

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، صص243-458.

لهذا فقد غلب على المبادلات التجارية الداخلية والإقليمية صفة الفردية-كأن يبيع الحرفي منتجاته مباشرة للعموم[1]- وعدم الانتظام، اللهم إلا فيما تعلق بأسواق تونس التي احتوت على عدد كبير من تجار القماش الذين كانوا يعتبرون أغنى سكان المدينة

والى جانب أولئك التجار نجد العطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاة بالسكر وتجار العطور والحرير والخياطين والسراجين والفرائين والفاكهانيين واللبانين والخبازين والقصابين الذين كانوا يذبحون الخرفان خاصة[2]،ومما تجدر الإشارة إليه أن اليهود ساهموا بقسط وافر في هذا النوع من النشاط، فقد كانوا يتعاطون التجارة على نطاق واسع سواء داخل البلاد أو مع الخارج[3].

كانت هناك حركة تجارية تتم بين الأقاليم المختلفة مناخا وتربة وإنتاجا، فنجد قسما من تمور الجنوب يوجه إلى الوسط والشمال مقابل الحبوب التي يوفرها التل والسباسب للواحات،فهذه الحركة ذات الاتجاه المزدوج كانت تتم بشكل عادي كتلك التي كانت تتم بين تقرت وقسطينة وبين الجريد والقيروان[4]،و نظرا لأن مدينة تونس عاصمة الدولة و شكلت آنذاك قطبا سكانيا هاما ومستهلكا كبيرا للمواد الغذائية، فلا نستبعد أن تكون قد جلبت القمح من عنابة والأوربس وباجة واستوردت عن طريق البحر الجوز والتين من جيجل والزبيب من جربة كما كان أهل القيروان أيضا يستوردون محاصيل تفتقد في أرضهم كالخروب من جبل وسلات والزيتون والزيت من الساحل وقفصة والرمان والسفرجل والليمون من تونس.

---

[1]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص244.

[2]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص75.

[3]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص244.

[4]. روبار برانشفيك،ج2،ص265، انظر أيضا الوزان، المصدر السابق،ج2، صص134-135-136.

كانت أسواق افريقية تحتضن القسم الأكبر من الأعمال التجارية وخاصة تلك التي تقع داخل المدن، وكانت تستقبل في غالب الأحيان عددا من التجار المسلمين القادمين من الشرق والغرب للبيع والشراء[1]، فبالنسبة لسوق جربة فانه كان شبيها بالمعارض،تباع فيه المواشي والصوف التي يأتي بها الأعراب من خارج الجزيرة ويبيعونهم قماش الصوف الذي يصنعونه محليا وكذلك الزبيب[2]، ولهذا فقد مثلت هذه المدينة مركزا تجاريا هاما إذ كانت تعطي عشرين ألف دوبل من مداخيل الإتاوات والمكس نتيجة لما كان يختلف عليها من التجار حتى من الإسكندرية و تركيا [3].

أما سوسة التي تخصصت بصناعة الأواني من أباريق وقماقم وسائر أنواع أدوات الفخار غير المطلية فكانت مقصدا للكثير من التجار الذين كانوا ينقلونها إلى معظم مدن الساحل[4]، وبخصوص ما تبقى من المبادلات التجارية فكان يخضع للعشوائية إن صح التعبير، فنجد سكان مدينة زوارة مثلا ينقلون الجير والجبس إلى طرابلس للتكسب والعيش منه[5]، وسكان المهدية الذين كانوا يتعاطون التجارة البحرية مع تجار أوروبيين[6]، وكمرت التي كان أصحابها زراع خضر،و كانوا يحملون إنتاجهم بما في ذلك قصب السكر لبيعه في تونس، فلا هم ولا سكان تونس كانوا على علم بطريقة تصنيعه، فكانوا يستهلكونه على حالته النيئة تلك[7]، وهذا ما يدل من جهة أخرى على تدني المستوى الصناعي، وبالنسبة لسكان القيروان الفقراء، فكان أكثرهم يصبغون جلود الغنم والماعز و يبيعونها ملابس

---

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص244.
[2]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص94.
[3].الوزان،المصدر اليابق،ج2، ص94.
[4]. نفسه،ج2،ص84.
[5]. نفسه،ج2، ص96.
[6]. نفسه،ج2، ص86.
[7]. نفسه،ج2، ص82 .

جلدية جاهزة دون وسيط في مدن نوميديا التي لا توجد بها الأقمشة الأوروبية[1]،أي بعيدا عن المناطق التي تتواجد بها بضائع أوروبية من نفس الجنس تنافس البضائع المحلية.

وحمل سكان عنابة الزبدة ليبيعونها بأثمان بخسة[2]، وربما يكون سبب ذلك لكثرتها أو لفقر السكان وعدم قدرتهم على شرائها، وما يدعم هذا الاتجاه أيضا أنه كانت هناك سوق لا يباع فيه سوى دقيق الشعير لصنع البسيس[3]، كما نقل سكان قرطاجنة ثمار حقولهم التي تمتاز بجودتها نحو تونس المدينة[4]،الأمر الذي يؤكد مدى التفاوت المعيشي والاقتصادي بين تونس عاصمة الدولة وباقي المناطق،أما بخصوص التجارة التي كانت أكثر رواجا فهي تجارة العطور، وذلك نظرا لاهتمام سكان مدينة تونس خصوصا بالزينة والعطور، كونهم كانوا متحضرين يهتمون بمظهرهم، فكان العطارون آخر من يغلقون دكاكينهم[5].

---

[1]. نفسه،ج2، ص91.

[2]. نفسه،ج2،ص62.

[3]. البسيس طعام خشن من دقيق الشعير الممزوج بقليل من الماء الخاثر كالصمغ يضاف اليه قليل من الزيت أو عصير الليمون أو البرتقال، انظر الوزان، المصدر السابق، ص 76.

[4]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص70.

[5]. نفسه، ج2، ص78.

المبحث الثاني: الواقع الإقتصادي في المغرب الأوسط

أولا:الزراعـــة:

كانت الزراعة من القطاعات الحيوية التي أولتها الدولة الزيانية كبير عناية حتى صار الغالب على أهلها الفلاحة، وقد وردت الكثير من الأشعار التي تغنت بسخاء وعطاء أرضها المتنوع غير المنقطع[1]، فكانت هذه الحرفة أو النشاط حسب ابن خلدون أكثر تقدما من غيرها من النشاطات لا لشيء إلا لأنها بسيطة و فطرية لا تحتاج الى نظر أو علم[2].

1/عواملها وإمكانياتها:هناك جملة من العوامل ساعدت على نجاح الزراعة بالدولة الزيانية وخاصة بالعاصمة تلمسان في أوقات كثيرة من تاريخ هذه الدولة المليء بالحروب والحصارات.

أ/الطبيعية :وتتمثل في الآتي.

أ1/ الأراضي والسهول الزراعية:

تواجدت بالمغرب الأوسط جملة من السهول الخصبة غرب وشمال تلمسان، منها سهل المنية وسهل الشلف وسهل العباد وسهل متيجة، وقد عرفت تلك السهول بالفحوص وهذا ما أورده المؤرخ يحيى بن خلدون"و تطل-أي تلمسان- على فحص أفيح معد للفلح"[3] والتي كانت تنتج أنواعا من المحاصيل الزراعية[4] التي توجه نحو الاستهلاك الإنساني أو تدخل كمواد أولية للصناعة، وكانت تمتاز بجودتها وخصوبتها، وكان صاحب الاستبصار قد أشار الى خصوبةهذه الأراضي بقوله((وهي كثيرة الخصب رخيصة الأسعار

---

[1]. انظر أحمد المقري، المصدر السابق،ج7، ص121 وما يليها.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص301 وما يليها.

[3]. يحي بن خلدون، المصدر السابق،ج1، ص85.

[4]. الإدريسي(أبي عبد الله محمد)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجموعة من المحققين،مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد- مصر- د ت، المجلد الأول، ص248.

والخيرات والنّعم))[1]، ومن الأراضي الكثيرة الخصب أيضا جبل البغل[2] الذي يقع إلى الجنوب من تلمسان كثير الخصب والعمارة[3]، وكذا سهول –أولاج الجنان– التي تعتبر حسبه من أجمل بقاع تلك البلاد، والتي تقع على جوانب نهر سطفسيف لأنه كان يسقي ما بها من مزارع وأولاج كثيرة[4]، وكذا سهول قصر تمزديكت[5] التي كانت هي الأخرى فائقة الخصب تروى من مياه وادي التافنة ويوجه إنتاجها للاستهلاك المحلي[6].

أما سهول وجدة فامتازت بغزارة إنتاجها، ناهيك عن الأراضي التي احتوت على عــدة حدائــق غرســت بشتى أصنــاف الفواكــه، وسهــول باديــة ندرومة[7] المنتجة إلى أقصى حد،إذ تشاهد حول المدينة بساتين عديدة وأراضي مغروسة بأشجار الخروب، ويتواجد بها العسل بكثرة كما كان ينبت بها القطن بكثرة، وعلى آخر أيام الزيانيين كانوا يدفعون هدية للملك ليسمح لهم بإدخال سلعهم الى تلمسان[8].

كما اشتهرت سهول ملاتة بوهران بخصوبتها الفائقة وإنتاجها الوفير، فكانت تنتهي في الزوج الواحد الى أربعمائة مد[9] كبير.

---

[1]. مجهول،الاستبصار في عجائب الأمصار نشر وتعليق،سعد زغلول،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد –العراق– دت،ص176.

[2]. ربما يقصد صاحب الاستبصار الهضبة التي تعلو تلمسان لأنه يقول "ينبعث تحته نهر سطفسيف الذي يصب في بركة عظيمة منقورة في حجر صلد من عمل الأولين"،الاستبصار ،ص176–177.

[3]. مجهول، الاستبصار ،ص176.

[4]. نفسه، ص177.

[5]. تمزديكت، معناها بلغة البربر المصفاة، ويفترض أن تكون المنطقة عند قمة تل المحصر المتحكم في ممر تفنة المستعمل الآن للسكة الحديدية الرابطة بين تلمسان وفاس،انظر الوزان،المصدر السابق،هامش10، ص11.

[6]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص11–12.

[7]. ندرومة، اسمها مستمد من كلمة ند في لغة الأفارقة –العرب– التي لها نفس المدلول في كلمة سيميليس *similis* اللاتينية مثيل أي أنها كانت ندا لمدينة روما لان الرومان لما كانوا بصدد بنائها اختاروا لها نفس الموقع ونفس التصميم لمدينة روما.الوزان،المصدر السابق،ج2،ص13–14.

[8]. انظر الوزان، المصدر السابق،ج2، ص14–15.

[9]. وحدة وزن قديمة يقدرها يحيى بن خلدون بستين برشالة زنتها ثلاثة عشرة رطلا من البر.

والى الجنوب من تلمسان نجد سهول تفسرة[1] المتقطعة والتي كانت منجبة للحبوب والقمح خاصة، وسهول تسلة[2] الكبيرة التي تنبت قمحا جيدا جميل اللون غليظ الحب فيمكنها لوحدها أن تزود تلمسان بما تحتاجه من حبوب، وسهول بني راشد[3] التي تقع الى الجنوب منه وهي صالحة للزراعة بما في ذلك الجبلية الواقعة الى الشمال منه[4]، هذا إضافة إلى سهول البطحاء[5] الفسيحة التي تنبت قمحا كثيرا[6]، وسهول مستغانم الخصبة الخصبة والجيدة للفلاحة[7]وسهول أخرى مثل سهول مازونة وتنس ومليانة التي يصفها العبدري بالبلدة الخصيبة وقد أعجب اعجابا كبيرا بهوائها ورياضها وأزهارها ومياهها التي جعلت منها روضة ساحرة للألباب[8].

أ/2/الميـــاه:اشتهر

ت بلاد المغرب الأوسط وخاصة العاصمة تلمسان بوفرة منابع مياهها بين أنهار وعيون غزيرة المياه[9]، ومنها العيون التي تسمى –بوريط –التي يفصل بينها وبين المدينة ستة أميال،وكان يجلب منها الماء إلى المدينة منذ القدم،كما كان لها –أي تلمسان–نهر كبير

---

1. تفسرة مدينة صغيرة تقع في سهل على بعد نحو خمسة عشر ميلا من تلمسان، الوزان،المصدر السابق،ج2، ص24، ولا تزال موجودة وتحمل نفس الإسم وبها العديد من المعالم الأثرية القديمة جدا.

2. هو سهل سيدي بلعباس ولاتزال قرية تسالة موجودة شمال شرق بلعباس في سفح جبل تسلة لكن ليست في موقع المدينة القديمة القديمة.انظر الوزان،المصدر نفسه،ج2،ص25.

3. إقليم يمتد على طول نحو خمسين ميلا من الشرق الى الغرب وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلا.الوزان، المصدر السابق،ج2، ص26.

4. الوزان،المصدر السابق،ج2،ص26.

5. مدينة كبيرة متحضرة واهلة بالسكان بناها الأفارقة كانت موجودة على زمن محمد بن تومرت وأقام بها ثلاثة ايام وربما تقع على الضفة اليسرى لواد منى قرب أغيل أزان –ربوة الذئاب التي اخذ منها اسم مدينة غليزان الحالية. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص27-28.

6. نفسه،ج2، ص27.

7. نفسه،ج2، ص32.

8. انظر أحمد العبدري، المصدر السابق، ورقة 13.

9. مجهول،الاستبصار، ص176.

يسمى سطفسيف[1]، الذي يصفه الإدريسي بقوله ((ولها نهر يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين، ويمر في شرقي المدينة وعليه أرحاء كثيرة وجوارها من المزارع كله مسقي))[2] ووادي متشكانة كما يندرج نهر ملوية[3]ضمن بلاد المغرب الأوسط وربما كان ولا يزال أهم نهر بالمنطقة من حيث قدرة صبيبه، إضافة إلى وادي التافنة[4]، ونهر مينا المتوسط من حيث الكبر الذي هو من روافد نهر الشلف، وينحدر من الجبال المجاورة لتقدمت ويمر عبر سهل مدينة البطحاء ثم يتوجه شمالا إلى أن يصب في المتوسط[5]،و الى الى الشرق منه نجد نهر الشلف الكبير الذي ينبع من جبال الونشريس ويمر عبر سهول قفرة في تنس الى أن يصب في البحر المتوسط بالقرب من مستغانم، وكان يصطاد في مصبه كمية وافرة من السمك الجيد الصغير والكبير[6].

أما الشفة فينبع من جبال الأطلس التلي ويسيل في سهل يدعى المتيجة المجاور لمدينة جزائر بني مزغنة،ويصب هو الآخر في البحر المتوسط قرب مدينة تمندفوست[7]

ب/بشـــــــــــــــــــــــــــــرية:

ويمكن أن نحصرها في التالي:

---

[1]. نهر تلمسان ينبعث من أسفل جبل البغل،ويصب في بركة عظيمة من عمل الأول ويسمع لوقوعه فيها خرير شـــديد على مسافة ثم ينشق منه بحكمة مدبرة الى موضع يسمى المهراز، ثم ينصب في أنهار كثيرة ،وبعد ذلك ينحـــدر الـــى البحر.انظر الحميري،(عبد المنعم السبتي)،ط2،الروض المعطار في أخبار الأقطار،تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت1994م،ص318.

[2]. الإدريسي،المصدر السابق، مجلد 1، ص284.

[3]. نهر كبير ينبع من الأطلس في ناحية الحوز ويقطع العديد من السهول، يصب في البحر المتوسط أين يشكل مكانا ملائما لعيش أنواع من السمك الجيد،الوزان،المصدر السابق، ج2، ص250.

[4]. الذي يميل الى الصّغر وينبع من جبال تقع في تخوم نوميديا ثم يسيل نحو الشمال عبر قفر أنكاد الى أن يصب في البحر المتوسط مارا على نحو تسعة عشر ميلا من تلمسان، الوزان، المصدر السابق،ج2، ص250.

[5]. انظر،الوزان، المصدر السابق،ج2، ص251.

[6]. نفسه،ج2، ص251.

[7]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص251.

-اشتغال عدد هام من سكان المنطقة بالزراعة[1] وبذل بعض العائلات لمجهودات كبيرة أدت الى ظهور عائلات وبيوت اشتهرت بالفلاحة كبيت ابن مرزوق[2].

- تشجيع الدولة الزيانية لها بشتى الطرق، إذ قامت بشق القنوات المائية مثل ساقية النصراني وبناء الخزانات مثل الصهريج الكبير وشرائها للمنتوج الزراعي من الفلاحين لتخزينه في المطامير لوقت الحصار الذي كانت تتعرض له الدولة من حين لآخر، ومما يدل على ذلك هو استدعاء أبو زيان الأول[3] سنة706 هـ/1307م لخازن الزرع ابن حجاف وسؤاله عن عدد الأهراء والمطامير المختومة -المليئة- المتبقية فرد بأنه بقي عولة اليوم وغد فأمره حينها بكتمانها[4]،هذه الظاهرة التي لجأ إليها أبو تاشفين[5] أيضا حينما حينما أمر بحمل الزرع من مناطق مملكته الشرقية فشحنت مخازنها أقواتا نامية من القمح والشعير والسمن وغير ذلك[6].

- إن الحياة الاقتصادية في تلك الفترة امتازت ببساطتها، فكانت الزراعة تستقطب أكبر عدد من السكان، وتمثل سبيلا هاما من سبل الرزق، كما أن الإسلام وعلى عكس ما كان لدى الأوروبيين يشجع استنبات الأرض وزراعتها بدلا من تحقير حرفة الزراعة وطبقة الفلاحين أوالحرفيين بشكل عام،فنجد مثلا عبد السلام التنسي[7] العالم والزاهد المتصوف يتعهد الأرض

---

[1]. محمود بوعياد،جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري-الخامس عشر ميلادي -ش و ن ت،الجزائر، د ت،ص33.

[2]. يحي بن خلدون، المصدر السابق،ج1، ص114.

[3]. من ملوك تلمسان وهو أخو أبي حمو الأول،وهو ابن أبي سعيد بن أبي يحيى يغمراسن، امتاز بخلاله الحسنة،وعلى عهده انفرجت الأزمة والحصار عن بني زيان، كان مولده سنة 659ه ،وبويع يوم الأحد 02 ذي القعدة سنة 703ه، يحيى بن خلدون،المصدر السابق،ج2، صص122-123.

[4]. عبد الرحمن ابن خلدون،المصدر السابق،ج7،ص129.حول الحصار ونتائجه،انظر يحيى بن خلدون،المصدر السابق،ج2، صص122-123.

[5]. وكان حسب يحيى بن خلدون فاضلا حميد السيرة، وأن الدولة في عهده تقدمت وتحضرت، كان مولده سنة 692ه، أما بيعته فكانت يوم الخميس 23جمادى الأولى سنة 718ه،انظر يحيى بن خلدون،المصدر السابق،ج2،ص133.

[6]. يحيى بن خلدون،المصدر السابق،ج2،ص137.

[7]. أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي عالم وصالح ألف كتبا كثيرة توفي في تلمسان في حدود سنة 680ه/وقبره في العباد بتلمسان ،انظر التنسي(محمد بن عبد الله)، تاريخ بني زيان،ملوك تلمسان،مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان

بالزراعة والاستنبات، فكان يأكل الشعير من حرث يده على حد تعبير ابن مريم[1]،وعائلة الشيخ الصالح أبي عبد الله بن مرزوق الذين كانوا أهل صلاح ووجاهة بالدين لكنهم مع ذلك امتهنوا الفلاحة.

إذن نستنتج بأن الفلاحة كانت تمثل النشاط الأكبر في المغرب الأوسط وهذا ما جعل –دينيس بوليم– يقول ((إن للفلاح مجالا يكاد يكون مساويا أو مطابقا تماما للمجال الذي انتشر فيه الإسلام ،ومن هنا تكاد كلمة فلاح لا تنفصل عن كلمة إسلام))[2] و بغض النظر عن خلفيات القول نتيجة اختلاف الدين والتوجه إلا أن المنطقة العربية والإفريقية اشتهرت بهذه الحرفة منذ أقدم العصور وأكدها الإسلام بدعوته الى تحبيبها للمسلمين لأنها كانت و لا تزال تمثل عماد اقتصاد الدول ومؤشر استقلالها واستمراريتها.

–يضاف إلى هذه العوامل البشرية أخرى تنظيمية تتمثل فيما أمدتنا به بعض النوازل من معلومات قيمة عن نظام الري في المنطقة إذ كان نظام الري بها منظما تنظيما دقيقا للغاية، بحيث كان المزارعون يتعاونون فيما بينهم على سقاية الأرض على نحو بلغ غاية في الترتيب، فقد كان بتلمسان عين ماء مشتركة بين أهلها يسقون منها بساتينهم ومزارعهم، فمنهم من كان يروي أرضه نهارا ومنهم من يرويها ليلا وفئة ثالثة كانت تروي من الغداة الى الزوال، وجماعة تروي من الزوال الى العصر، ويضيف الونشريسي بأن تلمسان اشتهرت بكثرة قنواتها التي تستمد مياهها من الوادي وتتشعب تلك القنوات

شرف بني زيان،حققه وعلق عليه محمود بوعياد،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1985م،ص127،وهناك اختلاف في كنية الرجل إذ نجده لدى صاحب البستان–التونسي–ص112.

[1]. ابن مريم (أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد)،البستان في أخبار علماء وأولياء تلمسان،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1986م، ص112.

[2] .*Denise Paulume, les civilisations africaines, 6eme édition, presse universitaire de France, Paris 1974, p102.*

لتروي المزارع والبساتين خارج المدينة[1]، وكذاالهجرات الأندلسية التي اتجهت نحو المنطقة والتي انتقلت معها تجارب زراعية مع الأسر المهاجرة كأسرة بني الملاح والتي أصبحت ضمن قائمة العادات الزراعية التي ميزت المنطقة،كما كان ملوك تلمسان أنفسهم شغوفين بالزراعة وهذا ما تجلى من خلال إقامتهم للبساتين والجنان حول قصورهم ،فأقاموا لذلك خزانات المياه التي ترويها كالصهريج الكبير الذي كانت مياهه تستعمل لسقي الأراضي والبساتين الواقعة أسفله [2]،ناهيك عن مجموعة القنوات التي أنشئت لنقل المياه إلى البساتين والمنازل بالمدينة والتي رغم فائدتها وأهميتها إلا أنها كانت تشكل خطرا على المدينة لأن العدو كان باستطاعته قطع المياه عن المدينة بكل سهولة[3].

ب/المحاصيل الزراعية:

ب1/الإنتاج النباتي: امتاز بالتنوع والوفرة، ومما اشتهرت به الإمارة: الحبوب التي اشتملت على القمح والشعير والذرة، والخضر من خس ولفت وقثاء وخيار وبطيخ وكرنب ولفت، وفواكه وخاصة كروم العنب[4] و تين وخوخ ورمان وأجاص وغيرها،لكن أهم ما اشتهرت به تلمسان في هذا المجال هو حب الملوك،إذ نجدها أي هذه الفاكهة أشد ما استرعى اهتمام و انتباه لسان الدين ابن الخطيب الذي قال ((إلا أنها –أي تلمسان– بسبب حب الملوك مطمعة للملوك))،إضافة إلى التين الحلو الأسود الفاخر الطويل الذي أبهر الوزان حين زيارته لتلمسان، فكان يجفف ويدخر ليستهلك في فصل الشتاء، ولم يكن التين فقط الذي استرعى انتباهه بل كل أشجار الفاكهة التي لم يقع بصره على مثلها فيما سبق

---

[1].انظر الونشريسي (أبي العباس احمد بن يحيى)،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ،دار الغرب الإسلامي بيروت 1401ه/1981 م، ج4.ص111، ص335.

[2]. رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان،د م ج،الجزائر...،ص89.

[3]. انظر الوزان، المصدر السابق،ج2،ص20.

[4]. العبدري،المصدر السابق،ورقة 7.

من البلدان التي زارها[1]،والمشمش_الحسن الذي يقارب مشمش دمشق في حجمه وحلاوته، ويبالغ يحيى بن خلدون في وصفها فيشبهها بالجنة التي تحتوي كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين من الفواكه والرمان والتين والزيتون[2].

أما عن توزيع المحاصيل جغرافيا، فقد انتشرت زراعة الحبوب بسهل متيجة وبرشك[3] وتنس ومستغانم ووهران وتصاهرت ومازونة وتلمسان[4]، وتواجد القطن والكتان بمستغانم وندرومة،بينما اختصت شرشال دون سواها بإنتاج الحرير والسفرجل العظيم الجرم والكروم وتربية الأغنام وإنتاج العسل[5].

أما بالمناطق الصحراوية الحارة فسادت زراعة النخيل الذي كانت تشتهر به مناطق كثيرة منها منطقة فجيج التي كانت آنذاك تابعة لبلاد المغرب الأوسط وكانت فيما مضى من أخصب الأراضي[6]، وبالمناطق الجبلية التي كانت تصعب حراثتها وزراعتها سادت زراعة أشجار الخروب، فكان أهلها يستعيضون بها عنها، وقد أورد لنا الوزان بعض تلك المناطق منها ندرومة وتبحريت[7].

رغم الخصب الذي تمتعت به تلمسان العاصمة التي جمعت بين السهل والجبل وجمال المنظر[8] وما حولها من أراضي ومياه وموقع يقيها حر وشحوب الصحراء[9]، إلا أنها تأثرت في

---

[1]. الوزان،المصدر السابق،ج2،ص20.

[2]. يحيى ابن خلدون،المصدر السابق،ج1،ص86.

[3]. برشك،بين تنس وبرشك في الساحل ستة وثلاثون ميلا ،وبرشك مدينة صغيرة على تل وعليها سور تراب وهي على ضفة البحر اشتهرت بكثرة فواكهها ومزارع الحنطة والشعير، وتبعد عن شرشال بعشرين ميلا ، انظر الحميري، الروض المعطار، ص88.

[4]. انظر عاشور بوشامة، المرجع السابق، ص396.

[5]. انظر،الحميري الروض المعطار،ص340.

[6]. فجيج هي المنطقة الحدودية من ارض المغرب الأقصى حاليا وهي تقع بمحاذاة بني ونيف الجزائرية الى الجنوب من من منطقة العين الصفراء،انظر مجهول،الاستبصار، ص179.

[7]. تبحريت مدينة تبعد عن ندرومة بنحو اثنتا عشر ميلا انظر الوزان، المصدر السابق،ج2،ص13-14.

[8]. العبدري، المصدر السابق، ورقة رقم 7.

[9]. وصف لسان الدين بن الخطيب هذه الوفرة المائية والموقع فقال((وهوائها الممدود صحيح عتيد وماؤها برود صريد حبتها أيدي القدرة عن الجنوب فلا نحول فيها ولا شحوب))انظر،المقري،المصدر السابق،ج7، ص135.

في كثير من الأحيان بجملة من الظروف الطبيعية التي كانت تقضي على معظم الإنتاج، ومن ذلك الجفاف الذي كانت تتعرض له من فترة لأخرى[1]،أو العواصف، إذ يذكر المؤرخون أن ريحا عاصفة هبت على المنطقة سنة 776ه/1375م،فاقتلعت معظم المحاصيل الزراعية، وانتشرت

بذلك المجاعة حتى أكل الناس بعضهم بعضا، فحينها تصدق السلطان أبو حمو الثاني بنصف جباية خزينة الدولة على الرعية حتى انفرج الكرب وزالت المسغبة[2]، أو غزو الجراد للمحاصيل للمحاصيل الزراعية والتي كانت تلحق أضرارا كبيرة بالمحاصيل الزراعية واقتصاد الدولة بشكل عام[3].

هناك عوامل أخرى أثرت على الزراعة ارتبطت بالإنسان، ومنها الفترات التي شهدت فيها الدولة حصارا وخاصة من طرف المرينيين،كالحصار الذي دام حوالي ثماني سنوات(1298-1305) أي أنها تأثرت بالجانب السياسي للمدينة والمنطقة، إضافة الى ما كانت تتعرض له المزروعات و المحاصيل من نهب وسلب من قبل الأعراب المهاجمين للمدينة، وقد ركزت تلك الحملات والغارات على حرمان المدينة من المنتجات الزراعية بتدمير المزارع وقطع الأشجار، ومن تلك القبائل (توجين) الثائرة التي قطعت الثمار والجنات وخربت الديار وأفسدت الزروع ....حتى لم يدعوا بتلك النواحي قوت يوم))[4] ويضيف ابن أبي زرع بهذا الخصوص قائلا ((وسار هو و الأمير المريني أبو سعيد عثمان خلفهما في بلاد يغمراسن يأكلون زروعها وينهبون أموالها))[5] .

ب2/الإنتاج الحيواني:

---

[1].*Robert Vernet, op.cit, p62.*

[2]. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ،ط4،ج2،دار الثقافة ،بيروت لبنان،1980، ص186.

[3]. *Robert Vernet, op.cit, p62.*

[4]. ابن أبي زرع،الأنيس المطرب، ص321.

[5]. نفسه، ص399.

سادت تربية الحيوان في مناطق عديدة من المغرب الأوسط، وقد ساعد على ذلك وفرة المراعي الطبيعية التي تواجدت في كل من جزائر بني مزغنة ووهران وضواحيها، وكذا بالظهير التلي أين يتواجد الماء والكلأ،ومن تلك الحيوانات التي تواجدت آنذاك، الإبل والأغنام والخيل والبغال،فكانت تمثل مصدر رزق لأصحابها، فنجد سكان وجدة الذين كانوا فقراء يربون عددا من الحمير الكبيرة القامة التي تنتج لهم بغالا جميلة عالية تباع في تلمسان بأغلى

الأثمان[1]، كما عرفت تربية المواشي بالخصوص حدا من التطور إلى درجة نقلها وبيعها في بلاد المغرب والأندلس لرخصها وطيب لحومها[2]،كما استغلت تلك الحيوانات في استنتاج الصوف الذي كان مادة أولية أساسية في الصناعات النسيجية بينما كانت الدهون واللحوم تحفظ داخل الأهراء كشكل من أشكال الادام وخاصة لأوقات العسرة أو الشدة[3]، وانتشرت بالمغرب الأوسط أيضا تربية الطيور وخاصة الدجاج، فنتيجة لعراقة ذلك فقد اكتسب سكان المنطقة بعض التجارب أوالعادات لاستخلاص كتاكيت كبيرة من البيض وذلك بتغذية الدجاج بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل ثم يتخذ البيض ثم يحضن عليه[4].

ب3/الصيد المائي: مورس الصيد في الأنهار والشواطئ، ومن تلك المناطق مصب نهر الشلف الذي كان يحتوي على كمية وافرة من السمك الجيد من النوع الصغير والكبير[5]، وكذلك عند مصب وادي ملوية عند البحر المتوسط[6]،هذا ما ذكر في كتب الرحلة، لكننا لا لا نستبعد أن يكون الصيد قد مورس بالشواطئ وخاصة بتلك المناطق التي كان سكانها يعانون من الفقر المدقع مثل وهران ومستغانم وغيرها من المدن الساحلية .

[1]. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص13.
[2]. مجهول،الاستبصار ، ص179.
[3]. يحيى بن خلدون، المصدر السابق،ج1، ص212.
[4]. عبد الرحمن بن خلدون،المقدمة، ص91.
[5]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص251.
[6]. نفسه،ج2، ص250.

2/الصناعـــة:

يعرف ابن خلدون الصناعة بأنها "ملكة في عمل فكري "[1] أي أنها عكس الزراعة، التي أصبغ عليها صفة الفطرية،أي أنها تتطلب إحكام وإعمال الفكر، ولهذا فان ازدهارها وتطورها مرتبط بشروط أساسية وضرورية،أهمها عامل الأمن والاستقرار، لكن

في بعض الأحيان نجد بأن الأزمات تلد الهمة فتصدق حينها المقولة((الحاجة أم الاختراع)) لكن في مجالات قد تكون محدودة[2].

أ/عواملها:

1ا الطبيعية: فيما يخص هذا العامل فالظاهر أن بلاد المغرب الأوسط كانت أوفر حظا من بلاد المشرق،إذ اشتهرت بثرواتها المعدنية الضرورية لقيام الصناعة آنذاك،فضلا عن المواد الأولية النباتية والحيوانية، فمن المعدنية تواجد الحديد بجبال تفسرة جنوب تلمسان،والزنك والتوتياء بجبل الونشريس[3] إضافة إلى الغضار الذي تواجد على حواف الأنهار و كان يدخل كمادة أولية لصناعة الأواني الفخارية .

أما النباتية والتي أسهمت بدرجة كبيرة في تقدم الصناعات الغذائية خاصة، باعتبار أنها لا تتطلب إلا عمليات بسيطة لتتحول من مادة خام إلى أخرى قابلة للاستهلاك والاستعمال، فنجد القطن والحرير والكتان والزيتون والحلفاء والخشب والحبوب.

وبخصوص الحيوانية فنجد الجلود من الأبقار والخرفان والأصواف من الماشية والأوبار من الإبل والماعز.

2أ/عوامل بشرية:

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون،المقدمة، ص315.

[2]. فنجد مثلا سياسة الحصار قد أدت بالزيانيين إلى اتخاذ الأهراء والمطامير لتخزين الحبوب والادام لأوقات الشدة وصنع أبواب كبيرة من الخشب المصفح عند مداخل المدينة كما سنرى.

[3]. انظر الوزان، المصدر السابق،ج2، ص24-45.

- لا شك أن العامل الأول من عوامل تطور هذا القطاع وهو عامل الأمن لم يتوفر إلا في فترات محدودة من عمر الدولة الزيانية لأنها كانت دائما بين شفتي الرحى، تهاجم من قبل جارتيها المرينية من الغرب والحفصية من الشرق،فقد درب سلاطينها على ذلك النسق من الجو المشحون بالتوتر والنزاع والحروب[1].

-رغم اختلاف ميولهم وأهوائهم فقد اهتم أمراء بني زيان بالجانب الصناعي للبلد، فنجد أبا تاشفين رغم جنوحه إلى الملذات واللهو والتّرف[2] إلا أنه كان مولعا بتشييد المصانع مستغلا في ذلك تواجد الأسرى والنصارى في تلمسان،فجعل منهم النجارين والبنائين والزلاجين والزواقين[3]،وأبو حمو موسى الثاني الذي كان مولعا بالاحتفالات وخاصة الدينية منها و مهتما أيضا بالعلوم النقلية إلا أن دار الصنعة في عهده كانت تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم، وما وجود ساعة المنقانة أو المنجانة[4] إلا دليل على رقي الحس الفني والإبداع الصناعي في عهده.

ب/الإنتاج الصنـــــــــــــــــــــــــــــــــاعي :

قامت ببلاد المغرب الأوسط جملة من الصناعات مونت التجارة وشكلت نسبة هامة ضمن قائمة الصادرات،كما غطت بذلك جزءا من واردات الدولة[5] رغم قلتها وعدم استحكامها وقيامها على خامات محلية[6]، إذ لم تنحصر تلك الصناعات بالعاصمة تلمسان بل تعدتها الى مدن أخرى مثل شرشال التي تخصصت في صناعة النسيج الحريري[7]

---

1. ابن الأحمر،المصدر السابق، ص15.
2. يحيى بن خلدون ،المصدر السابق،ج2، صص 132- 133-134 .
3. نفسه،ج2، ص216.
4. حسب يحيى ابن خلدون فان مخترعها هو العالم الرياضي أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام،ولمزيد من المعلومات عن هذه الساعة يرجى العودة إلى كتاب نظم الدر للتنسي، ص162-163.
5. جورج مارسي، مدن الفن الشهيرة -تلمسان-موقان البليدة ،الجزائر ،2004،ص101.
6. عبد الرحمن بن خلدون،المقدمة، ص318.
7. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص15.

وهنين في المنسوجات القطنية إضافة الى مليانة ومستغانم وندرومة التي عرفت تلك الصناعات منذ القرن الثاني عشر، أما تلمسان المدينة فقد اشتهرت بصناعة الأقمشة الصوفية المفضلة على جنسها المصنوع في سائر إنحاء المغرب[1]، وقد أشار يحيى بن خلدون الى تمرس أهل تلمسان في هذه الحرفة فقال: ((وغالب تكسبهم من الفلاحة وحوك الصوف يتفانون في عمل أثوابه الرقاق فتلقى الكساء والبرنس عندهم من ثمانية أوراق و الأحرام من خمس)) ومن العائلات التي

اشتهرت بهذه الصناعة عائلة النجار التلمسانية، والتي منها أبو زيد عبد الرحمن بن النجار الذي امتلك معامل لحياكة الصوف الرفيع،كما اشتهرت المدينة بصناعة الزرابي الفاخرة، فكانت تخرج من أنوالها أخف[2] أقمشة الصوف وأمتنها، ناهيك عن البرانس الرقيقة الرفيعة ذات الشعر الطويل[3]،كما انتشرت الصناعات الجلدية وما يتصل بها من دبغ وخرز[4] سروج خيل وألجمة وما يتبع ذلك من لواحق،كما انتشرت بتلمسان الصناعات الفخارية والصباغة بمنطقة العباد مستخدمة بعض المواد مثل النيلة وورد النيل والسماق ولحاء بعض الشجر والحدادة بمنطقة تفسرة[5].

ومن جهة أخرى نجد صناعة البناء والفسيفساء قد ازدهرت وهذا ما يتجلى من خلال بنائها الجميل والمزدان بشتى أنواع الفسيفساء والتي مثلت موروثا حضاريا مزيجا وموروثا حضاريا ترك ملوك تلمسان بصمتهم عليه،ويذكر الطمار بأن صناعة الورق كانت منتشرة في تلمسان بدليل كثرة الوراقين ونسخ الكتب وتجليدها[6].

---

[1]. نفسه،ج2،ص15،انظر أيضا ابن سعيد المغربي ،الجغرافيا، ص140. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص318.

[2]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص24.

[3]. شهدت هذه الصناعة تطورا متواصلا في المدينة ليبلغ درجة أبهرت بعض الأوروبيين ومنهم chevalier d, Avrieuxالذي يصف البرنس الذي كان متواجدا بتلمسان بقوله وهو ذو شعر طويل .

[4]. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص318.

[5]. الوزان،المصدر السابق،ج 2،ص24.

[6]. عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور،المؤسسة الوطنية للكتاب،1986، ص182.

وهناك صناعة أخرى لا يمكن أن تغيب عن أي دولة لأنها تعتبر رمزا لسيادتها واستقلاليتها،أنها صناعة السكة، فكانت الدولة الزيانية تسك النقود من الذهب الرديء ومن الفضة غير الخالصة أيضا ومن النحاس، وكانت تلك النقود متفاوتة من حيث القيمة والنوع[1]، كما انتشرت صناعة الحبال والسروج والأعنة ومستلزمات الخيل والتي كانت تباع في أسواق الإمارة ومنها سوق معسكر الذي كان يعقد كل يوم خميس[2].

وبخصوص الصناعات الغذائية فلم تغب عن بلاد المغرب الأوسط، وخاصة حرفة طحن الحبوب على طول الأنهار التي تجري على أرضه، وأوردها لنا الإدريسي وصاحب الاستبصار، و كذا الوزان ومارمول فيما بعد، ومن تلك الأنهار التي أقيمت عليها الأرحاء وادي الصخرتين والسطفسفيف والشلف وملوية وغيرها.

رغم ما عرفته تلمسان من تنوع في هذه الصنائع إلا أنها لم ترتق الى مستوى الندية مع دول الضفة الشمالية للمتوسط فقد قال ابن خلدون "إن سكان المغرب عربا وعجما أبعد عن باقي الأمم النصرانية عدوة البحر الرومي عن الصنائع بسبب رسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين))[3] فقد أدرك ابن خلدون أن الإقلاع الصناعي يتطلب فترة من الزمن، تتخللها فترة استقرار تنتقل فيها الدول من مرحلة البداوة الى التحضر والبناء، لكن من جهة أخرى يجعلنا نثمن مابلغته هذه الشعوب من تطور رغم رسوخها في تلك البداوة وما عرفته من حالة عدم استقرار بسبب الحروب والنزاعات المحلية والخارجية.

إن الصناعات التي ذكرناها ليست من باب الحصر، وإنما لما تواجد صريحا في المصادر التاريخية لأن هناك صناعات أخرى يمكن أن نستنتجها من إشارات كثيرة وأسماء لبعض المناطق التي لا تزال موجودة الى يومنا هذا فتبين بذلك مدى عراقة تلك

---

[1]. الوزان،المصدر السابق،ج2،ص23.

[2]. نفسه،ج2، ص26.

[3]. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص318.

الصنائع، ومن تلك الأحياء طريق الأرحاء وطريق المعصرة وذراع الصابون وسوق نشر الجلد وباب القرمادين وغيرها.

3/التجـــــــــــــــــارة:

((التجارة هي محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيا ما كانت السلعة))[1].كما يعرفها الجرجاني بأنها عملية شراء شيء ليباع بالربح ،ويعرف البيع بأنه مطلق المبادلة ويختصرها البعض في أنها اشتراء الرخيص وبيع الغالي.

تتطلب هذه العملية انتقال السلع والخدمات من منطقة لأخرى سواء داخل المكان أو المدينة أو الدولة الواحدة أو بين الدول داخل القارة الواحدة أو بين دول من قارات مختلفة،وعلى هذا الأساس ارتأينا أن نعالج في هذا المجال تجارة الدولة الزيانية الداخلية، ومع دول الجوار قصد تحقيق هدفين: أولهما معرفة طبيعة السلع المتبادلة بين سكان الدولة فيما بينهم، وثانيهما الوقوف على الناقص من السلع فيها .

يمكن القول بأن قيام الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط واتخاذها تلمسان عاصمة لها مثل عاملا مهما في استرجاع المنطقة لمكانتها التجارية ضمن طرق القوافل، لأن دخول القبائل الهلالية كان سببا في ابتلاء المنطقة بحالة من اللا أمن، فأصبحت القوافل التجارية عرضة للسلب والنهب، إذا فقد أعاد بنو زيان للمنطقة أهميتها بما وفروه للتجار من وسائل راحة وإقامة وأمن سواء في المدينة بواسطة الفنادق أو خارج حدودها عن طريق تأمين الطرق وحفر الآبار ووضع العلامات وغيرها،خاصة على عهد يغمراسن بن زيان الذي كان حسب ابن الأحمر رجلا ذكيا تنبه إلى ما تجلبه التجارة لبلده من خير[2].

---

[1]. نفسه، ص 310.

[2]. ابن الأحمر، المصدر السابق، ص17.

مثلت التجارة مصدرا هاما من مصادر دخل الدولة، فقد عادت على تجار المدينة بثروة من الأموال والنقود[1]وذلك بفضل ما امتلكوه من متاجر فريدة الانتفاع،فقد احتل سكان تلمسان المرتبة الثالثة من حيث الغنى والرفاه بعد كل من نظراءهم في مدينة فاس وأغمات[2]، فظهرت لذلك طبقة خاصة بالتجار لها مميزاتها الخاصة في السكن والمرتبة الاجتماعية واللبس الذي كانوا فيه أكثر تأنقا من تجار فاس[3].

كانت المدينة في أيام الأمن والاستقرار عامرة دوما بالسلع ،لأن تجارها كانوا دوما حريصين على تزويدها بالناقص من السلع وهذا ما أشار إليه العبدري بأن لها أي – تلمسان– أسواقا قائمة وأهلها ذوو ليانة[4]، ولم تكن عملية التموين تتم من داخل المدينة وأحوازها فحسب بل من مدن بلاد المغرب الأوسط الأخرى التي كانوا ينتقلون إليها في أيام محددة وفقا لما يقام بها من أسواق كسوق معسكر التي كانت تزودهم بعدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل وكثير من منسوجات البلاد وأشياء أخرى أقل قيمة كالحبال والسروج و الأعنة وحاجيات الخيل[5]،وسوق قلعة بني راشد التي كانت تقام كل اثنين يقصدها الأعراب والبربر لبيع ماشيتهم وزرعهم وغلاتهم من الزبيب والعسل والشمع والزيت، ويقصدها أيضا التجار من تلمسان جالبين إليها المنسوجات والبرانس والعباءات والسروج المضربة ذات المهامز والأعنة وغيرها من عدة الفرس[6]، وكانت القيسارية نموذجا يحتذى في النظام والحركية والتنوع التجاري على غرار ما كان في مدينة فاس[7].

---

[1]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص21.

[2]. الإدريسي،المصدر السابق،ج1، ص248.

[3]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص21.

[4].أحمد العبدري،المصدر السابق،ورقة 07، انظر أيضا،الوزان،المصدر السابق،ج2، ص21.

[5]. نفسه،ج2،صص26–27.

[6]. مارمول كربخال، المصدر السابق،ج2، ص324.

[7]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص19.

كما لجأ تجار تلمسان إلى دول الجوار لجلب النادر من السلع والتي كانت في الحقيقة موجهة للتصدير نحو أوروبا، فقد دأب تجار تلمسان على السفر أكثر نحو بلاد السودان الغربي، فبقدر ما كان امتداد الفيافي والقفار جنوب تلمسان عاملا في عزلتها إلا أنه كان سببا في غناها وخاصة في العهد الزياني[1]، ولم تكن بلاد السودان أقصى ما يدركه تجار تلمسان بل تعدوه إلى مناطق أخرى من البلاد الاستوائية[2].

لقد كانت تلمسان في اتصال مباشر مع سجلماسة، والطريقين الرئيسيين العابرين للصحراء طريق الغرب-لمتونة-التي تربط السوس بالأدرار الموريتانية وطريق الوسط الموصلة إلى

تمبكتو وغاو..[3]،وكان التجار يرسلون سلعهم من تلمسان ووهران إلى ما وراء الصّحراء عن طريق سجلماسة، أين تلتقي قوافل المملكة بنظيرتها من المغرب الأقصى لتؤم جميعها تمبكتو وغانة[4] ومع قوافل أخرى تخرج من الصويرة ووادي نون بالمغرب الأقصى فتؤم هي الأخرى موريتانيا والسنغال والمالي وغانة وغينيا [5].

كان تجار تلمسان يجلبون من بلاد السودان مجموعة من السلع،يأتي على رأسها التبر[6] الذي كان متوفرا بمنطقة غاو و أودغست وغانة وغيرها،وكذلك الرياش

---

[1]. محمود بوعياد، جوانب من الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري-الخامس عشر ميلادي -ش و ن ت،ص34.انظرأيضا،عمرو الطمار،الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص236.

[2].*Robert corvenin, op.cit.p337.*

[3]. *Robert corvenin, op.cit.p337.*

[4]. غانة كلمة عجمية دخيلة ،وهي مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان يجتمع إليها التجار ومنها يدخل في المفازات إلى بلاد التبر ولولاها لتعذر الدخول إليهم لأنها في موضع منقطع عن الغرب بلاد السودان فمنها يتزودون إليها، ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج4،ص184.

[5]. عمروالطمار،المرجع السابق،ص236.انظر أيضا بودواية مبخوت،المرجع السابق، ص313 وما يليها.

[6]. التبر هو ما كان من الذهب غير مضروب، فإذا ضرب دنانير فهو عين ولا يقال تبر إلا للذهب وبعضهم يقوله للفضة.انظر الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر)، مختار الصحاح،طبعة خاصة مدققة، مكتبة لبنان،بيروت 1986،ص31.

وخاصة ريش النعام الذي كان يستعمل في حشو الأرائك والمخدات وتتخذ منه المراوح ومظهر من مظاهر الزينة ،وكذا بيضه[1] الذي كان غاليا لإدخاله في تركيب بعض الأدوية،وكذلك العاج الذي كان يجلب من مناطق الغابات جنوبي السودان الغربي وخاصة من أثيوبيا وتتطلب عملية الحصول عليه قتل هذا الحيوان واصطياده بالنبال ثم يقتلعون أنيابه، وفي ذلك مجازفة كبيرة[2]،كما جلبوا من هناك العبيد الذين كانت لهم أسواق خاصة تعرف بأسواق النخاسة والتي تواجدت خاصة في مدينة غاو.

أما السلع التي كانت تخرج من تلمسان في اتجاه بلاد السودان فهي سلع لا تنتج هناك، إما لقساوسة المناخ، أو مصنعة تأتي من دول أخرى أو من تلمسان، ومن تلك السلع نجد القمح الذي لم يكن في متناول كل الفئات الاجتماعية بل حكرا على الطبقة الراقية المتمثلة في الملوك والسلاطين والأثرياء نظرا لارتفاع أسعاره وعدم نموه بتلك المناطق، وهذا ما يؤكده قول ابن بطوطة بأنه بيع بالقرن الرابع عشر بمدينة تاكدة بحساب عشرين مدا من أمدادهم بمثقال من ذهب[3]، كما اتجه التين التلمساني أيضا نحو هذه المنطقة، وكان سعره مماثلا لسعر القمح وكان يلقى رواجا وإقبالا كبيرا من لدن سكانها، إضافة إلى الزبيب وعين البقرة والملح الذي كان هو الآخر يستبدل بمثله تبرا، وكان الرطل منه في أواخر أيام الدولة يساوي نصف مثقال، ويعود السبب في ذلك إلى قلة مصادره في المنطقة من جهة وصعوبة استخراجه واستخلاصه، وكانت الطبقة الثرية هي التي تستعمله بينما كان الفقراء والعامة يكتفون بمسك قطعة منه ولحسها مع كل مضغة خبز حتى لا يستهلكوه بكثرة[4].

---

[1]. تبيض النعامة(طائر وحشي يعيش في الأماكن المقفرة اليابسة حيث لا يوجد ماء) ما بين عشرة إلى اثني عشرة بيضة، وكل بيضة تكون بحجم قذيفة مدفع من زنة خمسة عشر إلى ستة عشر رطلا.انظر الوزان، المصدر السابق، ج2، ص276.

[2]. الوزان،المصدر السابق،ج2،ص258.

[3]. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،ط1،المطبعة الخيرية 1322ه-ج2،ص250.

[4]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص280.

أما السلع المصنعة فقد صدر أهل المغرب الأوسط بعض المنسوجات التي اشتهرت بها المنطقة، وكذا الأسلحة والدروع والخوذ والخناجر والسهام والسكاكين والأواني المنزلية والزجاجية [1]،أما مع بلاد المغرب الأقصى فلا توجد إشارات صريحة عن طبيعة المبادلات التجارية بينهما وخاصة في الفترة التي نتناولها بالدراسة، فربما كان السبب في ذلك هو حالة اللا استقرار التي طبعت بها العلاقات بينهما، وقد أورد البعض قائمة السلع التي كانت تفيض عن حاجة المغرب الأقصى وتصدر إلى باقي أقطار المغرب،كالسكر المعروف بالطبرزد والذي اشتهرت به بلاد السوس التي تواجدت به الكثير من معاصره[2].

ومن جهة أخرى لا نستبعد خروج بعض السلع من تلمسان أو مدن المغرب الأوسط الأخرى نحو بلاد المغرب الأقصى مثل الحنطة والشعير من مدينة بونة وتنس التي اشتهرت بذلك[3]، والعسل و السمن الذي كانت تصدره جزائر بني مزغنة إلى مدن المغرب[4].

---

[1]. بوزيان الدراجي،نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 1993، ص215.

[2]. مجهول، الاستبصار، ص212.

[3]. الإدريسي،المصدر السابق،ج1، ص259

[4]. الادريسي،المصدر السابق،ج1، ص 259، انظر أيضا الوزان ،نفس المصدر،ج2،صص37-38.

المبحث الثالث الواقع الاقتصادي في المغرب الأقصى

-أولا :الزراعـــــــة

1/عواملها:

أ/ الطبيعية:

تميزت بلاد المغرب الأقصى بالتنوع الطبيعي والجغرافي، الأمر الذي ساعد على تنشيط الزراعة من جهة وتنوع المحاصيل الزراعية من جهة أخرى، فهي تتكون من جملة من المظاهر التضاريسية أهمها السهول المنخفضة التي تقع على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط(بحر الزقاق) والمحيط الأطلسي(بحر الظلمات) والتي امتازت في مجملها بالخصب الشديد، إذ أشار المراكشي في كتابه المعجب إلى ذلك بقوله ((وهي أخصب رقعة على الأرض فيما علمت، وأكثرها أنهارا مطردة وأشجارا ملتفة وزرعا وأعنابا))[1].

أما المظهر الثاني فهو الجبال التي تنقسم إلى سلسلتين رئيسيتين: الأولى ساحلية بجوار ساحل بحر الزقاق[2]وتعرف باسم الريف، وهي تشكل قوسا ينفتح على هذا

---

[1]. عبد الواحد المراكشي،المصدر السابق،ص 444.خول هذا الجانب انظر لسان الدين،خطرة الطيفبواسطة بن الخطيب،ص100وما يليها.

[2]. هو الداخل من البحر المحيط الذي عليه سبتة الذي يضيق من المشرق إلى المغرب حتى يكون عرضه ثلاثة أميال وهو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس ،ثم يتسع الزقاق كلما امتد حتى يصير إلى ما لا ذرع له ولا نهاية،وهو مخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام ،الحميري،الروض المعطار، ص294.

البحر والتي يعتقد أنها جزء من جبال سييرا نيفادا الاسبانية قبل أن يفصل بينهما مضيق جبل طارق.

تشمل إلا على فصلين، ستة أشهر للشتاء من أكتوبر إلى ابريل وستة أشهر للصيف من أبريل إلى شتتبر غير أنك تجد الثلج دائما طوال السنة في أعلى قمم الجبال))[1].

ومن تلك الجبال جبل سمد الذي يحتوي على ينابيع كثيرة، ويظل به الثلج طيلة أيام السنة،وكذا جبل سكسيوة العالي شديد البرودة الذي لا يختفي الثلج عنه أبدا – وجبل هنتاتة العالي جدا والذي لم ير الوزان له مثيلا في علوه،وعندما رآه لأول مرة خاله سحابة (وهو جبل طوبقال– أي الأقرع بالبربرية –ويبلغ ارتفاعه 4165م) وتظل ذروته مستورة بالثلج على الدوام[2]، ومن ثم فان بلاد المغرب الأقصى تحتوي على جملة من الأنهار جعلت منها الكتل الجبلية المرتفعة التي يمتلكها هذا البلد أنهارا دائمة الجريان[3]، وجعلت منه بلدا غنيا بالمياه والمجاري، ومن تلك الأنهار.

نهر أم الربيع : و هو نهر كبير جدا، ينبع من الأطلس بين جبال عالية في حدود تادلا و فاس، ويجري عبر سهول أدخسان (سهل خنيفرة حاليا)،ويجتاز النهر سهولا بين ناحية دكالة وناحية تامسنا إلى أن يصب في المحيط قرب سور مدينة أزمور، ولا يمكن قطعه خوضا في الشتاء والربيع[4].

---

1. الوزان ،المصدر السابق،ج2، ص81.
2. نفسه، ص151 وما يليها.
3. انظر،لسان لدين بن الخطيب ،خطرة الطيف(رحلات في المغرب والأندلس1327–1362)،ط1،تقديم وتحقيق أحمد مختار العبادي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت–لبنان–2003م،ص101 ومايليها.
4. نفسه،ج2، ص247.

نهر أبي رقراق: وينبع من أحد الجبال المتفرعة عن الأطلس ليصب في المحيط، ويعتبر مصبه ميناء لمدينتي الرباط وسلا والذي كان يعسر على السفن دخوله إلا بوجود دليل محنك، وهذا ما حفظ لهما حريتهما من التحرشات المسيحية[1].

نهر سبو: يجري بإقليم فاس، يمتاز بمجراه الطويل ومياهه الغزيرة، وعندما يصب في البحر يكـــــون مصبه في غاية العرض والعمق بحيث يمكن للسفن العظيـــــــمة أن تدخله كما فـــــــــــــــــــعل البرتغاليون و الإسبانيون ذلك مرارا [2].

نهر التانسيفت: وهو نهر كبير غزير المياه يمر على بعد أو مسافة ستة أميال من مراكش[3].

نهر بهت: ينبع من الأطلس ويسيل نحو الشمال ينتشر في أحد سهول إقليم أزغار ويتحول إلى مستنقعات وبحيرات يصطاد فيها عدد لا يحصى من السمك كالبيوض والانقليس والشابل المدهشة[4].

نهر لكوس: وينبع من جبال غمارة ويجري نحو الغرب عبر سهول الهبط وأزغار،ثم يتابع سيره إلى أن يصب في المحيط قرب مدينة العرائش[5].

نهر زيز: ينبع من الأطلس ويدخل في بلاد مدينة سجلماسة مارا بين أراضيها الزراعية [6].

---

[1]. نفسه،ج2،ص247–248.

[2]. الوزان،المصدر السابق،ج،2،ص249.

[3]. نفسه،ج2، ص138

[4]. نفسه،ج2.ص248.

[5]. نفسه، ج2،ص249

[6]. نفسه،ج2ص254.

نهر سوس: ينبع من جبال الأطلس ويفيض كثيرا في الشتاء حتى انه يحمل كمية كبيرة من التربة الصالحة للفلاحة[1].

ب /خصوبة التربة: امتازت أراضي المغرب الأقصى بخصوبتها الفائقة، وهذا ما ندركه من إفادات الرحالة والمؤرخين الذين أشادوا بتلك الأراضي[2]، كما هو الحال بريف مدينوتيت الفسيح الذي تجود فيه زراعة القمح، وأراضي منطقة القصر الكبير التي كانت تنتج حسب الوزان ثلاثين ضعف ما يزرع بها، وكذا ناحية الهبط[3] العجيبة بسبب خصوبتها ووفرة إنتاجها،والتي كانت في الماضي حسب الوزان أكثر نبلا وشهرة [4].

ج/المنـــــــــــــــــــــــــــــــــــاخ:إن مناخ المغرب الأقصى كان ملائما جدا لفلاحة الأرض واستنباتها، ومن ذلك عمليات التساقط التي كانت تشهدها المنطقة كما أسلفنا الذكر،ومجموع الرياح التي كانت تساعد في تلقيح واكتمال نمو المحاصيل، ففي شهر مارس كانت تهب رياح قوية من الغرب والشمال فتخصب الأرض وتزهر الأشجار، وفي شهر أبريل تكاد جميع الفواكه تبتدئ في أخذ شكلها[5].

2/ البشـــــــــــــــرية: وتتمثل في:

-تعلق الفلاحين بالأرض إذ وعلى أيام الوزان كان هناك بعض الفلاحين الذين بلغوا الثمانين أو جاوزوها لا يزالون يحرثون الأرض وينقشون الكرم ويقومون بسائر الأعمال التي يحتاجون إليها بخفة عجيبة وخاصة إذا تعلق الأمر بالجبليين[6].

---

1. الوزان،المرجع السابق، ج2، ص254.
2. لسان الدين بن الخطيب،خطرة الطيف،صص100-101.
3. هي المنطقة التي تبتدئ جنوبا عند نهر ورغه لتنتهي شمالا على المحيط وتتاخم غربا مستنقعات أزغار وشرقا الجبال المسرفة على أعمدة هرقل ويبلغ عرضها نحو ثمانين ميلا وطولها نحو مائة ميل.الوزان، المصدر السابق،ج1، ص306.
4. الوزان،المصدر السابق،ج1، ص306-305.
5. الوزان،المصدر السابق،ج1، ص20.
6. نفسه،ج2، ص.82

– كما كان هناك عدد من الفلاحين العرب وغيرهم في غاية الأمية، لكنهم رغم ذلك يحسنون الكلام بإسهاب في الفلك، ويستنتجون منه استنتاجات متناهية في الدقة، وهي عندهم ضرورية أتت من اللاتينية وترجمت منها إلى العربية ويوجد كتاب ضخم في ثلاثة أجزاء يسمى "كنز الفلاحة" ترجم من اللاتينية إلى العربية في قرطبة أيام المنصور ملك الأندلس ويتعرض هذا الكتاب لجميع المسائل الضرورية للفلاحة كالفصول وطرق الزرع والغرس وتلقيح الأشجار وتغيير كل ثمر أو حب أو خضرة بواسطة الفلاحة......))[1]

لكن بالمقابل نجد بعض سكان المغرب جاهلون بقواعد الزراعة كسكان حاحا التي هي إحدى أقاليم مملكة مراكش رغم صلاحية جزء هام من أراضيها لزراعة الفاكهة وتربية المواشي ((ماعز حمير وغنم))[2].

كما اهتم المرينيون بالزراعة والفلاحة و توسيع المساحة الزراعية، خاصة على عهد السلطان أبي عنان فارس فوزعوا الأراضي على الفلاحين وبنوا النواعير[3] ومنها الناعورة الكبرى على وادي فاس التي باشرت عملها في صفر 686مارس 1287[4]،كما أمر بإنشاء السواقي بغرض تنظيم ري الأراضي الزراعية ومد الفلاحين بالمياه الكافية لري أراضيهم ومن ثم رفع غلتها، وكانت على هذا الأساس مصادر السقاية في بلاد المغرب هي الأمطار والعيون والآبار والأنهار والصهاريج [5].

وحتى خلال القرن 8ه/ 14م اهتم أهل فاس ونواحيها بتنظيم الري في وادي فاس –وادي الزيتون– حيث أقيمت سدود عليه لتنظيم مياه الري والتحكم فيها،كما قاموا بين الحين والآخر بتطهير مجرى النهر من الرواسب المتراكمة فيه،وكانت تتفرع من هذا

---

[1]. نفسه،ج2،ص80.

[2]. نفسه،ج2، صص95-96.

[3]. الناعورة والناعور،آلة لرفع الماء من الأنهار تتكون من دولاب كبير وقواديس مركبة على دائرة وجمعها نواعير،انظر لسان الدين بن الخطيب،خطرة الطيف،هامش482،ص108.

[4]. الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج3، ص89.

[5]. كمال السيد أبو مصطفى،جوانب من الحياة الاقتصادية و والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب،الإسكندرية مصر1996م، ص57 .

الوادي قنوات تروي البساتين الواقعة على ضفتي النهر[1]،هذا إضافة إلى اهتمامهم ببناء الخزانات والصهاريج كتلك التي تواجدت بمنطقة أزجن[2].

إن توافر الشروط الجيدة للزراعة بالمغرب طبيعيا وبشريا لم يحل دون وجود بعض الآفات على غرار الدولة الزيانية والتي كانت تضر بهذا القطاع، كتلك الرياح التي كانت تهب من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب فكانت بالغة الضرر بالمحاصيل لا سيما في شهر ماي وجوان، لأنها تفسد جميع الغلات وتمنع الفواكه من النمو والنضج ،إضافة إلى الضباب الذي يضر بالحبوب كثيرا لا سيما إذا وقع في وقت الإزهار لأنه يستمر أحيانا النهار كله[3].

وفي سنة687 هـ/1284م، توالى هبوب ريح شرقية و أستمر معها القحط الشديد إلى أخر عام 690ه/1287، ولم ينزل مطر إلى شهر أبريل من هذه السنة،فحرث الناس عند ذلك وحصدوا ما حرثوه من زرع عن أربعين يوما[4]، أو تلك الرياح الشديدة التي هبت في سادس عشر من ذي القعدة من سنة 722ه/1322م ((على مدينة مكناسة وفاس والرباط و تازة و أحوازها، واستمر هبوبها يومين بليلتيهما هدمت خلالهما الديار وقلعت الأشجار ومنعت الأسفار وأقعرت من زيتون مكناسة وزيتون المقرمدة شيئا كثيرا))[5].

وفي نفس السنة أي 722ه/ 1322م حدثت المجاعة بسبب ما كان من القحط،لدرجة استسقى الناس فيها، وارتفعت الأسعار وبدأت المجاعة وقد استمرت لسنوات

---

[1]. انظر الونشريسي .المصدر السابق،ج5،صص20-21 -27-28.

[2]. أزجن مدينة بالمغرب تبعد عن فاس بنحو سبعين ميلا وقد بناها قديما الرومان على جبل يبعد عن وادي ورغه بنحو عشرة أميال،انظر الوزان، المصدر السابق،ج1، ص306.

[3]. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص81.

[4]. ابن أبي زرع الفاسي،الأنيس المطرب، ص408.

[5]. نفسه ، ص412.

بلغت ذروتها في 724ه/1324م التي بلغ فيها الغلاء أقصى درجاته و المجاعة أشدها بالمغرب الأقصى عامة[1].

لم يكن الجفاف هو المشكل الوحيد المعيق للزراعة في بلاد المغرب بل شكلت الأمطار أيضا عائقا من معوقات نموها، كما حدث في سنة 723ه/1323م إذ تساقطت أمطار غزيرة وثلوج كثيرة، تعطل معها نمو المحاصيل وتقطعت السبل بالفلاحين فلم يستطيعوا الذهاب إلى بساتينهم،((فعدم فيها البياض[2] والحطب، فبيع البياض بمدينة فاس بدرهمين للرطل))[3].

وهناك بعض الكوارث الطبيعية التي أتت على الحرث والنسل معا ومنها البرد الكبير العظيم الجرم الذي أصــــــاب مدينــــة فــــاس في13 رمضـــان من نفس السنــــــة وكـــان مصحـــــوبا بوابـــــل من

المطر، فأحدث سيولا جارفة حملت الناس والدواب والمواشي والبقر والغنم والخيل والإبل والدواوير وبشر كثير، وأتلف جميع ما بالمنطقة –زالغ[4]– من الكروم والزيتون والشجر[5].

والشجر[5].

كما أتى سيل جارف على مدينة فاس لم تعهده من قبل، وكان ذلك ليلا فهدم السور وحمل الشباك وخرب الجنات واقتلع الأشجار العظيمة كما هدم القناطر والديار وخرب

---

1. نفسه، ص413.

2. الفحم، وذلك من باب تسمية الشيء بضده، ولا يزال هذا الإطلاق شائعا لدى العامة وخاصة في الأرياف.

3. ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب ،ص412.

4. الجبل المطل على فاس من الجهة الشمالية.

5. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص413 .

جزاء بن برقوق ودور الرصيف وبعض دور برزخ[1] وسوق الصباغين وسوق الرصيف وهدم القنطرة الكبيرة التي عليها سوق باب السلسلة وهدم سور الرميلة وهلك فيه ما لا يقل عن سبعمائة وثلاثين نفسا ومن الديار ألف دار ومائة دار ومن المساجد خمسة ومن الأرحاء ثمانية بيوت ومن الأفران اثنين ومن الحوانيت أربعة وستون حانوتا، وعلى غرار ما كان يحدث بالمغرب الأدنى والأوسط فقد تعرضت بلاد المغرب الأقصى لهجمات وزحف الجراد ففي سنة 679هـ/1276م أكل جميع زروع المغرب فلم يترك بها مخضرا، فحدثت المجاعة ووصل القمح في تلك السنة عشرة دراهم للصاع[2].

2/المحاصيل الزراعية:

أ-الإنتاج النباتي:كانت بلاد المغرب الأقصى على قدر خصبها كثيرة الفواكه والمزارع والمسارح[3] فقد اشتهرت مدينة فاس بإنتاج أنواع كثيرة من الهلالج المسمى بغرب الأندلس بالعبقر ويسمونه البرقوق، ولا يكاد يوجد مثله في غيرها من البلاد كثرة وطيبا وغضارة،[4] أما الكروم فتواجدت في مناطق عديدة من المغرب،فمنها ما كان معروشا بالمنازل ومنها ما كان بالحقول يستفيد منه أهل تلك المناطق بعد بيعه إما طازجا أو بعد تجفيفه على شكل زبيب، ومن تلك المناطق،جبل بني زرويل، وجبل بني جبارة الشديد الارتفاع [5].

أما كروم العنب الأسود فتواجدت ببني بوشيبت وجبل بني منصور وجبل ايشتوم وجبل بني وليد ومنه ما كان يصنع منه زبيب جميل غليظ شديد الحلاوة وكذلك

---

[1]. الإسم القديم لحومة سيدي العواد بمدينة فاس المغربية.

[2]. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص405.

[3].لسان الدين ابن الخطيب،خطرة الطيف،ص100

[4]. المكناسي،(أبي عبد الله محمد)،روض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ،الرباط ،المغرب ،1371ه-1952م، ص3.

[5]. الوزان ،المصدر السابق،ج1،ص131-132.

الدبس وكميات هامة منه كانت تصرف لصناعة الخمور[1]، وبالمقابل فقد اشتهر به قصر كتامة بانتاج التفاح النفاح الذي ترتاح الى شميمه الأرواح[2]،

أما الزيتون فتواجد أيضا بالمناطق الجبلية إلى جانب الكروم كجبل بني زرويل وجبل بني وليد وجبل ايشتوم وبن يونيش[3] إضافة إلى مكناس التي اشتهرت بتسمية مكناسة الزيتون وكذلك بمنطقة صفرو التي لم تكن بها سوى غابات الزيتون[4].

وبالنسبة للمحاصيل الصناعية فتواجد القطن وبكثرة بمنطقة الهبط وبسلا التي كانت معدن للقطن والكتان[5]، وقصب السكر الذي كان ينبت بكثرة بتيببوت، غير أنه سكر أسود لجهل سكان المنطقة بطريقة طبخه وتصفيته[6]، وفي الحقيقة أن أشد ما اشتهرت به بلاد المغرب الأقصى في العصور الوسطى هو السكر، الذي امتاز بنصاعته ونكهته الطيبة وشهرته في البلاطات الأوروبية دون سواه من أنواع السكر في شتى أنحاء العالم[7].

العالم[7].

أما الحبوب فقد تواجدت بمناطق عديدة من المغرب منها تييوت(مدينة في سوس)

وهي تنتج كمية عظيمة من القمح والشعير[8] وبالبصرة المغربية [1] التي تواجدت بها سهول خصبة فكانت حقولها تجود بكميات هامة من القمح[2]، وكذا بأصيلا[3] التي تنتج

---

1. نفسه،ج1،ص 130-131-133 .
2. لسان الدين ابن الخطيب، خطرة الطيف،ص100.
3. الوزان، المصدر السابق،ج1'ص133-134-135.
4. نفسه،ج1،ص362.
5. لسان الدين، خطرة الطيف، ص101.
6. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص115.
7. عبد الهادي التازي،التاريخ الدبلوماسي للمغرب-من أقدم العصور إلى اليوم-،المجلد2،دط،1408ه/1988م،ص11.
8. الوزان، المصدر السابق،ج1،ص 115.

الكثير منها ،كما تواجد بالمزة -الحسيمة حاليا- التي تحتوي على ساحل كبير عرضه نحو عشرة أميال وطوله ثمانية وعشرون ميلا،يحصد أهله كميات كبيرة من القمح يبلغ نصيب أمير بادس منها زهاء خمسة آلاف مكيال[4].

ب/الإنتاج الحيواني: انتشرت حرفة الرعي في جل مناطق بلاد المغرب الأقصى، ويعود السبب في ذلك إلى عاملين هامين وهما: وفرة المراعي الطبيعية وخاصة بالمناطق الجبلية، وكذلك محدودية الأنشطة الاقتصادية آنذاك.

ومن المناطق التي انتشرت فيها هذه الحرفة جبل مطغرة ، وأصيلا وقصر كتامة التي كانت عنصر بر وحليب ومرعى سائمة ومسرح بهيمة في الجميم[5] فكان أهل تلك المناطق يملكون الكثير من الماشية وخاصة الماعز[6]وكذا جبل بني ورطناج -تسول-الذي يبعد عن تازة أيضا بحوالي ثلاثين ميلا والذي احتوى جميع أنواع البهائم[7]، وجبل سليلكو بنفس الإقليم الذي كان يشتهر بوفرة الغنم والماعز، وجبل بني يازغة الذين امتازت ماشيته بصوفها شديد النعومة و التي كانت تصنع منه نساء المنطقة أقمشة كأنها من حرير[8]، واشتهرت منطقة جبل بني مراسن وجبل زيز من إقليم تازا بتربية الخيل والحمير التي

---

[1]. مدينة أسسها محمد بن إدريس باني مدينة فاس تبعد عن مدينة فاس 80 ميلا و20ميلا جنوبي القصر وسميت بهذا الاسم تذكيرا ببصرة العراق التي قتل فيها علي رابع الخلفاء الراشدين وجد إدريس الأعلى وما تزال أطلالها باقية ،انظر الوزان،المصدر السابق،ج1،ص310.

[2]. الوزان، المصدر السابق،ج1،ص310.-312، 130ص320.

[3]. أصيلا، بلد بالقرب من طنجة،ويقال فيه أزيلة بالزاي،وهي مدينة كبيرة عامرة آهلة كثيرة الخير والخصب،ولها مرسى مقصود، وهي أول مدن العدوة من جانب الغرب ويحيط بها البحر من غربيها وجوفيها،ويقال بأن تفسيرها - أصيلا- هو جيدة،انظر الحميري،الروض المعطار، ص42. انظر أيضا لسان الدين بن الخطيب،خطرة الطيف،هامش 462،ص100.

[4]. الوزان،المصدر السابق،ج1، ص328.

[5]. لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف،ص100

[6]. نفسه،ج1، ص365.

[7]. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص357-358.

[8]. نفسه،ج1، ص360-361.

يتوالد عنها كثير من البغال وأهلها رحل لا يعرفون الاستقرار فرضت عليهم ظروف الحياة الإقامة داخل أكواخ من قصب[1].

كما انتشرت بجبال إقليم حاحا من الأطلس تربية الحيوانات بشتى أنواعها مثل جبل اداو عاقل المتاخم للمحيط والفاصل بين حاحا وإقليم السوس وجبل دمنسرة بالأطلس بنواحي مراكش وجبل كبدانة- الذي يمتد من عساسة إلى نهر ملوية شرقا ومن المتوسط إلى صحراء كرط جنوبا[2].

أما حرفة الصيد البحري فقد انتشرت في عدة مناطق من بلاد المغرب الأقصى، خاصة إذا ما علمنا أن هذا البلد يطل على مسطحين مائيين (المتوسط والأطلسي) إضافة إلى كثرة أنهاره وغزارة مياهها ناهيك عن البحيرات المتواجدة في أنحاء عديدة منها فاحتوت تلك المناطق حوتا كثيرا[3]، فاق حاجات السكان فعم حتى المجاشر النائية والخيم [4]،فكان يزاول بها نوعان من الصيد،نهري يتم في المياه العذبة وبحري على طول السواحل، ومن تلك المناطق التي اشتهرت بذلك:ترغة التي كان سكانها يصطادون السمك ويبيعونه مملحا للتجار القادمين من نواحي المغرب، ومدينة أزمور[5] التي لم يكن ينقطع عنها التجار الأجانب بشكل عام[6]،ويأتيها التجار البرتغاليون مرة في السنة ليشتروا كمية عظيمة من سمك الشابل[7]، ومن سلا كان ينقل نوع من السمك يسمى- الحوت الطيب -المعروف عندهم بالشابل الذي يكون في اختلاط الماء المالح بالحلو ويحمل من هناك إلى الأقطار[8]،أما أسماك السردين فكانت تصطاد خاصة من منطقـــــــــــــــــــــــــــــــــــــة

---

[1].الوزان،المصدر السابق،ج1، ص368-369.

[2]. نفسه،ج1،ص310-311-344.

[3]. لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف،ص100.

[4]. نفسه،ص102

[5]. من مدن دكالة على مصب نهر أم الربيع في البحر المحيط.

[6]. الوزان،المصدر السابق،ج1، ص157

[7]. نفسه،ج1، ص158.

[8]. الوزان،المصدر السابق،ج1، ص326.

بادس لأنها كانت تمثل مصدر قوت لأهلها ولأن أرضهم قليلة القمح والمردود الفلاحي بشكل عام[1].

ثانيا :الصناعـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــة:

1/إمكانياتها:

أ- الطبيعية:

[1]. نفسه،ج1، ص326.

تشتمل على المعادن التي تمثلت في الرخام بسفوح جبل طوبقال،وهو من النوع الجيد ذو البياض الناصع والصافي، لكن أهل المنطقة لم يكونوا على دراية بكيفة استخراجه ولا كيفية جليه[1]، وكذا النحاس والحديد اللذان يتواجدان بوفرة في إقليم جزولة وجبل بني بوسعيد الذي ينقل حديده إلى فاس على شكل سبائك لأن عمال المعادن لا يعرفون كيف يحولونه إلى قضبان وما لا يباع منه يستخدم آلات كالمجارف والفؤوس والمناجل وكذلك لصنع أسلحة لهؤلاء الفلاحين ولا يمكن استخلاص الفولاذ منه[2] وكان أهل المنطقة يصنعون به أوعية عديدة من النحاس يحملونها إلى مختلف الأنحاء لمقايضتها بالأقمشة والتوابل والخيول وجميع ما يحتاجون إليه[3]،وكانت لنحاس هذه المنطقة شهرة مؤكدة تحت اسم سيني ولا تزال آثار استغلاله موجودة على مسافة 3كم من مخفر أغاديرن تيسنت[4].

وفي منحدرات الجبل وجبل يستيتن بإقليم تازة نجد مناجم الحديد الذي يعالج فتصنع منه صفائح الحديد التي تحذى بها الخيل،كما تستعمل نفس الصفائح كعملة لعدم وجود نقود في البلد[5]، وكذا من جبل دمنسرة بالأطلس،إذ كان أهل المنطقة يستخرجون كميات هامة منه لتباع في مختلف الجهات مقابل نقود فضية[6].

أما الصلصال فتواجد بمزدغة[7] وكان أهلها يصنعون منه الأواني الفخارية ويبيعونها في فاس[1].

---

[1].الوزان،المصدر السابق،ج1، ص154-155.

[2]. نفسه،ج1، ص 344-345.

[3]. نفسه،ج1، ص156

[4]. نفسه،ج1، هامش213، ص156.

[5]. الوزان،المصدر السابق، ج1، ص359.

[6]. نفسه،ج1، ص111.

[7]. مزدغة مدينة صغيرة واقعة في سفح الأطلس على بعد ثمانية أميال غربي صفرو.الوزان،المصدر السابق،ج1،ص363.

كان الملح وافرا بالمغرب وخاصة بفاس، إذ وجدت بها عدة ملاحات واشتهر ملحها بجودته العالية ((وتفوق مدينة فاس غيرها من بلاد بمعدن الملح الذي عليها ،ليس في معمور الأرض معدن ملح مثله وهو على نحو ستة أميال منها وطول هذه الملاحة نحو 18 ميلا، وفي هذه الملاحة أصناف من الملح لا يشبه بعضها بعضا في الألوان والصفات[2]،كما نستنتج وفرة هذه المادة من خلال النوازل والفتاوى إذ كانت تستخرج من صحراء جنوب المغرب الأقصى كميات هامة منها وما يدل على ذلك أن "قوما بصحراء المغرب كان لهم معدن ملح يستخرجونها من جوف الأرض ويقطعونها ألواحا مثل الرخام ....)) ويضيف بان ألواح الملح هي معظم تجارتهم ،حيث كانوا يحملونها من بلد إلى آخر ،ولا غنى لجميع بلاد المغرب عنها[3].

أما النوع الثاني من تلك الإمكانيات فيتمثل في المحاصيل الزراعية والمنتجات الحيوانية التي تدخل كمادة أولية في الكثير من الصناعات منها،كالقطن والحرير والكتان وقصب السكر الذي تواجد بكثرة في المنطقة والحلفاء.

ب/الإنتاج الصناعي:

ازدهرت الكثير من الصناعات بالمغرب الأقصى وكان ذلك نتيجة لعراقة بعض الصناعات التي تعود جذورها إلى عهد الموحدين والمرابطين وأخرى نتيجة لتمازج حضاري بين العدوتين، وأخرى نتيجة لما شهدته البلاد من استقرار سياسي وأمني خاصة على عهد أبي عنـــــــــــــــــان،ورغم بساطة تلك الصناعات إلا أنها كانت مواكبة لروح وظروف العصر، فنجد أن مدينة فاس جاءها في الربع الأول من القرن7ه / 13م فئتان من المواطنين الذين دخلوها بعد أن أخرجوا من قرطبة والقيروان لأسباب سياسية

---

1. الوزان،المصدر السابق،ج1،ص363.
2. انظر كمال السيد أبو مصطفى،جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي،مركز الإسكندرية للكتاب،الإسكندرية 1996م،هامش 30،ص67.
3. الونشريسي،المصدر السابق،ج5، ص136-137.

ودينية، وكان من بينهم صناع كثيرون[1] وبالتالي فان التقنية الصناعية في فاس كانت متأثرة إلى درجة بعيدة بالأثر الأندلسي وبقيت كذلك على عهد المرينين وما بعدهم، وفي أيام أبي الحسن وأبي عنان كان في مدينة فاس نحو مائة وخمسين هيئة تعمل جنبا إلى جنب، وقد تملا أحياء معينة بأصوات الأدوات التي تعمل بإيقاع من ضرب الجلد وحفيف القماش[2].

أ/صناعة النسيج:

من الصناعات التي ازدهرت ازدهارا كبيرا واختلفت الآلات المستعملة فيه تبعا لنوع المادة المستخدمة،فالصوف والكتان والقطن كان يستعمل لغزل الأنوال البدائية لصنع عباءة الصوف الخشن،أما الأقمشة الحريرية المزركشة بالأزهار والصوفية ذات اللون الواحد فقد استخدمت لنسجها الأنوال المعقدة بعض الشيى[3].

ب/صناعة السفن :

تواجدت بعدة مدن ساحلية مثل سبتة وطنجة وسلا[4] ، وقد اهتم بها سلاطين المغرب الأقصى على عكس نظرائهم في بلاد المغرب الأوسط وذلك نظرا لموقعهم –القريب من العدوة الأندلسية– وموقفهم من حركة الاسترداد وما جلبه لهم من مصادمات مع الدول النصرانية،تطلبت نقل الجند والمؤن الى هناك وحماية السواحل المغربية من الغارات الاسبانية والبرتغالية من جهة أخرى، ومما يؤكد هذا الاتجـــــــــــاه هو قول النميري بأنه نظرا لكثرة ما كان يخرج من دور الانشاء من سفن فقد أرهب ذلك الكثير من الدول وجعلها تخشى بأسه[5]، كما وجدت هذه

---

[1]. روجي لي تورنو، فاس في عصر بني مرين، ص176.

[2]. نفسه ، ص127.

[3]. نفسه، ص132.

[4]. انظر على حامد الماحي،المرجع السابق،ص182، علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ط2،تحقيق عبد الوهاب بن منصور،المطبعة الملكية،الرباط 1411ه–1991م،ص27.

[5]. ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص105.

الصناعة في جبل أنجرة الذي يبعد عن القصر الصغير بنحو ثمانية أميال فكانت أرضا لها لأنها احتوت على المادة الأولية ألا وهي الأخشاب[1] بالاضافة الى ما كان يأتي من جبل جاناته الواقع غرب آزمور باقليم الرباط، وكان أبو عنان يذهب الى هذا الجبل بنفسه ليراقب عن كثب عملية اقتطاع الخشب[2]، ومن منطقة بادس على ساحل المتوسط الذي كان من النوع الجيد، ولهذا فقد تواجدت دار صغيرة تصنع فيها الزوارق والسفن الشراعية،وبعض المراكب التي كان يسلحها أهلها ويرسلوا بها الى بلاد النصارى لممارسة القرصنة[3].

الصناعات الغذائية: وتمثلت في صناعة الزيوت التي اشتهرت بها منطقة صفرو[4] ليس بها إلا غابات الزيتون، أهلها كانوا أثرياء لكن ألبستهم كانت رديئة وملطخة بالزيت دوما لأنهم يصنعون الزيت طول السنة ويحملونه الى فاس لبيعه[5]، وغالبا ما كانت هذه المعاصر تباع أو تكترى سواء في المغرب الأقصى أو باقي بلاد المغرب وذلك حسب ما وجد من إشارات الى رجل باع معصرة زيتون واشترط في العقد أن يعصر فيه زيتونه سنوات معينة [6].

كما تواجدت ببلاد المغرب الأقصى مجموعة من الأرحاء التي اختصت بطحن الغلال والحبوب والتي تنوعت مصادر طاقة عملها، فمنها ما كانت تدار بالدواب ومنها ما

---

[1]. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص322.

[2]. ابن الحاج النميري، المصدر السابق،ص61.

[3]. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص326.

[4]. تقع في سفح الأطلس الأعلى على بعد خمسة عشر ميلا إلى الجنوب من فاس،انظر الوزان،المصدر السابق، ج1، ص362.

[5]. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص362.

[6]. الونشريسي، المصدر السابق،ح5، ص256.

كانت تدار بقوة المياه، وكانت توجد شركات بين الأشخاص لإقامتها واقتسام الربح مناصفة بينهم[1].

اشتهرت بلاد المغرب الأقصى بصناعة الصابون، فعلى عهد الناصر الموحدي كان يتواجد بفاس لوحدها سبع وأربعون دارا لصناعة الصابون،أما صناعة الكاغد فقد اشتهرت بها مدينة فاس التي امتاز ورقها بالجودة والبياض الناصع، وربما لم تكن تلك الكميات كافية للاحتياجات المحلية منه لأنه كان يتواجد بها الكاغد الرومي الذي كان يصل الى المغرب عن طريق بلاد الروم[2]،وقد تواجدت بفاس لوحدها أربعمائة دار لصناعة الكاغد على أواخر أيام الموحدي ما يدل على استمرارية تلك الصناعة على أيام المرينيين،أما صناعة الزجاج فانتشرت انتشارا واسعا إذ تواجدت بفاس ستة عشر دارا لصناعته، ناهيك عن دور صناعة الفخار التي بلغ عددها في نفس المدينة ثمانون دارا.

وبخصوص صناعة الجلود فكانت لها أهمية كبرى لما توفره من مناصب شغل، كونها تمر بعدة مراحل يوردها لنا روجيه لي تورنو[3]،وكل مرحلة تشغل عددا لا بأس به من العمال، تبدأ من فئة الدباغين الذين يعدون الجلود للصنع–كانت ذات مصادر مختلفة،فمنها ما كان من الماعز ومنها ما كان من الأبقار أو الغزلان أو الجمال– وقد تواجد بفاس لوحدها ست وثمانون دارا لدباغة الجلود وتصنيعها، وقبل هذا كانت تمر على عمال يزيلون الشعر عن الجلد، وآخرين يعدون المسحوق اللازم للدباغة، وهذه العمليات مجتمعة كانت تشغل ألف عامل في مدينة فاس لوحدها.

---

[1]. نفسه،ج5، ص236.

[2]. نفسه،ج1، ص75–85.

[3]. روجي لي تورنو،فاس في عهد بني مرين ، ص133،انظر أيضا حسن علي، المرجع السابق، ص296 –297–305

بعد عملية الدبغ تنتقل الجلود الى أصحاب الحرف المختلفة، فمنها تصنع العدة والسروج للخيل والدواب، والى صناع الحقائب وصانعي الأحذية والنعال[1]،وكان الصناع المحليون يقومون بصنع الكثير من المعدات الموجهة للأعمال المنزلية أو الفلاحية وغيرها، فكان الحداد ينتج الأدوات المعدنية للمدينة والريف وجابل الخشب يصنع المقابض لهذه الأدوات وصانع الدواليب يهيئ المحـــــــــاريث للفلاحـــــــين ومقابـــــــــــــــض المجـــــــــــــاريف والفؤوس و المـــــــــذاري وغـــــــــــــــــــــــير ذلك

من الأدوات الفلاحية، كما كان الحبالون يجدلون القنب حبالا ليوثقوا بها الأحمال على ظهور الدواب أو لنشل الماء من الآبار أو يتخذون منه خيوط القنب التي كانت تستعمل في صناعات متعددة [2].

كما انتشرت النجارة بشكل ملحوظ، فمنها ما كان يختص بصناعة الأبواب ومنها ما كان يوجه لصناع الأدوات المنزلية مثل الطبليات المستديرة والرفوف والصناديق التي كانت تقوم آنذاك مقام الخزانات،كما انتشرت صناعة الأواني النحاسية كقدور الطبخ،وانتشرت صناعة السلاح الموجهة لتزويد جيش السلطان وكذا القبائل المقاتلة حول المدن كمدينة فاس[3]، إضافة الى صناعة الشموع التي كانت منها الغليظة والرفيعة،وتصنع من الشمع الأصفر ولها ذبالة من خيط قنب ثخين وكانت مطلوبة بكثرة من قبل القبائل المقيمة في أطراف المدينة[4].

---

[1]. روجي لي تورنو، فاس في عهد بني مرين، ص134.

[2]. نفسه، ص135.

[3]. حسن علي، المرجع السابق،ص296 –297–305،انظر أيضا، روجي لي تورنو، فاس في عهد بني مرين، ص137.

[4]. روجي لي تورنو، فاس في عهد بني مرين، ص137.

اشتهرت فاس على الخصوص بصناعة الأمشاط من خشب –البقس – الذي كان ينمو في جبل– بني كرفط –الواقع في منطقة تطاوين وكانت تستورد منه كميات كبيرة لهذا الغرض[1]، كما أن صناعة البناء وما يتعلق بها من فسيفساء وقرميد كانت مزدهرة، بدليل ما كانت عليه بيوت ومنازل الحواضر المغربية من جمال والتي ذكرها الكثير من الجغرافيين والرحالة أمثال الوزان وقد أعجبوا بها إعجابا كبيرا .

ملاحظة: تجدر الإشارة هنا إلى أن الحرف في بلاد المغرب الأقصى بدأت تتخذ شكلا نقابيا، وهو ما عرف ب–الطوائف الحرفية– التي كانت عبارة عن تجمعات مهنية تربط بين العمال الذين كانوا يستخدمون في صناعة واحدة بقطع النظر عن توزيع المصانع.

3/ التجـــــــارة:

يمتاز المغرب الأقصى بموقع استراتيجي هام فتح له آفاقا واسعة للنشاط التجاري، اذ يطل على واجهتين بحريتين متوسطية وأطلسية، اضافة الى اتصاله بالصحراء الإفريقية ووقوعه ضمن الطريق المحوري شرق –غرب 'سجلماسة "، والسمة المميزة لنشاطه الاقتصادي المتمثلة في ثنائية الفلاحة والتجارة، أي أن الفلاحة كانت قطاعا خادما للتجارة من خلال ما تقدمه من مواد زراعية سواء الفائض الذي كان يدور داخل حدود المغرب أو خارجها فكانت بذلك أن جمعت ما أولده سام وحام ،حتى عظم بها الالتئام والالتحام[2] .

1. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص323.
2. لسان الدين بن الخطيب،خطرة الطيف،ص107.

كما تواجدت جملة من الطرق الداخلية التي ربطت بين أقاليم المغرب الأقصى ،مثل طريق فاس –سبتة ،وطريق فاس –طنجة ،وطريق فاس –البصرة المغربية،وطريق فاس –مكناسة وسلا ،وطريق فاس –مراكش ،وطريق فاس –أغمات،وطريق فاس – سجلماسة ،طريق فاس السوس وغيرها من الطرق التجارية الداخلية [1].

ارتبطت مدن المغرب الأقصى بنظيراتها في بلاد المغرب بجملة من الطرق كطريق فاس –المسيلة،وطريق فاس –القيروان ،وطريق سجلماسة القيروان،طريق البصرة المغربية –القيروان،طريق السوس الأقصى –القيروان ،والسوس الأقصى –برقة.

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على نجاح التجارة في المغرب هو اختلاف البيئة الطبيعية الداخلية بينه وبين بلاد السودان الغربي من جهة، والضفة الشمالية للمتوسط من جهة أخرى.

[1]. بان علي محمد البياتي، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن 3-5ه/9-11م)، رسالة ماجستير،كلية التربية للبنات ،قسم التاريخ، بغداد 2004م، ص32 وما يليها .

الفصل الثاني

الواقع الاقتصادي في جنوب غرب أوروبا

المبحث الأول:الواقع الإقتصادي في شبه الجزيرة الأيبيرية.

أولا-في الأندلس[1]:

1-الزراعة:

أ/العوامل المساعدة:[2].

أ1/ملائمة المناخ: والذي يمتاز بالاعتدال وهذا ما يذكره الرازي بقوله((كريمة البقعة ،معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قيضها زيادة منكرة تضر بالأبدان، وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال))[3]، ويعود السبب في اعتدال مناخها الى طابعها شبه الجزري اذ تحاط بالمياه من جهاتها الثلاثة -شرق- غرب- جنوب.

---

1. سميت بهذا الاسم حسب الرازي نسبة إلى أول الأقوام الذين سكنوها بعد الطوفان،ويعرفون بالأندلش (بشين معجمة)) انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص4.
2. ابن سعيد المغربي،المصدر السابق،ج2، ص564.
3. أحمد المقري،المصدر السابق،ج1، ص140.

أ3/خصوبة التربة: فهي طيبة التربة[1]،إذ يحكى أن الزرع في بعض المناطق كان يثمر بسقي مطرة واحدة[2]، فلم يكن ما يشبه بلاد الأندلس من حيث خصوبتها سوى مدينة فاس ودمشق[3]، فهي خصيبة مخصوصة بكثرة البر و البحر وأنواع الفواكه والنعم كثيرة النسل عظيمة البركة كثيرة الصيد من الوحش والطير والحوت طيبة البقاع والتربة عذبة المياه قليلة الحيات والعقارب والهوام المؤذية[4]،ومن هنا ندرك بأن الظروف الطبيعية كانت ملائمة جدا لقيام وازدهار الفلاحة.

أ4/العامل البشري: ويتمثل في جهود أهل الأندلس المسلمين في استنبات الأرض واستغلالها حتى أن أهلها اكتسبوا عادات فلاحية أصبحت بمثابة قواعد عامة تحتذى في هذا المجال، ومما يدل على نجاحها أنه بخروج أهلها منها تراجعت تراجعا حادا،وهذا ما يفسره تحرك شهية الدول الأوروبية ومنها اسبانيا والبرتغال للبحث عن مناطق خارج شبه الجزيرة الأيبيرية يعوضون بها ذلك الفراغ.

ب/الإنتاج الزراعي:

امتازت بلاد الأندلس بإنتاجها الوفير والمتنوع في المجال الفلاحي، بين ما هو نباتي وما هو حيواني وبينما هو بري وبحري.

ب1/الإنتاج النباتي:

امتازت بلاد الأندلس بغناها وتنوع محاصيلها الزراعية وجناتها التي احتوت كل أنواع الغلال والثمار التي كانت تتصل طول الزمان، فلا تكاد تعدم أو تعرف انقطاعا

---

[1]. نفسه،ج1، ص140.انظر أيضا لسان الدين بن الخطيب،خطرة الطيف بواسطة بن الخطيب،ص133 ومايليهن

[2].أحمد المقري، المصدر السابق،ج1، ص168

[3]. نفسه،ج1، ص209.

[4]. مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، لويس مولينا،ج1،مدريد1983. ص11.

طيلة أيام السنة[1]، فبالنسبة للحبوب، تواجد الشعير بغرناطة، وكذا بمدينة رندة التي كانت بالبّر مليئة فكان الإنتاج بها يفيض عن الحاجيات المحلية ويمتد ليغطي جزءا من السنة الموالية فكانت بذلك أقواتها جديدة وبالية[2].

أما الزيتون فتواجد في جميع أنحاء الأندلس بما في ذلك منطقة جبل أو إقليم الشرف[3] واشتهرت المرية بانتاجها الكثير للعنب فعرفت لذلك ببلد الأعناب[4] فبلاد الأندلس لم تخل من الجنان التي احتوت على أشكال شتى من الكروم خاصة بالمنكب ومربلة التي كانت حدقاتها

مغرس العنب العديم القرين[5] فكانت تجفف ليصنع منها الزبيب وجملة أخرى من الفواكه كالرمان السفرضي والخوخ والجوز واللوز [6]، والتفاح والقراسيا [7].وغيرها مما يطول ذكره.

أما التين فاشتهرت به مالقة خاصة،اذ استدار بها من جميع جهاتها وقد كان منسوبا إليها –التين المالقي– الذي يحمل منها إلى مصر والشام والعراق وربما وصل الى الهند [8] .

1.أحمد المقري ،المصدر السابق،ج1،ص140.

2. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين في بلاد المغرب والأندلس(مجموعة من رسائله)، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع،الإسكندرية مصر 1983م،ص95-96.

3. الإدريسي ،المصدر السابق،ج2،537.

4. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص40.

5. نفسه، ص75.

6. المقري، المصدر السابق،ج1،ص200.

7. الإدريسي، المصدر السابق،ج2،ص726

8. الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص178.

أما رندة فاشتهرت بإنتاجها الغزير للقطن الذي كان يكفي حاجة الأندلس ويتجهز التجار بالفائض منه إلى افريقية وسجلماسة وما والاها[1]، أما كور أشكوني بتدمير فتشتهر بإنتاج التفاح والكمثري والتين والرمان وضروب الفواكه[2].

أما قرطبة وشلير[3] والمرية فاشتهرت بزراعة الكتان[4]، وبخصوص السكر فكان إنتاجه قليلا في بلاد الأندلس، باستثناء المنكب التي مثلت منطقة إنتاجه الرئيسية حتـــى

غصت أرضها بقصبه واستوعب فيها طولها وعرضها[5].

أما الحرير فتواجد ب -برجه[6] - إذ كان غلة أهل المدينة نظرا لاستعصاء زرع محاصيل أخرى بها لان المنطقة كانت قليلة المياه -إن لم ينقل إليه الماء برح به الظمأ[7]

إضافة إلى أندرش[8] التي يقال إن حريرها ذهب، ووادي آش-التي كان سندها الحرير[9].

ب2/الإنتاج الحيواني: سادت تربية المواشي والأبقار خاصة بمدينة طليطلة،بجبل الشارات الواقع شمالها،إذ كانت تشتهر بكثرتها وسمنتها حتى صارت مضربا للمثل في

---

[1]. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج1،ص329. انظر أيضا، الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص22.

[2]. الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص22.انظر أيضا،الروض المعطار،صص60-61.

[3]. شلير جبل الثلج المشهور بالأندلس الذي يكسوه الثلج شتاء وصيفا،انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص112.

[4]. انظر أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص83.

[5]. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق،هامش 2، ص79، انظر أيضا أبو العباس أحمد القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص176.

[6]. كانت تسمى قديما Virgi وتسمى اليوم Berja وتقع في إقليم المرية بشرق الأندلس،انظر أخمد مختار العبادي، المرجع السابق،ه2، ص81.

[7]. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص82.

[8]. أندرش(Andara)بلدة من أعمال المرية غير موجودة الآن لكن لا يزال اسم أندرش يطلق على نهر هناك ينبع من جبال شلير وينحدر شرقا وجنوبا، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، هامش1،ص88.

[9].أحمد مختار العبادي، المرجع السابق ، ص88

كل أنحاء بلاد الأندلس،لكن بانحسار ملك المسلمين بالمنطقة تراجعت هذه الحرفة فكادت تنحصر في تربية بعض الحيوانات كقرطبة وشرف اللتان سادت بهما تربية الحمام والدجاج بغرض أكل لحمها أو بيعها والاستفادة من زبلها في تخصيب الأرض، وتربية دود الذي اختصت به جيان الكثيرة الخصب[1] واحتوت على ثلاثة آلاف قرية يمارس بها هذا الصنف من العمل، ودلاية[2] التي تواجد بها حرير ترفّع عن الثمن[3]، و الى جانب ذلك ذلك فقد سادت تربية النحل لاستخلاص العسل والشمع في بعض مناطق الأندلس منها – قنتورية– التي يجود بها العسل وكذا أورية[4] التي عرفت ببلدة الجبن والعسل[5].

وسادت تربية الماعز بجزيرة بقادس و–أشكر–[6] التي وصفها ابن الخطيب بقوله" نعم البسيط المديد والرزق الجديد والصيد القديد، مسرح البهائم ومعدن الرعي الدائم "[7]، والحمة–*Alhama*– [8] التي تواجد بها الحجل والصيد بأنواعه[9] .

وانتشرت تربية الجمال ب–بيره[10] فعلى حد تعبير لسان الدين فان البعير كان يسرح بها و يجم بها الشعير ويقصدها من مرسية و أحوازها العير وربما كان ذلك بسبب

---

[1]. موسى عز الدين عمر، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1424 هـ / 2003م،ص202.

[2]. دلاية وهي قرية في ولاية المرية وتقع في جنوب شرق برجه بنحو 9 كلم، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، هامش1، ص82.

[3]. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص82.

[4]. أورية–*Oria*– بلدة في ولاية المرية تتبع مركز برشانة، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق،هامش1،ص86.

[5]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص70،انظر أيضا أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص85.

[6]. بلدة في غرناطة وتسمى الآن *Huescar* وتقع في شمال بسطة وكانت هذه البلدة موضع حروب ومنازعات بين المسلمين والنصارى على أيام ابن الخطيب، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، هامش3، ص87.

[7]. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص87.

[8]. بلدة صغيرة على قمة جبل بالقرب من مدينة بجانة من إعمال المرية وقد أطلق العرب عليها هذا الاسم نسبة إلى العين الحارة التي تفجرت بها، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق،ه3، ص92.

[9].أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص92–93.

[10]. بيرة– Vera– بلدة حصينة مرتفعة تشرف على ساحل البحر المتوسط من الحدود الشمالية الشرقية لمملكة غرناطة وهي أقصى حدود المسلمين في تلك المنطقة أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ه1، ص40.

قلة المياه وصبر تلك الحيوانات على العطش لأنه يقول أيضا عنها بأن الماء إليها مجلوب[1].

أما بالنسبة لحرفة الصيد البحري فقد سادت على طول سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية بواسطة الشباك كبزليانة[2] التي يصاد بها الحوت الكثير الذي يحمل منها إلى الجهات المجاورة لها[3]، وكذا بالمرافئ كمرسى المنكب[4].

2/الصناعة:

أ/عواملها:

تواجدت بالمنطقة مجموعة من الثروات المعدنية والمواد الأولية التي ساعدت على تنشيط هذا القطاع[5] ونجد على رأسها النحاس والحديد اللذان تواجد بوادي آش – فقد اشتهرت هذه الأخيرة بمعدن الحديد خاصة، فكانت –محل عدة وعديد كثيرة– على حد تعبير لسان الدين[6]، كما تواجد النحاس والصفر في شمال الأندلس و الرخام بجبال قرطبة وبالمرية، وهو من النوع الأبيض والخمري[7]، واحتوت المرية أيضا على الرصاص وتحديدا بمنطقة دلاية، وتواجدت الفضة في مرسية وباغة بقرطبة،أما الملح فتواجد بدلاية–و بكميات هامة بدليل قول ابن الخطيب،((وملح يستفاد على الزمن))[8].

إضافة الى كل هذا فقد تواجدت بها معادن كثيرة حتى المها و الزئبق والكبريت والرصاص والقصدير هذا ما أشار إليه صاحب الصفة لكن دون ذكر أماكنها تحديدا[1].

---

1. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، صص40-84.
2. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، صص107-120.
3. بزليانة، قرية على ساحل البحر قريبة من مالقة، انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص44.
4. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج2،ص564.
5. مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ج1، ص11.
6. انظر أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص88.
7. نفسه، ص83.
8. نفسه، ص82.

وتواجدت جملة من المواد الأولية النباتية التي أدخلت في العديد من الصناعات منها القطن والحرير والجلود والأصواف والشمع وقد أشرنا إليها سابقا.

ب/الإنتاج الصناعي :

عرفت بلاد الأندلس تخصصا في الكثير من الصناعات التي ذاعت بها شهرة وازدادت ترسخا وتقدما بمرور الزمن، ومن تلك الصناعات صناعة النسيج التي تركزت بالمرية التي اشتهرت بالمنسوجات الحريرية الموشاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة على حد تعبير ابن سعيد، فكان ثمن الحلة الموشية من إنتاجها يتجاوز آلاف الدنانير، وتواجدت مناطق أخرى اختصت بالنسيج كقرطبة وبلنسية ومرسية التي أصبحت مقصدا لمن يريد تجهيز عروس في بلاد المغرب، وبرع أهل الأندلس عموما بصناعة الستور المكللة والمعاجر، حسب ابن سعيد، واشتهرت غرناطة وبسطة بالملبد المختم ذي الألوان، وظلت هذه الصناعة مزدهرة ، أما الصناعات الصوفية فكانت هي الأخرى على نفس الدرجة من الاهتمام والتطور لتوفر المادة الضرورية لذلك وهي الصوف، وإقبال جميع شرائح المجتمع فقراء وأغنياء لاقتنائها وقد اختصت بها شنترين.

كما ازدهرت صناعة الورق والكاغد لما لها من علاقة مع صناعة النسيج بحكم المادة التي تجمعهما وهي القطن والكتان، ولعل أهم مدينة اشتهرت بهذه الصناعة هي شاطبة *Xativa* التي كان ورقها يعم المشارق والمغارب، كما شهدت بلنسية هذه الصناعة لتوفرها على المادة الأولية أكثر مما في شاطبة، ومما يدل على جودة الورق في ذلك العهد رواية المقري ((في ورقة بيضاء إن قرئت في ضوء السراج كانت فضية وإن قرئت في الشمس كانت ذهبية و إن قرئت في الظل كانت حبرا أسودا))[2].

---

[1]. مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس،ج1، ص11.

[2]. انظر أحمد مختار العبادي، المرجع السابق ، ص94 .

انتشرت صناعة الزيوت المستخرجة من الزيتون والكتان في العديد من المناطق ومنها اشبيلية التي كان زيتها يباع في جميع المناطق نظرا لجودته ومقاومته للزمن[1]، إضافة إلى شوذر[2] التي كانت تعرف بغدير الزيت لكثرة زيوتها[3] ولقنت[4] ولوجة التي تواجدت بها عيون الأرحاء ومعاصر الزيت والخضر.

ازدهرت الصناعات الجلدية ببلاد الأندلس، نظرا لتوفر المادة الأولية المتمثلة في جلود الحيوانات والمواد المساعدة في عملية الدباغة من مادة الزعفران والقرمز والنيلة والشب الذي استعمل في تثبيت الألوان، إضافة إلى وفرة المياه باعتبار أن دور الصناعة كانت تتخذ على ضفاف الأنهار، وكانت هذه الحرفة تتطلب كميات هامة من المياه لغسل الجلود وتنظيفها، وقد اشتهرت مالقة[5] بكونها مركزا لصناعة الأغشية والحزم والمدورات الجلدية، فقال فيها لسان الدين:((مالقة طراز الديباج المذهب ومعدن صنائع الجلد المنتحب))[6]، كما برع أهل اشبيلية وغرناطة في صناعة الأحذية، وقد احتفظت بعض المناطق والمدن بهذه الصناعات حتى بعد حركة الاسترداد المسيحي.

أما مرسية ومالقة فقد اشتهرتا بصناعة آلات الصفر والنحاس والحديد من سكاكين ومقصات مذهبة وجميع مايحتاجه المنزل من أواني خاصة[7]، فقد كان الصفر يستعمل لصناعة الشبابيك و الثريا لتزيين المساجد، والتوتياء ليصير النحاس أخضرا[8]، إضافة الى

---

[1]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص21.

[2]. من كور جيان بالأندلس كثيرة المياه والبساتين ،انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص117.

[3]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص117.

[4]. انظر ابن سعيد المغربي،المصدر نفسه،ج2،ص274.

[5]. مدينة بالأندلس على شاطئ البحر وهي مدينة في غاية الحصانة كثيرة الديار تبعد عن أرشذونة ثمانية وعشرون ميلا.انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص178-179.

[6]. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص59-76.

[7]. كمال السيد أبو مصطفى ،المرجع السابق، ص250.

[8]. عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 363.

الى صناعة الفخار المذهب بمالقة التي كان ينقل منها إلى العديد من الأقطار[1] وبالمرية فقد ازدهرت صناعة السيوف التي كانت تصنع من الجفون السود مسلولة[2]، أما صناعة البسط الرفيعة الشريفة فقد اختص وحذق بصنعتها وتجويدها أهل مرسية[3].

اشتهرت مدينة شلطيش- الواقعة بالقرب من مدينة لبلة بالأندلس وهي شبه جزيرة- بصناعة الحديد الصلب، إذ تواجدت بها دار للصنعة فتنتج منه المراسي التي ترسو بها السفن[4]، وبخصوص الصناعات الخشبية فارتبطت أيما ارتباط بصناعة السفن، فقد وجدت دور الصناعة أو القطائع في كل من المرية التي كانت من أهم القواعد البحرية لدى المرابطين لدفع الخطر المسيحي الاسباني على السواحل الإسلامية،إ ضافة الى دار شلب ودانية ولقنت[5]وتواجدت فروع أخرى لهذا النشاط كصناعة الأبواب والشبابيك والجوائز الخشبية اللازمة لأسقف المنازل وصناعة الأسرة والأرائك وغيرها[6]، أما صناعة الزجاج فانتشرت بمرسية والمرية ومالقة[7]، ولم تغب عن بلاد الأندلس بعض الصناعات التي هي في منظورنا اليوم تقليدية

كمراوح الحلفاء التي انتشرت بغرناطة وأطباق الخوص بالمرية والأسرّة المرصعة والحصر الفتانة بمرسية، والأمقاص والسكاكين من الحديد والصفر[8].

---

[1]. انظر أحمد مختار العبادي، المرجع السابق ، ص59-76.

[2]. نفسه، ص83.

[3]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص182.

[4]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص110.

[5]. الإدريسي، المصدر السابق، ص543-558-557.

[6]. كمال السيد أبو مصطفى ، المرجع السابق، ص254-255.

[7]. انظر ابن سعيد ، المغرب،ج1،ص424،المقري،المصدر السابق، ج1،ص162-202.

[8]. أحمد المقري ،المصدر السابق،ج1، ص201 .

أما المرية فكانت بها كل الصناعات،كطرز الحرير الذي فاقت معامله الثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والستور المكللة، وتصنع صنوف آلات النحاس والحديد وما لا يحاد الصفة [1].

كما ظهرت بعض الصناعات البسيطة التي انطلقت من محاصيل زراعية أو نباتية كصناعة الزبيب الذي يتخذ من تجفيف العنب، واشتهرت بذلك المنكب –ذات الزبيب الفائق– كما جفف التين والاجاص والخوخ وحب الملوك في قرى كورتي شلب ومالقة[2] وصنع الجبن الرطب والعتيق وجبن متوسط بين النوعين السابقين –الطغنري– ،وصنعت الحبال والحصر من الحلفاء وكانت تتخذ البيوت كورشات لتلك الصناعة، وأهم مدنها مرسية التي كانت تصنع بها الحصر الفتانة المبهرة[3].

3/التجـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــارة :

أ/عواملها:

بازدهار الزراعة والصناعة تنشط التجارة، وبفعلها تتحرك أيضا عجلة الصناعة والزراعة، أي أن القطاعات الاقتصادية الثلاثة جميعها يؤثر ويتأثر بالآخر، وقد ساعد موقع مملكة غرناطة الجغرافي على رواج تجارتها، إذ كانت ملتصقة بالعالم الأوروبي ومجاورة للعالم الإسلامي، وارتبطت مع مملكتي قشتالة وأراغون وبعض جمهوريات وإمارات ايطاليا بمعاهدات تجارية متنوعة، وتتحدث بعض الوثائق عن تلك الاتفاقيات التي عقدت في سنة 678ه/1279م بين سفير جنوي في غرناطة والسلطان محمد الثاني، يتعهد السلطان بموجبها بحماية الجنويين وإعطائهم حقوق بناء كنيسة خاصة بهم وفندقا وحماما، والسّماح لهم بممارسة الصيد، كما تورد المعاهدة لائحة بالسلع التي يستطيعون

---

[1]. انظر أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص83.

[2].الادريسي، صفة المغرب 180–المقري، نفح الطيب ج1،ص145،ج4، ص205.

[3]. أحمد المقري،المصدر السابق،ج 4، ص207.

المتاجرة بها، وكان تجار قطلونيا وقشتالة يدفعون أكثر من 08بالمائة، ويبدو أن موانئ مالقة والمرية والمنكب كانت مسرحا للتجار الايطاليين من جنوة وتوسكانا وفينيسا وسواها[1]،أما السلع المستوردة فمتنوعة ومنها الأفاويه[2] والأبهار كالفلفل والجوز والقرفة والبخور والأصباغ من الشرق[3]، وتستورد الأرز من بلنسية والزيت من قشتالة والقمح من بلاد المغرب والرصاص والنحاس والقطن من أراغون وايطاليا والسمن والجلود وقطعان البقر والغنم من إفريقيا[4]، وفي هذا الصدد يقول ابن غالب أن المسعودي قال:أصول الطيب خمسة أصناف:المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران وكلها من أرض الهند إلا الزعفران والعنبر فأنهما موجودان في أرض الأندلس[5]

وما يجب الإشارة إليه أن الحركة التجارية في بلاد الأندلس تعرضت لانتكاسة على عهد ظهور الإمارات الإسلامية في المغرب، بسبب عدم استتباب الأمن واستحواذ النصارى على المدن الاسبانية لتعود الى الانتعاش في عهد بني الأحمر، بعد أن استقرت الأمور نسبيا وارتسمت الحدود السياسية الجديدة لفترة معتبرة نسبيا، ثم تنتكس ثانية بعد الهجمة الأخيرة على ما تبقى من البلاد الاسلامية خاصة بعد الفتور والتراجع الذي ألم بالقطاع الزراعي خاصة بعد مغادرة المسلمين للمنطقة.

---

[1].*J.Heers, le royaume de grenade et la politique marchande de gènes au XVE siècle 1957, Bruxelles, p93.*

انظر أيضا،أحمد مختار العبادي،المرجع السابق، ص83.

[2].الأفاويه هي مجموعة من البهارات أو التوابل يذكرها لسان الدين بن الخطيب وبقول بأن بلاد الأندلس احتوت خمسا وعشرين صنفا، منها السنبل والقرنفل والصندل والقرفة وقصب الذريرة وغيرها،أحمد المقري،المصدر السابق،ج1،ص199.

[3]. المقري، المصدر السابق،ج1، ص199.

[4] *.J.Heers, op.cit, p67.*

[5].أحمد المقري،المصدر السابق،ج1،ص199.

كان لكل بلدة سوق خاص بها لتداول السلع والحاجيات اليومية، وتواجدت أسواق أخرى تميزت بنوع من التخصص كسوق شاطبة الذي اشتهر بتجارة الكاغد وكونكة بتجارة

الخشب، واحتوت اشبيلية على جملة من الأسواق كسوق العطارين وسوق البزازين وسوق المرابطين وسوق الخياطين، كما اختصت قرطبة بأسواق الكتب، فكان على كل من أراد بيع أو شراء كتاب التوجه إليها كونها ظلت مركزا للعلم والأدب[1].

كانت الأسواق تعقد بشكل دوري كما كانت الحال عليه في بلاد المغرب، فلكل مدينة أو قرية يوم معلوم في الأسبوع يقام به سوقها، فنجد سوق قرية أندرش التي هي من قرى المرية يعقد كل خميس، أما قرية شوذر التي هي من قرى جيان فكان يعقد يوم كل ثلاثاء[2]، وهناك جملة من الأسواق التي أشارت اليها المصادر لكن دون ذكر لأيام انعقادها، كسوق قرية فيسانة،وسوق حصن بكيران وسوق قرية برجة وسوق قين القبذاق وإقليم الشرف الذي كانت كل قرية من قراه عامرة بالأسواق[3].

احتوت المدن على أسواق أكثر تنظيما ومنعة، وتمتاز عن السابقة بأنها يومية يجتمع فيها التجار من المدن والقرى لعرض سلعهم أو شراء ما ينقصهم، لكن هذا لم يمنع من وجود أسواق أسبوعية بالمدن أيضا، فمدينة قبرة وقرمونة كانتا تعقدان سوقهما يوم الخميس[4].

إذا كانت بلاد الأندلس تعج بالأسواق، وهذا ما نستقيه من إفادات بعض المؤرخين كالإدريسي الذي يقول وفي كل ربض من أرباض قرطبة سوق، وفي كل

---

1. نفسه،ج1،ص155.
2. الحميري ،الروض المعطار، ص117.
3. انظر أحمد المقري ،النفح،ج1،ص159
4. انظر الحميري ،الروض المعطار،453-461.

ربض ما يكفيه من الأسواق والفنادق[1]، ومدينة بسطة ذات الأسواق والتجارات العامرة الآهلة[2] ومدينة مالقة ذات الأسواق الجالبة الكبيرة [3] وغير هذا من الأسواق الأندلسية التي أوردها الرحالة والمؤرخون، ومدينة المنكب ذات الأسواق الكبيرة العامرة[4]، وفي هذا الصدد يقول ابن الخطيب في مقارنة بين الأندلس والمغرب الأقصى ((أقسم لربض من أرباضها أعمر من مدينة سلا ...))[5].

وما يمكن قوله عن هذه الأسواق أنها كانت مجالا لعمليات التبادل السلعي العيني والنقدي، وأنها كانت مجالا لخلق بعض التوازن بين أقاليم الأندلس، فهناك من المناطق من كانت تزخر ببعض الثروات وتفتقد البعض الآخر، فنجد مثلا برجه التي امتازت بحرها وجفافها وقلة مياهها تزخر بغلة الحرير التي هي كل ما يملك أهلها[6]، وبيره– Vera البلدة البلدة الحصينة المرتفعة الساحلية التي اشتهرت بتربية البعير وإنتاج الشعير وكانت تقصدها القوافل من مرسية و أحوازها فسكانها كانوا لذلك تجارا مبتغين أجرا[7].

أما عن صادرات وواردات بلاد الأندلس، فيمكن استخلاصها مما أورده بعض المؤرخين من إشارات، فقد اشتهرت مالقة بالصناعات الجلدية والديباج المذهب الذي كان يخرج منها إلى كل الأقطار فكانت دوما محجا للتجار من كل الأصقاع [8] وأسواقها كبيرة جالبة[9].

---

[1]. نفسه، ص 153.

[2].الحميري،صفة جزيرة الأندلس، ص45.

[3]. ابن سعيد، الجغرافيا، ص140.

[4]. الحميري صفة جزيرة الأندلس، 186.

[5].أحمد مختار العبادي،المرجع السابق، ص62 .

[6]. نفسه، ص82.

[7]. أحمد مختار العبادي،المرجع السابق ، ص84.

[8]. نفسه، ص58.

[9]. ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص140.

كما كانت تصدر الأسماك التي اشتهرت بها بعض سواحلها التي احتوت أسماكا أغزر من رملها تغدو القوافل إلى البلاد تحمله[1].

2/جزر البليار[2]:

بالنسبة لجزيرة يابسة فقد اشتهرت زراعيا بوفرة أخشابها وكثرة ثمارها وزرعها، خاصة الأعناب واللوز والتين، لكنها من جهة أخرى افتقرت الى الثروة الحيوانية باستثناء الماعز التي كانت تجد بها مجالا مناسبا لعيشها،إضافة إلى افتقارها للزيتون[3]

أما بخصوص جزيرة ميورقة الواقعة الى الشرق من الجزيرة السابقة الذكر، فما ميزها هو وفرة مياهها وخصوبة أراضيها فيذكر لنا الزهري إن بوسط الجزيرة جبلا يهبط منه نهر يشقها ويسقي جميع أرضها[4]، ولذا فقد كانت كثيرة الزرع والفاكهة، وكان أهلها يلجئون إلى زراعة القطن والكتان، بينما سادت لديهم تربية الحيوانات وخاصة الغنم والماعز،إضافة إلى البقر والخيل والبغال[5].

أما منورقة الواقعة إلى الشرق من ميورقة وهي تصغرها، لكن رغم ذلك فقد امتلكت مقومات الزراعة الناجحة، فهي كثيرة الزرع، تنمو بها الكثير من الكروم، إضافة

---

[1]. أحمد مختار العبادي،المرجع السابق، ص81.

[2]. تعرف بالجزائر الشرقية،لوقوعها شرق شبه الجزيرة الأيبيرية،وهي ثلاث جزر كبيرة ميورقة منورقة ويابسة،إضافة ويابسة،إضافة الى جزر أخرى صغيرة سبق ذكرها ،وهي تضاف الى بلاد الأندلس لأنها حكمت من قبل المسلمين فطبع أهلها بأخلاق وطبائع أهل الأندلس فصارت أمزجتهم واحدة ،إضافة الى الاندماج البيئي الذي يورده الزهري بقوله ويوجد عندهم الحيوان المعروف بالقنيلة ولا يوجد في معمور الأرض إلا عند أهل الأندلس، محمد بن أبي بكر(الزهري)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د ت، ص130.

[3]. محمد بن أبي بكر (الزهري)،المصدر السابق، صص128-129

[4]. محمد بن أبي بكر (الزهري)،المصدر السابق، ص129.

[5]. نفسه، ص129.

الى تربية الأبقار التي لا يوجد في معمور الأرض أطيب من لحمها، والذي كان يذاب شحمه ليصنع منه الزيت، والى جانب ذلك نجد بها عددا قليلا من الأغنام[1].

ثانيا/في الممالك النصرانية(قشتالة أراغون والبرتغال)

[1]. نفسه، ص129.

أولا:الزراعة :

1- إمكانياتها :

أ1-في البرتغال:

<u>*-الطبيعية :</u>

-الأراضي الزراعية: بالنسبة للبرتغال يمكن أن نقسم سطحها إلى مجموعة من المظاهر التضاريسية الرئيسية و هذا انطلاقا من الخارطة الطبيعية لها و هي :

-السهول الساحلية المطلة على المحيط الأطلسي غربا و جنوبا[1]: وهي عبارة عن أراضي مستوية تقع بمحاذاة الساحلين الغربي والجنوبي، تتسع في مناطق وتضيق في مناطق أخرى[2] وعليها قامت المناطق والقرى الزراعية.

-الهضاب الشمالية: وهي امتداد لهضبة الميزيتا الضخمة التي تغطي معظم أرض اسبانيا وهي مناطق صالحة للرعي.

-السلسلة الجبلية الوسطى:_تتمثل في جبال سييرا دي استريلا التي يوجد بها أعلى قمة بالبلاد وهي -استريلا- الذي يرتفع ب1993م عن مستوى سطح البحر، ومن هنا نلاحظ أن حظ البرتغال من الأراضي الزراعية قليل مقارنة ببلاد الأندلس.

ب /الأنهار: يقطع البرتغال نهران أساسيان من الشرق الى الغـــــــــــــــــــــــــــرب، هما نهر دورو في

الشمال ويصب في المحيط الأطلسي، ونهر تاجو أو تاجة[1] في وسط البرتغال ويصب في المحيط أيضا عند لشبونة، وقد وصفهما صاحب صفة الأندلس بأنهما جدولا ماء يصبان

---

[1]. انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص16.

[2].*Schröder et Gallouedec, Atlas classique, librairie Hachette., carte n44*

في البحر[2]، وهناك نهر ثالث مهم يتمثل في نهر جواديانا الذي يجري على جزء من الحدود بين البرتغال واسبانيا في الجنوب الشرقي.

ج/المناخ: يمتاز مناخ البرتغال بالاعتدال، فهو حار وجاف قليل المطر ربيعا وصيفا، وبارد مطير خريفا وشتاء ويغطي الثلج القمم العالية لسلسلة سييرا دي استريلا لعدة شهور.

الانتاج الزراعي: لم يورد الجغرافيون كثيرا عن ما كانت تجود به بلاد البرتغال من محاصيل زراعية، لكن بعضهم أوردوا ما تميزت به عن غيرها من الأصقاع، ومن ذلك لشبونة وشنترين[3] التي اشتهرت بانتاجها الكثير من الحبوب بشتى أنواعها، والحنطة التي تواجدت بعدة مناطق أهمها فحص بلاطة الواقع بين أشبونة وشنترين،إذ لم يكن عمر هذا المحصول ليتعدى الأربعين يوما من بداية زراعته حتى يكون جاهزا بعدها للحصاد[4]،إضافة إلى التفاح الذي يشبه تفاح أرمينية[5]، والذي كان جرمه يقدر بثلاثة أشبار أو أكثر[6]، كما اشتهرت المنطقة بانتاج القمح الذي كانت يمر عليه حتى قرن من الزمان دون أن يمسه السوس، إضافة الى ما اشتهرت به من ضرع أو إنتاج حيواني[7]،كالعسل الذي كان يوضع في كيس كتان فلا تكون له رطوبة كأنه سكر[8].

---

[1]. محمد بن أبي بكر (الزهري)،المصدر السابق، ص85.

[2]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص16.

[3]. من كور باجة المختلطة بها، والواقعة غربها وهي مدينة قديمة تقع على سيف البحر الذي تتكسر أمواجه في سورها وتسمى أيضا قودية،الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص16.

[4]. انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص46.

[5]. كانت تعرف بأرمينية الكبرى، وهي تقع غربي روما ،كانت من أبرد الاراضي ، اشتهرت بكثرة مواشيها وتفاحها الذي يفوق دوره أربعة أشبار أو أكثر محمد بن أبي بكر الزهري، المصدر السابق، صص75- 76 .

[6]. محمد بن أبي بكر الزهري، المصدر السابق، ص 85.

[7]. محمد بن أبي بكر (الزهري)،المصدر السابق، ص 83.

[8].أحمد المقري،المصدر السابق،ج1، ص152.

كما اشتهرت قلمرية[1] المدينة الصغيرة المتحضرة بكثرة كرومها وتفاحها ,كذلك انتاجها الكثير للقراسيا[2] ،أما قورية فتعتبر من أحسن المنازل احتوت بواد شريفة، وضياع طيبة وأصناف من الفواكه الكثيرة وأكثرها العنب والتين[3]،أما لبلة التي لا يفصل بينها وبين المحيط سوى ستة أميال فاشتهرت بكثرة أشجارها ومنها الزيتون كما تجود بها زراعة القرنفل والعصفر[4].

<u>ب/في اسبانيا:</u> يمكن أن نستخلص المظاهر التضاريسية التالية.

الميزيتا : وهي هضبة جافة ضخمة تغطي معظم مساحتها، وهي عبارة عن سهول متقطعة تفصلها التلال والجبال المنخفضة التي نجدها في الجزء الشرقي تتجه بشكل هابط نحو الغرب،بينما نجد جبال القسم الغربي تمتد نحو الشرق[5] وتغطي معظم المازيتا تربة حمراء أو بنية مائلة للاصفرار غير ملائمة لزراعة الغلال، وقد أدت هذه التكوينات الهضبية والجبلية إلى تقليص حظوظ السهول التي جاءت ضيقة ومتقطعة وخاصة الساحلية منها[6].

أما الجبال فتنتشر في الشمال الشرقي والجنوب، ونجد أعلى قمة بها-اسبانيا- هي قمة جبل ملهاسن ب3478م ، والذي هو جزء من سلسلة سيبيرا -نيفادا، أما في الشرق فنجد جبال البرانس التي تشكل الطرف الشرقي لمنطقة الجبال الشمالية وهي تفصل فرنسا عن اسبانيا،أمافي أقصى شمال اسبانيا فنجد جبال غاليسيا في الغرب وجبال كانتبريا في المنطقة الوسطى وجبال البرانس التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا في الشرق.

---

[1]. وهي بلدة بالاندلس من بلاد البرتغال بينها وبين قورية أربعة أيام ،تقع على جبل مستدير ،وعليها سور حسن وهي في نهاية أو غاية من الحصانة ،انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص164.

[2]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص164.

[3]. نفسه ، ص165.

[4]. نفسه، ص169.

[5]. أحمد المقري،المصدر السابق،ج1، ص

[6]. جودة حسنين جودة,جغرافية أوروبا الإقليمية، ص552.

-السهول الساحلية: تمتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط الإسباني الشرقي -استثناء القسم الجنوبي الذي هو بلاد الأندلس -وهي خصبة تتخللها تلال تمتد إلى البحر وتقطعها أنهار استغلت في الزراعة بإنشاء أنظمة للري،وهي تستفيد من الرياح الشرقية المطيرة التي تتشبع ببخار الماء المتصاعد من المتوسط[1]، و الغربية التي تتشبع من البحر المحيط[2].

-الأنهار والمياه: يصف الرازي واقع المياه والأنهار بالمنطقة فيقول: منبجسة العيون الثرار، منفجرة بالأنهار الغزار[3] تنبع معظم أنهار اسبانيا الرئيسية من الميزيتا، تتجه الأودية التي تنبع من الجبال الشرقية تجري من الشرق الى الغرب بين تلك الجبال،أما الأودية التي تنبع من الجبال الغربية فتتجه الى القبلة وبعضها الى الشرق وتنصب كلها إلى البحر الرومي[4]، ومن أهم تلك الأنهار نهر تاجو بطول 1007كلم من المازيتا الشرقية الشرقية ثم يمر بالبرتغال ليصب في البحر المحيط، كما نجد الوادي الكبير الذي ينبع أيضا من الميزيتا الجنوبية إلى البحر المحيط أيضا، أما نهر الايبرو فهو من أطول أنهار إسبانيا، يجري لمسافة تفوق 900 كلم من الجبال الشمالية إلى البحر المتوسط ويمر بحوض الإيبرو الذي يتكون من سهول واسعة تقع في نطاق المنطقة الجافة .

المنـــــــــــــاخ: يسود معظم الأراضي الإسبانية مناخ جاف ومشمس على مدار السنة وخاصة على الميزيتا وما حولها من الأراضي لكن بصفة لا يكون فيها التناقض كبيرا بين فصولها،فلا يزيد قيضها زيادة منكرة[5] بينما يسود المناطق الساحلية والجبلية جو جو بارد يهب من ناحية البحر فلا يمكن أن نميز فيها بين الفصول تمييزا حادا وهذا ما

---

[1]. أحمد المقري،المصدر السابق،ج1، ص132.

[2]. من هنا كان تقسيم الأندلس إلى شرقي وغربي فالشرقي ما صبت أوديته إلى البحر الرومي والأندلس الغربي كا صبت أوديته الى البحر الكبير.انظر أحمد المقري، المصدر السابق،ج1، ص132.

[3]. نفسه،ج1، ص140.

[4]. نفسه،ج1،ص132.

[5]. نفسه ،ج1،ص140.

ساعد على قرب اتصال فاكهتها فتكاد لا تنعدم طيلة أيام السنة[1]، ويورد لنا المقري تقسيما مناخيا للمنطقة انطلاقا من كمية التساقط فيقول: وذلك أنه مهما استحكمت الريح الغربية كثر مطر الأندلس الغربي وقحط الأندلس الشرقي، ومتى استحكمت الريح الشرقية مطر الأندلس الشرقي وقحط الغربي[2] .

الانتاج الزراعي:ما تجب الاشارة إليه هنا هو أن الكثير من الأراضي التي أشرنا إليها في المبحث الخاص بالزراعة في بلاد الأندلس أصبحت ملكا للنصارى ولهذا ارتأينا أن نورد هنا المناطق التي كانت خاضعة لقشتالة وأراغون، فبالنسبة للحبوب نجد القمح والشعير قد تركزت مناطق إنتاجه في أبدة[3] وجيان وبيورة وشريس[4]، أما الأرز الذي يحتاج إلى مياه وافرة وحرارة مرتفعة ، فاعتبرت بلنسية آنذاك من أهم المناطق المنتجة له إلى جانب اشبيلية[5] .

أما الزيتون فتواجد في جميع أنحاء الأندلس لكن اشتهرت بإنتاجه الغزير منطقة قرمونة حتى سميت ب –قرمونة الزيتون–[6] وكذا باشبيلية التي كانت بها مسافة أربعين ميلا كلها في ظل شجر الزيتون والتين وكانت جل تجارة أهلها من الزيت يتجهزون به إلى المشرق والمغرب[7]، لأنه من أطيب الزيوت، التي كانت كثيرة الرفع عند العصر وزيتها لا يتغير على طول الدهر[8]، واشتهرت بلنسية ومدينة قلعة أيوب ولقنت ومرسية

---

[1]. أحمد المقري، المصدر السابق،ج1، ص140.

[2]. نفسه،ج1، ص132.

[3]. أبدة مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة سبعة أميال وهي مدينة صغيرة تقع على مقربة من النهر الكبير، الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص15.

[4]. الإدريسي،المصدر السابق،ج2،ص572،573.انظر أيضا،الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص15.

[5]. إشبيلية مدينة قديمة جليلة بالأندلس بينها وبين قرطبة ثمانون ميلا،أما أصل تسميتها فلاتيني((أشبالي))ومعناه المدينة المنبسطة ويقال أن الذي بناها هو يوليوس قيصر،انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص18.

[6]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، 13.

[7]. نفسه، ص19.

[8]. نفسه، ص21،وفيها قيل الشعر:

واشبيلية وشانت مارية بالعناب،لأن بلاد الأندلس لم تخل من الجنان التي احتوت على أشكال شتى من الكروم خاصة بالمنكب ومربلة التي كانت حدقاتها مغرس العنب العديم القرين[1]، فكانت تجفف ليصنع منها

الزبيب وجملة أخرى من الفواكه كالرمان السفري والخوخ والجوز واللوز[2]، والتفاح والقراسيا[3] وغيرها مما يطول ذكره.

أما اشبيلية ورندة فاشتهرتا بإنتاجهما الغزير للقطن الذي كان يكفي حاجة البلاد ويتجهز التجار بالفائض منه إلى افريقية وسجلماسة وما والاها[4]، تواجد نبات الزعفران *Azafran* بوادي الحجارة [5] وبمنطقة بياسة[6] وبسطة التي كانت تنتج ما يكفي بلاد الأندلس بأكملها، وقد اختص أهلها بالمران في معالجة- الزعفران- وامتازوا به عن غيرهم من الجيران[7].

كما تواجدت الحلفاء بكثرة في لقنت، فكانت تنقل إلى جميع بلدان البحر المتوسط[8] وتواجد الصنوبر والخشب بكونكة وجيان التي هي من ضواحي بلنسية، وكان يحمل منهما إلى دانية و إلى بلنسية[9]،وتواجد الموز بشمجيلة وشلوبينية[1] الذي لا يتواجد بالمناطق

لا تنس لإشبيلية تينها ......واذكر مع تينها زياتينها. انظر أحمد المقري،المصدر السابق،ج1، ص152.

[1]. نفسه، ص75.

[2]. المقري، المصدر السابق،ج1،ص200.

[3]. الإدريسي، المصدر السابق،ج2،ص726

[4]. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج1، ص329. انظر أيضا، الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص22.

[5]. تقع على بعد 57 كلم من مجريط وهي مبنية على الضفة اليمنى لنهر هينارس فيها تزوج فليب الثاني بالملكة إيزابيلا وبها دفن القائد العسكري الأول لغرناطة الكونت طونديلا بعد استردادها من طرف الأسبان ،انظر الأمير شكيب أرسلان،الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية،ج2،دار الفكر العربي ،القاهرة،د-ت،،ص69 وماليليها .

[6].الإدريسي المصدر السابق،ج2،ص569، أحمد المقري، المصدر السابق،ج1،ص71، ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج1،ص518.

[7]. انظر أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص86-87.

[8]. الإدريسي، المصدر السابق،ج2،ص558.

[9]. الإدريسي، المصدر السابق،ج2،ص286. انظر ياقوت الحموي، المصدرالسابق،ج5، ص13.

بالمناطق والأقاليم الباردة، أما قصب السكر فتواجد بشلوبانية[2] *Slobrena* و شمجيلة القريبة من البحر،كما اشتهرت بذلك المنكب[3] التي غصت أرضها بقصب السكر واستوعب فيها طولها وعرضها[4].

واشتهرت منطقة طليطلة وضواحيها بإنتاج البلوط الذي فاق طعمه كل صنوف البلوط الأخرى، فكان يصنع ويتخذ كاحتياطي لأيام الجوع والمسغبة على أيام المسلمين بها[5]،وكذا اشبيلية الذي فاضل البعض بين بلوطها وبين تمر الحجاز فنجد شاعرا يقول.

تحن إلى البلوط حتى إذا أتت ....بلادا بها البلوط حنت إلى النخل[6]

ب2/الإنتاج الحيواني: سادت تربية المواشي والأبقار خاصة بمدينة طليطلة،بجبل الشارات الواقع شمالها، إذ كانت تشتهر بكثرتها وسمنتها حتى صارت مضربا للمثل في كل أنحاء اسبانيا،أما مدينة شريس فسادت بها تربية الأبقار واشتهرت دون سواها بألبانها وأجبانها،فلم يكن لأحد أن يزورها دون أن يأكل من أجبانها[7].

أما اشبيلية وشلب، فسادت بها تربية الحمام والدجاج بغرض أكل لحمها أو بيعها والاستفادة من زبلها في تخصيب الأرض، وسادت تربية الماعز بجزيرة بقادس و- أشكر- التي وصفها ابن الخطيب بقوله" نعم البسيط المديد والرزق الجديد والصيد القديد،

---

[1]. ياقوت الحموي ،المصدر السابق،ج5، ص13،انظر أيضا الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص111.

[2]. شلوبينية من قرى الأندلس تقع على ضفة البحر بينها وبين المنكب عشرة أميال وهي تقابل من العدوة المغربية مرسى مليلة،الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص111.

[3]. ربما اسم عربي بمعنى الحصن المرتفع ويسمى اليوم *Almunecar* أما الاسم القديم لهذا المكان فهو *sexi* وهو مرفأ ساحل مرتفع في جنوب شرق الأندلس بمقاطعة غرناطة انظر أحمد مختار العبادي، المرجع السابق،هامش2، ص79.

[4]. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق ،هامش 2، ص79.

[5]. الإدريسي، المصدر السابق،ج2،537.

[6]. ابن حيان الأندلسي، المقتبس في تاريخ الأندلس، ط1، تحقيق وشرح وتعليق،إسماعيل العربي، منشورات دار الحقائق الجديدة ،المغرب الأقصى، 1411ه /1990م،ص154.

[7]. أحمد المقري،المصدر السابق،ج1، ص184.

مسرح البهائم ومعدن الرعي الدائم "[1]، والحمة التي هي من مدن اشبيلية.[2] -Alhama- [3] التي تواجد بها الحجل والصيد بأنواعه[4] .

لم تغب تربية دود الحرير عن شبه الجزيرة الايبيرية، فقد اختصت بها جيان الكثيرة الخصب[5] التي احتوت على ثلاثة آلاف قرية يمارس بها هذا الصنف من العمل، وإلى جانب ذلك فقد سادت تربية النحل لاستخلاص العسل والشمع في بعض مناطق الأندلس منها -قنتورية- التي يجود بها العسل وكذا أورية[6] التي عرفت ببلدة الجبن والعسل[7].

وانتشرت تربية الجمال ب-بيره[8] فعلى حد تعبير لسان الدين فإن البعير كان يسرح بها ويجم بها الشعير ويقصدها من مرسية و أحوازها العير وربما كان ذلك بسبب قلة المياه وتحمل تلك الحيوانات للعطش لأنه يقول أيضا عنها بأن الماء إليها مجلوب[9].

أما بالنسبة لحرفة الصيد البحري فقد سادت على طول سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية بواسطة الشباك[10] كبزليانة التي يصاد بها الحوت الكثير الذي يحمل منـــها إلى الجهات المجاورة لها[11]،

---

[1]. أحمد مختار العبادي،المرجع السابق ، ص87.

[2]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص145.

[3]. بلدة صغيرة على قمة جبل بالقرب من مدينة بجانة من أعمال المرية وقد أطلق العرب عليها هذا الاسم نسبة إلى العين الحارة التي تفجرت بها، أحمد مختار العبادي،المرجع السابق ه3،ص92.

[4].أحمد مختار العبادي،المرجع السابق،ص92-93.

[5]. موسى عز الدين عمر، المرجع السابق، ص202.

[6]. أورية Oria بلدة في ولاية المرية تتبع مركز برشانة،أحمد مختار العبادي،المرجع السابق، هامش1،ص86.

[7]. الحميري،صفة جزيرة الأندلس، ص70،انظر أيضا، أحمد مختار العبادي،المرجع السابق، ص85.

[8]. بيرة Vera بلدة حصينة مرتفعة تشرف على ساحل البحر المتوسط من الحدود الشمالية الشرقية لمملكة غرناطة وهي أقصى حدود المسلمين في تلك المنطقة ،انظر أحمد مختار العبادي،المرجع السابق، ه1، ص40.

[9].انظر أحمد مختار العبادي،المرجع السابق ، صص40-84.

[10]. ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، صص107-120.

[11]. بزليانة :قرية على ساحل البحر قريبة من مالقة ،انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص44.

وكذا بالمرافئ كمرسى المنكب، كما مورس الصيد البحري بسهيل[1] وواديه الذي جاد بالسمك[2] أما مربلة[3] – فقد قيل فيها بأنها بلد التأذين على السردين ومحل الدعاء والتامين والتامين لمطعم الحوت السمين[4]، وشلوبانية[5] التي كان حوت سواحلها أغزر من رملها تغدو القوافل الى البلاد تحمله[6].

2/الصناعة:

بالنسبة لمقومات الصناعة في الممالك النصرانية بشبه الجزيرة الايبيرية، ففي قشتالة نجد معدن الذهب الذي تواجدت أهم مصادره في شنت ياقوه –قاعدة الجلالقة على البحر المحيط[7]، ومعادن الفضة والزئبق والرخام التي تواجدت في مناطق عديدة منها قرطبة والزاج من لبلة وصخر الطفل الذي كان يتجهز به إلى كافة الآفاق، والفولاذ من إشبيلية[8].

إشبيلية[8].

أما البرتغال فتواجد بها التبر الذي كان يستخرج من حصن المعدن، فإذا كان هيجان البحر فإنه يقذف بالذهب التبر هناك، والذي كان يستغل شتاء من أهل البلد الذين يشتغلون بذلك المعدن إلى انقضاء ذلك الفصل[9]،أما الحديد المسمى بالشلق وهو حديد أسود تعمل

---

[1]. ميناء على المتوسط يسمى اليوم Fuengirola ويقع على مسافة 28 كم شرقي مربلة وهناك جبل عال يزعم أهل تلك تلك الناحية إن النجم سهيل كان يرى من أعلاه ولهذا سماه العرب بهذا الاسم .أحمد مختار العبادي، المرجع السابق،هامش ، ص75.

[2]. أحمد مختار العبادي،المرجع السابق، ص76.

[3]. تقع على ساحل البحر المتوسط على مسافة 60كم غربي مالقة– أحمد مختار العبادي،المرجع السابق،هامش4، ص75.

[4]. أحمد مختار العبادي،المرجع السابق،ص75.

[5]. تسمى اليوم *Salobrena* وتقع على ساحل البحر المتوسط على ساحل المتوسط على مسافة تقدر ب 16 كم شرقي المنكب، أحمد مختار العبادي، هامش 5،ص80.

[6]. نفسه، ص81.

[7].أحمد المقري، المصدر السابق،ج1،ص200.

[8]. نفسه،ج1، صص201–202.

[9]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص16.

منه آلة الحرب فكان يجلب من برت ياقة بإزاء برشلونة[1]، إضافة إلى الرخام الأبيض الجيد الذي تواجد على طول السواحل الغربية للمنطقة الذي اشتهرت به منذ أقدم العصور وخاصة أشبونة[2].

كغيرها من الدول الأوروبية كانت قشتالة وأراغون والبرتغال لاتزال لم تدخل مرحلة التصنيع بعد بشكل كامل، وهذا ما أعطى للنشاط الصناعي بعض الخصائص التي نلخصها في الآتي :

-لم يتواجد انتاج بكميات كبيرة موجهة إلى التسويق وكانت المواد المصنعة مرتفعة الثمن وعلى مستوى عال من الجودة والصلابة .

-كانت الورشات هي السائدة في ظل غياب المصنع

- التجهيزات كبيرة وثقيلة ونادرة وتتواجد بها بعض الاجزاء الخشبية وكانت أقل اتقانا للعمل من الانسان .

-الاستثمار كان قليلا في الميدان الصناعي وأن الطاقة المحركة كانت تتمثل في الماء والرياح[3].

أما الانتاج الصناعي فأهم مايمكن رصده يتمثل في صناعة الأسلحة من تراس ورماح وألجمة ودروع ومغافر والتي كانت تصنع بشكل كبير يبهر العقول حسب ما يورده المقري وهذا نتيجة للحرب التي كانت تدور رحاها وبشكل يكاد يكون مستمرا مع المسلمين ،كما اشتهرت منطقة برذيل في آخر بلاد الأندلس من ناحية الشمال الشرقي

---

[1]. أبو بكر الزهري،المصدر السابق، ص104.

[2]. نفسه، ص86، انظر أيضا الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص16.

[3].*Lecupre Gilles, Histoire médiévale –l'occident du XIIe aux XVE SIECLE– COURS complet, complet, université de paris,2008-2009,p16.*

بصناعة السيوف التي اشتهرت بجودتها في أنحاء العالم وأخذت إسمها من إسم المنطقة التي تصنع بها أي البرذليات[1]

2/ الواقع الاقتصادي لفرنسا[2]

أ/الزراعة:

امتازت الأرض الفرنسية بالخصب الكبير وذلك انطلاقا مما أورده الجغرافيون القدامى أمثال أبي بكر الزهري في كتابه -كتاب الجغرافية- والإدريسي -في نزهة المشتاق- بأن بلاد الروم كلها أي تلك الأراضي الممتدة من أرض قسطنطينية في المشرق إلى بلاد برشلونة في المغرب هي بلاد خصيبة، وبأن سائر مدن المنطقة كانت كثيرة الزرع والحيوان والفواكه والكروم، الا ما كان منها واغلا في الشمال[3]،عموما ففرنسا يغلب عليها الطابع السهلي المنبسط، وخاصة في المنطقة الشمالية، وتتخللها بعض التلال والهضاب، كما تساعد تربة سهولها وتنوعها[4] وطبيعة مناخها على التنوع في المحاصيل،

---

[1].أحمد المقري، المصدر السابق،ج1،ص202.

[2]. إفرنجة، وأخر حدودها البحر الشامي بقبليها والبجر المحيط بجوفيها وتتصل ببلاد روما أيضا من ناحية القبلة وتتصل أيضا من ناحية الجوف ببلاد الصقالبة وتتصل في الشرق بالصقالبة أيضا وتتصل في الغرب بالبشكنش. ينظر الى كتاب صفة جزيرة الاندلس ص26،أما سكانها هم الفرنجة *FRANKS* الذي تزعمه الميروفنجيون والكارولنجيون،لكن هذا المصطلح لا ينحصر في شعب فرنسا الحالي وإنما يتعداه الى شمال اسبانيا (قطالونيا)وشمال ايطاليا وأجزاء من ألمانيا وجهات أخرى في أوروبا، ويمكن أن يكون سبب الاختلاف في تحديد التسمية أو تغير استعمال هذا التعبير وخاصة لدى المحدثين إنما بسبب تقلب وتغير حدود المملكة الفرنجية،التي كانت دوما بين مد وجزر،وبين اتساع وانحسار، الأمر الذي أدى الى التنوع في استخدام هذا التعبير ليعني شعوبا عدة من سكان القارة الأوروبية أو شعبا واحدا في إقليم واحد،و في عصر الحروب الصليبية فقد أطلق المسلمون اسم الفرنجة أو الإفرنج على جموع الصليبيين الذين وفدوا من غرب أوروبا سواء من فرنسا أو ألمانيا أو ايطاليا و ربما كان السبب في ذلك هو غلبة العنصر الفرنجي على الموجة الصليبية انظر محمد مرسي الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ،مؤسسة الثقافة الجامعية ،1401-1981،ص15.

[3]. انظر،أبو بكر الزهري ،المصدر السابق، ص79.

[4]. أحصى الجغرافيون الفرنسيون نحو 500 نوع من التربة بفرنسا،والتي شهدت استغلالا مكثفا لما يزيد عن ألفي سنة.انظر جودة حسنين جودة،المرجع نفسه،ص154.انظر أيضا ،هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى- الحياة الاقتصادية والاجتماعية-،ترجمة وتحقيق عطية الغوطي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1996م،ص150.

اذ كانت تجود بها كل أنواع الفاكهة[1]،أما المناخ بها فقد أثر فيه الموقع بشكل كبير، إذ يمتاز بالقارية وخاصة بالمناطق الداخلية، وهذا ما أشار إليه صاحب صفة الأندلس بقوله هواؤها غليظ لشدة بردها[2]، وتتساقط بها الثلوج بكثرة في فصل الشتاء[3].

هذا ما أثر إيجابا على الشبكة المائية السطحية إذ تخترق فرنسا مجموعة من الأنهار لم يشر إليها الجغرافيون صراحة ،ومنها نهر السين،ونهر الراين شرقا ونهر اللوار- أطول أنهارها- الذي ينبع من جبال سيفين،والمياه الجوفية التي استفادت كغيرها من دول أوروبا من ارتفاع درجة حرارة الجو وتراجع الجليد،الأمر الذي سهل بدوره استقرار الفلاحين وظهور القرى الفلاحية[4]،كما تم استعمال السماد الحيواني بطريقة مركزة وجيدة الآمر الذي أدى الى ارتفاع المحصول الزراعي بصفة عامة، وظهور تقنية المناوبة بين المحاصيل قصد إراحة الأرض أي إن تزرع سنة وتترك للراحة سنتين(*Jachere biennale)* تستفيد خلالها من عملية التسميد الحيوانية، بينما كانت المناوبة الثلاثية تتم الى الشمال من نهر اللوار، وأين كانت تسود زراعة القمح بنوعيه الربيعي والشتوي،أي محصولين في نفس السنة ،ناهيك عن ظهور بعض أدوات الإنتاج أو وسائله التي ظهرت بتطور التعدين و الحدادة،منها والمشط أو المسلفة التي تنتزع الحشائش و المحراث ذو السكة المعدنية الذي يسمح بالتوغل بعمق وفعالية في الأرض والذي كان يسحب بالخيول بعد إن كانت تستعمل الثيران لذلك الغرض، لأن الثانية كانت أسرع وأكثر قدرة على العمل (ساعة واحدة في اليوم مقابل 0.4 في اليوم للثيران)[5].

---

[1]. الحميري صفة جزيرة الأندلس،ص26.هنري بيرين،نفس المرجع، ص150.

[2].الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص26.

[3]. نفسه، ص26.

[4].*Lecupre Gilles, op.cit, p13 .*

عرفت تربية الحيوان أيضا تطورا في هذه الفترة على جميع المستويات أو القطاعات،ومن تلك الفصائل الخيول والأبقار(للجر والسحب) ولإنتاج اللحوم واستخلاص الحليب، والماشية لإنتاج الجلود والأصواف، وكانت حرفة الرعي تسود في مراعي جبلية خاصة أو الأراضي الزراعية المتروكة للراحة أو بالمناطق الغابية أما في فصل الشتاء كانت تلك البهائم توضع داخل إسطبلات وتتغذى على التبن المستخلص من عملية الحصاد[1].

وفرنسا كانت ولا تزال تعرف بقطر الفلاحين وحب الأرض غريزة فطرية عند كل فرنسي[2]، كما تمتلك الأراضي الفرنسية على كل مقومات الصيد البحري وذلك لطول سواحلها البالغ 3200 كم بإشرافها على المتوسط والبحر المحيط عبر ما يعرف بالقنال الانجليزي[3].

أما عن المحاصيل الزراعية فان أشد ما ميز فرنسا هو إنتاجها الكبير للأعناب[4] والتي امتازت بجودتها لدرجة جعلها نبيذها –الذي كان لا بد من ظهوره على كل موائد المقتدرين– هي وايطاليا المتعهدين الوحيدين لتوريد الطعام الفاخر لأوروبا[5]، إضافة الى نبتة النيلة[6] في منطقة –بيكاردي–، كما اشتهرت سائر مدن المنطقة بكثرة الزرع وتنوع الفواكه، والتي كانت تتابع بعناية فائقة في البساتين مثل محصول العدس والحمص والخضر والفواكه التي كانت تشكل عنصرا غذائيا مكملا وهاما[7]وكانت النيلة التي سميت

---

[1] *.LECUPRE GILLES, op.cit, p14.*

[2]. جوده حسنين جوده،المرجع السابق، ص162.

[3]. نفسه،ص168–169.

[4]. انظر ،أبو بكر الزهري ،المصدر السابق،ص79.

[5]. هنري بيرين، المرجع السابق،ص150.انظر أيضا *LECUPRE GILLES, op.cit, p15*

.

[6]. صبغ شديد الزرقة يستخدم لتلوين القطن والصوف ويسمى أيضا النتيلين وكان هذا الصبغ يستخرج من نبات النيلة الذي ينتمي الى فصيلة البازلاء ومن المناطق التي تشتهر بزراعته الهند.

[7] *.LECUPRE GILLES,op.cit, p15.*

في العصور الوسطى خضاب العصور الوسطى تزرع في بيكاردي *Picardie* حيث وصلت تجارتها الى أميان *Amiens* و لانجيدوك *Languedoc*[1].كما كانت حرفة الرعي ناجحة بها وذلك لتوفر المراعي الطبيعية التي تنحصر في مجموعة من المناطق مثل منطقة جبال البرانس والألب والهضبة الوسطى[2]، ولم تخل زراعة الحبوب من بعض الأمراض الطفيلية التي كانت تصيبها

من فترة لأخرى مثل *((feu Saint –Antoine))* –نار ظفر الشيلم– وهو مرض يصيب الشيلم والذي كان يرعب الفلاحين والمواطنين لأنه كان يظهر على شكل أدران أو أورام[3].

ب/الصناعة:

شهدت الصناعة المعدنية نوعا من التطور والنمو بحيث توافرت المادة الأولية لها وخاصة الحديد الذي كانت مناجمه عديدة،وقد انتشرت الحدادة في المناطق الغابية التي توفر الحطب الذي يستعمل في عملية التسخين بعد حرقه، وكذا توفرها على الممرات و المساقط المائية التي تستعمل في تحريك مطرقة ومنفاخ الحداد، أما المعدن بعد صبه فكان يشكل مجموعة من الآلات والأدوات ممثلة في الفؤوس والمساحي والمناجل وبعض القطع المعدنية اللازمة للمحاريث والأمشاط و العربات،وحدوات الخيول[4]، إضافة الى السيوف التي كانت تفوق سيوف الهند جودة[5].

كما انتشرت بعض الصناعات الحرفية في المناطق الريفية وعرفت قفزة نوعية،وتمثلت في صناعات ذات أساس صخري أو خشبي،إضافة إلى صناعة

---

[1]. هنري بيرن،المرجع السابق، ص149 .

[2]. انظرأبو بكر الزهري، المصدر السابق، ص79،انظر أيضا،جودة حسنين جودة، المرجع السابق،ص168.

[3] . *LECUPRE GILLES, op.cit,p14.*

[4] . *Ibid, p16.*

[5]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص26.

الزجاج،وأفران الفخار،وصناعة الجعة ،إضافة الى صناعة النسيج من غزل وصفه في خيوط (لان باقي المراحل ضمن العملية تتم في المدينة) لأن الريف كان يستحوذ على حوالي 10الى15بالمائة، إذن ففرنسا العصور الوسطى ككل كان لها نفس طابع فرنسا اليوم، وكانت صناعتها تكفيها وتكفي احتياجاتها ما عدا القليل من الكماليات مثل الأواني المطلية بالمينا[1].

ج/ التجارة: كانت حتى مطلع القرن 5ه/ 11م وخاصة مع المناطق البعيدة ضعيفة ونادرة جدا، والتي إن وجدت فكانت تتمثل في سلع خفيفة[2] وربما يعود السبب الى عدم

توفر الأمن وخاصة في معابر الألب، التي صارت كلها بأيدي العرب الذين صاروا يعتدون على السابلة فلم تكن تمضي سنة بدون أن تحصل في تلك المعابر وقائع دموية حسبما جاء في مجموعة مؤرخي فرنسا[3]،وكان معظم التجار هامشيين،أي من النوع الجوال أو الدوار.

ومع بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي حدث تحول كبير بسبب التطور في وسائل النقل وتقنيات التبادل، فأوروبا بشكل عام أصبحت في سنة 1300م مغطاة بشبكة من الطرق التجارية، فأصبحت السلع تنفذ الى ابعد نقطة في الأرياف وأصبح التجار هم أعلام وأعمدة الاقتصاد[4].

تمثلت صادرات فرنسا نحو دول الجوار الأوروبية في الغلال أو المحاصيل الزراعية خاصة من منطقة أرتوا *Artois* و نورمانديا إضافة إلى النيلة التي سميت في

---

[1]. هنري بيرين، المرجع السابق، ص149.

[2].*LECUPRE GILLES, op.cit, p29.*

[3]. شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت، ص170.

[4].*LECUPRE GILLES, opcit, p29.*

العصور الوسطى –خضاب العصور الوسطى– حيث وصلت تجارتها الى أميان و لانجيدوك[1]، كما صدرت فرنسا وبامتياز كبير النبيذ– كان لا بد من ظهوره على كل موائد المقتدرين جنبا الى جنب مع التوابل– والذي تكون جزء من ثروتها منه، فقد جعلها هي وايطاليا المتعهدين الوحيدين لتوريد الطعام الفاخر لأوروبا[2].

أما مرسيليا فقد قامت في القرن الثالث عشر الميلادي/السادس الهجري بتصدير فعال لملبوسات الفلاندر[3] واستيراد التوابل من الشرق لتنقل منها الى دول أوروبا المجاورة[4]،إذ كانت منطقة شمبانيا تحتوي لوحدها على ستة معارض التي تشكلت بداية من سنة 1150م ومثلت أكبر ملتقى لتجار أوروبا الشمالية.

وبالنسبة للواردات فقد جلبت بعض المعادن والأصواف من انجلترا،كما لا نستبعد استيراد بعض أدوات الحدادة والأغطية التي كانت تشتهر بها منطقة الفلاندر وتصدر نحو جميع الأفاق[5].

---

[1] .هنري بيرين، نفس المرجع، ص149.

[2] . نفسه،ص149.

[3]. الفلاندر جزء من شمال أوروبا كان يمثل وحدة قائمة بذاتها حتى بداية العصر الحديث ،ويشكل ثلث المنطقة التاريخية للفلاندر حاليا مقاطعات الفلاندر الشرقية والغربية في شمال بلجيكا ،وتمتد قليلا لتدخل في هولندا ،أما بقية الفلاندر فتقع حاليا في النصف الشمالي من المنطقة الادارية الفرنسية المعروفة بنورد.

[4]. نفسه، ص150.

[5]. نفسه، ص150. انظر أيضا. *M.LECUPRE GILLES, op.cit,p30 .*

3/ الواقع الاقتصادي في شبه الجزيرة الايطالية:

من خلال ما أفادنا به الرحالة والجغرافيون العرب حول شبه الجزيرة الايطالية فإنها كانت بحق أرض خصب و مياه ومن بين أولئك الإدريسي الذي وصف مدنها وأراضيها ومياهها.

ا-الزراعة:

أ1-عواملها:

*الطبيعية: تواجدت بالمنطقة جملة من السهول الخصبة والمنتجة لأهم أنواع الزروع والأشجار وهذا ما أورده ابن حوقل المتقدم الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والشريف الإدريسي الذي عاش حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر، نظرا لما لها من مناخ رطب -موقع جزري-ساعد على نجاحها وتنوعها، فنجد مدينة -بيش- المشهورة الذكر تحتوي على سهول فسيحة أقيمت بها البساتين الكثيرة والجنات المتصلة الزراعات، ومدينة جنوة التي احتوت أطرافها على أراضي شديدة الخصب ساعدت على نجاح زراعة أشجار الفواكه وكثرة المزارع[1]، ومدينة نابل(نابولي) ذات التربة الخصبة التي اشتهرت بإنتاجها لأجود أنواع الكتان[2]،وتواجدت مناطق أخرى اشتهرت بخصوبتها وإنتاجها الغزير لمختلف أنواع الغلال كمدينة شنت جيلي ومشيلية وتوسكانا وسلرن وغيرها[3].

---

[1]. الإدريسي ، نزهة المشتاق ،ج2، ص749.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، ص203.انظر أيضا،ابن سعيد، الجغرافيا، ص149.

[3]. انظر الإدريسي، نفس المصدر ،ج2،ص739.القلقشندي، صبح الأعشى،ج3،ص245،ابن سعيد،الجغرافيا، ص149.

كما توفرت المنطقة على ثروة مائية هائلة تمثلت في الأنهار الدائمة الجريان التي تتغذى من ثلوج جبال الألب شمالي المنطقة بعد ذوبانها كمدينة مسيني بشرق الجزيرة التي كانت لها أنهار غزيرة أقيمت عليها أرحاء كثيرة[1]، ونهر رودنو الذي يمر بالقرب من شنت جيلي فيحول أراضيها إلى جنات تزخر بكل أنواع الفواكه والثمار[2]، إضافة الى النهر الذي يقطع مدينة جنوة، والنهر العظيم الذي يمر بمدينة بيش الذي كانت تقام عليه العديد من الأرحاء أيضا ونهر رومة الذي يشق مدينة روما من شرقها الى غربها وهو صالح للملاحة، تستغله المراكب في الدخول للاتجار داخل المدينة، و نهر السلة الكبير الكثير المياه الذي يتواجد بالجنوب بجزيرة صقلية_[3].

أما عن الجزر الواقعة الى الغرب من الحذاء الايطالي فهي جزيرة سردانية التي اشتهرت بشدة خصبها وانتاجها الوفير للمحاصيل، وجزيرة برغمانة التي امتازت أيضا بخصبها الكبير أيضا، وجزيرة مشيلة التي امتازت أيضا بخصوبتها وغزارة مياهها[4] .

الانتاج الزراعي:

تميزت شبه الجزيرة الايطالية بغزارة وتنوع إنتاجها، فبالنسبة للإنتاج النباتي نجد الزعفران الذي اشتهرت به توسكانا[5] أما سلرن التي تقع بالقرب من نابل، فاشتهرت بكثرة إنتاجها للبندق الذي كان يؤخذ الى كل الأنحاء[6]،أما الكروم فتواجدت بمناطق عديدة من ايطاليا كمشيلية وآجن، بينما سادت زراعة الحبوب بمنطقة آجن،

---

[1]. الادريسي،ص276.

[2]. الادريسي،نفسه،ص749.

[3]. نفسه،ص275- 751-752.

[4]. انظر الزهري،المصدر السابق،ص130.

[5]. القلقشندي، المصدر السابق،ج3،ص245.

[6]. الزهري،المصدر السابق، ص131،انظر أيضا ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص169.

وايطاليا الجنوبية –صقلية والمناطق الجنوبية لايطاليا– وكذا البندقية التي اشتهرت بإنتاجها لكميات هامة من الحبوب وخاصة القمح، بدليل أنها كانت تعمل على ترويج فوائضها من المادة تلك في افريقية[1]، واشتهرت شانت ماركوبغزارة انتاجها للحرير[2]، وبلرم[3] بنبات البربير –البردي–الذي كان يفتل حبالا لمراسي المراكب وطوامير القراطيس[4]، صقلية بإنتاجها للبصل[5]،الذي كان يمثل الغذاء الرئيسي لأغلب سكانها.

أما بخصوص تربية الحيوان فقد سادت تربية الخيول في الكثير من جهات المنطقة وخاصة مدينة بيش التي اعتاد سكانها على ركوبها[6]، وتواجدت تربية الحيوانات الأخرى من غنم وأبقار وحمير وغيرها باعتبار إن الجزيرة ملائمة جدا لهذا النشاط بما احتوته من خصب ومياه ومراعي، أما الأخشاب فتواجدت بالخصوص في البندقية الذي كانت معظم مبانيها منه[7].

*بشرية وتنظيمية: أما من الناحية التنظيمية، فمنذ مطلع القرن الثاني عشر شهدت الزراعة نموا ملحوظا وذلك بموازاة مع التطور الذي شهدته الصناعة والتجارة، وحلول التعامل بالعملة النقدية محل المبادلة، فزاد الطلب على العمال الزراعيين والحرفيين، فهذا قد أثر على الأحوال الزراعية داخل الريف وبدلها تبديلا[8]، فنجد مدينة فلورنسا *Florence*منذ عام 1106م تدعو الفلاحين الذين يقطنون في القرى المجاورة لها للحضور إلى المدينة والإقامة فيها واعتبارهم أحرارا مع تمتعهم بحماية قانون المدينة،

---

[1].انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص268.

[2]. الإدريسي، المصدر السابق، ص275.

[3]. بلرم بفتح الباء واللام وتسكين الراء ،كلمة رومانية تعني المدينة وهي من اكبر مدن صقلية ،انظر ياقوت الحموي، المعجم،ج1، ص483.

[4]. ابن حوقل،المصدر السابق، صص122-.123.

[5]. ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج1، ص483.

[6]. الادريسي، نزهة المشتاق،ج2، ص750.

[7]. نفسه،ج2،ص740.

[8]. محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص155.

ونجد مدينة بولونيا *Bologne*[1] تدفع للسادة الإقطاعيين الزراعيين بعض المال لترك عمالهم للانتقال الى المدينة للعمل بها وفي الوقت نفسه هرب بعض الفلاحين من قرى الإقطاع واتجهوا الى أراضي جديدة في شرق الألب وأصبحوا أحرارا في فلاحتها[2]، فبدأت معالم نهاية الإقطاع تتضح، فالفلاحون الذين بقوا في قراهم مع السادة الإقطاعيين تمردوا عليهم ورفضوا دفع الضرائب الإقطاعية، وقد ترتب عنه

متاعب كبيرة، وتطور الأمر الى رفض كل الفلاحين أدائها وهاجموا مقر سادتهم واتلفوا كل الوثائق خاصة المتعلقة بهم، كما لجأ بعضهم في بعض القرى الى تدمير وإحراق قصور السادة وهددوا بترك الأرض إذا لم يستجيبوا لمطالبهم[43].

وكما هي العادة،كانت هناك مجتمعات تعيش على تربية الأغنام والماشية وصناعة منتجات الألبان بجوار المدن فقدمت هذه المجتمعات إنتاجها للمدن وعاد عليها ذلك بالربح الوفير ونتيجة للاستقرار النسبي الذي شهدته القارة فقد سارت السفن داخل الأنهار فحملت الخمور والمنتجات الأخرى من منطقة لأخرى كما سارت السفن في مياه البحار المحيطة بالقارة لصيد الأسماك خاصة الرنجة .ومع الاتصال الذي تم بين أوروبا تحسنت أساليب الزراعة رويدا رويدا، واستخدم الفلاحون المحاريث ذات السهام الحديدية التي تجرها الثيران في حراثة الأرض إضافة الى المحاريث ذات السهام الخشبية وإقبال الفلاحون على تهجين سلالات الماشية منذ القرن 13 م فخاضوا بذلك معارك ضد الطبيعة.

---

[1]. بولونيا مدينة في شمال ايطاليا ،تمتاز بخصوبة أرضها واعتدال مناخها وبها ــأسست احدى أقدم الجامعات في العالم وهي جامعة بولونيا سنة 1100م تقريبا.

[2]. محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، مصر 1998، ص154.

[3]. نفسه، ص155.

[4]. نفسه، ص155.

الصيد المائي: نظرا للطابع شبه الجزري للمنطقة ونظرا لكثافة الشبكة النهرية فقد مارس أهلها حرفة الصيد المائي في عدة مناطق، ففي صقلية[1] التي تعتبر امتدادا لها من الناحية الجنوبية مورس الصيد بنهر السلة الكبير الذي كان يحتوي على كميات هامة من السمك المعروف بالري في زمن الربيع ويصاد بمرساها السمك الكبير المعروف بالتن[2].

ب/الصناعــة:

*الطبيعية: تواجدت بالمنطقة العديد من المعادن منها الذهب والفضة، والحديد الذي توافر بكثرة في جبل مدينة مسيني فكان يتجهز منه الى البلاد المجاورة، اضافة على الشب والكحل والفضة والزاج[3]، كما تواجدت النوشادر في جبالها وخاصة بجبل النار فكان يحمل الكثير منه الى بلاد الأندلس، وتواجد بشبه الجزيرة الايطالية نوع من الأحجار الذي كانت تقطع منه الصفائح لصنع الأرحاء المائية والفارسية[4].

الإنتاج الصناعي

---

[1]. صقلية: وهي جزيرة على شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة من غربي الجزيرة ....وهي في شرق الأندلس في لج البحر وتحاذيها من بلاد المغرب بلاد افريقية و باجة و طبرقة الى مرسى الخرز، وهي تقطع البحـــر المتوســـط من الجنوب الى الشمال طولها سبعة أيام وعرضها نفس ذلك بينها وبين تونس أربعون ميلا، انظر الزهري، المصدر السابق،ص131 ابن حوقل، صورة الأرض، ص113.

[2]. الإدريسي ص273-274.

[3]. قال الأزهري في كتاب لغة الفقه يعني بالباء الموحدة وهو من الجواهر التي أنبتها الله في الأرض يدبغ به شبه الزاج، والشب حجارة بيضاء يتخذ منها الزاج اشتهرت به بلاد اليمن إذ كان شبها ابيض له بصيص شديد وقيل الشب دواء معروف ،وقيل الشب حجر معروف ،وقيل الشب شيء يشبه الزاج، وهو حجر يستعمل في دباغة الجلود،انظر ابن منظور، ج2،ص159-192.

[4]. الإدريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص603.

نشطت الصناعة في المنطقة بكل فروعها[1]، فاشتهرت البندقية بصناعة الجوخ الذي فاق في جودته كل الأنواع الأخرى[2]، وصقلية بصناعة الأرحاء وطحن الحبوب، وذلك لتواجد المساقط المائية في كل أنحائها، كمنطقة مسيني وحصن بورقاد وواي عباس ببلرم والتي أقيمت عليها أرحاء كثيرة[3] تصنع هناك لتوفر المعدن الخاص بها في المنطقة[4]، كما تواجدت صناعة المراكب لتواجد الخشب من جهة والبربير من جهة أخرى، فتواجدت ديار الإنشاء كما هو الحال بالنسبة لدار الإنشاء بمسيني وقلعة شانت ماركو التي كانت تصنع المراكب من خشب جبالها[5]،

واختصت الكثير من المناطق وخاصة الساحلية بصناعة الأجفان والمراكب بحكم الموقع الجغرافي للمنطقة واشتغال معظم الايطاليين في التجارة وركوب البحر[6].

وفي مدينة فلورنسا تواجدت مصانع إنتاج الأقمشة الصوفية، فكان بها حوالي ثلاثمائة مصنع للنسيج، يعمل فيها حوالي ثلاثون ألف نساج في عام736ه/ 1336م،ونظمت نقابة الأقمشة أعمالا واسعة لاستيراد الصوف وتصدير منسوجاته، وأنتجت جنوة الحرير بخيوطه الذهبية بالإضافة الى المخمل (القطيفة)[7].

كان الإنتاج الصناعي يتأمن بشكل خاص،إذ يقوم الصناع بشراء المواد الأولية والآلات ويشتغلون وحدهم أو مع بعض العمال الذين يشاركونهم الأرباح، وبعد ذلك يبيعون إنتاجهم للمستهلك دون وسيط، وكان لكل صناعة هيئة أو رابطة حرفية تنظمها في إطار المدينة الواحدة تعرف بالأصناف، وهذا ما يدل عليه تواجد أحياء متخصصة عرفت

---

[1]. الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص279.
[2]. القلقشندي، المصدر،ج5،ص383.
[3]. المقدسي، المصدر السابق، ص204.
[4]. الادريسي، نزهة المشتاق،ج... ص603.
[5]. نفسه، ص275.
[6]. نفسه،ج2،ص750.
[7]. محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص161.

باسم الحرف المزاولة بها،هذه الأصناف التي كانت رغم النظام الذي يميزها تعيق التقدم الفني للصناعة[1].

ج/التجـــارة:

اشتهرت إيطاليا منذ القدم بعراقتها التجارية والتي تكرست في العصر الوسيط[2]، وقد ساعدها في ذلك موقعها شبه الجزري، وفي خلال القرن7ه/ 13م حينما انفتحت كل أوروبا على التجارة العالمية، كانت شبه الجزيرة الايطالية ضمن مركزيها الرئيسيين(الأراضي المنخفضة في الشمال وايطاليا في الجنوب)[3]، ومن ومن المدن الايطالية التي اشتهرت في هذا المجال مدينة ربنة[4]، التي امتلك أهلها الكثير من من المراكب واستعملوها في القرصنة والغزو البحري على جانب التجارة[5]، وكذا مدينة بونص المدينة كبيرة العامرة التي اشتهرت بكثرة معاملاتها التجارية من بيع وشراء وما يتبع ذلك من ديوان وجبايات، اضافة الى ما كان لأهلها من مراكب كثيرة يسافرون فيها للاتجار[6]. ومدينة كرادس الكبيرة التي كانت تحتوي عددا كبيرا من السكان إضافة الى ما ما كان يفد إليها من مدن الجوار فيجتمع بها جمع غزير، وكانت المراكب الكثيرة واردة إليها وصادرة منها[7].

---

1. نور الدين حاطوم،عصر النهضة الأوروبية ، دار الفكر،1387-1968،ص142.
2. تمتلك ايطاليا عادات وتاريخ تجاري فكان لها ماركو بولو البندقي و أبوه نيقولا وعمه مافيو قد شرعا في الاتجار مع بلاد الصين سنة1260م وقد اصطحبا معهما ماركو سنة 1271 وهو صبي في سن السادسة عشر،انظر جلال يحيى، المرجع السابق، ص211.
3. محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 152.
4. متوسطة بلاد البنادقة– وهي دار مملكة البنادقيين، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص748.
5. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ..ص748.
6. الإدريسي،نزهة المشتاق، ج...ص748
7. نفسه، ص748.

أما إصطاجانكو[1] فكانت عامرة بالتجار، وجنوة المدينة العريقة الأزلية فكان أهلها تجار أمناء مياسير يسافرون برا وبحرا ويقتحمون السهول والوعار برا ،أما بحرا فكان لهم أسطول تجاري مخيف، لأنهم كانوا على معرفة كبيرة بالحيل والآلات الحربية[2]، ومدينة بيش من قواعد بلاد الروم مشهورة الذكر كبيرة القطر عامرة الأسواق. ومدينة مسيني التي تواجد بها مرسى دار الإنشاء وبه كانت تقصده السفن من جميع بلاد الروم الساحلية، وبها تجتمع السفن الكبار والمسافرون والتجار من البلاد الرومية والإسلامية [3].

---

[1]. خمسة أميال وهي مدينة متحضرة كبيرة القطر المدينة على آخر طرف جون البنادقة وآخر بلاد البنادقيين وفرضة بلاد إيكلاية انظر الإدريسي ، نزهة المشتاق،ص748.

[2]. نفسه،ص749-750.

[3]. الإدريسي، المصدر السابق، ص276.

الفصل الثالث

المبادلات التجارية بين المنطقتين

من الصعب تحديد تاريخ بداية العلاقات التجارية بين مدن جنوب غرب أوروبا وبلاد المغرب لقلة المصادر التاريخية التي تناولت أو عالجت هذا الموضوع، لكن بعض تلك المصادر تشير الى وجود مثل هذه العلاقات بين مدن الجنوب الايطالي ومسلمي الحوض الغربي للمتوسط منذ القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي[1]، فمع

---

[1] .Y.Renouard, *les hommes d'affaires italiens au moyen-âge*, paris,1949, pp7-8.

بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، توافد على مراسي بلاد المغرب تجار أوروبيون من مختلف جهات ونواحي أوروبا (ايطاليا، بروفانس وقطالونيا)، واستمرت العلاقات التجارية بين المدن الساحلية لبلاد المغرب ومدن أوروبا الجنوبية خاصة بعد سقوط دولة الموحدين[1]، ومهما يكن من أمر فقد تأثرت العلاقات التجارية تلك بالجانب الدبلوماسي و السياسي، خاصة ما تعلق منها بقضية القرصنة أو الحملات العسكرية الصليبية التي كانت تتم ضد إمارات المغرب وخاصة الحفصية[2]، عموما فهناك جملة من العوامل التي ساعدت وتحكمت في المبادلات التجارية بين ضفتي المتوسط (الشمالية والجنوبية) بشكل عام وبين بلاد المغرب وجنوب غرب أوروبا بشكل خاص والتي يمكن أن نحددها في الآتي.

أولا:العوامل الطبيعية: تعتبر من أهم العوامل المساعدة على التجارة فالبيئة الطبيعية قد تكون إما عاملا مساعدا عليها أو معيقا لها، وخاصة في العصر الوسيط أين كانت وسائل النقل و الاتصال لاتزال متأخرة مقارنة بما أصبحت عليه على عهد الكشوف الجغرافية، عموما يمكن حصر تلك العوامل في الآتي:

تواجدت بالمنطقة الكثير من المراسي الطبيعية وذلك نتيجة لإشراف المنطقتين على أهم المسطحات المائية المتمثلة في البحر الشامي(المتوسط) و بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) الاطلسي وإمتلاك بعض الدول لأكثر من واجهة بحرية مثل المغرب الأقصى (أطلسية من الغرب ومتوسطية من الشمال) وتونس (شرقية وغربية) والبرتغال (غربية أطلسية وجنوبية متوسطية) ومما زاد في قيمة هذه المراسي هو قربها وتقابل الكثير منها فيما بين الضفتين.

---

[1] . *A.Dhina, les Etats de l'occident musulman, pp404-405.*

[2]. من ذلك حملة لويس التاسع على افريقية ،سنة 1270م و سيأتي تفصيل هذه الحملات في الباب الثاني الفصل الخاص بالعلاقات السياسية للدولة الحفصية .

ومما زاد من فاعلية تلك المراسي قرب المنطقتين من بعضهما، إذ لا يفصل بين العدوتين(طنجة وشبه الجزيرة الايبيرية) عند أعمدة هرقل[1] سوى 13 كيلومترا، فالساحل المغربي يكاد يتصل اتصالا مباشرا بالساحل الأندلسي حتى لقد أصبح تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته يكاد يتمم بعضه بعضا، لهذا أطلق المؤرخون على كل من المغرب والأندلس العدوة إعترافا منهم بهذه العلاقة المتينة[2]، أما في مدخل الحوض الشرقي للمتوسط فنجد إفريقية-تونس- لا تبعد عن جزيرة صقلية عند مضيق صقلية سوى 130 كلم أو 40 ميلا[3].

كما تميزت المنطقة بجاهزيتها لعمليات التبادل وذلك من خلال تقابل المراسي الضفتين، فبالنسبة للمغرب الأوسط نجد مراسيه قد تقابلت مع أهم موانئ شبه الجزيرة الايبيرية، إذ يوازي مرسى المرية المشهور في الضفة المقابلة ميناء هنين بمسافة تقدر بمجريين، ومدينة دانية التي تقابلها مدينة وميناء تنس على ثلاثة مجار فقط[4]، أما بالمغرب الأقصى فنجد ميناء سبتة الذي اكتسب أهميته من قربه عن اسبانيا لا يبعد عنها سوى بخمسة فراسخ فقط[5].

---

[1]. يقصد بها مضيق جبل طارق، وعرف بهذا الاسم عند اليونانيين القدامى، ولما جاء الفتح الاسلامي أطلق عليه المسلمون أسماء عديدة منها مضيق المجاز أو خليج الزقاق أو بحر الزقاق أو مضيق جبل طارق يبلغ طوله نحو 80 كلم، نواحيه ال14 كلم،وهذا ما أشار اليه العذري في كتابه بقوله ((والمسافة بين جبل طارق ومدينة سبتة قريبة جدا يرى الناس سورها ودورها ويرون ثياب العطارين بها،وتتحرك السفينة من مرسى الجزيرة الخضراء عند بزوغ الشمس ،فلا ترتفع قدر رمحين إلا وقد رست بمدينة سبتة))،انظر العذري (أحمد بن عمر بن أنس))، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى الممالك،نشر عبد العزيز الأهواني،مطبعة الدراسات الإسلامية بمدريد 1965م ص118-119.

[2]. عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية بين الدّولة الأموية في الأندلس ودول المغرب،ط2، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة 1999م، ص7.

[3]. ابن أبي بكر الزهري ،المصدر السابق، ص130.

[4]. الإدريسي، نزهة المشتاق،ج2،ص582.أما لدى القلقشندي فنجد أن ما يقابل دانية من بلاد الأندلس هو ميناء مستغانم وأن المسافة الفاصلة بينهما هي ثلاث مجار ونصف القلقشندي ،المصدر السابق،ج5،ص145.

[5]. مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2، ص216.

ومن العوامل الطبيعية أيضا، موقع بلاد المغرب الاستراتيجي -أي بين أوروبا والصحراء- فتلمسان بالخصوص مثلت ممرا ومركزا هاما لتبادل السلع الإفريقية وبضائع البحر المتوسط، خاصة وأنه لم يكن للدول المسيحية أن تتعامل مع دواخل الصحراء بنفسها،

لأن المسلمين أصروا دوما على احتكار تجارة المنطقة، فكان التلمساني على حد تعبير المقري ((يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج و الجوز والتبر والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان))[1]، كما كان التاجر في الغالب وبقوة الأشياء وعندما يريد التجارة مع البلاد البعيدة، فمن الضروري بأن تكون التجارة بأيدي أناس يعرفون الطرق واللغات الأجنبية[2].

إن الاختلاف في المنتجات والمحاصيل الزراعية الذي أوجده اختلاف وتباين المناخ بما تتميز به المنطقة الأوروبية من برودة وكثرة أمطار[3]، وما امتازت به دواخل بلاد المغرب من حرارة وجفاف وقلة رطوبة[4]، مثل بلاد الجريد وسجلماسة و الزاب وإقليم مراكش، أدى الى تباين المحاصيل الزراعية، كتلك التي لا تنمو إلا في درجة حرارة عالية كالموز والسكر والقطن والتمر، والاختلاف في نوعية الحيوانات التي شكلت بعضها مادة للتبادل التجاري كالنعام وعاج الفيلة وغيرها، وخاصة في السنوات التي تتعرض لها منطقة ما لظروف طبيعية قد تؤدي الى الإضرار بالمحصول الزراعي كالجفاف أو الفيضان أو زحف الجراد[5].

---

[1]. المقري، المصدر السابق، ص205.

[2]. نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص104 .

[3]. إذ نجد فرنسا مثلا حسب ما وصفها به الحميري بأن هوائها غليظ لشدة بردها ومصيفها معتدل، وهي غزيرة الأنهار المنبعثة من ذوب الثلج،انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص27.

[4]. هناك تشابه نسبي بين الضفتين في المناطق الساحلية لكن الفرق يزداد بالاتجاه شمالا وجنوبا.

[5] . *Robert Vernet, op.cit, p62.*

ثانيا:عوامل بشرية:

إن انعدام الأمن في الطرقات التي كانت تؤدي إلى دواخل الصحراء الإفريقية بسبب الأعراب الذين كانوا يتربصون بكل من يمر عبرها، حتم على التجار الأوروبيين التعامل مع إمارات المغرب الإسلامي كوسيط تجاري، أضف إلى ذلك المخاطر الطبيعية وعدم معرفة أولئك التجار بالمسالك التي قد تفضي بهم إلى الضلال والتيه، فنجد أن أهل المغرب الإسلامي أنفسهم كانوا يضعون علامات تدلهم على تلك السبل ومن ذلك شركة المقريين بالمغرب الأوسط، التي اشتهرت بالتجارة فمهد أصحابها طريق الصحراء بحفر الآبار وأمنوا التجار واتخذوا طبلا للرحيل وراية تتقدم عند المسير[1]، وقد يعود ذلك أيضا إلى أسباب دينية واقتصادية[2]، نظرا للخير الذي كانت تجلبه تلك التجارة للإمارات المغربية، فكان سببا في ظهور المطامع الرامية إلى تملك تلمسان، ونجد الحسن الوزان يورد لنا مثلا عـــــــــــــــــــــــــن
منطقة أنقاد[3] الواقعة بغرب الإمارة العبدوادية والتي كانت مأوى لعصابة لصوص من الأعراب الذين كان يزداد خطرهم خاصة في فصل الشتاء بعد أن يرحل الأعراب المستأجرون للحفاظ على الأمن نحو نوميديا بالشرق[4] ومن ذلك ما يذكره العبدري عن صعوبة المسالك في نفس المنطقة بقوله: وجدنا الطريق نحو تلمسان منقطعا مخوفا لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حال حذر واستعداد ....لأن المجاورين لها من أوضع خلق

---

[1]. أحمد المقري، المصدر السابق، ج....،ص205.

[2]. بادل دا فرانسيس، إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال أحمد ،دار الثقافة،د ت،ص124.

[3]. مبتدأ مملكة تلمسان غربا وهي عبارة عن سهل قفر وعر يابس لا ماء فيه ولا شجر تمتد على نحو ثمانين ميلا طولا وما يقرب من خمسين ميلا عرضا،انظر الوزان،المصدر السابق، ص10،أما اليوم فهي إقليم من أقاليم المغرب الأقصى الشرقية واليه تنتمي مدينة وجدة التاريخية التي تبعد نحو أربعين ميلا جنوب البحر المتوسط وبنفس المسافة عن مدينة تلمسان حسب الوزان،المصدر السابق،ص12.

[4]. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص11.

الله وأشدهم إذاية لا يسلم منهم صالح ولا طالح ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتبادون من شره[1].

ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة لدواخل أوروبا التي تميزت في تلك الفترة بصعوبة وخطورة وعدم أمن مسالكها، فانقطعت الطرق التجارية وتوقف التجارة الداخلية والخارجية بسبب الجيوش القشتالية والبرتغالية والليونية و الأراغونية التي أخذت تتوسع بضم أراضي الأندلس وفقا لخطة موضوعة متفق عليها بين ملوك المسيحية في اسبانيا وذلك في الفترة الممتدة من القرن

الثالث عشر وحتى بدايات القرن الخامس عشر[2]، فاتضح أن مستقبل أوروبا أصبح مرتبطا بالماء أي بالمسطحات المائية ومنها المتوسط بحوضيه الغربي والشرقي والبحر المحيط، كل هذه الأمور مجتمعة دفعت المسيحيين في شبه الجزيرة الايطالية والأيبيرية مجبرين لا مخيرين على التعامل مع هذا الجزء من إفريقيا.

ساعد اختلاف المستوى (التقني) أوالصناعي،على تنشيط عملية التبادل التجاري، فكما نعلم أن بلاد المغرب كانت تشهد تراجعا في مستواها الصناعي بسب الحروب وحالة اللا استقرار التي كانت تشهدها بسبب حروبها الحدودية، وتركيز بعضها على تصنيع الأساطيل، وما يلحق بها من أسلحة وخاصة دولة بني مرين، بينما كانت بعض الدول الأوروبية تشهد انطلاقة أو إقلاعا صناعيا كما هو الحال بالنسبة للإمارات الايطالية، زد على هذا أن بلاد المغرب حتى لو امتلكت صناعة بحرية فلم تكن لديها القدرة على منافسة الدول الأوروبية في هذا المجال، الأمر الذي أعطاها وخاصة إيطاليا فرصة احتكار عملية نقل البضائع والأشخاص عبر محورين شرق –غرب (من المغرب الى المشرق والعكس) وجنوب شمال (بين بلدان المغرب والدول المسيحية) .

---

[1]. العبدري،المصدر السابق، ورقة 06.

[2]. انظر، جلال يحي ،التاريخ الأوروبي الحديث و المعاص، ص171-182.

إن تنوع المنتج الصناعي في دول المغرب الإسلامي وخاصة بالنسبة لبعض السلع التي تفتقدها الدول الأوروبية والتي امتازت بجودتها وشهرتها كالمنسوجات الصوفية في تلمسان[1] والجلدية في فاس[2] والمنسوجات القطنية في سوسة جعل الكثير من تجار أوروبا يفضلونهاعن غيرها وخاصة تلمسان وحتى في أيام الحروب[3]، فالبضائع المستوردة من الجانبين تعتبر بطبيعة الحال متممة للإنتاج المحلي بالنظر إلى حاجات السكان سواء في شكل خام أو مصنع، فكما تقول القاعدة الاقتصادية أنه لا يمكن لأي دولة أن تجد مقومات صناعتها بشكل تام داخل حدودها الإقليمية، كما توقف حجم المبادلات التجارية وخاصة المحاصيل الزراعية على ظرف أوعامل مزدوج ومتغير يتمثل في وفرة المحصول في كلا العدوتين من البحر المتوسط.

لا شك أن التبادل التجاري يزداد حجما بازدياد عدد السكان لأن التجارة قبل كل شيء هي تلبية لحاجيات السكان، فقد ازداد عدد السكان في كل طبقات المجتمع الأوروبي وخاصة ايطاليا التي ظلت تمثل مركز ثقل سكاني[4]، فانكمش بسبب ذلك نصيب الفرد من الأراضي الزراعية أمام انعدام ظهير يصلح استغلاله في المجال الزراعي أو أطراف بحوزة الأعداء والخصوم يصح قهرهم واستردادها وإنزال الفائض من السكان بها[5] وخاصة في هذا العهد الذي بدأت تتضح فيه معالم الدول القومية الحديثة، إضافة إلى تقلص أراضي صغار النبلاء بعد

---

[1]. انظر جورج مارسي، مدن الفن الشهيرة، دار النشر -التل-، الجزائر2004، ص100.

[2]. روجي لي تورنو، فاس في عصر بني مرين، ص133وما يليها.

[3]. حسين مؤنس،تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي الى الغزو الفرنسي ،ج2،العصر الحديث للنشر والتوزيع، ص140.0

[4]. يورد لنا أن مملكة فرنسا في العصر الوسيط وتحديدا في 1328م كانت مساحتها تقدر ب440000كلم2،وكانت الكثافة السكانية بها تقدر بثماني كوانين في الكلم المربع الواحد والذي يناسب حوالي أربعين ساكن وان كثافة بعض المناطق بلغت حوالي 200ن/كم2، وتعود الأسباب الى ارتفاع عامل الخصوبة في أوروبا الغربية إذ انتقلت الى أربع أو خمس أطفال أو ستة للزوج ، وكذا بسبب تراجع نسبة الوفيات وارتفاع مدى أو متوسط العمر.انظر أيضا
Lecuppre Jill, op.cit, pp12-13.

[5]. الباز العريني،المرجع نفسه، ص117.

انقسامها بين كثير من الأبناء الذين انضموا إلى برجوازية المدن واحترفوا التجارة فيما بعد حتى صارت التجارة هي الحرفة الأساسية لهم.

وفي الجهة المقابلة نجد تلمسان مثلا قد بلغ عدد الديار بها على عهد الوزان ثلاثة عشر ألفا، ما يمثل دليلا على استرجاع حيويتها البشرية في القرن الخامس عشر رغم سنوات الحصار، الذي ضرب عليها في العديد من المرات ومنها ذلك الذي بلغ قرابة الثماني سنوات وراح ضحيته مائة وعشرون ألفا من السكان[1]، وكذا بسبب الحروب مع الجيران التي أهلكتها في مالها ورجالها.

إشتهر تجار بلاد المغرب بشكل عام بالأمانة والشرف والسمعة الطيبة سواء لدى ملوك الصحراء الإفريقية ومنها بلاد السودان الغربي[2]، أولدى تجار الضفة الشمالية للمتوسط، فكانت عمليات الغش لديهم نادرة لحرصهم على سمعتهم وسمعة مدنهم، فاشتهر تجار المغرب الأوسط وعلى الأخص هنين بأنهم منصفون مخلصون جدا وأمناء في تجارتهم أغنياء بالمال ومياسير بالأملاك مشهورون بنزاهة واستقامة أعمالهم الفريدة التي عرفوا بها منذ القدم[3].

لقد شجع ملوك وسلاطين بلاد المغرب التجارة، ففي المغرب الأوسط نجد يغمراسن بن زيان بعد أن أدرك أهمية هذا النشاط يوسع للتجار في بلده، وذلك بأن وفر لهم الأمن والحماية وخفف عنهم الجنايات، والسلطان المريني أبو عنان الذي أنشا المراكز التجارية بالمناطق الساحلية وخاصة في مدينة سبتة، وأقام لتجار المناطق البعيدة دورا للضيافة يقدم فيها الطعام والشراب مجانا أثناء فترة إقامتهم[4]، وتوفرت في عهده الفنادق بشكل كبير لإيواء التجار الأجانب، فقد بلغ عددها سبعة بمدينة سبتة لوحدها أربعة على صف واحد وثلاثة متفرقة مخصصة لإقامة النصارى، وأربعمائة وسبعة وستون في مدينة فاس، وذلك على غرار تلمسان

---

[1]. يحيى بن خلدون، المصدر نفسه، ص19.

[2]. ومن ذلك ملك مالي الذي عامل تجار تلمسان على أساس أنهم أصدقاء وطبعا لم يتأتى هذا إلا بعدما لمس منهم خصالا مثل النزاهة والأمانة وحسن الخلق جورج مارسي،المرجع السابق، ص99.

[3]. الوزان،المصدر السابق،ج2،ص15-21.

[4]. إبراهيم حركات،الحياة القروية في العصر المريني، مجلة اللقاء، عدد4،1968، ص79.

التي احتوت على عدد هام من الفنادق وتميزت بنوع من التخصص-حسب البضاعة أو جنسية التجار-كفندق الجنويين والبنادقة [1] أو مدينة وهران التي احتوت على فندق للقطالونيين وآخر للجنويين عرف بدار الجنويين[2] ومرسى سكيكدة الذي بنا عامل المدينة على ساحل البحر بالقرب منه المخازن والملاجئ للتجار الأوروبيين الذين يقصدون هذه المدينة للتجارة[3].

ومن الجانب الأوروبي فرغم عدم تواجد التجار المسلمين هناك بكثرة إلا أن الدول الأوروبية قد قدمت تسهيلات للتجار الوافدين عليها، فنجد البندقية و جنوة تتحولان إلى مدينتين عالميتين ضخمتين تحتويان أجناسا من كل صقع ودين يتبادلون كل ما تنتجه بلاد الدنيا قاطبة من سلع.

ومما ساعد على نجاح التجارة أيضا هو اهتمام ملوك أوروبا وسلاطين المغرب الإسلامي على حد سواء بها لما كانت تدره عليهم من أموال وأرباح، فنجد السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني يقول" لو لا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع "[4]، أما من جهة ملوك أوروبا -ومنهم ملوك أراغون وميورقة -فنجدهم يسكون نقودا شبيهة بالنقود العربية لتسهيل عملية التبادل مع البلدان العربية[5].

كانت التجارة تمثل مصدر دخل هام لدول المغرب، فنجد الوزان يذكر أن قيمة ما استلمه أحد كتاب ملك تلمسان[6]من سفينة جنوية مقابل رسوها بميناء هنين هو خمسة

---

[1]. لم يذكر لهما الوزان اسما،واكتفى بقول خصصا لمقام تجار جنوة والبندقية ،الوزان،المصدر السابق،ص20.

[2]. الوزان،لمصدر السابق ص30.

[3]. مارمول،المصدر السابق،ج3، ص7.

[4]. أحمد المقري، المصدر السابق،ج5، ص206.

[5]. *Charles Emmanuelle Dufourq, l'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII siècle, PUF Paris,1965 ,P563-564.*

[6]. كان الوزان مرافقا لكاتب السلطان ومن هنا لا نستبعد أن يكون هذا السلطان أبو ثابت الزياني الذي نزل الوزان ضيفا ضيفا عليه .

عشرة ألف مثقال ذهب مسكوك[1]، ووصل الأمر أيضا ببعض الملوك الأوروبيين كمملكة نابولي وصقلية إلى ممارسة التجارة وخاصة تجارة الحبوب بأنفسهم ومن أولئك الإمبراطور فريديريك الثاني ملك صقلية الذي طبق نظام بيع المواد الصالحة للاستهلاك في الخارج بصورة مباشرة من طرف الدولة وكان يتاجر مع تونس بسفنه الخاصة، ومن ذلك كميات الحنطة التي بلغت ما يقارب خمسين ألف حمولة والتي باعها لإفريقية سنة638ه/ 1240م، وملك نابولي فرديناند الأراغوني الذي باع للسلطان الحفصي بواسطة أعوانه الدبلوماسيين والتجاريين قمح صقلية وجنوب إيطاليا[2].

كما أنه ومع بداية القرن 8ه/14م، وظهور الأتراك الذين وطدوا أركان دولتهم في آسيا الصغرى[3]كمنافسين أقوياء للايطاليين في الميدان التجاري في الحوض الشرقي للمتوسط جعل الايطاليين يحولون أنظارهم ناحية الحوض الغربي للمتوسط لتعويض خسارتهم طالما أن هذا الحوض أو المجال يستقطب نسبة هامة من النشاط التجاري العالمي[4]، فقد أضر هذا التحول بتجارة الحوض الشرقي للمتوسط في حين نجده قد أضاف أضاف أو ضاعف من تعاملات الجمهوريات الايطالية مع دول المغرب.

كما لا يجب أن نغفل في هذا المجال بعض معوقات التبادل التجاري، كإستراتيجية بعض المحاصيل، إذ كانت التجارة البحرية –مع النصارى– خاضعة للعديد من التقييدات، فمن الجانب الإسلامي كان السلاطين وخاصة الحفصيون – حريصين على تجنب المجاعات المحلية المتكررة ومنع ارتفاع أسعار الحبوب بصورة تضر بالمستهلكين، فكانوا لذلك يرفضون إخراج

---

[1]. الوزان ،المصدر السابق، ص16.

[2].انظر روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2،ص268.

[3]. في سنة 1299م تم تأسيس الدولة العثمانية ،واتخذت من اسطنبول –اسلامبول– عاصمة لها لتبدأ في التوسع شرقا على حساب أوروبا وغربا وجنوبا على حساب البلاد العربية فيما بعد وهذا ما رأت فيه الدول الأوروبية تهديدا لمشروعها التوسعي والاقتصادي في حوضي المتوسط.

[4] *.J.Heer, le Sahara et le commerce méditerranéen a la fin du moyen– âge, Annales de l'institut d'études orientale de la faculté des lettres d'Alger, alger1958,t16,p247.*

تلك المادة بحرية، ويبيعونها للبندقية وجنوه بكل تقتير رغم إلحاح تجارهم وقناصلهم على أخذ كميات أكبر، فقد كان الحفصيون يشترطون لذلك حصول نقص كبير في تلك المادة بالبلدين، على أن لا يتجاوز ثمنها حدا معينا في السوق الإفريقية، ما بين ثلاثة دنانير وثلاثة دنانير ونصف للقفيز في القرن 7ه/13م وخمس دنانير في القرن 9ه/15م ثم خمسة عشر دينارا فيما بعد إثر تغيير العملة، وكانت الكمية المصدرة محددة في القرن 13 بحمولة عدد معين من السفن، خمس سفن بالنسبة لجنوه وثمانية ثم إثنا عشرة بالنسبة للبندقية –ومحددة في القرن الخامس عشر بخمسة عشر ألف قفيز بالنسبة الى جنوه[1].

ونجد ذلك التقييد المسلط على حرية التجارة يتفاقم في بعض الأماكن والفترات لأسباب اقتصادية، وهذا ما أشار إليه التجاني في بداية القرن الرابع عشر حينما حجرت الدولة الحفصية على تصدير المواد الغذائية من طرابلس وفرضت عقوبات على الذين يقومون بذلك[2].

إن الصراع بين الإمارات والدول الأوروبية فيما بينها كان له هو الآخر أثره السلبي على النشاط التجاري للمنطقة، كالصراع التجاري الحاد الذي دار بين جنوة وبيزا والبندقية وأدى الى تناقص حجم المبادلات مع بلاد المغرب بسبب حالة اللا أمن التي أفرزتها حالة الصراع تلك، إضافة الى أثر الحروب الصليبية التي كانت تشنها الدول الأوروبية على بلاد المغرب كتلك التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا ضد افريقية، إذ لم يتعاف النشاط التجاري ويعود الى ما كان عليه إلا بعد إمضاء معاهدات أعادت السلم بين تلك الجمهوريات[3].

عوامل دينية:

حجر بعض الفقهاء المسلمين على تصدير بعض المواد الإستراتيجية إلى بلاد النصارى مثل الدقيق والخيول والأدوات الصالحة للتجهيز العسكري ، والواقع أن أهل المغرب

---

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص266.

[2]. انظر التجاني، المصدر السابق، صص258-259.

هم الذين كانوا يشترون أهم التجهيزات الحربية من بلاد النصارى لا العكس[1]، ذلك أن النصارى من جهتهم كانوا خاضعين لقرارات الحظر الصادرة عن الكنيسة، بخصوص إمداد المسلمين بأية مادة من شأنها أن تساعد أولئك- الكفار- في حربهم ضد أنصار المسيح، ولو أن بعض المؤرخين المسيحيين نجدهم يتجاوزون هذا الجانب الى الحياة العامة بشكل كلي وهذا ما يعطي نظرتهم هاته صبغة عنصرية[2].

لقد طبقت بعض الدول النصرانية مرارا وتكرارا قرارات الحظر المذكورة الصادرة عن الكنيسة، ومن ذلك قرار المنع الأكثر تفصيلا والصادر عن ملك أراغون جاقمة -خايم الأول-

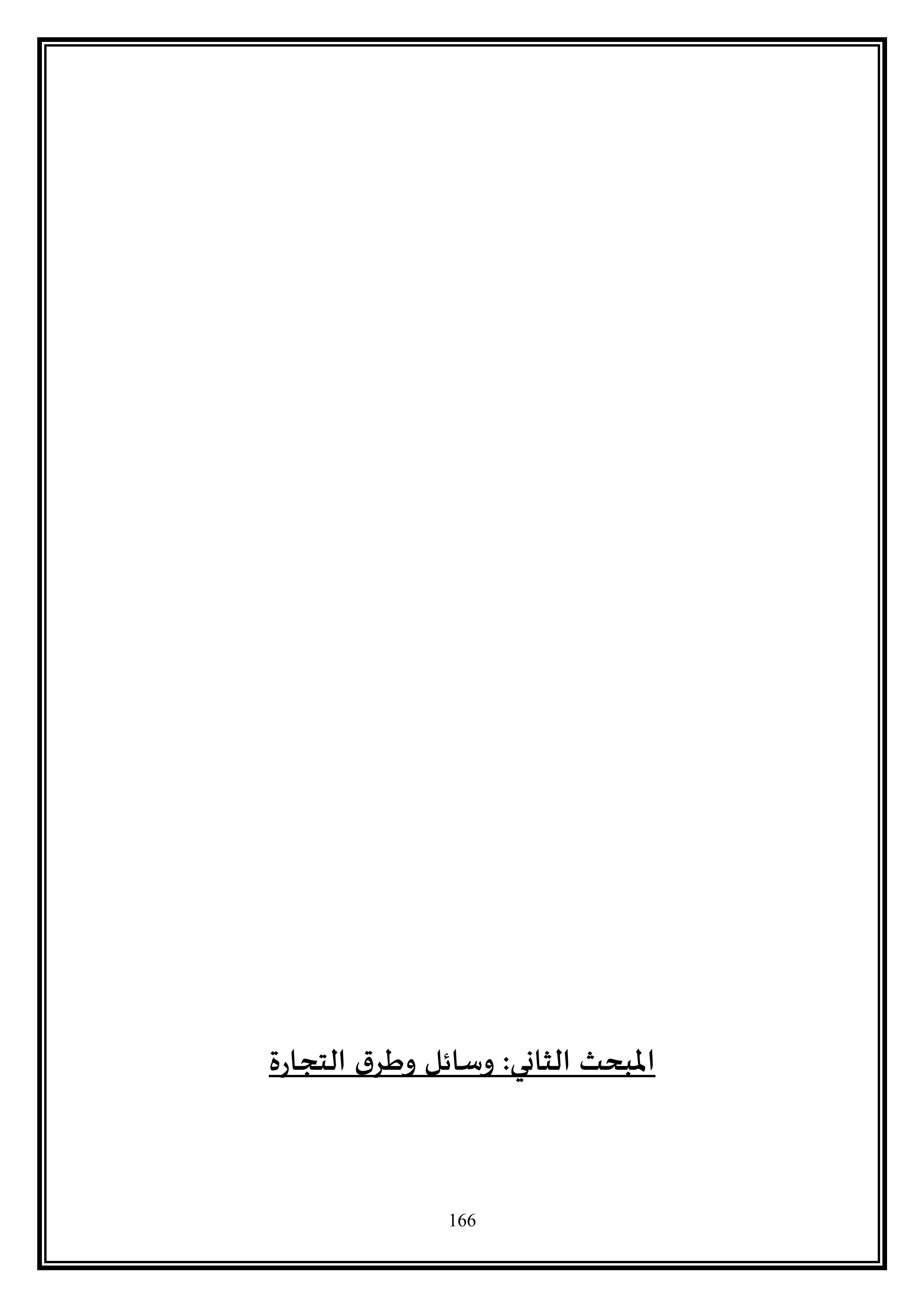
Jacme-1 ضد إفريقية، ففي673ه /12 أوت 1274م ذكّر القطالونيين اللذين رخص لهما بالتحول إلى تونس بالقرار الذي اتخذه في برشلونة بخصوص إمداد المسلمين بالمواد الاستراتيجية المتمثلة في الأسلحة والحديد والخشب والقمح والشعير والذرة البيضاء والدخن والفول ودقيق كل الحبوب والجلبان وحبال القنب أو غير ذلك من المواد الصالحة لصنع حبال السفن والرصاص، وفي سنة 1320م اتخذ الملك الأراغوني الآخر خايم الثاني *Jacme II* قرارا مماثلا حول التجارة مع تلمسان، ورغم أن تلك القرارات لم تخضع للمراقبة المشددة وكانت تميل في كثير من الأحيان إلى الفتور أو إلغائها في بعض الأحيان، إلا أن تلك التدابير قد أحدثت بعض العوائق في وجه التجارة، كما كانت الدول النصرانية تتردد في مخالفتها بشكل علني و رسمي، من ذلك مثلا أن جنوة عندما أرادت في سنة 1452م توجيه بعض الأسلحة إلى تونس رأت من الواجب أن تستصدر ترخيصا من البابا[3]، وهذا مايدل على عدم اقتناع التجار بما تصدره تلك الجهات الدينية من قرارات.

---

[1]. انظر برانشفيك، المرجع السابق،ج2،ص267.

[2] . *Charles Emmanuel Dufourcq, la vie cotidienne dans l'Europe medievale sous domination arabe, Hachette Paris, 1975, p163.*

[3]. انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص267.



المبحث الثاني: وسائل وطرق التجارة

إن التجارة لا تكون ناجحة ومزدهرة إلا إذا توفرت لها بعض الشروط التي تعتبر ضرورية، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالتجارة البحرية والدولية، ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نتطرق بالدراسة لوسائل وطرق التجارة البحرية.

1-المراسي:

أ/في بلاد المغرب:

أ1: في المغرب الأدنى: يعد فقيرا جدا من حيث عدد المراسي إذا ما قارناه بالمغرب الأوسط أو الأقصى، ومن أهم تلك المراسي.

- غار الملحة (بورتو فارينا أو أوتيقا): يقع بين مدينة بنزرت وبين رأس قرطاجة، وقد أصبح في بداية القرن السادس عشر- مهجورا[1].

-المرسى: إسم لمدينة صغيرة كانت توجد بها مرسى لقرطاجة، وتعرضت هي الأخرى للخراب على أيام الوزان[2].

-مرسى عنابة: صغير غير مستور من الريح وخاصة الشمالية وتقصده سفن التجارة لشراء الجلد والصوف والسمن والتمر وغيرها من البضائع الوفيرة في هذه الجهات[3].

-مرسى سوسة[1]: ربما كان من المراسي الصغيرة التي تلجأ إليها السفن عند العواصف، كانت المنطقة تشهد نشاطا تجاريا هاما على أيام بني حفص لكنها كادت تخلو من السكان مع بدايات القرن السادس عشر[2].

---

[1].الوزان، المصدر السابق،ج2،ص17.

[2]. نفسه،ج2، ص61.

[3]. نفسه،ج2، ص8.

-مرسى صفاقس: كان يستعمله سكان صفاقس لصيد الأسماك وخاصة سمك سباريس وهو مرسى حسن ميت الماء، فكان إذا أجزر مائه استوت السفن على الحماة، وإذا مدّ عامت[3].

-مرسى القليبية: يقع أسفل قلعة مبنية على الساحل بين تونس والحمامات فوق صخرة تدعى رأس عطارد أو رأس بوكرو، وهو يصلح أكثر للسفن الحربية[4].

أ2:المغرب الأوسط: حبا الله المغرب الأوسط بشريط ساحلي مسنن يحتوي على جملة من الموانئ الطبيعية التي أخذت أماكنها في الخلجان والأجوان[5]،حيث تكون لها الرؤوس درعا يقيها ويحميها من الرياح والعواصف التي من شأنها أن تهدد أمن وسلامة السفن الراسية بها.

لقد أشار ابن خلدون إلى موقع المغرب الأوسط وأهميته وانعكاس ذلك على نشاط أهله الذين أصبحوا مهرة في خوض مياهه وركوبه[6]، فنجدهم - أي سكان بلاد المغرب - على عكس العباسيين يتجهون اتجاها بحريا[7] لأسباب اقتصادية كممارسة التجارة والانتفاع بما في باطن هذا البحر وبما يحتويه رصيفه القاري من ثروة سمكية، ناهيك عن الأسباب السياسية والدينية التي تفرض عليهم سبر أغوار تلك البحار لدرء أي خطر قادم من الشمال أي من

---

[1]. مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان على سحل البحر على بعد 100ميل من تونس،وهي مدينة انيقة،ذات موقع حسن،الوزان، المصدر السابق،ج2،ص83.

[2]. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص84.

[3]. التجاني،المصدر السابق،ص68.

[4]. الوزان، المصدرالسابق،ج2،ص63.

[5]. وهي المناطق التي تتكسر فيها السواحل نحو الداخل وتتخذ مراسي تحمي السفن من تيارات البحر وأنوائه.

[6]. ابن خلدون،المصدر السابق، ج2، ص627.

[7]. سالم السيد عبد العزيز واحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ،1969، ص47 .

البلدان النصرانية،ولم تكن المراسي التي تقع على حواف المغرب الأوسط بنفس الأهمية والحجم بل اختلفت من واحد لآخر ومن منطقة لأخرى حسب ما هيأته به الطبيعة، وأهمها من الغرب الى الشرق.

-مرسى هنين[1]: فرضة تلمسان وثاني ميناء من حيث الأهمية بعد ميناء وهران، وقد احتل المرتبة الأولى في القرن الرابع عشر الميلادي، إذ أصبح مدخلا رئيسيا للإمارة الزيانية[2]، وقد ظهرت أهمية هذا الميناء منذ القدم وخاصة على عهد الموحدين، إذ لعب دورا مهما في تعزيز وتقوية أسطولهم البحري[3] الذي يعتبر الوسيلة الفعالة في عملية التوحيد السياسي، ولهذا فإنه من الصعب فصل هذا الميناء عن جميع الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية للمنطقة وخاصة في العهد الاسلامي الذي أحدث كثيرا من التقارب بين ضفتي المتوسط في حوضه الغربي خاصة في عهد التوحيد السياسي[4]، وحتى على عهد الاحتلال الاسباني لوهران فقد ظلوا يترددون عليه وبطلب من أهل تلمسان، وظل الملك يرسل أمير قصر يقيم بالقلعة ليخبره بقدوم السفن التجارية[5].

-المرسى الكبير: يبعد عن مدينة وهران بحوالي ميلين، وهو إسم لمدينة صغيرة أسسها ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسط بعيدة بعض أميال عن مدينة وهران ومعناها- الميناء الكبير-، يمتاز بحصانته وكسره للرياح، فكان بذلك آمنا على السفن، كان متعدد

---

[1]. كان يعرف قديما ب Gypsaria portus. أي ميناء الجبس، حول أصل التسمية يرجى العودة الى : McCarthy, *Alegria romana.;recherches sur l'occupation et colonisation de l'Algérie par les romains, revue africaine, Alger 1865,p169.*

[2]. *Charles Emmanuelle dufourq; revue d histoire et de civilisation du Maghreb, no13, 1969, p30.*

[3]. *Djilali Sari, la renaissance d'un ancien débouche de l'or transsaharien,- honaine.opu,alger,p30.*

[4]. *Charles Emmanuelle dufourq,op.cit,p30.*

[5]. الوزان،المصدر السابق،ج2،ص15، لمزيد من التفاصيل حول هذا الميناء، انظر مارمول كربخال،المصدر السابق، ج2، صص296-297.

الخدمات أو التخصصات، فكان يستقبل السفن التجارية وسفن الركاب والحرب[1]، وكان يمثل المكان الأمثل للسفن قصد الاحتماء من أي عاصفة أو إعصار[2]، وكان من أكبر موانئ المنطقة من حيث قدرته على استقبال السفن، إذ كانت ترسو فيه وبكل سهولة مئات المراكب والسفن من كل الاتجاهات[3].

-مرسى وهران: كان يشكل_المدخل الرئيسي للملكة العبدوادية لأنه الأقرب إلى مدينة وهران التي كان التجار الأجانب يتعاملون معها بشكل واسع، لكن وحسب إيمانويل ديفورك فإنه فقد هذه الأهمية لصالح ميناء هنين[4]، وربما يعود السبب إلى ظروف سياسية وأمنية، وتتضح هذه الأهمية أيضا من خلال قول الوزان:(وإذا كان الجو صحوا قصدت وهران مباشرة)[5]، ومما يزيد في التأكيد على أهميته بجانب المرسى الكبير قول الوزان:(غير أن هذين الميناءين سقطا[6] في يد الملك الكاثوليكي فرناندو، فكان ذلك خسارة خسارة عظمى لمملكة تلمسان)[7].

-مرسى أرشقول: اختلفت تسميته من جغرافي لآخر بين أرجقول وأرشقول وأرجكوك، وكان نهر التافنة يشكل مدخلا أو مرفأ طبيعيا له نظرا لشساعته وكبره[8]، ويذكر ابن حوقل حوقل أنه كان لهذه المدينة مرسى في جزيرة لها فيها مياه ومواجن كثيرة للمراكب[9].

---

1. نفسه،ج2، ص31.
2. نفسه،ج2، ص31.
3. .Djilali Sari, op.cit,p31.
4. . Charles Emmanuelle dufourq, op.cit, p30.
5. .الوزان، المصدر السابق،مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2،ص327.
6. . تاريخ السقوط كان سنة 1505 بالنسبة للمرسى الكبير، 1509م بالنسبة لوهران.
7. .الوزان، المصدر السابق،ج2،ص9.
8. . الوزان، المصدر السابق،ج2،ص134.
9. . وهي الجزيرة المقابلة لشاطئ البحر على بعد حوالي ثلاث كيلومترات، انظر،ابن حوقل(أبي القاسم النصيبي)، كتاب كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان،1996م، ص77.

-مرسى تنس: كان ميناء مشهورا أنشاه البحارة الأندلسيون، يختص بتصدير الحبوب التي تنتجها المنطقة إلى كل الآفاق وكانت الصخرة المقابلة له تمثل ملجأ احتياطيا للسفن إذا ما تعذر عليها البقاء بالمرسى[1].

إلى جانب هذه المراسي الهامة تواجدت أخرى أقل أهمية كميناء ندرومة المأمون والمقصود من طرف عدد لا باس به من السفن، و كان عليه آنذاك رباط حسن يتبرك به[2]، أما ميناء أرزاو فهو من موانئ وهران، ولا يزال متواجدا إلى يومنا هذا لكن أدخلت عليه تعديلات هامة وهو من الموانئ الاقتصادية الهامة المتخصصة.

أما الى الشرق منه فنجد ميناء مستغانم الصغير الذي كثيرا ما كانت تقصده السفن الأوروبية[3]، لكن ورغم ذلك لم تكن له أهمية بالغة، إذ نجده غائبا لدى الكثير من الرحالة والجغرافيين.

أ2/ المغرب الأقصى: كبلاد المغرب الأدنى فإننا نجده يتمتع بواجهتين بحريتين إحداهما على المتوسط والأخرى على الأطلسي .

- مرسى سبتة[4]: لا يبعد عن العدوة الأندلسية سوى بخمسة فراسخ[5]، كان يتعامل مع الحمولات التجارية من وإلى دول المشرق ومصر والدول الأوروبية من جهة وبلاد السودان الأوسط والغربي وجنوب الصحراء الكبرى من جهة أخرى[6].

---

[1]. مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2،ص354.

[2]. مجهول،الاستبصار ، ص135.

[3]. الوزان، المصدر السابق، ص31.

[4]. من أقدم وأشهر مدن المغرب الأقصى، تقع في شرقي القصر على مستوى الجزيرة الخضراء، وكان الرومان منذ القدم يترددون عليها نظرا لموقعها الاستراتيجي، ويقال أنهم بانوها وأنهم سموها مدينة الرومان، ويقال أن أحد أبناء نوح عليه السلام بناها بعد الطوفان بحوالي 230 سنة،مارمول كاربخال،المصدر نفسه،ج2، ص216.

[5]. مارمول كاربخال،المصدر السابق،ج2، ص216.

[6]. مقلد الغنيمي، المرجع السابق،ج5،ص287-288.

تفتنـــــــــــــــــــــــــــــــــة: ميناء على المحيط الأطلسي، يقع على مسافة أربعين ميلا (65 كم) إلى الغرب من ايغيلنغيغيل، وهو ميناء جيد جدا بالنسبة للسفن الصغرى، وكان مقصدا للكثير من التجار الأوروبيين وخاصة البرتغاليين[1].

-مرسى العرائش: يقع عند مصب نهر لكوس، والدخول إليه عسير لا سيما بالنسبة لمن لا خبرة له[2].

وهناك مراسي أخرى أقل أهمية مثل مرسى أنزلان العامر، الذي يعد مبدأ بلاد غمارة، وكذا مرسى قصر تازكاو مرسى أنفا '(الدار البيضاء) وأصيلا وطنجة وغساسة.

ب-في الضفة الشمالية للمتوسط:

أ/شبه الجزيرة الايبيرية:

نظرا لإحاطتها بالمياه من الجهات الثلاث المتوسط من الجنوب والشرق والأطلسي من الغرب، فقد تعددت مراسيها والتي سنكتفي بذكر أهمها أي تلك التي كان لها أثر ووزن في عملية التبادل التجاري.

أ1/في بلاد الأندلس:

مرسى بجانـــــــــــــــــــة[3]: مدينة بالأندلس[4] كان الهدف من إنشائها حماية الساحل الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس وهي بذلك من المدن الحصينة والمرافئ الهامة لشبه

---

[1]. الوزان،المصدر السابق،ج1،ص120.

[2]. نفسه،ج1،ص249.

[3]. بفتح الباء بعدها جيم مفتوحة مشددة مدينة محدثة اختطت في عصر الدولة الأموية على أصول قديمة لقرية في نفس مكانها كانت تعرف باسم *Fundus Baianus* أمر بتأسيسها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، انظر محمد أحمد أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية-مصر-1981م،ص 35-و36،انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص37.

[4]. وسميت أيضا أرش اليمن،لأن بني أمية لما دخلوا الأندلس أنزلوا بني سراج القضاعيين في هذا الإقليم، فأصبح بذلك عطيتهم ونحلتهم،الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص37.

الجزيرة الأيبيرية، وظل يحتفظ بهذه الأهمية الدفاعية والإستراتيجية إلى أن ضعفت وعظمت المرية فصارت تابعة لها.

مرسى المريـــــــــــــــــــــــــــة: نجد إسمها مطابقا للوظيفة التي أنشئت من أجلها[1] أي لتكون مرقبا للساحل الجنوبي الشرقي للأندلس وقاعدة بحرية للأسطول الأموي[2] ولمدينة بجانة القريبة منها بحوالي ستة أميال شمالا[3]، ولكن سرعان ما تحولت إلى أشهر مراسي ومدن شبه جزيرة الأندلس الذي تقصده السفن والمراكب التجارية[4]، ويمتاز خليج المرية باتساعه وعمقه فهو يسمح بضم عدد كبير من السفن في آن واحد، كما يمتاز بهدوء مياهه وقلة أمواجه، وهذا ما أهله ليلعب دورا رياديا في التجارة العالمية[5]، وجعل المرية أهم قاعدة لأسطول الأندلس الحربي وبابا للشرق ومفتاحا للتجارة والرزق على حد تعبير ابن سعيد[6]، إذ كانت تقصده السفن من المشرق الإسلامي وخاصة من الإسكندرية و بلاد الشام[7].

مرسى المنكب[8]: يعد أيضا من من أهم المراسي الأندلسية، يقع في الجانب الشرقي من الأندلس الإسلامية، ويحتل مكانة اقتصادية هامة بحكم قربه من العاصمة غرناطة (حوالي أربعين ميلا) وكذا من مدينة مالقة.

---

[1].أسست من طرف الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله سنة 344ه 955م،انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص 183.

[2]. محمد أحمد أبو الفضل،المرجع السابق، صص31-32.

[3]. الإدريسي، المصدر السابق،ج2،ص190.

[4]. الإدريسي،المصدر السابق،ج2، ص562.

[5]. عبد العزيز سالم السيد و أحمد مختار العبادي،تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت،لبنان 1969م، ص180.

[6]. ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص193.

[7]. الإدريسي، المصدر السابق،ج2، ص562.

[8]. بهذا المرسى بويع عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس،انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص186،انظر ص186،انظر أيضا، ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج5،ص 119.

مرسى دانيـــــــــــــــــــــة: نسبة للمدينة الساحلية بشرق الأندلس، كان يشهد حركة دؤوبة للسفن سواء الواردة عليه أو الصادرة عنه، فمنها كان يخرج الأسطول للغزو وبه كانت توجد دار للإنشاء والتي كانت تصنع معظم قطع الأسطول[1]، و نجد هذا المرسى يقابل تنس بالمغرب الأوسط ولا يفصل بينهما سوى ثلاث مجار[2].

مرسى مالقــــــــ ـــــــــــــة: يعتبر من أهم الثغور والمنافذ المطلة على البحر المتوسط نظرا لموقعه الجغرافي الممتاز على طرق المواصلات البحرية، ولكونه من القواعد التجارية الرئيسية، ومن المحطات التي استعملت لشحن السفن وتفريغها أو إصلاح ما تتعرض له من أعطاب في العصر المرابطي والموحدي، وهذا ما جعل الجنويين يقيمون بالمدينة فندقا رحبا للإقامة به نظرا لكثرة مصالحهم التجارية به، وفيه يقول الحميري صيفي يكن بالغربي بالقرب منه جسر ينكسر عليه الموج، وفيه ردد الشعر

مالقة حييت يأتينها *****الفلك من أجلك يأتينها[3].

أ2/ مملكة أراغون:

نظرا لكونها مملكة ساحلية تطل على المتوسط من ناحية الشرق، فقد اشتملت هي الأخرى على جملة من المراسي الهامة نذكر منها.

مرسى لقنت: مرسى مهم جدا، فقد كان يستعمل لتصدير مجموعة من البضائع والسلع ومنها الحلفاء التي كانت تشتهر بها المنطقة على جميع بلاد البحر[4]، وكانت هي الأخرى تمثل مركزا لصنع المراكب السفرية والعراريق، و على الجنوب منه بحوالي ميل نجد

---

[1]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص76.

[2]. انظر الإدريسي،نزهة المشتاق،ج2، صص556-582.

[3]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص179.

[4]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص170

جزيرة ابلناصة التي كانت هي الأخرى مرسى حسن، ومثلت في نفس الوقت برج مراقبة متقدم للمدينة.

– مرسى بلنسية: يقع في شرق الأندلس يبعد عن المدينة بثلاثة أميال، ويجري بالقرب منه نهر تدخله السفن، وهو يقابل جزيرة ميورقة من الناحية الغربية، ويقع على نفس الخط مع مرسى مستغانم[1].

–مرسى برشلونة: يقع الى الشمال من مرسى بلنسية، ولم تكن لتدخله المراكب إلا عن معرفة، وهو المرسى الذي كان ملك فرنسا يتخذه قاعدة للسفر والغزو[2]،وهو يحتل المرتبة الأولى في المملكة الاسبانية حاليا.

مرسى بنشكلة: وهو ينسب إلى حصن بالأندلس بالقرب من طركونة له قرى وعمارات ومياه كثيرة، وهو يقابل من بر العدوة جزائر بني مزغنه[3]، بينه وبينها ست مجار[4].

أ3/قشتـــــــــــــــــــــــــــالة:

إن موقع قشتالة الجغرافي مختلف تماما عن أراغون، فهي تكاد تكون محاطة باليابس من كل الجهات، ولهذا فإن مراسيها قليلة نذكر منها :

–مرسى قرطاجنة[1]:كان مرسى مهم يستقبل كل أنواع السفن سواء كانت من الحجم الكبير أو الصغير، وتزداد أهميته لأنه كما أسلفنا الذكر بأن قشتالة لا تمتلك رصيفا قاريا طويلا[2] طويلا[2] في الواجهة الشرقية، وهو يتوسط ميناء المرية و لقنت.

---

[1]. نفسه، ص47.

[2]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص42 .

[3]. هي المنطقة التي قامت عليها مدينة الجزائر الحالية، سميت بهذا الاسم لوجود مجموعة من الجزر الصغيرة تقابلها في البحر والتي سكنتها قبيلة بني مزغنة، بينما أرجع الوزان سبب التسمية الى أن هذه المدينة مجاورة جزر البليار المسماة بالجزائر الشرقية وهذا خطأ وقع فيه،وكان الأسبان ينادونها ألجي،انظر الوزان،المصدر السابق،ج2،ص37.

[4]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص56.

-مرسى اشبيلية: رغم أنها مدينة غير ساحلية إلا أنها تقع على شاطئ نهر عظيم ينصب من جبل شقورة وتنصب فيه أنهار كثيرة، فلا تصل إلى اشبيلية إلا وهي بحر خضم تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم، لترسو على باب المدينة[3]، وقد بلغت المدينة ذروة ازدهارها وتألقها على عهد الموحدين فأصبح مرساها يتمتع بحركة تجارية نشيطة، فكانت السّفن تدخله لتعود محملة بالزيوت التي اشتهرت بها[4].

أ4/ مراسي البرتغال:

مرسى لشبونة[5]: يبعد عن القصر مرحلتان ويقع على شاطئ البحر المحيط، وهو نفسه المرسى الذي انطلق منه المستكشف البرتغالي فاسكو دا جاما في رحلته الشهيرة للوصول الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في جويلية 1497م.

- مرسى مدينة القصر: هو نهاية لنهر شطوبر الذي تقع على ضفته، وهو يتصل بالبحر ليتحول الى مرفأ تصعد فيه السفن والمراكب وخاصة السّفرية[6].

ما يمكن أن نلاحظه على موانئ البرتغال أن معظمها يمثل نهاية لأنهار عظمى تصب في البحر المحيط، كوادي - سندريه - العريض الذي ترسو فيه المراكب، ونهر -بوغو- الكبير الذي تدخله المراكب والشواني، ونهر -اناشت- الكبير أيضا كثير الماء رحب الفناء الذي يدخله المد والجزر وتطلع فيه المراكب الكبار نحوا من عشرين ميلا، ووادي -تامركة- وهو نهر كبير ترسو به المراكب ونهر -الاذر- الصغير الذي يحمل المراكب

---

[1]. من كور تدمي، وهي فرضة مدينة مرسية، و بقرطاجنة هذه هزم عبد العزيز بن موسى بن نصير تدمير بن عبدوس الذي سميت به تدمير، انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص151.

[2]. الحميري،المصدر السابق،ص151.

[3]. الإدريسي، المصدر السابق،ج2،ص727.

[4]. نفسه،ج2،ص541.

[5]. وكان يوجد بالقرب من هذا المرسى حصن يعرف بحصن عدن وكان البحر عند هيجانه يقذف بالذهب، انظر الإدريسي، نزهة المشتاق،ج2، ص547.

[6].الادريسي،المصدر السابق ،ج2، ص544.

الكبيرة، لقد اقتصرنا على عرض أهم المراسي والقائمة لا تزال طويلة ،وما يهمنا هنا هو أن ندرك بأن هذه المراسي سواء كانت صغيرة أو كبيرة فقد مثلت حلقة وصل بين مختلف المدن

الساحلية في العدوتين، كما قامت أيضا بالموازنة بين الطرق البرية والبحرية في جميع الظروف إضافة الى تخفيف العبء على المراسي الرئيسية وذلك باستقبالها للسفن الصغيرة والمتوسطة، التي كانت ترتادها في موسم العواصف خاصة[1]،إذ نجدها مضطرة للاحتماء بها ولو بشكل مؤقت الى حين هدوء العاصفة.

ب/شبه الجزيرة الايطالية:

تتمتع المنطقة بموقعها البحري الممتاز، كما أن استطالتها من الشمال الى الجنوب و إحاطتها بالمياه من جهاتها الثلاث أفسح المجال لتواجد العديد من المراسي الهامة والتي لعبت دورا كبيرا ومميزا في حركتها التجارية وبالتالي إنعاش اقتصادها، ومن تلك المراسي نذكر الآتي.

مرسى جنـــــــــــــــــوة: يطل على الحوض الغربي للمتوسط، ويقع قبالة جزيرة كورسيكا[2] أقصى شمال غرب ايطاليا، يعتبر من أهم موانئ سهل لجوريا وثاني موانئ شبه الجزيرة الايطالية،كان الايطاليون أو الجنويون يخرجون منه الى جميع جهات الأرض برا وبحرا ،وامتلكوا ،أسطولا مخيفا على حد تعبير الإدريسي[3].

---

[1]. بوشامة عاشور، المرجع السابق، ص325.

[2]. كورسيكا جزيرة تقع في الحوض الشرقي للمتوسط، قبالة الساحل الغربي لايطاليا، وعلى الشمال من جزيرة سردينيا بحوالي 14 كلم انظر الخريطة ضمن الملحق رقم ....

[3]. الإدريسي،المصدر السابق،ج2،ص749.

مرسى فينيســـــــــــــــــــــــيا: أوالبندقية وهو على الساحل الشمالي للبحر الأدرياتيكي، إذ يفصله عنه خط من الكثبان الرملية والتي كانت تجعل من المدينة ملجأ وملاذا للسكان من غارات قبائل الهون المتنقلة والمحبة للقتال والذين غزوا الإمبراطورية الرومانية حوالي القرن الخامس الميلادي.

مرسى بيـــــــــــــــــــــــــــــــــزا: يقع على البحر التيراني ويمر بهذه المدينة نهر أرنو وكانت المنفذ الرئيس لسهل توسكانا.

ب/الوســـــــــــائل:

شهد العالم انقلابا تجاريا كانت بداياته خلال القرن 6ه-7ه/12م -13م، ويعود سبب ذلك إلى زيادة الاتصال بين الناس، لأن الأمية كانت ضاربة أطنابها في شعوب أوروبا عندما تحركت إلى الحروب الصليبية، وكانت الأغلبية منهم لا يتصورون من العالم إلا المحيط الذي يعيشون فيه، فكان من أهم ما استفاده هؤلاء الصليبيون الخبرة والمشاهدة وإدراك صورة صحيحة عن المجتمع الإسلامي بشكل عام[1]، فقد شجعت تلك الحروب التجارة بين أوروبا والعالم الإسلامي، لأن الفكرة التي ظلت لصيقة بأذهان الكثير من الأوروبيين هي أن المسلمين أقوام وثنيون متوحشون ملكوا ما ملكوه من الأقطار بالقوة، وقد صححت من طرف آلاف الغزاة الذين عادوا من تلك الحملات[2]، فوجدت أوروبا فيها سبيلا للاتحاد الداخلي، وكسبت بواسطتها نظرة جديدة واسعة للحياة،إضافة إلى تحرك روح الكشف وتقدم الجغرافيا[3].

---

[1]. محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، دار الغرب الاسلامي بيروت 1982م، ص155.

[2]. محمد المطوي العروسي،المرجع السابق،155.

[3]. نفسه، ص156.

راح الصليبيون بعدها ينشرون الدعوة إلى إصلاح شامل يبدأ بتحرير الفكر وتسهيل التبادل المادي والفكري[1]، ولعل من أعظم ما استفادته أوروبا من ذلك النشاط التجاري الذي حصل بين الشرق والغرب هو ذلك التقدم في الملاحة البحرية وتحسين وسائلها ومقوماتها، سيما استعمال الإبرة المغناطيسية (البوصلة) التي شاع استعمالها في السفن العربية، ونقلها عنهم ملاحو البحر الأبيض الغربيين، ثم شاعت شيئا فشيئا عند بقية الملاحين الأوروبيين[2].

وفي الفترة المعنية بالدراسة ورغم أن وسائل الملاحة ومنها السفن التي كانت لاتزال تعتمد على التجديف، إلا أن التجارية منها خاصة قد أخذت في استخدام الشراع المثلث (اللاتيني) على سارية أو ساريتين، مما سمح لها بالسير في اتجاه معاكس للرياح أو بزوايا معينة، كما سمحت لها بالالتفاف والدوران، وقد بدأت صناعة السفن عند المسلمين مبكرا، فأول من شرع في إعداد الوسائل والمعدات البحرية لغزو أوروبا هو- الأمير حسان بن النعمان- شيخ وزراء الدولة الأموية بعد أن دان له شمال إفريقيا، فلقد أنشا بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة وجلب لها الصناع من قبط مصر وسار على نهجه طارق بن زياد بعد أن ولي على المغرب، ثم من جاؤوا بعده[3]، وقد اشتهرت الدولة الموحدية بصناعة السفن وخاصة الحربية، لكن وباعتلالها تراجعت مكانة هذه الصناعة، خاصة لدى الدويلات المغاربية كالزيانية التي لم يرد ذكر أسطولها البحري في أي موقع، لكن بالمقابل نجدها قد تطورت لدى النصارى[4]، خاصة بعد ظهور دفة القائم الكوثلي(المؤخري) في القرن الرابع عشر ميلادي التي حلت محل المجداف الكبير وساعدت في زيادة المسافة التي تقطعها بعيدا عن الساحل وتوجيه

---

[1].آغا خان-زكي علي، أوروبا و الإسلام، دار المكشوف، بيروت، د ت ، ص34.

[2]. المطوي العروسي، المرجع السابق،ص 164.

[3]. شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،دت،ص297.

[4]. انظر، ابن خلدون عبد الرحمن،المقدمة، صص199-200.

سفن أكبر حجما لتبحر في أعالي البحار بأمان[1]، فأصبحت السفن مزودة بثلاثة أجهزة تسمح لها بالابتعاد عن الساحل هي:

ب1-البوصلة(الإبرة):

وهي أداة لتحديد الاتجاه، تتكون من إبرة ممغنطة مثبة على محور لكي تدور بحرية، ويحمل قرص البوصلة الموجود تحت الإبرة جهات ودرجات متباعدة بانتظام تشير إلى الاتجاه (شمال- شرق- جنوب- غرب)، اكتشفت سنة 1187م فأصبحت تحدد مسار إبحار السفن بدقة[2]، وكانت سفن العرب خلال القرن الخامس والسادس الهجريين تمخر عباب البحر شرقا وغربا مستعملة بوصلات كانت عبارة عن قطع بسيطة من الحديد الممغنط يطفو فوق قش أو فلين داخل محيط من الماء.

ب2-الإسطرلاب[3]:

والذي اخترعه المسلمون ويفيد في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ومعرفة الوقت ومعرفة الجهات الأصلية ومنها تعيين جهة القبلة، وربما كانت له علاقة وطيدة بالشمس لأن أصل الكلمة في اللاتينية، معناها ميزان الشمس.

---

[1]. انظر ادوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ط3،بيروت لبنان 1998،ج3، ص522-521، يحيى جلال، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص172.

[2] . *Jill Lecuppre , op.cit, p29.*

[3].الإسطرلاب بفتح الهمزة وسكون السين وضم الطاء ،كلمة يونانية معناها ميزان الشمس وقال بعضهم اللاب اسم الشمس بلسان اليونان فكأنه قيل اسطر الشمس إشارة الى الخطوط التي فيه،قيل أن أول من اخترعه هو بطليوس صاحب المجسطي، الدمشقي (ابن احمد عبد الحي) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،دار الكتب العلمية بيروت، دت، ج2، ص108.انظر أيضا صديق بن حسن القنوجي،أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية ، بيروت 1978،ج2، ص415.

ب3-البورتيلان أو الرهنامج: وهو نوع من الخرائط يستعمل في الملاحة أو الإبحار من ميناء إلى آخر، شاع استعماله فيما بين القرن7ه-9ه/ 13م - 15م، و قد اكتشف سنة 1270م ليشرك مع البوصلة في تحديد خطوط السواحل وأهم المراسي وكذا الصخور المتواجدة بالبحر[1].

أما على أيام الوزان أي أواخر القرن العاشر الهجري الخامس عشر الميلادي فقد شاع استخدام السفن الشراعية خاصة من قبل الجمهوريات الايطالية، فكانت تلك السفن تقصد ميناء هنين محققة أرباحا خيالية[2]، و مما تجدر الإشارة اليه أن السفن المستعملة في المتوسط كانت تختلف عن نظيراتها في البحر الأحمر والمحيط الهندي، إذ كانت الأولى ذات مسامير، بينما كانت الثانية تخاط بحبال الليف، كما أن الأولى كانت أكبر حجما وأكثر قدرة على الحمولة من الثانية[3]،فكان بإمكان السفينة الجنوية الواحدة أن تحمل من البضائع ما يمون تلمسان لمدة خمس سنوات[4]، وهذا ما يدل على تقدم الصناعة أو التقانة بمفهومها الحالي لبلاد المغرب عن المشرق في هذا المجال.

كان لكل سفينة ربّابنة يعرفون بالملاحين أو رؤساء السفن، وكانوا على دراية كبيرة بالبحر ومسالكه، فلم تكن تلك السفن لتقلع دون أمر أو إذن منهم، وكانوا مزودين بصحف تسمى الكنباص، وهي ما يطابق البورتيلان عند النصارى، وهي تحمل خريطة مطابقة لما هو في الواقع أي ما يتواجد في البحر من جزر ومراسي[5]، فكانت تتحاشى الإقلاع في كنف الرياح غير المنتظمة أو القوية التي تؤدي إلى إتلافها وإلحاق الضرر بها[6]، وكذا في الفترات التي كانت الأبخرة تتصاعد فيها من المياه وخاصة في البحر

---

1. *Jill leccupre ,op.ct, p29 .*

2. الوزان،المصدر السابق ،ص15.

3. رضا كحالة،المرجع السابق، ص157.

4. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص16.

5. ابن خلدون عبد الرحمن،المقدمة، ص254،الإدريسي،المصدر السابق،ج1،ص348.

6. الإدريسي، المصدر السابق،ج1، ص254.

المحيط الذي كانت تخشى السفن ارتياده لأنها إن غابت عن مرآى أو مستوى النظر فقلما تستطيع الرجوع إلى مراسيها[1].

كانت السفن على ذلك العهد تصنع من الخشب، وخاصة المستخلص من أشجار الصنوبر لما يتميز به من قوة، وهو الذي كان يعرف بالشبين[2]، ويجلب من عدة مناطق وخاصة من جزيرة الأندلس مثل طرطوشة التي اشتهرت بخشبها الأحمر الصافي البشرة والذي لا يؤثر فيه السوس ولا يوجد له نظير في الطول والغلظة[3]، وكذا من قصر دانس وشلب[4] الذي استعمل في صنع ألواح السفن والصواري والمجاديف، فنجد السلطان أبي عنان المريني الذي اهتم ببناء أسطول قوي يمكنه من تحقيق آماله في تكوين إمبراطورية تمتد إلى المغرب الأدنى مرورا بالمغرب الأوسط، ومد يد العون والمساعدة لمملكة غرناطة ينتقل بنفسه إلى جبال جاناته الواقعة غرب آزمور بالرباط ليشرف على قطع الأخشاب بنفسه لصناعة السفن، في جميع السواحل وكان يطيل الإقامة ويكثر من التردد على دور الإنشاء والصناعة فيها[5]، بينما استعمل خشب الطخش لصناعة لوازم السفن الحربية كالقسي والسلالم وبعض الرماح والتروس،أما الحديد فقد استخدم في صناعة المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف والفؤوس وغيرها، والبربير (البردي) بعد أن يفتل حبالا لتلك المراسي[6]، والنحاس في صنع السلاسل، أما مادة القار أو القطران أو الزفت فاستخدمت في قلفطة أسفل السفن لئلا تفسد ألواحها نتيجة الملامسة المستمرة للمياه المالحة، وحتى يمنع تسرب المياه بين مناطق التقاء الألواح.

---

[1]. انظر ابن خلدون عبد الرحمن،المقدمة، ص54.

[2]. مختار العبادي،المرجع السابق، ص75.

[3]. الإدريسي، المصدر السابق ج1، ص555،انظر أيضا،الحميري، صفة جزيرة الأندلس،ص122.

[4].الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص180-181.

[5] انظر على حامد الماحي،المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني دار النشر المغربية الدار البيضاء،1986، ص162.

[6].الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص10.

كانت دار الإنشاء تضطلع بهمة ترميم السفن والأساطيل، فنجد نفس السلطان يشرف على عملية ترميم وتجديد بناء الأسطول المنكوب في موقعة القيروان في أواخر حكم والده وليعوض القطع المفقودة[1]، وكانت العملية تتم في عدة مناطق منها سلا وسبتة التي كانت تسمى دار الإنشاء، وتصنع بها لوازم السفن وأنواع القسي المختلفة، وفاس التي كانت بها دار صناعة لإنشاء القوارب والسفن الصغار[2].

أخذت السفن كما هو الحال في أيامنا أسماء مختلفة حسب حجمها واستخداماتها، فكان هناك المركب والسفينة والغليوطة والكرافال والحراريق والعرادات والطريدة وغيرها، فالكرافال هو الذي استخدمه كريستوف كولومبوس فيما بعد لاجتياز المحيط الأطلسي نحو العالم الجديد، وقد تم اقتباسه من القارب العربي الذي استخدم من طرف العرب في المتوسط وبنجاح لفترة طويلة من الزمن، وهو يساعد على اجتياز المسافات الطويلة[3]، إضافة إلى القادس *Galley* والناو *Nau* الذي يمتاز بشراعه الدائري وصعوبة التحكم فيه لكنه يمتاز بقدرته على حمل ما يتراوح بين 1000 و1500طن[4]، والبارشا *Barcha* والباري نيل *Barinell*[5]، والسفن الحربية كالشيني[6]، وهي عبارة عن سفينة حربية ضخمة تتكون من عدة طبقات، والطريدة أوالطراد السفينة الصغيرة والسريعة التي أطلق عليها الاسبان هذا الاسم، والشلندي الذي هو نوع من المراكب الحربية الكبيرة والمسطحة التي تحمل المقاتلين والسلاح[7]،

---

[1]. كان أسطول السلطان أبي الحسن يتشكل في هذه الغزوة من نحو الستمائة ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو 400عالم، وكان غرق الأسطول على ساحل تادلس و نجا السلطان بنفسه وهناك من يرجع الغرق الى عين عائن بتلك الديار،انظر،أبو العباس احمد بن خالد الناصري المصدر السابق،ج3، ص171.

[2]. انظر علي حامد الماحي،نفس المرجع،ص162-163.

[3]. عباس حمداني، عن مقال 'رد العثمانيين على اكتشاف امريكا والطريق الجديد الى الهند، مجلة الفسطاط، عدد7، سنة 2006، ص2.

[4] . *Jill Lecuppre, op.ct, p29.*

[5].عباس حمداني،المرجع نفسه، ص2.

[6]. جمعها شواني، وقد ورد ذكرها في العديد من المؤلفات انظر، المقدسي ،أحسن التقاسيم ،ج1،ص86.

[7]. مختار العبادي،المرجع السابق، ص252.

وكانت كلمة الجفن تطلق على أي مركب منها، وغالبا ما كانت تتحول هذه السفن الى حربية أو العكس.

أما عند المرينين فنجد القرقورة، والشيني والغراب والطريدة أو الطرد، والشبطي والسلالير والفلانك والأجفان والحراقات والمسطحات[1].

ج/الطرق والمسالك التجارية البحرية بين الضفتين:

إن وقوع البحر الشامي (المتوسط) كحاجز بين القارة الأوروبية وبلاد المغرب حتم على إمارات ودول الضفتين ركوبه لبلوغ الضفة المقابلة، وبتقادم استعمال هذا البحر، ارتسمت ملامح طرقه التي أتضح أنها أكثر أمنا و أقصد جهدا وزمنا، وبالمقابل كان يتوجب على تلك السفن في بعض الأحيان أن لا تبتعد كثيرا عن الساحل قدر الإمكان حذر العواصف والتقلبات الجوية، وباعتبار أن السفن كانت في معظمها شراعية فإنها كانت تعتمد على قوة الرياح في حركتها إضافة الى استعمال المجاديف[2]، فلم تكن لتتحرك إذا لم تكن الرياح مواتية لاتجاه الرحلة[3]، ولهذا فدراسة المناخ والتقلبات الجوية كان مرتبطا بالملاحة البحرية، ففي البحر المتوسط والأطلسي استعانت السفن بالرياح الشرقية والغربية المنبعثة من مناطق الضغط بالمحيط الأطلسي والتي كان يستعملها المغررون لاكتشاف مجاهل هذا المحيط[4].

---

[1]. انظر ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص114، أوعلي حامد الماحي، المرجع السابق، ص164.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون،المقدمة،ط5، دار القلم بيروت،1984، ص254.

[3]. باستثناء الغليوطة،(*la galere*) التي كانت سفينة عملية حتى في حالة سكون الهواء أو عدم هبوب الرياح ،لكنها لم لم تكن تترك مكانا واسعا للسلع.انظر *Jill lecuppre, op.cit, p.29.*

[4]. كان المحيط الأطلسي يعرف بالبحر المحيط أو بحر الظلمات نظرا لأنه كان مجهولا من طرف البحارة، وكان كل من يركب مياهه لا يعود ولهذا سموا بالمغررين.

كانت السفن المغربية تتجه في حركة شبه منتظمة نحو مراسي البرتغال التي كانت تمثل في تلك الفترة وحسب –بايلي ديفي–جزءا من الإمبراطورية التجارية الإسلامية، كما كان تماما تعلم البرتغاليين جزءا من جغرافية وملاحة المسلمين[1]، فكانت تتجه بمحاذاة الساحل الإفريقي حتى تصل إلى مضيق جبل طارق لتتجه بعدها إما محاذية للساحل الغربي أو الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية.

وبالنسبة للسفن الايطالية فإنها كانت تتجه من أهم المراسي المذكورة سابقا، وتمر عبر كافة المراسي الإفريقية، فأطلقت عليها تسمية مراكب أو –سفن البربر–، إذ تمر بداية من الشرق وحتى الغرب فتنزل ما تبيعه من سلعها وتشحن ما ينقصها من كل منطقة، وبظهور البوصلة أصبح تجار البحر يبتعدون رويدا عن الساحل فلم يكونوا قبلها ليغامروا بالابتعاد عن الساحل بما يتجاوز مدى البصر[2]،.

كانت السفن في غالب الأحيان تتخذ أوقاتا محددة للانتقال من مرسى لآخر فنجد سفن البندقية مثلا تأتي إلى بادس مرة أو مرتين في السنة حاملة بضائعها فتتجر فيها بالمبادلة والبيع نقدا، بالإضافة إلى أنها تنقل البضائع وحتى الركاب المسلمين أنفسهم من هذا الميناء إلى تونس وأحيانا إلى البندقية أو حتى الإسكندرية وبيروت[3].

ومثل ميناء نابولي الايطالي في بداية القرن الخامس عشر مرحلة عادية بالنسبة للسفن القادمة من الإمارات الايطالية ومنها فلورنسا والراغبة في استكمال حمولتها قبل التحول إلى تونس لغرض التجارة[4]، وحتى بالنسبة للسفن القادمة من الشرق الأدنى والأقصى المحملة بالتوابل والمواد الطبية، كانت تفد في أغلب الأحيان عن طريق أحد المراسي

---

[1]. عباس حمداني،المرجع السابق، ص2.

[2]. ج ج كولستون، المرجع السابق، ص203.

[3]. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص327.

[4]. انظر روبار برانشفيك،المصدر السابق،ج2،ص269.

الايطالية أو عن طريق مرسيليا الفرنسية، حيث يخزن المتاجرون تلك المواد هناك قبل وسقها إلى بلاد المغرب[1].

وبالنسبة للمملكة بني نصر فكان أهم خط لها هو المرية –هنين مع المغرب الأوسط نظرا لتقابل وقرب المرسيين[2]، إضافة إلى ميناء –تنس– الذي كان أهل الأندلس يقصدونه بمراكبهم ومتاجرهم ثم ينتقلون منه إلى سواها[3]،أي أن هناك حركة منتظمة بين المراسي المتقابلة بين العدوتين بالانتقال رأسا من ميناء إلى الميناء الذي يقابله في الضفة الأخرى، ومن هذا الميناء الرئيسي –المرية– كانت تتوزع خطوط أخرى ثانوية أو أقل أهمية تجاه ميناء المنكب و مالقة ومنها إلى مراسي بلاد المغرب الأخرى.

فخلال المحنة التي أصابت أهل غرناطة بعد وقوعها في أيدي النصارى اتجهت مراكبهم من –المرية–الى مليلية المغربية، ثم ارتحلوا منها إلى مدينة فاس[4]، وخرج من بقي من أهل مالقة في ثلاثة أيام إلى بادس وخرج أهل المرية في نصف اليوم إلى تلمسان، وخرج أهل الجزيرة الخضراء في نصف اليوم إلى طنجة، وخرج ما بقي من أهل غرناطة في خمسة عشر يوما إلى بجاية ووهران وبرشك زروالة ومازونة و نفطه و قابس وصفاقس وسوسة[5].

إذن كانت هناك جملة من الطرق والخطوط البحرية المتنوعة التي ربطت بين ما تبقى من دولة الإسلام في الأندلس وما قابلها في الضفة الجنوبية من بلاد المغرب، لكن ربما كانت بعض تلك الخطوط اضطرارية وأن هناك مراسي أخرى مثلت محطات رئيسية للتبادل التجاري.

---

[1]. نفسه،ج2، ص269-270.

[2]. القلقشندي، المصدر السابق،ج5،ص145.

[3].ابن حوقل، المصدر السابق، ص77.

[4]. مجهول، الاستبصار ، ص47.

[5]. مجهول، الاستبصار ، نفسه، ص48.

بالنسبة لمملكة أراغون كانت معاملاتها تتم بشكل واسع مع ميناء وهران، وكان لها خط مع الجزائر الشرقية وخاصة أكبرها وهي ميورقة، التي كانت تخرج منها خطوط فرعية نحو موانئ المغرب مثل تنس وتدلس من المغرب الأوسط وطنجة من المغرب الأقصى.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن المغرب الأقصى كان بعيدا عن شبكة الخطوط التجارية البحرية الكبرى إذا ما قارناه بنظيريه الأدنى والأوسط، فقد كان يشكو في هذا الميدان المنافسة الشديدة من تلمسان في تجارتها البرية، فضلا عن أن المراسي التي كانت تفيد منها تلمسان -هنين -أرشكول ووهران-كانت أيسر متناولا من المراسي التي تفيد منها فاس على السفن الايطالية، وهي أنشط السفن تجارة في غرب البحر المتوسط في ذلك الوقت، ونجد المؤرخ لي تورنو يشير إلى مفارقة نوعا ما عجيبة أو متناقضة، وهي أن شبه الجزيرة الايبيرية كانت مجالا مغلقا بالنسبة لفاس-المغرب-، رغم إتصالها بها إتصالا جغرافيا مناسبا يمكنها من القيام بنشاط تجاري وثيق، وذلك بسبب تعكر العلاقات بين القشتاليين والمرينيين، واسترجاع الاسبان لأجزاء كثيرة من الأندلس[1].

[1]. روجي لي تورنو، فاس في عهد بني مرين، ص164.

الفصل الثالث

التبادل التجاري

طرقه -تقنياته - طبيعته

المبحث الأول:طرق و تقنيات التبادل التجاري

إن انتشار التجارة وتطورها بين ضفتي المتوسط استوجب قيام نشاطات تنظيمية تسهل وتسرع عملية التبادل التجاري وتجعله في حدود الأمن والمشروعية، ومن تلك التنظيمات ما يلي:

1/الأســــــــــــــــــــــــــــــــــــــوا ق:

السوق هي موضع البيع والشراء، والكلمة قد تذكر وتؤنث،ونقول تسوّق القوم: أي باعوا واشتروا[1]، والسوق نوعان إما ثابتة، والتي غالبا ما تكون في المدن والقرى بالقرب من أماكن السكن، وإما موسمية وهي التي تعقد في مواسم أو أيام محددة، ويباع في هذه الأسواق كل شيى من عروض التجارة وضروب السلع المختلفة الأصناف، ولقد جاءت كتب الرحالة العرب مليئة بذكر مثل هذه الأسواق.

أدخلنا السوق كعامل منظم للعملية التجارية لأن الكثير منها كان مجالا لتبادل السلع بين الأوروبيين والمسلمين في جانبها غير النظامي والذي كان فيه سكان بلاد المغرب يتعرضون للمزايدة وتبخيس سلعهم من طرف تجار أوروبا الذين مثلوا الطرف

---

[1].ابن الرازي، مختار الصحاح، ص135.

الأكثر فاعلية في العملية التجارية، وهم الذين كانوا يفدون إلى بلاد المغرب وليس العكس، ومن هنا أيضا ارتأينا أن نتطرق بالدراسة لأسواق المغرب دون غيرها من الأسواق الأوروبية.

تواجدت في بلاد المغرب نوعان من الأسواق هي:

أ/ الأسواق المؤقتة:

كما أسلفنا الذكر فالأسواق تقام في أيام محددة من الأسبوع أو الشهر أو السنة، والهدف من إقامتها أو عقدها هو تزويد سكان المنطقة بما يحتاجون إليه من بضائع أو سلع، وفي نفس الوقت إتاحة الفرصة للفلاحين والصناع والوسطاء لعرض ما لديهم منها، وما يمكن ملاحظته على هذه الأسواق أنها غالبا ما كانت تقام خارج حدود المدينة ومن تلك الأسواق نذكر ما يلي[1].

أ1/ في المغرب الأدنى:

تواجدت به أسواق أسبوعية استمرت إلى ما بعد القرن السادس عشر، وهذا ما ينطبق في الحقيقة على باقي الأسواق الأخرى، لأن هذه الأسواق بخصائصها وأيام انعقادها كانت تتحول إلى شبه عادة أو شيء من التراث لا يمكن إحداث أي تغيير عليه، ولا زال الأمر ساريا بذلك في معظم أسواق بلاد المغرب.

---

[1]. نذكر على سبيل المثال لا الحصر،سوق مطغرة الذي كان يقام على بعد فرسخ من المدينة،وكذا سوق مكناس الذي كان يقام خارج المدينة.انظر الوزان، المصدر السابق،ج2،ص141-142.

عموما نذكر من أسواق المنطقة سوق –قصبة جربة– الذي كان شبيها إلى حد بعيد بالمعارض بما يحتشد فيه من الناس، إذ كان جميع سكان جزيرة جربة يقصدونه،إضافة إلى عدد كبير من الأعراب الوافدين من اليابسة سائقين ماشيتهم وحاملين معهم كمية وافرة من الصوف، وقد عاد ذلك بالنفع على أهلها الذين كانوا يعيشون في معظمهم من تجارة قماش الصوف الذي يصنع فيها[1]، كما كان يختلف على أسواق جربة كثير من التجار الاسكندريين والأتراك والتونسيين[2].

أما قسنطينة فقد شذت عن النظام المعهود، فكان أهلها يقيمون سوقا كل أسبوع، لكن في أيام مختلفة، ورغم ذلك فقد كان يقصده عدد كبير من تجار قسنطينة والقالة[3]،كما كان لتوزر[4] أسواق عديدة يقصدها الناس من مختلف القبائل النوميدية والبربرية حتى اغتنى أهلها من تجارتهم بها[5]، وكذا عنابة التي كانت تنتصب بها السوق كل يوم جمعة خارج الأسوار يبيع فيها السكان لبعض التجار الأجانب منتوجاتهم من الزبدة والحبوب[6].

وكانت بعض الأسواق تقام في ساحات على مداخل المدن أو بالقرب منها حيث كان الريفيون يترددون عليها بصفة دائمة لبيع حيواناتهم أو منتوجاتهم[7]، ومن هنا لا يمكن أن نتجاهل الدور الذي كانت تقوم به السوق الأسبوعية في المدينة أو البادية، إذ كانت تعتبر مؤسسة على غاية من الحيوية وليس أدل على ذلك_تواجدها منذ زمن بعيد واستمرارها إلى يومنا هذا .

---

1. الوزان ،المصدر السابق،ص94-93-
2. نفسه،ج2، ص 93-94- 95،.انظر روبار برانشفيك ،المرجع السابق ،ج2،ص244.
3. الوزان ،المصدر السابق، ج1، ص103.
4. توزر بالفتح ثم السكون وفتح الزاي وراء مدينة في أقصى افريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد بينها وبين نفطه عشرة فراسخ وأرضها سبخة بها نخل كثير .انظر ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج2،ص57.
5. الوزان ،المصدر السابق،ج2،ص143.
6. نفسه ،ج2، ص62.
7. روبار برانشفيك ،المرجع السابق،ج2، ص245.

أ2/في المغرب الأوسط :

تنوعت وتعددت الأسواق به، فنجد معسكر تحتضن سوقها الأسبوعي يوم كل خميس، ليباع فيها عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل وكثير من منسوجات البلاد وأشياء أخرى أقل قيمة كالحبال والسروج والأعنة وحاجيات الخيل[1]، وبالقرب منها نجد سوق قلعة بني راشد التي كانت تقام كل اثنين، يقصدها الأعراب والبربر لبيع ماشيتهم وزرعهم وغلاتهم من الزبيب والعسل والشمع والزيت، ويقصدها أيضا التجار من تلمسان جالبين إليها المنسوجات والبرانس والعباءات والسروج المضربة ذات المهامز والأعنة وغيرها من عدة الفرس[2].

أما بالجزائر –المدينة–و أحوازها والمناطق الجبلية المحيطة بها فكان سكانها يقيمون فيما بينهم معارض وأسواقا لا يوجد فيها غير البهائم والحبوب والصوف وقليل من الأقمشة المجلوبة من المدن المجاورة[3] ولا نستبعد وجود سوق أسبوعية في مزغران وهذا وهذا من خلال قول مارمول وكانت في الماضي– أي مزغران– عامرة بالتجارة [4].

أ3/في المغرب الأقصى:

تواجدت الكثير منها، فكان لكل مدينة تقريبا سوق خاص بها، وهناك من المدن ما احتوت على أكثر من سوق، فبمدينة فاس نجد سوق الخميس الذي كان يقام كل خميس ويجتمع فيه جمع غفير من الناس والتجار والدواب يعرضون هناك سلعهم للبيع تحت الخيام[5]، وكذا سوق أصيلا البلدة القريبة من طنجة الذي كان ينعقد كل يوم جمعة

---

[1]. نفسه، ص26–27.

[2]. مارمول، المصدر السابق،ج2،ص324.

[3]. الوزان ،المصدر السابق،ج2،ص46.

[4]. مارمول كربخال ،المصدر السابق،ج2،ص349.

[5]. انظر علي حامد الماحي، المرجع السابق، ص187.

ويحفل في ذلك اليوم بالباعة والمتسوقين[1]، وسوق أخرى تقام بنفس المدينة ثلاث مرات سنويا وذلك ما أشار إليه البكري "وفي أصيلا سوق جامعة ثلاث مرات في السنة وهو وقت اجتماعهم وذلك في شهر رمضان وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء[2]، وكذا سوق النخيلة[3] التي تقوم بها كل سنة، فكانت سوقا يشد إليها الرحال جميع أهل تامسنا [4].

ودأب أهل إفران أيضا على أن يقيموا سوقا مرة كل أسبوع في إحدى قصورها الأربعة والتي لم تكن تعرض فيه إلا كمية نادرة من السلع[5].

أما أهل مدينة أديكيس بمنطقة حاحا الذين كانوا يقيمون سوقا مرة كل سنة يجتمع فيها سكان جميع المناطق المجاورة، وتستمر خمسة عشرة يوما[6]،أما مكناس فتقام بها يوم الاثنين سوق خارج المدينة يقصده جميع أعراب المنطقة وبربرها ليبيعوا فيها صوفهم وجلودهم وسمنهم وشمعهم وسائر بضاعتهم[7].

كما كانت هناك سوق -جمعة الحمام- التي تشاهد على بعد خمسة فراسخ من مكناس، ويقام بها سوق كل يوم أحد على بعد نصف فرسخ من المدينة يحمل اليه جميع الأعراب والبربر حبوبهم ومواشيهم ليبيعوها فيه مع السمن والصوف والشمع[8]، وبالنسبة لمطغرة [9] فكان لها سوق الخميس يقام بها كل يوم خميس ومنه اتخذت اسمها[10].

---

1. الحميري،الروض المعطار، ص42.
2. انظر بان على محمد البياتي،المرجع السابق،ص95.
3. ما زال مكان النخيلة معروفا بهذا الاسم ،جنوبي مدينة الرباط على نحو 40كلم منها في الطريق المؤدية الرماني في وادي زم ،انظر الوزان،المصدر السابق، هامش10، ص198.
4. الوزان، نفس المصدر السابق،ج1،ص198-199.
5. الوزان،المصدر السابق، ص117.
6. الوزان، المصدر السابق،ج1،ص101.
7. نفسه،ج2،ص،140. انظر مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2،ص140، ،
8. نفسه،ص141-142,انظر أيضا مارمول كربخال،ج2،ص142.
9. مدينة تقع على بعد خمسة فراسخ من مدينة فاس المغربية.انظر مارمول،المصدر نفسه،ج2،ص142
10. مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2،ص142.

وبجزولة[1] كانت تقام سوق تستمر لمدة شهرين، يقدم فيها الطعام لجميع الغرباء الذين يوجدون هناك، وكانت هذه السوق سببا في عقد الهدنة بين سكان الإقليم المتناحرين معظم أيام السنة، وكانت تعقد في سهل يكتنفه جبلان يضع التجار بضائعهم في خيام وأكواخ من أغصان الأشجار، ويجتمعون بحسب أصناف بضائعهم، كل صنف على حدة، ويبتدئ السوق يوم المولد النبوي الذي هو الثاني عشر من شهر ربيع الأول[2].

ب/الأسواق الدائمة: أسواق ثابتة تقام داخل المدن ولم تكد تخلو منها مدينة من مدن المغرب الإسلامي، فكانت من ضرورياتها، ولذا فقد كانت من بين المرافق الأولى التي تشيد داخل المدن ومن تلك الأسواق:

ب1/في المغرب الأدنى: احتوى المغرب الأدنى جملة من الأسواق منها تلك التي تواجدت بقابس -المدينة الكبيرة الجميلة المنتصبة أمام واحة بديعة-وامتدت إلى عدة أرباض شاسعة الأرجاء[3]، وأسواق مدينة تونس[4] التي اصطفت في معظمها حول الجامع الأعظم الذي يمثل قلب المدينة الحقيقي، وهي أسواق مغطاة لتكون في مأمن من الشمس والمطر مثل سوق العطارين التي هيأها السلطان أبو زكرياء يحيى[5]، وسوق القماش التي أنشأها الحفصيون، وسوق القشاشين (الخردة) وسوق الصاغة وسوق الغزل وسوق الفكة

---

[1]. تتاخم غربا جبل سوس ايلدا وشمالا الأطلس حيث تقع في سفحه تقريبا وشرقا إقليم حاحا انظر،الوزان، المصدر السابق،ج1،ص143.

[2]. الوزان، المصدر السابق،ج1،ص145.

[3]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1،ص344.

[4]. مدينة اسلامية أحدثت عام ثمانين من الهجرة (699-700م)،،كان أبو جعفر المنصور العباسي اذا قدم عليه رسول صاحب القيروان يقول له : ما فعلت احدى القيروانين))يعني تونس تعظيما لها،وفي العصر الوسيط وعلى عهد بن الشماع أصبحت قاعدة البلاد الافريقية وأم بلاد ها وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين بما هاجر اليها من الأندلس والغرب ورغبة الناس في سكناها،أما سبب التسمية فهو أن المسلمين لما افتتحوا افريقية ينزلون بازاء صومعة راهب بترشيش ويأنسون بصومعته فيقولون هذه الصومعة تؤنس ولقبوها بهذا الاسم.انظر ابن الشماع، المصدر السابق،صص36-37.

[5]. ابن الشماع، المصدر السابق، صص56-57.

(الفاكهة) المختص ببيع الفواكه الجافة، وسوق الشماعين والبلاغجية وسوق العزافين(الأشياء المصنوعة من السعف) وغيرها من الأسواق[1]، ومدينة القيروان التي مثل حي الأسواق مركز نشاطها الذي تكون من صف مزدوج من الدكاكين الذي يمتد بدون انقطاع على جانبي السماط (الشارع الكبير) والتي كانت أيضا مغطاة بسقف[2]، وعلى العموم فقد احتضنت القيروان على غرار سابقتها جملة من الأسواق الدائمة كسوق السراجين وسوق الحجامين وسوق العطارين وسوق القماش والخياطين وسوق الخرازين(الأحذية)[3].

هذا في حين نجد قسنطينة قد احتوت على حي خاص بالأسواق (حي الأسواق) الواقع بوسط المدينة إلى الشمال الغربي من الجامع الكبير، والذي تواجدت به مجموعة ساحات جميلة ومنسقة تفصل بين مختلف مجموعات الحرف[4].

<u>ب2/في المغرب الأوسط:</u> تواجدت بالمغرب الأوسط مدن تجارية على غرار مدينة تلمسان التي احتوت على ما يعرف بالقيسارية أو القيصرية، التي هي عبارة عن مجموعة من البنايات على شكل رواق يحتوي محلات تجارية وورشات ومخازن ومساكن في بعض الأحيان.

وتختلف القيصرية عن السوق العادية بشساعة مساحتها واشتمالها على مجموعة أروقة مغطاة، في حين يشتمل السوق على رواق واحد[5]، وفيها كان يتم عقد الاتفاقيات بين التجار سواء المسلمون مع بعضهم البعض أو بينهم وبين المسيحيين، ومن أمثلة تلك القيساريات تلك التي أقامها أبو حمو موسى الأول على مساحة كبيرة من

---

[1]. انظر روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1،ص377، انظر أيضا الوزان،المصدر السابق،ج2،ص75.

[2]. نفسه،ج1، ص396،انظر الوزان،ج2، ص56.

[3]. انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص397.

[4].

[5]. لطيفة بشاري،التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الأمارة الزيانية في القرن السابع الى القرن العاشر الهجريين(13-16م) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر 1987م ،ص216.

الأرض لتكون السوق الرئيسة بالمدينة، وكانت تعلو أسوارها رايات الدول المتعاملة مع الامارة الزيانية تجاريا مثل قشتالة أراغون ميورقة جنوة بيزة وغيرها والتي كان يقصدها التجار الأجانب بحثا عن أهم مادة استراتيجية قدموا من أجلها وي التبر القادم من السودان الغربي[1].

إلى جانب هذه القيساريات وجدت أسواق دائمة امتازت بتخصصها في بيع بضائع معينة مثل سوق العطارين والعشابين وسوق الصاغة وسوق الحدادة وسوق النجارة وسوق الصوف والكتب وغيرها.

ب3/ في المغرب الأقصى:

على عكس الأسواق المؤقتة فقد تميزت بنوع من التخصص والتنظيم[2]، وخاصة بالمدن الكبرى، فنجد من أسواق فاس مثلا سوق القماش الصوفي والأقمشة الحريرية والمجوهرات والشموع والأفاويه والأحذية، فكانت الحوانيت أو الدكاكين المتجاورة تعرض البضائع نفسها، وتضم التجار معا على أساس التخصص في المواد التي يبيعونها، وهذا ما يراه –روجي لي تورنو– شبيها بما عرف في أوروبا في العصور الوسطى، مع استثناء واحد هو أن أوروبا لم تعرف ما يشبه القيسارية[3].

---

[1]. نفسه، ص212

[2]. غالبا ما كانت تتميز هذه الأسواق الدائمة بالتخصص وخاصة في المدن الكبرى ،أو أن نجد لهم محلات تحجز مساحة داخل السوق على غرار فاس المغربية فنجد سوق السمك،وسوق الحجامين والعطارين وغيرهم من تجار المفرق الذين كانوا قد أقاموا لأنفسهم مكانا ثابتا في القيسارية كتجار الأقمشة الرفيعة والأحذية والحلي .انظر روجي لي تورنو،فاس في عهد بني مرين، ص161.

[3]. روجي لي تورنو، فاس في عهد بني مرين، ص161.

إن اتساع حركة التصدير والاستيراد أدت إلى وجود مراكز تجارية وانتشار الأسواق بشكل كبير، فقد بلغ عددها في مدينة سبتة وما جاورها أكثر من مائة وأربعة وسبعين سوقا، منها مائة واثنتان وأربعون سوقا في داخل المدينة نفسها[1]، واحتوت على تسعة آلاف ومائتين وثمانين حانوتا وقيساريتين اثنتين، واحدة في كل عدوة منها[2].

أما في سبتة فنجد سوقا كبيرة لبيع المرجان واللؤلؤ الذي كان يصطاد من شواطئها ومن خليج مليلية واستمر حتى عهد مارمول[3]، ومدينة تدنست بإقليم حاحا التي احتوت على سوق تخصصت ببيع القماش المستعمل في تلك النواحي، وكذا نسيج الكتان المستورد من البرتغال[4].

2/طرق التعامل التجاري:

عبر التاريخ البشري الطويل لجأ الإنسان إلى طريقتين أساسيتين لاقتناء ما ينقصه أو يصرّف ما لديه من السلع الفائضة عن حاجته وذلك عن طريق البيع أو التبايع الذي هو في اللغة مطلق المبادلة، وفي الفقه مبادلة المال بالمال بعوض تمليكا وتملكا[5]، كما عرفه آخرون بأنه دفع عوض في معوض، وقد ورد الظاهر بإباحته مطلقا غير مقيد، وفي القرآن ما يدل على ذلك والأولياء ﴿ وأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا ﴾[6].

أ/أنواع التبايع السلعي:

أ1/المقايضـــة:

---

1. انظر على حامد الماحي، المرجع السابق، ص187.
2. الجزنائي(علي)، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس،ط2،تحقيق عبد الوهاب بن منصور،المطبعة الملكية، الرباط 1411ه/1991م ،ص44.
3. مارمول كربخال ،المصدر السابق، ص259.
4. الوزان، المصدر السابق،ج2 ص98.
5. البرزلي (أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي)، فتاوى البرزلي،جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ط1، تقديم محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2002،ج3، ص5-8.
6. سورة البقرة، الآية 275.

وتعرف أيضا بالأعيان، فإما أن تكون عينا بعين ونعني بها الذهب والفضة، أو عرضا بعرض، وهو ما سواهما، أوعينا بعرض أو عكسه، ولا يخلو أن يكون الثمن والمثمن معا نقدا أو إلى أجل أو أحدهما نقدا و الآخر إلى أجل.

فأما العين بالعين فإما أن يكونا نوعا واحدا أو نوعين، فإن كانا نوعا واحدا فيشترط فيه وجهان: التناجز والتساوي، ومن نوعين ذهب بفضة فيشترط فيه التناجز فقط، لكن بيع العين بمثله إن كان بالميزان سمي مراطلة، وان كان بالعد سمي مبادلة، وبيع النوع بخلافه يسمى صرفا، ويلحق بالمناجزة بيع الطعام بالطعام فحكمه حكم العين كما تقدم، ثم إن كان المبيعان نقدا سميت بيعة نقد، والتأجيل فيهما مما لا يصح لأن الدين بالدين المنهي عنه، وإن كان أحدهما نقدا والثاني إلى أجل ويصح في العرض بالعرض والعين بالعرض، فان تقدم العين وتأخر العرض سمي سلما، وإن كان على العكس سمي بيعة أجل ولها أحكام تخصها[1].

إذن فالمقايضة هي تبادل مباشر للبضائع والخدمات دون استخدام النقود، وقد لجأ الناس إلى هذا الأسلوب للحصول على حاجاتهم قبل تطور النقود، وتسمى أيضا بالمبادلة العينية، وغالبا ما تتم المقايضة في سلع مختلفة نوعا و قيمة، والعملية ليست بالمهمة السهلة ولا تخلو من تعقيدات، نظرا لما هناك من اختلافات في قيمة السلع، ومن ثم صعوبة تحديد المقابل من سلعة الطرف الآخر حتى تكون العملية بذلك عادلة، وتاريخ المغرب الإسلامي مليء بمثل هذا النوع من التبادل، كالملح الذي كان ينقل من بلاد المغرب ليستبدل بمقداره تبرا، كما أشار الوزان ومارمول في عدة مواقع لما كان يتم تبادله مع تجار أوروبا من مواد بطريقة المقايضة، و من مرسى أرزيو الجديدة التي كان يرسو بها عدد من سفن النصارى محملة ببضائع أوروبا على عهد بني زيان[2] و ميناءا مملكة تلمسان – وهران والمرسى الكبير – الذين كان يختلف إليهما عدد وافر من تجار جنوة والبندقية ويتعاطون هناك تجارة نافقة عن طريق المقايضة، وبسقوطهما في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو،تعرضت مملكة تلمسان لخسارة

---

[1]. البرزلي، المصدر السابق،ج3، صص7-8.

[2]. مارمول،المصدر السابق،ج2،ص339.

عظمى[1]، وميناء سكيكدة الذي أقيم به حصن بأعلى الجبل للحراسة بشكل دائم، ويقايض سكانه مع الأوروبيين في عدد من البضائع مقابل ما عندهم من حنطة وأغطية سوداء، وسفن البندقية التي كانت تأتي إلى بادس مرة أو مرتين في السنة حاملة بضائعها فتتجر فيها بالمبادلة والبيع نقدا، بالإضافة إلى أنها تنقل البضائع وحتى الركاب المسلمين أنفسهم من هذا الميناء إلى تونس وأحيانا إلى البندقية أوحتى الإسكندرية وبيروت[2].

أ/2/البيع نقدا: أي استبدال سلعة أو بضاعة معينة بمبلغ من النقود بغض النظر عن قيمتها أو مادة صنعها، وقد لجأ سكان بلاد المغرب وتجارها إلى هذه الطريقة في تعاملهم مع التجار الأوروبيين، وقد وردت أيضا إشارات إلى ذلك في كتب التاريخ والرحلة، ففي الدولة الحفصية كانت المعاملات الداخلية والخارجية على حد سواء تتم نقدا، أي بواسطة النقود الذهبية أو الفضية بصورة تكاد تكون مطلقة، وكانت المقايضة رائجة أيضا في كثير من المقاطعات المغربية إضافة إلى ما كان يتم بينها وبين السودان الغربي وبين مناطقها الداخلية [3]، وفي

المغرب الأقصى نجد أزمور[4] التي لا ينقطع عنها التجار البرتغاليون[5]، ليشتروا كمية عظيمة من سمك الشابل، ويؤدون رسوم الصيد المستحقة والتي جعلتهم يقنعون ملك البرتغال بالاستيلاء عليها[6]، وكذا سكان تكوليت[7] الذين كان يقصدهم الكثير من تجار البرتغال لشراء ما لديهم من شمع [8]، ومدينة ماسة المطلة على المحيط الأطلسي التي كانت تجود بالكثير من العنبر الجيد ويبعه سكان المنطقة بأبخس الإثمان للتّجار البرتغاليين [9].

---

[1]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص9.انظر أيضا مارمول المصدر السابق،ج1،ص339.

[2]. الوزان، نفس المصدر، ص327.

[3]. انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص253.

[4]. آزمور من مدن دكالة بالمغرب الأقصى،وهي على مصب نهر ام الربيع في البحر المحيط.انظر الوزان، نفس المصدر السابق،ج1،ص100.

[5]. الوزان، المصر السابق،ج1،ص157.

[6]. نفسه،ج1،ص185.

[7]. نفسه،ج1،ص140.

[8]. نفسه،ج1،ص100.

[9]. نفسه،ج1ص120.

وفي الجهة المقابلة ومما توفر لدينا من مصادر ومعلومات نجد مملكة أراغون وكذا ميورقة لم تكونا تضربان عملة من الذهب، ما عدا قطعا من النوع المغربي وذلك لتسهيل عملية التبادل التجاري مع البلدان الإسلامية [1]، ناهيك عن عمليات البيع بالمزايدة والتي كانت تتم في بعض أسواق بلاد المغرب كسوق الكتبيين بتونس بواسطة الدلالين والتي كان الخبير هو الذي يحدد سعر الافتتاح بالنسبة إلى كل عملية بيع من هذا القبيل والذي لا يشارك في عملية الشراء[2].

2/ أنواع البيوع: للبيع فنه الذي هو قدرة البائع على بيع سلعته، وذلك من خلال تعريف الناس بها وإقناعهم بالشراء، ومن أهم أنواع البيوع:

أ/بيع المساومة: وهو ما تم بالتراضي بين الطرفين حول بضاعة معينة وبثمن معين، فإما أن تسلم البضاعة مباشرة في مكان المبايعة أو أن تسلم بعد ذلك في نفس المكان أو في مكان آخر، وذلك بعد الاتفاق على مجموعة من الشروط المحددة كجنس ونوع وقدر السلعة ومكان وأجل التسليم وما يترتب عن العملية من تكاليف، وتدفع القيمة الإجمالية كلية أو يدفع عربون على ذلك يستكمل الباقي عند الاستلام.

ب/البيع بالمزايدة: وهو عرض السلع في السوق فتكون من نصيب صاحب أكبر عطاء، وقد أجاز معظم العلماء هذا النوع من البيع، ويلجأ إليه الكثير من التجار، ويتحصل فيه أصحاب السلع على أعلى الأسعار من خلال الدعاية لسلعهم وتحريك المنافسة عليها،لكنهم في نفس الوقت-أي العلماء- حرموا النجش الذي هو المزايدة في السعر بدون نية الشراء لرفع سعر السلعة، وكان هذا النوع من البيوع يتم في بعض أسواق بلاد المغرب كسوق

---

[1].*Charles Emmanuelle Dufourq, op.cit, pp 563-564.*

[2].إن العملية هاته جعلت الناس يتساءلون عن هذه العادة إن كان من شانها إدخال صاحبها تحت طائلة القانون الذي يمنع يمنع المشاركة في عملية مزاد دون حضور نية الشراء لديه ،أي وجوده بقصد رفع الثمن لا غير ،لكنها حسبما ورده برانشفيك كانت تتم من باب تحديد سعر افتتاحي معقول لا يضر بكلى الطرفين -البائع والشاري- روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص255.

الكتبيين بتونس بواسطة الدلالين، وكان خبير مشهور بنزاهته هو الذي يحدد سعر الافتتاح بالنسبة إلى كل عملية بيع بالمزاد ويشترط فيه أن لا يشارك في عملية الشراء[1].

ج/بيع المرابحة: وهو بيع بضاعة أو سلعة معينة بفائدة محددة مسبقا، بالنسبة لسعرها وكلفتها الإجمالية مع ذكر ذلك للمشتري والالتزام له بجملة من الشروط أهمها الصدق وإبراز مساوئ ومزايا هذه السلعة أو البضاعة[2].

د/بيع الاستئمان: كأن يقول أحد للآخر أعطني بدينار أو دينارين، ويعتبر هذا النوع من البيوع عرضة للغش[3]، وحدث هذا النوع من البيوع بين التجار الأوروبيين وسكان بلاد المغرب خاصة مع الأعراب الذين لم يكونوا على دراية بمجريات السوق أو قيمة السلعة التي بحوزتهم،

ومن ذلك ما ذكر لنا الوزان عن مدينة ماسة التي كانت مركزا أو مقرا لبيع العنبر من قبل سكانها للتجار البرتغاليين لكن بأبخس الأثمان[4].

---

1. إن العملية هاته جعلت الناس يتساءلون عن هذه العادة إن كان من شأنها إدخال صاحبها تحت طائلة القانون الذي يمنع المشاركة في عملية مزاد دون حضور نية الشراء لديه،أي وجوده بقصد رفع الثمن لا غير، لكنها حسبماأورده برانشفيك= =كانت تتم من باب تحديد سعر افتتاحي معقول لا يضر بكلى الطرفين –البائع والشاري– روبار برانشفيك، المرجع السابق، ج2، ص255.

2. انظر البرزلي، المصدر السابق،ج3،ص40

3. نفسه،ج3، ص45.

4. الوزان، المصدر السابق،ج1.ص120.

المبحث الثاني:الوسائل المنظمة للعمل التجاري

1-الأوزان والمكاييل: أوصى الإسلام بتيسير سبل التبادل وذلك بضبط المقاييس والمكاييل، إذ قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[1].

وعلى غرار السكة التي تمثل شخصية واستقلالية الدولة، فقد اهتم سلاطين وحكام الممالك المغربية بالموازين والمكاييل، والتي كانت متشابهة في الكثير من وحداتها الأساسية.

كانت الوحدة الأساسية والعادية للوزن في بلاد المغرب الإسلامي موحدة وهي (الأوقية)التي يبلغ وزنها 31.48غرام والتي حددت منذ القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي من قبل الخليفة العباسي المنصور واحتفظت بها تونس إلى العهود الحديثة، بينما استعمل الحفصيون وحدة وزن أصغر بالنسبة للذهب والأشياء النفيسة وهي(المثقال)،الذي

---

[1]. سورة المطففين،الآية 1-2-3.

يبلغ وزنه 4.72 غرام، ويعود العمل به إلى نفس التاريخ المشار إليه سابقا، وقد أصبح ذلك عنوانا أوإسما لعملتهم الذهبية –الدينار ومن ثم فإن الأوقية تساوي ستة دنانير وثلثي الدينار أو ثلاث أوقيات تساوي عشرين مثقالا أو دينارا[1].

كان الدرهم أكثر رواجا من المثقال فيما يخص المواد القليلة الوزن والفضة، وهو مقتبس أيضا من الموحدين، ويعادل 1.49غرام ،أي أن الأوقية تساوي واحدا وعشرين درهما 21/1، وفي بعض الأحيان يشار إلى أنها كانت تساوي عشرين درهما فقط، لأنه لم يكن دائما يضرب بنفس الوزن، وكان الدرهم يتجزأ إلى قيراطين[2].

أما أجزاء الأوقية فتتمثل في الرطل، وفي أعلى السّلم نجد القنطار، ويرى برانشفيك خلافا لبعض الباحثين أنه في القرن الرابع عشر تواجد بافريقية أوقية واحدة وعدة أنواع من الأرطال

حسب نوع المواد الموزونة، فهناك الرطل ذو الستة عشر أوقية والبالغ وزنه 504غرام وهو مايعرف بالرطل العطاري الذي يستعمل لوزن الذهب والمواد الثمينة والمعادن، وهناك الرطل ذو الثمانية عشر أوقية والبالغ وزنه 567غرام والذي كان يسمى الرطل السوقي المستعمل لوزن المواد الغذائية [3].

أما القنطار فكان يساوي على وجه العموم 100 رطل ذات ستة عشر أوقية أي 50.4كغ، وكان العرف السائد حسب برانشفيك أن التاجر أو البائع كان يسلم للمشتري 102 أو 105 أو 110 رطلا بالنسبة للقنطار فيما يخص بعض المواد مثل الفواكه الجافة أو الأقمشة وهذا ما كان يرفع وزنه –القنطار–من من 1 إلى 55 كغم تقريبا كما إن القنطار لم يكن موحدا بين جميع المدن الحفصية ففي بجاية كان قنطار الكتان يساوي

---

[1]. روبار برانشفيك،المرجع نفسه،ج2، ص260.

[2]. يبلغ وزن القيراط 0.75 غرام .

[3]. انظر روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص261.

150 رطلا أي أنه كان يبلغ 75.6 كغم، وفي عنابة كان القنطار يزن 4 أرطال أقل من المعمول به من تونس و بجاية، أي أن وزنه كان يبلغ 48.5كغ[1].

كانت المكاييل تختلف بين الجوامد والسوائل وتتغير من مكان لآخر، فبالنسبة للمواد الجافة مثل الحبوب، استعمل القفيز الذي يساوي 187.58لترا، وهو يتجزأ إلى 16 (ويبت) التي تساوي 11.72 لترا وتتجزأ بدورها إلى 12- مدا- أو -صاعا -ويساوي الصاع حوالي 0.98 لترا، وبهذا يكون القفيز متضمنا ل192 مدا[2].

أما بالنسبة للسوائل ومنها الزيت فكانت وحدة الكيل المعتادة هي- المطر- والذي كان في تونس وجربة مساويا ل20.69 لترا ،إلى جانب الجرة التي كانت تساوي ثلاثة أمطار أو حوالي خمسين لترا،أما بالنسبة للخمر فقد استعملت ((المزريولة)) *Mezzaruola* التي تساوي هي الأخرى خمسون لترا وهي متركبة من ((قرتينين)) *Quartin*، وبما أن المادة أوروبية فان المكيال المستعمل كان أوروبيا أيضا[3].

إضافة إلى هذه المقاييس فقد استعملت بعض أجزاء الجسم البشري للوزن والقياس ومن ذلك القبضة والحفنة والذراع[4] الذي كان مقداره هو0.48 مترا حسب برانشفيك، أي بما يتوافق مع الذراع العربي والذي كانت له هو الآخر أجزاء منها الأصبع

---

[1]. نفسه،ج2، ص261

[2]. هذا بالنسبة للقيروان اذ نجد لمدينة طرابلس قفيز أثقل من قفيز تونس ويساوي 252 لترا ،وخلال القرن 13 قام الحفصيون لاعتبارات دينية بتغيير القفيز ليصبح مساويا للوسق الشرعي أي 175.92 لترا وصار بذلك يتضمن عشر صفحات او ويبات تساوي 17.59 لترا ، وتشتمل كل صفحة 12 مدا أو صاعا يساوي 1.46 لترا .

[3]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص262-263.

[4]. بالنسبة للمقاييس فقد استخدم أهل والأندلس نفس ما كان يستخدم أهل المغرب،فوجد الذراع العادي الذي يساوي قدما ونصف القدم ،والذراع الكبير الذي يعادل 32 بوصة أي 74.3 سم ،و يشير الحميري الى انه ثلاثة أشبار ونصف،أنظر الحميري، الروض المعطار ،ص136. والذراع المتوسط الذي يعادل 24 بوصة أو 32 أصبع أي حوالي 56 سم انظر حسين مؤنس، وصف جديد لقرطبة، ص175. وربما يكون سكان المنطقة كما هو الحال بالنسبة لسكان بلاد المغرب قد لجئوا الى الوزن التقريبي أو الجزافي وهذا ما نستنتجه من خلال إجازة فقهاء المسلمين لذلك في حال كان المتبايعان بأرض بعيدة عن الأسواق مع عدم وجود الموازين، فقد ورد في المعيار نازلة مفادها إذا كان رجل بأرض لا سوق فيها وبينه وبين الأرض التي فيها الأسواق مسافة القصر، وليست لهم موازين ،ولا يعرفون أي شيء ،فيجوز شراء السمن واللحم منهم بغير ميزان ولا حزر ولا تخمين إذا عرفوا في الجزاف المقادير التي تزيد الأثمان بزيادتها أو تنقص بنقصانها انظر الونشريسي، المصدر السابق،ج5،ص 88-89.

الذي يساوي 0.02 مترا، والقبضة التي تساوي 0.08 مترا والشبر 0.24م ويساوي ثلاث قبضات أو 12 قدما، أي نصف ذراع، كما استعملت قامة الإنسان المعادلة للمسافة الفاصلة بين طرفي اليدين الممدودتين وتساوي تقريبا ما بين 1.65و 1.70مترا أي سبعة أشبار[1].

ملاحظة :استعملت بلاد المغرب الإسلامي نفس وحدة الميزان ألا وهي القنطار والرطل والأوقية والدرهم، لكن لم تكن تلك الموازين خاضعة لنفس الوزن بل كانت مختلفة من منطقة لأخرى فنجد قيمة الرطل مثلا تختلف حسب السلعة، إذ نجد رطل الفلفل ورطل اللحم وغيرها، كما كان لكل بلد وإقليم في المعاملة على أرطال تتفاضل في الزيادة والنقصان

كما يكون سكان المنطقة قد لجؤوا إلى الوزن التقريبي أو الجزافي وهذا ما نستنتجه من خلال إجازة فقهاء المسلمين لذلك في حال كان المتبايعان بأرض بعيدة عن الأسواق مع عدم وجود الموازين، فقد ورد في المعيار نازلة مفادها إذا كان رجل بأرض لا سوق فيها وبينه وبين الأرض التي فيها الأسواق مسافة القصر، وليست لهم موازين، ولا يعرفون أي شيء، فيجوز شراء السمن واللحم منهم بغير ميزان ولا حزر ولا تخمين إذا عرفوا في الجزاف المقادير التي تزيد الأثمان بزيادتها أو تنقص بنقصانها[2] .

2-

النقـــــــــــــــــــــــد:أوالعملة في تعريفها البدائي والبسيط، وهي جملة إشارات أورموز تسمح

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2،ص263.

[2]. انظر الونشريسي ،المصدر السابق،ج5، صص 88-89.

بتداول السلع، أو بعبارة أخرى هو أي وسيط مادي في تبادل السلع،فهناك من الشعوب من استعملوا الحبوب والحيوانات كعملة للتبادل، وبالتالي فالعملة أو النقد إذن هو ذلك الرمز الاجتماعي للثروة الذي ينظم تقسيم الثروة ما بين الأفراد[1]، ولا يشترط في النقد أن يكون من جنس واحد،فقد يكون من معدن أو من ورق[2]، ويشير ابن خلدون إلى النقد أو العملة وكيفية صنعها في العصر المقصود بالدراسة فيقول ((أنها الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ...لتخرج فيما بعد ظاهرة مستقيمة على تلك الدنانير))[3]،وبالتالي فما يضاف على تلك القطع المعدنية من إشارات وكتابات هو دليل قابليتها و جاهزيتها للتبادل.

والنقود ظاهرة حضارية موجودة عند العرب في العصور الجاهلية الموازية لعصور الفراعنة، وفي العصر الإسلامي كانت تلك النقود تحمل هوية الأمة الإسلامية منذ فجر الإسلام[4]، ولذا كانت ولا تزال كل دولة تسك نقودا خاصة بها تختلف تسميتها من بلد لآخر.

ففي المغرب الأقصى نجد من العملة المتداولة الدينار الذهبي والدينار الفضي[5] والدرهم الكبير والدرهم الصغير –الفلس–، وفي بعض الحالات الخاصة نجد بعض سلاطين المغرب الأقصى قد خرجوا عن المألوف، فنجد السلطان أبو عنان المريني يسك دينارا ذهبيا كبيرا بمدينة مراكش يزن مائة دينار ذهبي عادي لتقديمه لبعض الشخصيات المرموقة بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ومنهم الشيخ الشريف أبي العباس

---

[1]. أحمد هني،العملة والنقود، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص10.

[2]. لم ترد أي إشارات لاستعمال نقود ورقية في العصر الوسيط ،وان معظم النقود كانت تتخذ إما من معدن الذهب أو الفضة .

[3]. عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، ص203.

[4]. عبد العالي محمد الجبري، أصالة الدواوين والنقود العربية، ط1،مكتبة وهبة،القاهرة،1409هـ/1989،ص94.

[5]. انظر النميري،المصدر السابق ص165.

العزفي[1]، كما سك السلطان نفسه دنانير ذهبية زنة الواحدة منها دينارين عاديين، وقد وردت الإشارة إليها في رسالة شكر بعث بها ابن أبي حجلة إلى أبي عنان، ويصفها بأنها تزيد من استيفاء الوزن (تزيد في السبك للدينار دينارا) إضافة إلى اتساع قطرها عن الدنانير الأخرى و اصفرار لونها بشكل كبير مما يدل على نقاوة معدنها[2].

أما في المغرب الأوسط فقد استمر العمل ببعض النقود الموحدية، مع سك نقود جديدة خاصة بالإمارة تدل على استقلاليتها، لكن مع الاحتفاظ ببعض خصائصها من شكل ومميزات كحملها لآيات قرآنية أو أحاديث نبوية شريفة أو بعض الأدعية[3]، وقد تم اكتشاف اثنين وثلاثين دينارا تمثل نماذج لمراحل مختلفة من عمر الدولة العبدوادية، فالدينار الأول يعود إلى عهد السلطان أبي حمو موسى الأول 707هـ-718ه/1307-1318م وما يؤكد نسبته هو ما كتب على حافته أو على سواره:"ضرب بمدينة تلمسان حرسها الله تعالى وأمنها"وهناك قطع أخرى ضربت في عهد سلاطين آخرين كالسلطان أبي عبد الله محمد المتوكل على الله (866ه873ه)وأخرى على عهد السلطان أبي عبد الله محمد 873-909ه وهي لا تخرج عن الأولى فيما تحتويه من عبارات أو حتى من حيث الشكل بينما تختلف من حيث الوزن[4].

وفي المغرب الأدنى لم يأت الحفصيون بشيء جديد في العالم الإسلامي بالنسبة للشروط العامة لإصدار وتداول النقود، فالدولة كانت تحتكر صناعتها، لكن ضربها كان حرا، أي أن

---

[1]. المقري التلمساني،أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبط وتحقيق وتعليق مصطفى السقا، إبراهيم الابياري،عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة 1308ه-1939م، ص39.

[2]. انظر محمد المنوني،مجلة البحث العلمي ،عدد 4 و5،السنة الثانية ،ص243. انظر أيضا علي حامد الماحي، المرجع السابق، ص190-191.

[3]. من أمثلة تلك الأدعية ما كتب على العملة الزيانية على اثر فك الحصار المريني على تلمسان "ما أقرب فرج الله" ومن هنا ندرك بأن القطع النقدية تعتبر موروثا حضاريا وتاريخيا لأي دولة قد يساعد في كثير من الأحيان على تزويد الباحث بمعطيات قد تثري بحثه أو ترسم بعض خطوط بحثه

[4]. لمزيد من المعلومات ،انظر بوزيان الدراجي، المرجع السابق، ص228 وما يليها،أو بودواية مبخوت،المرجع نفسه، ص283،282،274.

دور السكة الموجودة في أنحاء الدولة كانت تستقبل الخواص بما معهم من معادن فتقوم بضربها مقابل تعويض معين، كما سمحت الدولة بتداول النقود الأجنبية إلا في بعض الحالات الاستثنائية التي أحست فيها بتعرض عملتها و اقتصادها للخطر[1]، وكانت العملة الرئيسية هي الدينار الذهبي أو الدبلون الذي يبلغ وزنه 4.72 غراما، ومن ذلك ما ورد في كتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية بأن أبا زكرياء يحيى أعطى نصرانيا وأهل ملته عشرة آلاف دينار عينا كبارا قبل أن يقوم بإحراقه لانتقاصه من قيمة وهيبة الرسول صلعم[2]، إضافة إلى الدرهم الفضي الذي يبلغ وزنه حوالي 1.5غرام، وتمثل عشر قطع منه العملة الحسابية أي الدينار الصوري أو الفضي[3].

وكغيرها من دول بلاد المغرب كان الدينار والدرهم الحفصيين من حيث زنتهما وشكلهما من التراث الموحدي، باستثناء محاولة المستنصر القصيرة والمحدودة زمنيا في إحداث سكة من النحاس تعرف بالحندوس[4].

تعرض الدرهم الحفصي إلى التضخم بأن انحطت قيمته مرتين على الأقل، مما أدى الى تدخل الدولة باتخاذ جملة من التدابير للرفع من قيمته، فقد تداول الحفصيون بداية من النصف الثاني من القرن 7ه/13م درهما جديدا له قيمة مرتفعة جنبا إلى الدرهم القديم والذي كان له نفس الوزن، لكنه فقد خمس قيمته بسبب ارتفاع مزيجه، كما اضطرت الدولة أيضا الى تقويم الوحدة النقدية الفضية بسبب نقص الدرهم الجديد من حيث العيار (المعدن المستعمل) أو بسبب ارتفاع سعر الذهب[5]، حدث هذا في عهد السلطان عثمان الذي اضطر الى ضرب درهم فضي جديد سمي (ناصري)، وكان الدينار يتجزأ الى نصف دينار وربع دينار وثمن دينار وعندما أحدث الناصري تجزأ الى خمسين 5/6

---

[1]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2،ص73.

[2]. ابن القنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية،تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي،الدار التونسية للنشر، تونس 1968،ص114-115.

[3]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2،ص73.

[4].الزركشي، المصدر السابق، ص38.

[5].انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص74.

وخروبة4/6 أو2/3 ونصف ناصري 6/3 أو 2/1، وجديد6/2 أو 1/3 وقفصي أو قيراط 1/6[1].

ويورد لنا الوزان جزءا مما كان متداولا في الدولة الحفصية من النقود على عهده، ومن ذلك (الدوبولي) و التي تعني مضاعفة، أو دنانير تونسية تساوي 16.20 فرنكا ذهبيا[2]، كما أشار إلى أن الدينار الذي كان يضربه ملك تونس يزن أربعة وعشرين قيراطا، أي ما يعادل (دوكة) وثلثا مما يروج في أوروبا، كما كان يسك أيضا عملة فضية مربعة الشكل تزن ستة قراريط وتساوي ثلاثون منها أو اثنان وثلاثون منها دينارا واحدا[3].

ما يمكن استنتاجه هنا أن الوحدة الاقتصادية لبلاد المغرب قد تجاوزت الصراعات السياسية بدليل أن التعامل في كامل بلاد المغرب وحتى الأندلس كان يتم بعملة ذهبية واحدة هي الدينار، وعملة فضية هي الدرهم، وكانت قيمتها ثابتة أو متفاوتة نسبيا، فمثل ذلك تراثا موحديا حافظ عليه ملوك وسلاطين بلاد المغرب بكل أمانة، ووفقا لنظام أحادية المعدن الذي

كان معمولا به آنذاك، فإن العملة الذهبية والعملة الفضية كانتا مستقلتين الواحدة تجاه الأخرى، وكل عملة منهما لها قوة إبرائية تامة[4]، الأمر الذي أدى بالدول الأخرى الإسلامية المشرقية والمسيحية الى الوثوق بها[5].

وكان للدينار أجزاء سهلت عملية التبادل التجاري، وكانت له أنواع مختلفة من حيث المادة التي يصنع منها أي درجة نقاء وجودة الذهب أو الفضة، بدليل ما أورده الوزان في عدة مواقع ومنها ما خص به الدولة الزيانية التي كان الملك بها على أيامه

---

[1]. نفسه،ج2، ص 74، انظر أيضا الوزان، المصدر السابق،ج2، ص81.

[2].الوزان،المصدر السابق،ج2، هامش 19، ص57.

[3]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص81.

[4]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص73–74.

[5]. بوشامة عاشور ، المرجع السابق، ص360.

يسك نقودا من الذهب الرديء كالدنانير التي تسمى في ايطاليا بسلانتشي -أي الخفيفة- غير أن القطعة الواحدة منها تساوي دينارا وربعا إيطاليا لكونها كبيرة جدا، ويسك أيضا نقودا فضية غير خالصة وأخرى نحاسية متفاوتة القيمة والنوع.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن مسلمي بلاد المغرب كانوا يتحاشون التعامل بالنقود الأوروبية إذا كانت فيها الصلبان وما لا يجوز أن يكتب، فحسب ما ورد في النوازل أن المسلم لا ينبغي أن يعين على فعل ما لا يجوز ولا يدخل فيه، وأما إذا كان فيها ما لا يحرم أن يكتب وفيها إسم الله فذكر في المدونة معاملتهم بالسكك الإسلامية أنها مكروهة لهذا المعنى، وهي صيانة أسماء الله تعالى عن ابتذالها في أيديهم ولكن هذا الوجه الثاني فيه اختلاف[1].

3/الفنــادق:

الفندق منشأة تؤمن وسائل الراحة والسكنى للناس، من خلال مهمته الأساسية ألا وهي توفير حجرة للنوم، ونتيجة لرواج التجارة والصنعة في بلاد المغرب،ولأن ضرورة التجارة في العصر الوسيط كانت تقتضي من بعض التجار الأغنياء الاقامة والبقاء في البلاد التي يتاجرون فيها[2]، فقد أنشات تلك المؤسسات لاستقبالهم، فكانوا إذا ما وصلوا إلى المدينة التي يقصدونها للاتجار فيها توجهوا إلى الفنادق المخصصة لهم لايداع ما لديهم من بضائع بالمستودعات التي تحتويها، فتقيد في دفاتر خاصة وتضرب عليها المكوس الديوانية، وكانت هذه الظاهرة منتشرة في كل بلاد المغرب، إذ احتوت مدنها وأرباضها فنادق وملاجئ خاصة بالتجار الأجانب.

ففي المغرب الأدنى نجد-ربض تونس- الذي أحتوى على فنادق للبنادقة والجنويين والقطالونيين[3]، وكانت في الغالب تتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق على غرار

---

[1]. البرزلي، المصدر السابق، ج1، ص597.

[2]. نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص104.

[3]. الوزان،المصدر السابق،ج2،ص74.

ما كان بمدينة سبتة المغربية[1]ومدينة فاس التي كان بها ما يربو عن مائتي فندق للغرباء مثلما كان عليه الحال بأوروبا، وهي كبيرة حسنة البناء فيها عدة غرف بأعلاها وأسفلها مع ما هو ضروري[2]،فيخصص الأرضي منها للمخازن والدكاكين والإسطبلات والأفران و يحتوي أيضا قاعة للمداولات والأحكام[3]، بينما خصص الطابق العلوي للنوم، وقد خضعت هذه النزل والدور لنفس التنظيم الذي كانت عليه نظيرتها في المشرق الإسلامي، واحتوت بعضها على الحانات التي كان يلجأ إليها التجار المسيحيون لتعاطي الخمر[4].

أما الطابقين العلويين فقد خصصا لنوم التجار و راحتهم ،وكان عليهم الالتزام ببعض التوصيات والتعليمات، إذ كانت تلك الفنادق محاطة بالأسوار العالية والسميكة الجدران،تغلق أبوابها ليلا من طرف بوابين يتصفان بكونهما شرفاء يمنعون الغرباء الذين لا يحملون تراخيص من دخولها[5]،بينما يقوم الحراس بالسهر على أمنهم،ويبدو أن هذه المهمة كانت منتشرة في كافة البلاد الإسلامية[6].

كانت الفنادق والنزل تخضع لنوع من التخصص حسب البضاعة أو حسب جنسية التجار المترددين عليها[7]، وتبنى بالقرب من الأسواق أو الأماكن التي تعرض فيها السلع للبيع أو المزاد وفي بعض الحالات نجده في الأرباض والنواحي[8]، ونجد بعضها

---

[1]. كان بمدينة سبتة حوالي ثلاثمائة وستون فندقا وكان أهمها فندق غانم الذي كان يتكون من ثلاث طبقات تحتوي على ثمانين بيتا ،انظر علي حامد،المرجع السابق،ص188.

[2]. مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2،ص147.

[3]. انظر عبد العزيز فيلالي،المرجع السابق، ص137.انظر أيضا،عمر كحالة، المرجع السابق، ص135.

[4]. مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2، ص147- 148.

[5]. عبد العزيز فيلالي،المرجع السابق، ص137.

[6]. في مصر تواجد العسس الذين كانت مهمتهم السهر على سلامة الفنادق والأسواق من أي شيء قد يهددها،انظر رضا كحالة،المرجع السابق، ص135.

[7]. انظر الوزان، المصدر السابق،ج2، ص 30،20،19.

[8]. نفسه،ج2، ص20،انظر أيضا عبد العزيز فيلالي،المرجع السابق،ج1، ص136.

عاما لا يخضع لأي نظام وهذا ما قصده الوزان بالمدشر الكبير الموجود بالقرب من ساحل البحر بجزيرة جربة الذي يقطنه التجار الغرباء من مسلمين ونصارى[1] .

أخذت الفنادق آنذاك أسماء مختلفة، ففي تلمسان يورد لنا الوزان بعض أسمائها مثل فندق الشماعين وفندق المجاري، ودار الجنويين الفندق الخاص بالجنويين في مدينة وهران، وفي المغرب الأقصى نجد فندق غانم الذي عد أهم فنادق سبتة في ذلك الوقت،أي في عهد أبي الحسن المريني[2].

غالبا ما كانت تشاد بالقرب من الفنادق كنائس خاصة بالمسيحيين والنصارى، وتتواجد بالقرب منها أيضا المقابر الخاصة بهم أيضا،هذا ما تواجد بتلمسان الزيانية،وربما كان المراد من وراء ذلك الحرص على عدم اختلاط المسيحيين بأهل تلمسان إذ نجد سلاطين المملكة يمنعونهم حتى من الذهاب الى الحمامات العمومية الخاصة بأهل المدينة باستثناء البنادقة [3].

4/الجمـــــــــــــــــــــــــــــــــارك

أولت الدول الإسلامية أمر الجمرك اهتماما كبيرا نظرا لما كان يعود به من نفع على اقتصادياتها وخزائنها، كما أدى نمو العلاقات التجارية بين المسلمين والنصارى ابتداء من القرن 5ه/11م الى إيجاد قناصل من الشعوب الغربية تكون لها صفة سياسية وتجارية معا، كما حرصت هذه الشعوب التجارية على أن تكون لها مراكز ثابتة في البلاد الإسلامية لإدارة شؤونها[4].

---

[1]. نفسه،ج2، ص93-94.

[2]. علي حامد الماحي، المرجع السابق، ص198.

[3]. عبد العزيز الفيلالي ،المرجع السابق، ص138.

[4]. رضا كحالة،المرجع السابق، ص133،انظر أيضا الوزان،المصدر السابق،ج2، ص23.

ونظرا لأن الجمارك على الحدود البرية كانت منعدمة لعدم ثبات الحدود وكذا بسبب العلاقات العدائية التي سادت بين الإمارات الثلاثة، فان المؤرخين حددوا المصطلح بدقة فأطلقوا عليه الجمارك البحرية[1].

كان بيع المواد الواردة عن طريق البحر يتم في غالب الأحيان داخل "ديوان[2]البحر"وتحت مراقبته المباشرة إما بالتراضي أو بالمزاد العلني (الحلقة)[3]،ويتم تسجيل العمليات التجارية وفقا لعقود بيع في سجلات تابعة للقنصليات[4]،ويستخلص الديوان أداءاته نقدا أوعينا في آجال غير ثابتة حسب جنسية التجار، بينما يتعين على أولئك التجار الراغبين في العودة الى بلدانهم تقديم حساباتهم الى الديوان مرفوقة بجميع المستندات،حينها يسلمهم الديوان وصلا للتبرئة يقوم مقام تأشيرة المغادرة أو الخروج[5].

كان للأجانب مندوب في الجمرك يعد كافلا لهم في الموانئ، لما قد يبقى عليهم من ديون في سفرهم –ولا يستطيعون بدون هذه الضمانة أن يرتحلوا وإذا حدث خلاف لم يستطع تسويته النائب أو المندوب فيرفع حينها الى قنصل البلد الذي ينتمي إليه التاجر[6].

ربما كانت الإمارة الزيانية أكبر المستفيدين من أمر الجمرك، وهذا ما عوض قلة الإنتاج بها في أوقات العسرة، ذلك لأنها كانت تشكل مرحلة بين أوروبا وبلاد السودان، فكان الملك على حد تعبير الوزان يستفيد أموالا كثيرة من دخول البضائع الى المملكة وخروجها منها[7]، فكانت هذه الإمارة تحقق مردودا يبلغ ثلاثمائة

---

[1]. انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص251.

[2]. وتعني في مفهومها الأعم المصلحة ذات الصفة الإدارية، أو المكتب.انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص66.

[3] .Mas Latrie, op.cit, Introduction, p49.

[4]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2،ص251.

[5]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص251،انظر أيضا رضا كحالة، المرجع السابق،ص133.

[6]. رضا كحالة،المرجع السابق،ص133.

[7]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص23.

ألف وحتى أربعمائة ألف دينار طوال العديد من السنين[1]، بينما كانت تجني الإمارة الحفصية على عهد السلطان أبي عمرو عثمان[2] من ديوان البحر ما قيمته مائة وسبعون ألف دينار ذهبي، وهذا ماله دلالة بالغة حسب برانشفيك[3].

اختلفت التسميات بين الأقطار الثلاثة لهذه المصلحة،لكن ما كان مشتركا أنه كان لكل مرسى أمين للمال وقابض يتسلم مداخيله[4]،وتتمثل مهمته في جمع الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع التي تخرج تصديرا عن طريق البحر أو على البضائع الواردة عنه[5]، وكان لمدير المكس في تونس خاصة عدد كبير من الأعوان الذين يسوقون إليه كل غريب تبدو عليه علامة الثراء بمجرد ما يدخل المدينة[6].

راعى ملوك وأمراء الإمارات الثلاثة في ذلك أمن التجار الأجانب – المسيحيين– ولو تطلب الأمر منهم نقل تلك المراكز من مكان لآخر مثلما حدث في المغرب الأقصى حينما نقل الجمرك الخاص بالمسيحيين من سلا إلى فاس القديم، ثم من فاس القديم إلى فاس الجديد تحقيقا لمزيد من الأمن[7].

---

[1]. نفسه،ج2، ص23.

[2]. هو أبو عمرو عثمان ابن الأمير أبي عبد الله محمد المنصور، بويع صبيحة يوم وفاة شقيقه المنتصر بسبب مرض أصابه على رضي من الخاصة والعامة صبيحة يوم الجمعة 12 صفر عام 839ه. انظر الزركشي،المصدر السابق، ص134.

[3]. انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2،ص253.

[4]. وهو ما يقابل مدير الجمرك لدى الدولة الحفصية.

[5]. غالبا ما كانت هذه الوظيفة تسند إلى أحد اليهود الأغنياء في الدولة الحفصية،انظر الوزان، المصدر السابق،ص80.

[6]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص79.

[7]. مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2،ص135 –150.

لم يكن أمر الجمرك منفصلا عن الدين، فقد أباح الفقهاء من شتى المذاهب توظيف خراج قدره 10 % على أقل تقدير على البضائع التي يوردها التجار الأجانب إلى البلاد الإسلامية[1]، وقد كان الأمر بذلك ساريا حتى على أيام الموحدين[2].

وما تجدر الإشارة إليه أن هذه النسبة لم تكن ثابتة بالنسبة لجميع الدول، فقد حددتها الدولة الحفصية مثلا ب 10.5% بالنسبة لرعايا فلورنسا الايطالية دون سواهم، وذلك خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي، لتخضع البندقية سنة 1438م بعد مفاوضات مع إفريقية لنفس تلك الزيادة الطفيفة، وتعود بعد فترة إلى نصابها الأول أي إلى 10%، ويضاف إلى هذه النسبة عادة أداءات أخرى ثانوية تتراوح ما بين 0.25 و1% حسب الفترات وحسب الدول النصرانية المعنية بالأمر والتي كانت في بعض الأحيان تمثل أجورا أو مكافئات تسدد لمختلف موظفي أو أعوان ديوان البحر والميناء[3].

وإزاء هذا الوضع فلا يمكن أن نخضع قيمة المكس أوالأداء الجمركي لقاعدة ثابتة، إذ عند دخول الذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة إلى الدولة الحفصية لا يدفع إلا نصف الآداء والبالغ 5 %، بينما تمتعت بالإعفاءالتام نفس تلك المواد إذا كانت مخصصة للعملة أو للخزينة بينما أعفيت الحبوب منها تماما والخمر أحيانا[4].

من هنا ندرك بأن الدولة الحفصية والدول الاسلامية بشكل عام كانت تراعي في أمر الجمرك مصلحة البلد وقيمة السلعة الموردة إليها من منظور مدى خدمة اقتصادها، وهذا ما قام به الحفصيون بكل مهارة، إذ تساهلوا مع دخول المواد الثمينة وشجعوا في

---

[1]. يشير الوزان الى أن مقدار ما تسلمه مدير الجمرك في تونس على أيامه هو اثنان ونصف بالمائة، انظر الوزان، المصدر السابق،ج2،ص79.

[2]. انظر، روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص252.

[3]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص252.

[4]. روبار برانشفيك،ج2، ص252.

نفس الوقت تصدير البضائع التي تضمن استمرار إنتاج بعض المحاصيل الزراعية أو المنتجات الصناعية، وتجنيب البلد من خروج الأموال قصد المحافظة على سلامة العملة[1]على عكس الدولة الزيانية التي كانت في موقع ضعف جعل الدول الأوروبية هي التي تتدخل وتفرض إرادتها للتخفيض من قيمة هذه الأداءات أو إلغائها بشكل تام كما سنرى لاحقا.

إذن فالضريبة والمواد الخاضعة لها كانت محل مفاوضات، فنجد مئونة رجال السفن والحبوب في حدود الصادرات المسموح بها إضافة إلى الرصاص -بمقتضى بند خاص - بالنسبة إلى رعايا البندقية معفاة من الأداءات تماما، كما كان القمح المصدر من افريقية نحو جنوة والبندقية والموجه لسد الحاجات المستعجلة لاستهلاك شعبيهما معفي من أي أداء، وبذلك تكتسي رخصة التصدير في الظاهر صبغة المزية المجانية والاستثنائية وطابع الخدمة المؤداة لفائدة شعوب صديقة[2].

استغلت الظروف السياسية بما في ذلك معاهدات الحرب والسلم في بعض الحالات لتنظيم الشؤون الاقتصادية والتجارية بالأخص، مثلما حدث مع ملك قشتالة على عهد -سانشو- حينما ألح عليه كبار مملكته أن يطلب الهدنة من السلطان أبي يوسف المريني، فأرسل إليه وفدا من البطارقة والأساقفة يطلبون السلم والهدنة[3]، فرفض طلبهم إظهارا للعزة والقوة، وحتى يكون في موقع يسمح له بإملاء شروطه، لكن وبتكرار - سانشو- للطلب وافقه على ذلك مقابل شروط سياسية واقتصادية، منها رفع الضريبة عن تجار المسلمين الذين يوجدون بالمناطق الخاضعة لنفوذ ملك قشتالة وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة[4]، وكذا المعاهدة التي تمت بين تلمسان وأراغون

---

[1]. نفسه،ج2، ص253.

[2]. نفسه،ج2، ص266.

[3].انظر الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3، صص47-48.

[4]. ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق،ج7، ص433 .

ونصت على عدة أمور تنظيمية في الميدان التجاري، ومنها المادة الثانية التي نصت على حق مملكة أراغون في استيراد المواد الغذائية من جميع المقاطعات التي تخضع لملك تلمسان بكل حرية، مع إعفاء المواد الغذائية التي يحتاجها الملك لاستعماله الشخصي من أية ضريبة[1].

ومما تجب الإشارة إليه أنه ورغم حرمة الخمر في الإسلام –زراعة وعصرا وبيعا وشربا– إلا أنه كان يورد من الدول الأوروبية إلى البلاد الإسلامية وربما هذا ما جعل الرسوم والأداء عليها مرتفعة جدا، إذ كانت تدر أرباحا طائلة لجالبيها والموجهة للطائفة المسيحية في الحانات و النادلين بها، فأصبح بذلك موضوع لزمة خاصة[2].

5/المعاهدات والمراسلات التجارية:

كان النشاط التجاري بين دول وإمارات الضفتين ينظم وفقا لمعاهـدات تعقد بينها وتحدد من خلالها ظروف التبادل وشروطه والمواد التي تدخل ضمن قائمـة البضائع والسلع المتبادلة، كما كانت تعقد أيضا في حالة وجود حـدث يربـك العمليـة التجارية، كأعمال القرصنة التي كانت تتم بين تلك الدول أو بسبب الحروب التي كانت تتوقف بسببها تلك العلاقات، فتضطر الدولة الأكثر تضررا من تلك الوضعية الى عقـد معاهدة جديدة أو تجديد بنود أخرى قديمة تضمنت نفس المطالب،ومن تلك المعاهـدات نذكر ما يلي.

أ/الدولة الحفصية : إن وفاة أبي زكريا أعطت دفعا ونفسا جديدا للعلاقات التجارية الحفصية خاصة مع الجمهوريات الإيطالية، فقد سارعت بعضها إلى إرسال سفرائها وقناصلها إلى تونس لإعادة السلم أو توطيدها لاتاحة أو تهيئة الظروف لممارسة العمل

---

[1]. انظر أيضا الجيلالي صاري، تلمسان الزيانية–إرهاصات ظهور الدولة الجزائرية في العصر الحديثة–ترجمة مسعود حاج مسعود،دار القصبة للنشر،الجزائر 2011، ص51.

[2]. روبار برانشفيك، نفس المرجع،ج2،ص269،انظر أيضا، *Mas Latrie, op.citD..., introduction, p111*

التجاري، ففي01 أبريل 1251م تم إبرام معاهدة بواسطة مبعوث البندقيةً السفير – فيليب جيولياني – *Giuliani Philippe* لمدة أربعين سنة، هذه المعاهدة التي استعادت بعبارات متماثلة للغاية أحكام اتفاقية 1231م ولكنها أكملتها بالنسبة لجملة من النقاط :كالإعفاء من أي أداء بالنسبة للذهب والفضة والأحجار الكريمة التي يبيعها أهل البندقية في دار السكة أو مباشرة للسلطان الحفصي، والسماح لهم بتصدير الرصاص من إفريقية بدون رسوم، كما تم تحديد و توضيح الحريات التي يتمتع بها التجار البنادقة في البلاد الحفصية والتوسيع من نطاقها لا سيما حق إصلاح الكنيسة الموجودة في فندقهم وتوسيعها[1].

وفي أوائل جوان 1271م، أبرمت معاهدة أخرى بواسطة سفيرها –جون داندولو– *Jean Dandolo* لمدة أربع سنوات، وهي المعاهدة التي استعادت بنود معاهدة سنة 1251م مع بعض التعديلات أو الزيادات الطفيفة، من ذلك مثلا أن البنادقة تعهدوا على سبيل المعاملة بالمثل المسلمين الراغبين في القدوم إلى بلادهم، وحسب ما لاتري فإنهم لا شك أضافوا بندا ينص على ما يلي ((لا ينبغي أن يتعرض أحد من البنادقة للتعذيب مهما كان السبب رغم عدم وجود ما يشبه مثل هذا في المعاهدات مع الدول الأخرى))[2].

وخلال مدة حكم زكرياء ابن اللحياني[3] تجددت الكثير من الاتفاقيات مع الدول النصرانية ككل ومع البندقية بشكل خاص، ففي 28 صفر 717ه /12 ماي 1317م أمضى بوضربة باسم أبيه –الذي كان إذ ذاك في حالة فرار– مع سفير البندقية (ميخايلي) بقصر الإمارة بتونس اتفاقية تقضي بتجديد معاهدة 1264م التي أصبحت

---

[1]. *Mas Latrie, op.cit, introduction, p1*99

[2].*Ibid, introduction, p106.*

[3]. اعتلى عرش السلطنة الحفصية في ظروف صعبة، وهي الفترة التي كانت تظهر عل هذه الدولة بوادر الانقسام، اذ بايع أبو بكر لنفسه بقسنطينة لما سمع باختلال أحوال افريقية، ليجهز له ابن اللحياني جيشا اضطره الى بعث حاجبه اليه مع بعض الهدايا ووعده بامداده بما يحتاج وأن يكون جاهزا لمساعدته.انظر، الزركشي، المصدر السابق، ص61.

لاغية منذ حوالي سنتين لمدة خمس عشرة سنة الأقل[1].

أما جمهورية جنوة فقد أبرمت هي الأخرى معاهدة مع الدولة الحفصية في 06 نوفمبر1272م، أي على عهد المستنصر بالله بتونس بواسطة سفيرها أوبيزون أدالار *Opizon Adalard* لمدة عشر سنوات، فاستعادت بنود اتفاقية سنة 1251م مع إضافة حالتين من حالات الإعفاء من الأداءات الجمركية بافريقية ((المادة الثامنة والعاشرة))، وهما المتعلقتين ببيع السفن ولو للمسلمين، وبيع أية بضاعة أخرى للنصارى الآخرين من غير الجنويين[2]، وقد تعرضت هذه المعاهدة لاختبار عسير اجتازته بنجاح، ذلك أن ملك صقلية الذي أعلن الحرب ضد جنوة قد طالب من السلطان الحفصي في مارس 1273م بطردهم من بلاده وفقا لأحكام المعاهدة المبرمة أثناء الحملة الصليبية، وفي شهر ماي 1274م طلب منه تقديم التسهيلات اللازمة لقرصان قادم من مرسيليا للهجوم على الجنويين، لكن لا شيء يدل على أن السلطان امتثل للأمر الأول من تلك الأوامر على الأقل،إذ أن البند المشار إليه من المعاهدة طبعا يهم الرجال المسلحين لا التجار المسالمين[3].

وفي يوم 09 جوان 1287م، توصلت جنوة بواسطة سفيرها الخاص- لوشيتو بينيولي- *Lucheto Pignoli* على اتفاق مع مفتشين عينهم السلطان الحفصي للرد على الشكاوى التي تقدم بها مجموعة من التجار الجنويين الذين يزاولون نشـــاطهم التجـــاري بتونس[4]، ومن ثم تأكيد السلطنة رسميا للمعاهدات السابقة وإبرام اتفاقية تلبـــي طلبـــات التجار الجنويين المتعاملين مع افريقية والتي لم تخرج في سياقها العام عـــن الاتفاقيـــات السابقة.

---

[1].*Mas Latrie, op.cit, introduction, p161.*

[2].*Mas Latrie, op.cit, traites, p122.*

[3]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص97 .

[4]. *Mas Latrie, op.cit, Traites, p125.*

وتبعت هذه المعاهدة سلسلة من المعاهدات الأخرى كتلك التي تعهد بعقدها عن الطرف الجنوي فريديريك ليكافيلو *Fréderic Lecavelo* سنة 1383م التي ضاعت نسختها الأصلية، وجددت في سنة 1391م فحددت بعض شروط تعاطي التجارة مع الدولة الحفصية والمتعلقة بأمن التجار في ظل الظروف السياسية المتوترة، بعد اتفاقية 1287م[1].

وكما أشرنا سابقا فقد كانت هذه المعاهدات تبطل ببطلان أو انقطاع حبل السلم بين الدول المعنية، ثم تجدد بعد أن يعود السلم بينها، ومن ذلك ما حدث مع الأمير الحفصي المستنصر، حيث تم تجديد ثلاث اتفاقيات من الاتفاقيات القديمة بعد الحملة الصليبية على تونس سنة 1270م، ووقف المستنصر إلى جانب التجار الأوروبيين ومنهم الجنويين فأبدى استعداده التام للعمل على تقديم الحماية لهم[2].

تواصلت المعاهدات التجارية بين الطرفين ففي 23 أبريل 1445م عقدت معاهدة لمدة إحدى وثلاثين سنة شمسية بين جمهورية فلورنسا وجمهورية بيزا من جهة وبين الأمير الحفصي أبو عمر عثمان بواسطة السفير بالديناصيو أنطونيو *Baldinaccio d'Antonio*

أما صقلية[3]، فعقدت في 20 أبريل 1231م معاهدة للتجارة مع السلطنة لمدة 10 سنوات بين الإمبراطور فريديريك الثاني *Fréderic II* ملك صقلية وأبو زكرياء يحيى بواسطة السفير فيبالد *Vibald* مبعوث الإمبراطور[4]، وفي 03 مارس 1398م بعث مارتين الشاب *Martin le jeune* ملك صقلية رسالة من مدينة بالرمو على أبي فارس عبد العزيز السلطان الحفصي بخصوص مناقشة معاهدة تخص السلم والتجارة

---

1. *Ibid, Traites, p174.*

2. روبار برانشفيك،المرجع السابق ،ج2، ص94.

3. كانت لا تزال تحت التاج الأراغوني.

4. *Mas Latrie, op.cit, introduction, p153.*

بين السلطنة الحفصية من جهة وصقلية وأراغون من جهة أخرى[1].

أما في جانفي 1313م فعقدت بتونس معاهدة سلم وتجارة لمدة 12 سنة شمسية بين الدون سانشو *Don Sanche* ملك ميورقة كونت الروسيون وسردينيا وعاهل مونبيلييه مع يحيى اللحياني السلطان الحفصي، وقد أمضيت المعاهدة من قبل قريقوار سالومب *Grégoire Salombe* سفير ملك ميورقة[2] هذه المعاهدة التي ناقشت المسائل التجارية وخاصة تلك المتعلقة بالتجار المقيمين في الدولة الحفصية من المقاطعات الثلاث وبحث شؤون السلم بين الطرفين.

الجدير بالملاحظة أن هذه المعاهدة التي أوضحت أيضا عدة نقاط تهم القانون التجاري والبحري الخاص برعايا الطرفين المتعاقدين، لم تتعرض لأهم المطالب الأراغونية المعروفة لدينا من خلال التعليمات التي أعطيت للمبعوث أولومار *Olomare* ويتعلق بعضها بوضعية جند النصارى في تونس وتوصي التعليمات الأخرى للمبعوث الأراغوني بالحصول على 5/1 ما يدفعه رعايا مملكة أراغون من أداءات جمركية لفائدة مليكه أو المطالبة على الأقل في صورة الرفض وكشرط لازم بالحصول على وعد من قبل السلطان بدفع خمسة آلاف دييلون ذهب للملك خايم عن كل سنة من سنوات صلاحية المعاهدة ومن المستبعد[3].

ج/الدولة الزيانية:

عقدت هي الأخرى جملة من المعاهدات مع الدول الأوروبية،لأن يغمراسن بن زيان أدرك الكثير من العبر والدروس من العلاقات التجارية التي قامت بين تونس وتلك الدول، فبادر هو الآخر منذ 1250م بإيفاد وزيره المفوض- أبو أرلان -لإجراء مفاوضات اقتصادية في برشلونة، وتوجت مهمته بإبرام صفقات بيع وشراء

---

[1] .*Ibid,introduction, p166.*

[2] .*Ibid , introduction, p188.*

[3]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص166-167.

بالجملة مع كل من قطالونيا ومونبيلي،ونجحت مساعيه أيضا في توطيد علاقات التعامل المالي مع أحد الرأسماليين في برشلونة – راموس دي بانياريس- *Ramos de Paniaris*والذي كانت له معاملات ومبادلات تجارية متميزة مع المغرب الأوسط[1].

وهناك معاهدة أخرى سنة 1286م بين الدولة الزيانية ومملكة أراغون وتمت بين أبي سعيد عثمان بن يغمراسن (1282-1303م)ملك تلمسان وبين ألفونصو ملك أراغون (1217-1285م) والتي ذكرها -بيار غارسيا-المفاوض الذي سافر الى تلمسان حيث أبرمها[2]، وقد نصت المعاهدة على عدة أمور تنظيمية في الميدان التجاري، وفي مادتها الثانية نصت على حق مملكة أراغون في استيراد المواد الغذائية من جميع المقاطعات التي تخضع لملك تلمسان بكل حرية،مع إعفاء المواد الغذائية التي يحتاجها الملك لاستعماله الشخصي من أية ضريبة [3].

وفي 24 ابريل 1319م وجهت من مدينة برشلونة الإسبانية رسالة من جاك الثاني ملك أراغون إلى أبي تاشفين الأول الأمير الزياني والتي أصدر فيها أوامره إلى مبعوثه الخاص إلى تلمسان بطرح اقتراح عقد اتفاقية تجارية بين العاهلين[4].

وفي سنة 879ه/1483م أرسل الأمير الزياني محمد الثابتي (872-910ه/ 1468-1505م) مبعوثا إلى البندقية ليقدم له اقتراحا بفتح قنصلية ويعقد معاهدة سلم وتبادل تجاري مادام فندقهم تحت حماية القنصل الأراغوني، فقد فعل نفس المبادرة في

---

[1]. جيلالي صاري،المرجع السابق، صص 2-39.

[2]. عطا الله دهينة، نفس المرجع السابق، ص479-490.

[3]. جيلالي صاري، المرجع السابق، ص51.

[4]. *Mas Latrie, op.cit, Introduction,* p312.

مارس 894ه/1488م[1]، ولهذا فقد امتلكوا فندقا في وهران ومراكز تجارية تحت إشراف القنصل[2].

وللإشارة فإن علاقات الدول الأوروبية مع تلمسان قديمة امتدت على الأقل إلى أيام الموحدين وأن المعاهدات التجارية لم يكن تأثيرها تأثيرا مباشرا على الأطراف الموقعة عليها بل يمتد تأثيرها إلى دول أخرى، فتشير الوثائق مثلا على أن العلاقات بين مرسيليا وتلمسان أصبحت نظامية ورسمية بعد أن أبرمت مرسيليا معاهدة للسلم والتجارة مع جنوة في 533ه/ 1138م،هذه المعاهدة التي نصت على أن تقيم مرسيليا علاقات مع الدولة الموحدية[3]، وسمحت لمرسيليا أن تدخل لأول مرة مراسي المغرب تحت حماية الجنويين[4]، وقد طور المرسيليون نشاطهم التجاري ليبلغ أوجه في القرن 13م، وهذا انطلاقا من_سجلات تجارية مؤرخة في 1255/654 و 1288/687م وجدت في الأرشيف بمرسيليا والتي تشير إلى أن المرسيليين كانوا يترددون آنذاك على مراسي المغرب الأوسط وخصوصا مرسى وهران وبجاية للإتجار في الخمر[5]، وكان التجار المرسيليون يتمتعون عن نظرائهم الاوروبيين بمزيد من الإمتيازات .

ج-المغرب الاقصى :

عقد ملوك المغرب الأقصى جملة من المعاهدات التجارية وعبر فترات مختلفة، فبالنسبة لمملكة أراغون، نجد أعيان مدينة برشلونة في الفاتح جوان 1302م يناشدون أبا يعقوب يوسف المريني ملك المغرب بالسماح لمواطنيهم بالمغرب بتصدير

---

[1] .B.DOUMERC, *Venise et la dynastie Hafside ala fin du XVe siecle*, cahier deTunisie, tXXIX, no117-118,1981, p573.

[2]. R.LESPES, *Oran-ville et port- avant l'occupation francaise*, Revue Africaine, n075 ,Alger 1934,p292.

[3] .Mas Latrie, op.cit, Introduction, p88.

[4]. Ibid, Introduction, p17.

[5] . Ibid, introduction, p89.

قمح مملكته نحو برشلونة بأثمان مخفضة[1]،هذا النداء الذي كان تمهيدا لعقد سلسلة من الاتفاقيات ففي 15 أبريل 1339م عقدت بمدينة تلمسان بالمغرب الأوسط معاهدة نوقشت فيها مجموعة من القضايا التجارية ،انتهت الى عقد اتفاق للتجارة لمدة عشر سنوات بين جاك الثاني Jacque II ملك ميورقة وكونت الروسيون وسردينيا ومونبيلييه وأبو الحسن علي ملك المغرب[2].

وفي 09 أبريل 1358م، نجدالسفير ألبيزي بيير دولابارب *Pierre de la Barbe* يحل على السلطان المغربي أبي عنان فارس لعقد اتفاقية سلم وتجارة على شكل امتيازات لمدة عشر سنوات، وهناك جملة من الرسائل التي تبودلت بين ملوك المغرب وملوك أراغون وردت في كتاب فيض العباب للنميري[3] منها رسالة من أبي عنان فارس تحمل تاريخ ذو الحجة 755ه/1354م موجهة إلى ملك أراغون –بدرو الرابع *Pedro IV*، وهي جواب عن رسالة بعث بها هذا الأخير إلى أبي عنان طالبا منه السماح لتجاره بمزاولة نشاطهم في المغرب وإطلاق سراح النصارى المعتقلين، فيستجيب أبو عنان لهذا المطلب ويوافق على المقترحات المقدمة إليه.

كما نجد رسالة مؤرخة في 28 رجب 752ه،/1351م موجهة الى صاحب أراغون يخبره أبو عنان بما جرى بين التجار النصارى وحراس الشواطئ المغربية من مناوشات وخصومات بشان قرقورة أخذها بعض التجار المذكورين، وفيها يؤكد أيضا أبو عنان أن عقد الصلح ثابت وأنه يتوجب على ملك أراغون أن يراجع موقفه ويرد ما كان في القرقورة ليحرر الشيطي الذي حبسه ابن الخطيب، ورسالة أخرى بتارخ شعبان 752ه/25-9-1351 م وهي جواب من أبي عنان إلى –بردرو الرابع–يطمئنه فيها على سلامة التجار النصارى ويذكره بالاجراءات المختلفة التي اتخذها أبو عنان بشأن

---

[1] .*Ibid, introduction, p291.*

[2] .*Ibid, introduction, p187.*

[3]. انظر ابن الحاج النميري،المصدر السابق، صص101-102-103.

قضية الشيطي، وهي تأكيد وتزكية.

كما عقد الصلح بين أبي عنان فارس وملك أراغون -بدرو الرابع- بتاريخ 25 رمضان 751ه/26-11-1352م مدته 14 شهرا ابتداء من تاريخه، وهو يضمن حرية السفر والمتاجرة لرعايا كل من الدولتين.

ونجد رسالة مؤرخة في11 صفر 759ه/23-1-1358م من الشريف محمد بن يحيى بن يوسف الحسيني نيابة عن أبي عنان إلى ملك أراغون بيدرو الرابع مضمونها هو إخباره بأن أبا عنان قد قبل عقد معاهدة صلح مع صاحب صقيلية أخ زوجته، وعالجت موضوعا آخر يتعلق بشراء بعض الأغراض من المغرب لفائدة الملك-بيدرو الرابع.

أما الرسالة المؤرخة في شوال 751ه/8-9-1350م والموجهة من الأمير فارس بن أبي الحسن إلى بيدرو الرابع *PedroIV* يخبره بوصول السفير -فرنسيس بورتيل *Fransisco de Portello* الذي كان يحمل رسالة إلى العاهل المغربي حيث أمضى ملك المغرب اتفاقية مع ملك أراغون تضمن السلام والأمن لكل التجار الوافدين الى المغرب الأقصى[1].

أما في 28 رجب 752 ه/20-9-1351م فنجد رسالة من السلطان فارس بن أبي الحسن المريني إلى الملك بيدرو الرابع حول موضوع يتعلق بقرصنة ارتكبها خدامه الذين أخذوا الشياطي بمقربة من جبل الفتح، وتجاره الذين تعدوا على القرقورة، ويقول فيها ((واعلم أن ابن الخطيب ما تعرض للشيطي المذكور إلا بعد أن أشهر التجار الذين كانوا به السلاح وأظهروا القتال)).

من الملاحظ أن العلاقات الأراغونية على عهد أبي عنان امتازت بالهدوء ومحاولة الدول الأوروبية جلب أبي عنان إلى صفها وخاصة في إطار الصراع بين

---

[1]. الهادي التازي،المرجع السابق، ص143.

قشتالة و أراغون، لكن بعض الأحداث المحدودة التي كانت تطفو على السطح من حين لأخر كانت تعكر صفو هذه العلاقات وهي في أغلبها متعلقة بالجانب التجاري، كالاصطدامات بين التجار في الشواطئ البحرية كتلك التي حدثت عندما كان أبو القاسم بن فتح مسافرا وصادف شيطيا للروم فأخذه ، وأسر أهله وأتى بهم الى بلد العناب مقرنين في الأصفاد، أوالخطيب أبي العباس الذي لقي أيضا في عرض البحر جفنا للروم فانقض عليه انقضاض الأجادل على اليعاقب السوابح، فأخذ الجفن ومن فيه وجاء بأسرى[1].

[1]. انظر ابن الحاج النميري،المصدر السابق، ص104.

المبحث الثالث:طبيعة المبادلات

نظرا لأن إمارات بلاد المغرب الثلاث لم تعرف التوافق بينها إلا في القليل النادر من عمرها، فإنها كانت أبعد من أن تشكل كتلة اقتصادية واحدة، أو مخططا يهدف إلى توحيدها في هذا المجال، ولهذا ارتأينا أن نعالج كل إمارة أو دولة على حدى فيما يخص مبادلاتها مع دول الضفة المقابلة من المتوسط .

أ-المغرب الأدنى:

رغم قلة المصادر التي أشارت بشكل صريح إلى المبادلات التجارية للمنطقة، والتي ربما يعود السبب فيها إلى قلة ما كانت تصدره حسب ما ذكرناه سابقا فيما يخص إنتاجها الصناعي والزراعي، إلا أننا استطعنا رصد بعض المواد المتبادلة لأن الشيء المؤكد أن أهل المنطقة قد زاولوا التجارة مع دول أوروبا بصفة فردية عشوائية أو نظامية تمت على مستوى موانئ ومراكز الجمارك المتواجدة بالسلطنة.

أ1-الصادرات :

نجد على رأسها الشمع والجلود اللذان كانت تجود بهما قسنطينة، والصوف الحسنة المحمودة التي اختصت بها جزيرة جربة دون غيرها من البلاد والذي ساعدت على تواجده حياة الرعي والترحال التي كانت تعرفها المنطقة ، فكانت السفن الأوروبية تأتي بشكل منتظم لاستيراده وخاصة فيما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر

الميلاديين[1]، ومن بين المناطق التي كانت تجلب تلك الأصواف والجلود نذكر مرسيليا وجنوه وبيزة والبندقية، والتي كان جزء هام منها ينتقل عبرها الى-الفلاندر- الأراضي المنخفضة[2].

كما صدرت الدولة الحفصية الحبوب ومنها القمح، وهذا ما نستنتجه من رواية برانشفيك أنه في سنة 1285م استولى الأميرال الجنوي-هنري سبينولا- بالقرب من جزيرة كورسيكا[3]على سفينة قطلانية كانت تحمل القمح من تونس إلى ميناء بيزانو، ومن المفارقات أن الدولة الحفصية كانت تستورد الحبوب من الجمهوريات الايطالية، لكنها في نفس الوقت كانت تصدر إليها القمح لأنها كانت تحبذ جلب الحبوب من بلا

المغرب[4]، وبكميات محدودة لأن السلطة الحفصية لم تكن لتوافق على تدفقها بشكل كبير نحو مراسي الدول النصرانية.

وما يمكن ملاحظته أن تعاملات السلطنة الحفصية تمت مع شبه الجزيرة الايطالية بشكل كبير نظرا لقرب المسافة، فنجد عنابة مثلا مقصدا لتجار جنوة الذين كانوا يجنون أرباحا كبيرة منها نتيجة لاتجارهم في الخيل والمواشي[5].

أما الزيت فقد احتكرت البندقية جزءا كبيرا من وارداته لأنها كانت تنقله من هناك-جربة- وسوسة نحو دول أخرى ومنها مصر[1]، وعلى غرار بلاد المغرب الأوسط

---

1. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص6، انظر أيضا ــالتجاني، المصدر السابق، ص122، روبار برانشفيك،المرجع السابق، ج2، ص273.

2. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص 273.

3. كورسيكا جزيرة فرنسية في البحر الأبيض المتوسط وتقع على بعد14 كلم شمال جزيرة سردينيا، بين جنوب شرقي فرنسا وشمال غربي إيطاليا، واسم كورسيكا باللغة الفرنسية التي هي اللغة الرسمية لأهلها هو كورسي.انظر خريطة جنوب غرب أوروبا ملحق رقم...........

4. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص123-272.

5. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص 8.

والأقصى فقد صدر أهل تونس بعض الموارد الصحراوية ومنها التبر والتمر والعبيد من قسنطينة التي

كانت ترسل القوافل إلى نوميديا وليبيا محملة بالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية وبالزيت، وتعود منها بالتبر والتمر والعبيد السود فكانت بذلك خير وسيط في التجارة بين القارتين[2].

صدرت السلطنة أيضا الزبيب واللوز وخاصة من بجاية وعنابة وجربة[3]، ومما يدل على شهرة اللوز المغربي بشكل عام والبجاوي بشكل خاص هو أن أحد التجار المرسيليين وجه في سنة 1234م إلى بجاية حمولة سفينة لبيعها هناك، فتم تحويل ثمن تلك البضاعة إلى ما يقابل قيمتها من اللوز[4].

ومما اشتهرت به إفريقيا الشمالية و بالأخص بجاية هو صناعة الشمع بما كان يتوفر في المنطقة من مادة أولية كانت حتما تصدر نحو أوروبا وقد أشار إلى ذلك الرحالة المغربي الوزان في عدة مواطن من كتابه وصف إفريقيا.

احتكرت جمهورية البندقية أو حاولت احتكار تجارة الملح الإفريقي –الحفصي– وخاصة بالنسبة للقسم الموجه نحو أوروبا، ويشير برانشفيك إلى أنها كانت تنقل كميات كبيرة من ذلك الملح إلى السودان عن طريق البر وحاولت حصر تجارتها مع إفريقية في مادتين أساسيتين هما القمح والملح، وهذا ما ندركه من خلال رد سفير البندقية على السلطان الحفصي بأن الجمهورية لا ترغب إلا في تجارة المادتين السابقتي الذكر[5]، وكان الملح يستخرج من جملة من الملاحات وخاصة سبخة –المخبز –لنقله من هناك إلى أوروبا[6]، وفي نظرنا أن السبب يعود إلى الأهمية

---

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2،ص273،انظر أيضا، الوزان، المصدر السابق،ج2، ص 83-93.

[2]. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص11.

[3]. الوزان، نفس المصدر،ج2،ص93-94.انظر أيضا برانشفيك،المصدر نفسه،ج2 ص274.

[4]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص274.

[5]. *Mas Latrie, op.cit, introduction, p218*

[6]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص139.

القصوى التي كانت تكتسيها هذه المادة آنذاك وخاصة ببلاد السودان التي لم تكن تحتوي عليها، فكانت تستبدل هذا الملح بمثله تبرا فكانت تريد أن تضرب عصفورين بحجر واحد،أي تكون محتكرة لتجارة الملح من جهة و جالبة للذهب من بلاد السودان من جهة أخرى، وما يؤكد هذا الاتجاه أن الدولة الحفصية كانت تستورد ومن الجمهوريات الايطالية تحديدا الذهب والفضة كما سيأتي ذكره فيما بعد.

أما شواطئ عنابة التي كان يكثر فيها المرجان فقد كانت مجالا لاستخراجه أو صيده من البحر للجنويين بشكل مباشر، لأن الملك أكرى- منح الأجانب امتياز وحق الاستغلال المباشر- للجنويين الذين استأذنوه في بناء قلعة هناك[1]، وهذا في الحقيقة نوع من الامتيازات التي ظهرت بشكل واسع وخطير في العهد العثماني والذي كان في حقيقته استعمارا مقنعا أو تمهيدا لاستعمار حقيقي.

كما خرجت من جربة التي كانت تجود بها أصناف سائر الفواكه وخاصة التفاح الذي "لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير لما يوجد بها من شجره منه صفاء وجفافا وطيب مذاق وعطارة استنشاق ورائحته توجد من المسافة المديدة والأميال العديدة " فكان النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم[2].

والملاحظ أن نصيب المواد المصنعة كان ضئيلا ضمن الصادرات الحفصية، إذ انحصرت في منتجات صناعية تقليدية كالخزف والسلال والقفاف والحصر[3]، إضافة إلى الزرابي والأقمشة التي اشتهرت بصناعتها وبتصديرها سوسة -المدينة الكبيرة المنيعة - والتي تنسب إليها -الأقمشة والثياب السوسية- فكان المسافرون والتجار يقصدونها من

---

[1]. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص62.انظر أيضا، روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2،ص458.

[2]. الوزان،2 المصدر السابق،ج2، ص93.

[3]. نفسه،ج2، ص276.

الآفاق[1]، ومما يؤكد هذا الاتجاه وبراعة تونس في مجال النسيج أن المؤرخ –فانك–يتحدث عن جهاز الأميرة الأراغونية إيزابيلا سنة 1313م والذي كان يشتمل على زربيتين مصنوعتين في مدينة تونس[2] وأن البندقية تحصلت سنة 1356م على حق تصدير الزرابي من طرابلس بدون أداءات جمركية[3]، كما استوردت بلاد الأندلس الأقمشة والأردية التونسية والتي كانت تزيدهم رونقا خاصة في المناسبات ومنها الجمع فتبصرهم في المساجد كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة[4]،أما اسبانيا النصرانية فاستوردت الأقمشة التونسية لصنع بعض الملابس الضخمة، وحاول البرتغاليون أيضا الاستحواذ على تصدير الأغطية الإفريقية المسماة بالحنبل إلى أقطار إفريقيا السوداء ونجحوا في مسعاهم[5].

الـــــــــــــــــــــــــــــــــواردات:

يورد لنا برانشفيك قائمة إسمية لما استورده الحفصيون من أوروبا[6]، ومن ذلك الأقمشة من بيزة ومن دول أوروبية مثل المدن الفرنسية التي جلبت منها المنسوجات وموادها الأولية، فجلبت من مرسيليا الكتان والقنب والحرير الخام المفتول إضافة إلى الأقمشة المصنوعة من الكتان والقنب والصوف والحرير الخشن أو الرقيق وقماش الايتامين (قماش رقيق)، وجلبت المنسوجات الصوفية من أراس *Arras* والأقمشة الصوفية من مدينة شالون *Chalons* والمنسوجات الحريرية من منطقة السيفين Cevennes بينما زودها الجنويون والبنادقة بالأقمشة الصوفية المجلوبة من فلاندريا

---

1. التجاني، المصدر السابق، ص25–26.
2. نقلا عن روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص276
3. انظر برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص276.انظر أيضا *Mas Latrie,op.cit, introduction, 221 p.*
4. لسان الدين ابن الخطيب ،اللمحة البدرية، ص27.
5. روبار برانشفيك، نفس المصدر،ج2، ص277.
6. نفسه ،ج2 ، ص73–268–270–271–272.

بالأراضي المنخفضة، إضافة إلى الأقمشة الصوفية والقطنية المشبوكة والشملات من فلورنسا، وكان جزء من هذه الأقمشة يخزن في القيصرية ويروج هناك .

أما عن المعادن فإلى جانب الحديد والقصدير وبالخصوص النحاس الذي كان يجلب من مجموعة من دول أوروبا لسد العجز الحاصل في هذا المعدن، وبالخصوص من البندقية، كانت الدولة الحفصية تجلب الفضة في شكل سبائك أو قطع مسكوكة من أوروبا، وخاصة من مرسيليا التي كانت تبعث إليها بالفضة المسكوكة خلال القرن7ه/ 13م وخاصة إلى مينائي تونس وبجاية، بينما لجأت في النصف الأول من القرن9ه/ 15م إلى طلبها من جنوة والبندقية، وهناك جملة من الأحجار الكريمة التي يمكن أن ندرجها ضمن هذا السياق كالياقوت[1] الأحمر والوردي والزمرد[2] والفيروز[3] واللؤلؤ التي جلبت إليها من الجمهوريات الايطالية و المرجان المصنوع في جنوة أو مرسيليا[4].

وبخصوص المحاصيل الزراعية، فقد استوردت الدولة الحفصية الحبوب حنطة وشعيرا من مناطق أخرى خارج البلاد الايطالية مثل قطلونيا ومختلف المناطق التي تتألف منها مملكة ميورقة إضافة إلى الزيوت الأوروبية وخاصة الإيطالية التي كانت ترد إليها بصورة منتظمة[5] هذا الأمر الذي استغربه برانشفيك ونستغربه نحن أيضا، إذ كيف لبلد تجود به زراعة الزيتون ويرتكز معظم اقتصاده على الزراعة[6] ويصدر هو كميات منها

---

[1]. ثاني أكثر المعادن النقية صلابة، إذ لا يفوقه في ذلك إلا الماس، ويتواجد على شكل شذرات شفافة في الحصى وعلى شكل عروق غير شفافة في الصخور.

[2]. حجر كريم أخضر اللون يضم تشكيلة من البريل المعدني ،والزبرجد الصافي مركب من سليكات الألمنيوم ويعود لونه الأخضر الى المكتسب الى وجود مجموعات دقيقة من معدن الكروم داخل البلورات وتكمن قيمته في لونه وصفائه وخلوه من الشقوق ونقائه من الشوائب.

[3].الفيروز معدن من المعادن التي تستخدم حجرا كريما وهو نفيس بسبب لونه الأزرق البراق المائل الى الخضرة وهو على عكس المعدنين السابقين لين وطري يسهل تشكيله وتلميعه.

[4]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص272.

[5]. نفسه، ج2، ص268.

[6]. التجاني، المصدر السابق، ص55.

يلجأ إلى استيرادها، ففي مطلع القرن 7ه/13م كان بعض سكان بيزة يسقون الزيت من توسكانا إلى إفريقية، ويشير برانشفيك إلى وثيقة تعود إلى سنة 1285م صادرة عن ملك أراغون أن اثنين من رعاياه قد جلبا الزيت في السابق إلى تونس بما قدره 3402 من الدنانير وفي سنة 1402م سلم البنادقة كمية من الزيت إلى أهل بجاية لافتداء الأسرى من مواطنيهم[1]، ومن هنا نلاحظ بأن الاقتصاد كان له دوما ارتباط وعلاقة وتأثير في الجانب السياسي للدول.

أما عن استيراد الزيت الايطالي فقد يكون السبب هو تفاوت الجودة أو شح الإنتاج في بعض السنوات خاصة إذا علمنا أن الإنتاج في بعض المناطق يتناوب بين سنوات الوفرة و القلة في بلدان المغرب،أو إلى إفساد الأعراب لجل أشجاره وخاصة بمنطقة الساحل التي يصفها التجاني بأنها كانت على الاستواء أسطرها، وكان مغروسا على حالة مغلومة وأسطر متناسبة منظومة[2].

ومن الفواكه فقد جلبت الدولة الحفصية البندق الكبير من سلرن التي تقع بالقرب من نابل[3] التين والجوز واللوز من إيطاليا، والقسطل من مرسيليا أو نابولي[4]- واستوردت واستوردت الخمر من المناطق الأوروبية المتوسطية وخاصة من اسبانيا واليونان لاستهلاك اليهود والنصارى، وكذا لاستهلاك عدد محدود من المسلمين[5].

ونظرا لطبيعة أرضها التي يغلب عليها الطابع الصحراوي فقد لجأ الحفصيون إلى جلب الخشب من جنوة الايطالية.

وهناك قائمة أخرى تحتوي جملة من المحاصيل الزراعية التي كان بعضها لا يستورد بطريقة مباشرة من أوروبا وإنما اعتبرت ممرا ومعبرا له أين كانت تخزن لتوسق إليها من بعد، ومنها البهارات والنباتات الطبية من القرنفل القرفة،الزنجبيل، جوز الطيب

---

[1]. انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج2، ص268-269.

[2]. التجاني ، المصدر السابق،ص55.

[3]. ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص50.

[4]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج2، ص269.

[5]. نفسه،ج2، ص269.

والسنا والمن والراوند، الزعفران، الصبر الدردي، الصمغ والبورق والاصطرك والكافور، إضافة إلى العطور مثل البخور والمسك وصمغ جاوة والزباد والعنبر والبرنيق ومواد الصباغة مثل النيلة والبقم[1].

ومن الحيوانات فقد جلبت إليها الخيول والعصافير المعدة للبيع والموجهة خاصة إلى السلطان دون سواه وكثيرا ما تكون في شكل هدايا، ومن الطيور نجد النسور والبزاة والصقور المعدة للصيد[2].

أما المنتوجات الصناعية فتمثلت في بعض الأسلحة ومنها السيوف، إذ أشار أحد المؤلفين البنادقة وهو *Di pasi* إلى أن سلطان تونس طلب من جنوة في سنة 1433م تزويده ببعض السيوف إضافة إلى بعض الخردوات التي كانت تعرف بخردوات ميلانو والمجوهرات المختلفة والمصنوعات الزجاجية الواردة من البندقية[3]،_وبما أن صناعة الورق غابت عن البلاد الإسلامية المغربية الممتدة من تلمسان إلى طرابلس، فإن كل ورقة كانت ترد إلى المنطقة تأتي من بلاد النصارى[4].

2 المغرب الأوسط:

منذ نهاية القرن 6ه/12م وبداية القرن 7ه/13م تقاطر على الدولة الزيانية عدد هام من تجار أوروبا وخاصة من فرنسا وأراغون وقشتالة وأقاموا بمدن وهران تلمسان وهنين ومنها تابعوا عملياتهم التجارية، لأن معظم التجار المسيحيين كانوا ينشطون بصفة خاصة في عاصمة الدولة –تلمسان–[5]، وقد سيطر الايطاليون على نقل وتوزيع

[1].البقم شجر من أمريكا الوسطى يحتوي على خشبه على مادة ملونة تستعمل في الصباغة.انظر برانشفيك،المصدر السابق،ج2،هامش 80، ص270.

[2]. انظر برانشفيك،المصدر نفسه،ج2،ص272.

[3]. نفسه،ج2، ص272–271.

[4]. انظر الونشريسي، المصدر السابق ،ج1، ص76.

[5] *.Mas.Latrie, op.cit, introduction, p183.*

البضائع والسلع على كل المتوسط، لأن علاقاتهم مع المنطقة كانت عميقة تعود إلى عهد الموحدين، إذ عملت تلك الإمارات وعلى رأسها جنوة على تمتين علاقاتها التجارية مع الموحدين منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر و من ثم الإرساء بميناء وهران سنة 1179م[1]، فعملت بعدها على تطوير تلك العلاقات حتى أصبحت تجارة زاهرة وخاصة في الربع الأول من القرن7ه/ 13م[2].

ا/ الصادرات: إن قائمة السلع وكميتها التي سنعرضها في هذا المجال لم تكن ثابتة وقارة على مدى عمر الإمارة الزيانية، نظرا لما انتابها من أحداث سياسية أثرت على مساحتها ونشاطاتها بكل أنواعها، ولذا فقد نستعيض بكلمة أو مصطلح المغرب الأوسط عن كلمة الدولة الزيانية.

تأتي الحبوب على رأس صادرات المغرب الأوسط الزراعية، وتفيد المصادر بأن وهران ظلت تكتسي أهمية بالغة في تصديرها، وذلك ابتداء من القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي -انطلاقا من مرسى وهران وأرزيو[3]، وكذا ميناء تنس الذي كانت تحمل المراكب منه القمح إلى مناطق عديدة وبالأخص تجاه سواحل الأندلس[4]، كما كانت هذه الحبوب تتجه نحو سواحل شبه الجزيرة الايطالية وخاصة جنوة والبندقية لأن أهلها كانوا

---

[1] .CH.E.Dufourcq, l'Espagne catalane, Paris-France1966,p134.

[2] .R.H.BAUTIER? les relations commerciales entre l' europe et l'Afrique du nord et l'équilibre économique méditerranéen du XIIème au XIVème siecle,Bulletin philologique et Historique (jusqu'en 1715) du Comite des Travaux Historiques et Scientifiques 1953et 1954,pp399-416.

[3].Robert Vernet, Recherches sur la production et la circulation des céréales dans le Maghreb medievale, Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb, N13,Janvier 1976,p34.

[4]. ابن سعيد المغربي،المصدر السابق، ص144.

يفضلون قمح المنطقة لاحتوائه على كمية كبيرة من السميد، فكانوا يصنعون منه الرغيف البحري الجاف والأطرية[1].

كما خرجت من موانئ الإمارة الجلود والأصواف المدبوغة والضأن، التي مثلت مادة أولية للكثير من الصناعات ومنها الصناعات الجلدية والنسيجية[2]، وكانت تتجه خاصة نحو شبه الجزيرة الأيبيرية لتصنع وتحديدا إلى اشبيلية التي صارت ملتقى التجار من ايطاليا والبرتغال والانجليز والفرنسيين الذين أصبحوا يفدون عليها للحصول على ما اشتهرت به من صوف ومصنوعات جلدية إضافة إلى الشب والزئبق لصبغ المنسوجات وجالبين إليها في نفس الوقت السلع الكمالية[3]، واتجه الزئبق منها نحو الإمارات الايطالية وخاصة البندقية[4].

اشتهرت بلاد المغرب الأوسط بصناعاتها –التقليدية–وخاصة النسيجية والتي بدأت تنتعش وتزدهر ابتداء من القرن العاشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، إذ كانت نافقة ورائجة، وهذا ما ندركه من خلال قول الوزان " وكان معظم سكانها –أي وهران– من الصناع والحاكة ويعيش أكثر سكانها على مدخولاهم..."[5]، ولعل ما دفع أهلها إلى هذا هو عدم كفاية المحصول الزراعي المحلى لسد حاجياتهم، إذ كانت أرضهم تجود بإنتاج الشعير الذي مثل معظم أكلهم[6].

كما كانت بلاد المغرب الأوسط تصدر التمور التي تفتقدها الضفة الشمالية للمتوسط نظرا لعوامل طبيعية ومناخية على رأسها الحرارة، فكانت ذات قيمة غذائية هامة لدى الأسبان

---

[1]. محمد الطمار،الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983، ص248.انظر أيضا توفيق المدني، المرجع السابق،ص37.

[2].*Djilali Sari, op.cit, p33.*

[3]. كولستو،ج،ج،المرجع السابق، ص112.

[4]. توفيق المدني،المرجع السابق، ص37.

[5]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص30.

[6]. نفسه،ج2، ص30.

وفي جميع المدن وكان ملك أراغون يفضلها على مائدته[1]، عموما فقد عرفت حركة تصدير الفواكه الجافة نشاطا كبيرا والتي نذكر منها الجوز والبندق والزبيب[2].

صدرت موانئ المنطقة بعض الحيوانات كالخيول رغم توفرها في المنطقة-شبه الجزيرة الايبيرية- والصقور وهذا ما نستشفه من خلال حديث الوزان لكنها كانت تتجه نحو الملوك والطبقة النبيلة فقط[3]، كما كانت تخرج من مرسى تنس كميات من الشمع التي كانت تصنع من شهد النحل و الذي كانت تشتهر به منطقة جبل بني بوسعيد[4] وكان أهالي المنطقة يتعاملون في ذلك رأسا مع التجار الأوروبيين الذين كانوا يفدون إلى المرسى المذكور[5].

أما من تلمسان فقد خرجت كميات هامة من العسل الذي كانت تشتهر به مناطق عديدة من أحوازها والمناطق المجاورة لها،إضافة إلى الزيت والعبيد الذين كان ملك أراغون يرسل تجارا لجلبهم منها[6]، وكانت تلمسان أيضا منطقة مرور أو عبور للكثير من السلع التي كان يستقدمها تجارها من دواخل إفريقيا السوداء كالتبر والرياش والبهارات[7]، فكان الايطاليون خاصة يأتون لبلاد المغرب خصوصا لشراء الذهب، فسيطروا على جزء هام من تجارته في تلمسان والمغرب الأقصى[8].

لقد دخلت الإمارات الايطالية وخاصة جنوة في منافسة مع بيزا سردينيا وكورسيكا وصقلية ولهذا كانت تجارتها في هبوط، ربما بسبب صعود القطلانيين الذين أقاموا علاقات طيبة مع عواهل المغرب الأوسط الذين فضلوا التعامل معهم تجاريا عن الجنويين، الذين وجهوا اهتمامهم وتركيزهم على التجارة مع دول المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط خاصة بعد

---

[1]. *Djilali Sari,op.cit,p*

[2] *Ibid, p34.*

[3].انظر الوزان، المصدر السابق،ج2، ص9 .

[4]. ليس المقصود بها المنطقة الحدودية للجزائر مع المغرب والتي لا زالت تحتفظ بهذا الاسم وإنما المنطقة الجبلية المجاورة لمدينة تنس ،انظر الوزان،المصدر السابق،ج2، ص45.

[5]. نفسه، ج2، ص45.

[6]. *Djilali Sari, op.cit, p34.*

[7]. بوزيان الدراجي،المرجع السابق، ص215.

[8]. *Voir J.Heers, op.cit, p252.*

المزاحمة التي شهدوها من قبل القوة الجديدة وهي قوة العثمانيين الذين سيطروا على الطرق التجارية المشرقية[1]، الأمر الذي دفعهم إلى التوجه نحو الحوض الغربي منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي لتعويض خسائرهم المترتبة عن تراجعهم وانسحابهم من المشرق، ومن ثم فستفيدهم تلمسان باعتبارها ملتقى الطرق التجارية والطريق نحو التبر خاصة.

كان العديد من التجار الايطاليين الجنويين يدخلون المناطق الداخلية للمغرب الأوسط مجذوبين بتجارة الذهب، وقد بلغ –أنطونيو مالفنتي– منطقة توات مارا عبر تلمسان[2]، ونظرا للأهمية المتزايدة للتجارة مع المغرب الأوسط ولإنعاشه فقد أعفى مجلس –السينا –الجنوي من أي ضريبة كل بضاعة للتجار الجنويين القادمين من المغرب،ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة للبندقية التي لم تتأخر لتحقيق الفائدة من الاتجار مع تلمسان والمدن المغربية الأخرى، فاجتهدت بواسطة تجارها لبلوغ ذلك،أي للتفرغ لتجارة الذهب القادم من السودان الغربي في مينائي وهران وتونس.

ب/ الواردات:

كانت متنوعة وغير قارة، فرغم ما اشتهرت به المملكة من وفرة في إنتاج الحبوب إلا أنها لجأت في بعض السنوات إلى استيرادها،أي خلال سنوات القحط والمسغبة[3]، ولم تكن هذه السلع الواردة من الضفة الأخرى موجهة لتلمسان فقط بل راعت راعت أيضا ما تحتاجه دواخل الصحراء وخاصة السودان الغربي، التي كانت تمثل موردا هاما لتزويد تلمسان بالتبر الذي اعتبر عمود صادراتها إضافة إلى العبيد والرياش والبهارات كما أشرنا سابقا، والتي تعتبر الوسيط التجاري بينها وبين أوروبا،إذ كان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع وذلك يرسل له بالجلد والعاج

---

[1]. حول هذا الموضوع ،انظر: *Las Matrie, op.cit, introduction, pp2-3-325-326.*

[2] *.J.Heers, op.cit, p235.*

والتبر[1]،كما جلب تجار تلمسان والمغرب الأوسط أقمشة الحرير من مدينة المرّية وأنسجة الكتّان من المدن الايطالية[2] التي كانت تحتكر عملية جلبها من فرنسا وهولندا [3]، كما جلب الزيانيون مادة الجوخ أو الملف الذي اشتهرت بصناعته ايطاليا خاصة متزودة في ذلك بمواد قادمة من الشرق، فكانت تلك المادة تستقدم لتصنع منها بعض قطع لباس الجند[4].

لم يكن القصد من وراء التجارة دوما تحقيق الربح، بقدر ما كان الهدف منها جلب مواد يستطيبها سكان المنطقة أو يفتقدونها، وعلى رأسها البضائع المصنعة، وهذا ما يشير إليه مارسي بقوله "إن السّلع المستوردة من وراء البحر كانت أقل إنتاجا للثروات، لكنها زوّدت تلمسان ببضائع مصنوعة...."[5].

كما لا نستبعد استيراد بلاد المغرب الأوسط لبعض المحاصيل الزراعية من شبه جزيرة الأندلس، وذلك من خلال ما نستخلصه من إشارات لبعض الرحالة والجغرافيين مثل الإدريسي الذي يقول بأن اشبيلية التي اشتهرت بزيتها ((فكان يتزود به من مشارق الأرض ومغاربها عبر البر والبحر))[6]، وكذا الزعفران الذي اشتهرت به وادي الحجارة و الذي يتجهز به منه ويحمل الى سائر البلاد[7].

ومن خلال قائمة الواردات التي ساقها عطا الله دهينة نلاحظ غياب الخمور، لكن نلاحظ وجودها في القائمة التي أوردها جيلالي صاري والذي أشار في نفس الوقت إلى قلتها وتوجهها نحو الجالية المسيحية المقيمة بتلمسان والمليشيات المسيحية الموجودة ضمن

---

[1]. المقري ،المصدر السابق،ج5،ص205.

[2]. جورج مارسي، المرجع السابق،ص99.

[3]. هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى–الحياة الاقتصادية والاجتماعية–، ترجمة وتحقيق،عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1996م، ص120-121.

[4]. الوزان ،المصدر السابق،ص21.

[5]. جورج مارسي،المرجع السابق، ص99.

[6]. الإدريسي، المصدر السابق،ص264،انظر أيضا ، الحميري،صفة الأندلس،ص19.

[7]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص193،انظر أيضا الإدريسي،المصدر السابق، ص276.

الجيش الزياني[1]، وهذا ما يتوافق أيضا مع ما يورده شارل أندري جوليان بأن الخمور كانت ضمن قائمة واردات الدولة الحفصية[2]، ومن هنا ندرك تغاضي السلطة في بلاد المغرب عن استيرادها رغم حرمتها شرعا.

بعد ذكر ما كان يرد إلى مملكة تلمسان وما يخرج منها من سلع، ندرك بأنها لم تنقطع عن كونها ساحة مرور تلتقي فيها المواد الأوروبية المصنعة من أقمشة وأسلحة بمواد المغرب والسودان وذلك حتى في ساعات الأزمات الخطيرة[3]، فكان تجار تلمسان يصدّرون إلى بلدان الصحراء منتجات المغرب الأوسط الصناعية والزراعية والبضائع التي كانت ترد إليهم من أوروبا مقابل تزويد تجار الشمال بالتبر والجلد والعاج القادم من هناك، وندرك أيضا أن واردات المملكة من الدول الأوروبية كانت تغلب عليها صفة التصنيع عكس التي كانت تخرج منها والتي كانت في معظمها مواد خام .

2/ المغرب الأقصى:

أ الصادرات:

يأتي على رأسها السّكر الذي كانت تنتج قصبه بشكل كبير بلاد السوس الأقصى والذي كان يحمل منها إلى جميع البلاد وقد قال فيه الإدريسي (وقصب السكر الذي ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء، ويعمل ببلاد السوس من السكر المنسوب إليها ما يعم أكثر الأرض)[4]، إذن فجودة هذا السكر هي التي جعلته مطلوبا من الكثير من دول العالم وخاصة تلك القريبة من المغرب، ولهذا يرى البعض بأن

---

[1]. *Djilali Sari, op.cit, p35.*

[2]. شارل أندري جوليان،تاريخ إفريقيا الشمالية،الدار التونسية للنشر، تونس1971، ص196.

[3]. الجزائر بين الماضي والحاضر، ص114،انظر أيضا شارل أندري جوليان،المرجع السابق، ص202.

[4]. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص228.

هذه المادة أثرت كثيرا في سياسة المغرب الأقصى حتى عرفت سياسة المغرب بدبلوماسية السكر، وكان لها أثرا كبير في التعريف بهذا البلد وتردد إسمها في الكثير من البلدان[1].

كما صدّر المغرب الأقصى الحبوب وخاصة من مدينتي طنجة وسبتة – اللتين مثلتا مركزين هامين أو رئيسيين لتصدير الحبوب نحو شبه الجزيرة الأيبيرية ودول البحر المتوسط وذلك مما يفيض عن حاجيات السكان[2].

وتم تصدير المنسوجات وخاصة على عهد أبي عنان، رغم أن الأغلبية منها كانت تستهلك محليا[3]، وصدروا إلى أوروبا أيضا الطرابيش التي كانت تعرف ب–الفز– نسبة إلى فاس حيث كانت تصنع[4].

وخرجت من موانئ بلاد المغرب الأقصى كميات هامة ومتنوعة من الأسماك، ومن بين تلك الأسماك الحوت الطيب المعروف عندهم ب–الشابل– الذي يعيش في الأماكن التي يختلط فيها الماء المالح بالماء العذب، ليحمل من هناك إلى تلك الأقطار، وكان جزء من هذه الأسماك يصدر بعد أن يملح ويتجه خاصة إلى مملكة البرتغال معبأ في العديد من السفن[5].

وعلى غرار بلاد المغرب الأوسط كان بنو مرين يصدرون الشمع وجلود البقر الذي كان ينتجه جبل –فنزكار–[6] ومنطقة تكوليت–مدينة في حاحا– ،هذه الأخيرة التي كان يقام

---

[1].الهادي التازي، المرجع السابق،ج2، ص114.

[2].*Robert Vernet, op.cit, p39.*

[3]. روجيه لي تورنو، فاس في عهد بني مرين، ص133.

[4]. نفسه ، ص135.

[5]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص247.

[6]. تنطق اليوم بني زكار، وتقع على الضفة اليمنى لنهر اللكوس الذي يفصلهم عن رهونة، انظر الوزان، المصدر السابق، هامش رقم 120، ص320.

يقام بها سوق كبير يوم السّبت يقصده التجار من كل الأنحاء وخاصة الجنويون والبرتغاليون ليشتروا تلك المواد ومن ثمة يرسلونها الى بلدانهم[1].

كانت أكبر نسبة من صادرات المغرب تتجه نحو بلاد الأندلس نظرا لقرب المسافة بين المنطقتين، فكانت حركة السفن التجارية لا تنقطع بين الجانبين، فتحمل من ميناء سلا أنواعا من الماشية كالغنم والماعز والبقر، إضافة إلى القمح والسكر والأعناب والتمور.

صدر المغرب الأقصى أيضا إلى بلاد الأندلس والدول المجاورة التبر الذي كان يجلب من السودان الغربي، وكان يخرج من المراسي الواقعة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، كما صدر إليها الصمغ المجلوب من بلاد السودان أيضا، وحملت أنواع من الحيوانات الإفريقية القادمة أيضا من الصحراء الكبرى كالببّغاء والطاووس[2].

أما مدينة ماسة المطلة على المحيط الأطلسي والتي كانت تجود بالكثير من العنبر الجيد فكانت مركزا أو مقرا لبيعه من قبل سكان المنطقة لكن بأبخس الأثمان للتجار البرتغاليين [3].

ب/ الواردات:

استورد أهل المغرب الأقصى الثياب النفيسة من أوروبا، لكنها كانت تذهب في معظمها إلى الطبقة الثرية، وكان هذا يتم رغم ازدهار صناعة الثياب بها[4]، كما كانت تورد إليها من شبه الجزيرة الأيبيرية أيضا وتحديدا من مدينة بلنسية المشهورة بإنتاجها،أما من البيرة فجلب إليها الحرير[5]، واستوردت سجلماسة الثياب والمطرزات

---

[1]. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص100، 320-321.

[2]. انظر بان علي محمد البياتي،المرجع السابق، ص83 .

[3]. الوزان، نفس المصدر السابق،ج1، ص114-115.

[4]. روجي لي تورنو، فاس في عهد بني مرين، ص132.

[5]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص24.

القطنية والحريرية والكتانية من قرطبة[1]، كما حمل التين واللوز إلى المغرب ليحمل منها إلى المشرق[2]، والزعفران من وادي الحجارة لما اشتهر به هذا الأخير من جودة، فكان يتجهز به إلى كافة أصقاع الأرض[3].

كانت سفن البندقية تأتي إلى بادس مرة أو مرتين في السنة حاملة بضائعها، فتتجر فيها بالمبادلة والبيع نقدا، بالاضافة إلى أنها تنقل البضائع وحتى الركاب المسلمين أنفسهم من هذا الميناء إلى تونس وأحيانا إلى البندقية أوحتى الإسكندرية وبيروت[4].

واستورد المغرب نسيج الكتان من البرتغال، وهذا ما رآه الوزان وهو بمدينة تدنست[5]،إضافة إلى المعادن ومنها الفضة من سردينيا[6]، وجرت العديد من المبادلات التجارية مع الجمهوريات الايطالية وخاصة البندقية التي كانت سفنها تقصد مرسى غساسة[7] الحسن وتبرم صفقات تجارية هامة مع أهل فاس فتدر عليهم أرباحا وافرة[8].

---

[1].أصل التسمية أعجمي فالكلمة بلسان القوط هي قرطبة بالظاء المعجمة وهعني ذلك بلسانهم ((القلوب المختلفة)) وقيل إن معنى فرظبة آخر هو ((فاسكنها)).انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس، ص186.انظر أيضا بان علي محمد البياتي، المرجع السابق،ص84.

[2]. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص129.

[3]. الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص193.

[4]. الوزان، المصدر السابق،ج1،ص327.

[5]. وهي مدينة في إقليم حاحا بالمغرب الأقصى،الوزان، المصدر السابق،ج1،ص98.

[6]. محمد المنوني، ورقات من حضارة المرينيين كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس،الرباط 2000م، ص145.

[7]. تبعد عن مليلية نحو عشرين ميلا لها ميناء حسن،كانت على عهد بني مرين محصنة ومنيعة بأسوارها وهي المدينة التي استعمل الملك الاسباني فرناندو مخططا فاحتلها دون عناء حينما تخلى ملك فاس عن الدفاع عنها ففر أهلها منها،انظر الوزان، المصدر السابق،ج1ص342.

[8]. الوزان، المصدر السابق،ج1، ص342.

الباب الثاني

العلاقات السياسية

بين بلدان المغرب

ودول جنوب غرب

أوروبا

الفُصَّلَ الأول

العلاقات السياسية

للدولة الحفصية

قبل أن نخوض في هذا الموضوع ارتأينا أن نحدد مفهوم مصطلح السياسة ومن ثم تحديد أبعاد وجوانب الموضوع الذي سنتطرق له في هذا الباب من البحث.

فالسياسة لغة هي تدبير شؤون الناس وتملك أمورهم والرياسة عليهم ونفاذ الأمر فيهم، وقد جاء في اللسان السوس،الرياسة، يقال ساسهم يسوسهم إذا رأسهم[1]، ويقال ياسة ، والجمع ساسة وسواس، وفي الحديث الشريف الذي يرويه أبو هريرة أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدي، ومن هنا ندرك بأن معنى السياسة هي الإدارة وفن قيادة الدولة وسياسة المجتمع والناس[2]، وهو المعنى الذي تدل عليه كلمة Policy في اللغة الإنجليزية، فهي التدبير أو الرياسة أو طريقة الحكم وأشكاله في قطر من الأقطار، لكن مصطلح العلاقات السياسية يتطلب ثنائية الطرف أو أكثر،لأن الأمر هنا يتعلق بكيفية معالجة الأمور مع الطرف الأخر سواء بالطرق السلمية من بعثات دبلوماسية ومراسلات وسفارات–أو بواسطة القوة عن طريق الحرب، ومن هنا توجب علينا في هذا الباب أن نتطرق لكل هذه الأشكال من الروابط السياسية التي ربطت بين دول ضفتي المتوسط المحددة في البحث.

---

[1]. ابن الرازي، مختار الصحاح، ص135.

[2]. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، دار المعرفة، الكويت، 1988،ص263.

عموما يمكن أن نقسم مسار العلاقات السياسية للدولة الحفصية وخاصة مع شبه الجزيرة الأيبيرية إلى مراحل تبعا لقوة وضعف واهتمامات السلاطين الحفصيين.

المبحث الأول: في مرحلة التأسيس والقوة:

أ- فترة المخاض والتأسيس :

وتبدأ هذه المرحلة منذ الإرهاصات الأولى لتكوين السلطنة الحفصية إلى غاية وفاة أبي زكريا يحيى الحفصي[1] سنة647ه/1250م ، ففي خضم المصائب العديدة التي حلت بالعالم الإسلامي بسبب الحملات الصليبية على المشرق والمغرب الإسلامي، وبظهور الإمارة الحفصية التي اعترفت بها دول عديدة في المغرب وحتى في المشرق، كانت افريقية[2] في ذلك العصر موطن السلام والأمن وسط بلاد الإسلام الممزقة المغلوبة على أمرها، وكان سلطانها يبدو وكأنه آخر قوة إسلامية لا تزال محتفظة بوزنها، ولهذا كانت أعين أهل الأندلس تنظر بعين الرجاء والاستعطاف، إذا ما ضاقت عليها الأمور خاصة قبل تبلور قوة وتطلعات بني مرين في دولة مستقلة وحملهم لواء الجهاد بالمنطقة.

---

[1]. ولد بمراكش سنة 599ه/1203م،بويع بالخلافة يوم 18 رجب سنة 625ه/24 جوان 1228م بالقيروان وجددت له البيعة يوم وصوله لتونس في نفس الشهر والسنة وهو مؤسس جامع الموحدين أو جامع القصبة ومدرسة الشماعين وغيرها من المعالم ،انظر ابن الشماع، المصدر السابق، ص54.ابن القنفذ القسنطيني (أبو العباس أحمد بن حسين)، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي،الدار التونسية للنشر، تونس 1968،ص109، انظر أيضا الزركشي، المصدر السابق، ص26-27.

[2]. تسمى في الوقت الحاضر بلاد البربر الشرقية،وتطابق بوجه عام البلاد التونسية الحالية بإضافة البلاد الطرابلسية في الجنوب الشرقي ومنطقة قسنطينة في الجهة الغربية.انظر روبار برانشفيك،المصدر السابق،ج1، ص29.

1-مع دول شبه الجزيرة الايبيرية:

أ-مع الممالك الإسلامية:

في الوقت الذي كان فيه فرديناند الثالث القشتالي *Ferdinand III* يهاجم جنوب وجنوب شرق الأندلس، كان جاقمة الأول الملك الأراغوني *Jacme I* يخطط للاستيلاء على

شرق الأندلس، فكانت جزر البليار[1] أول أهدافه ضمن سياسة مملكته التوسعية وحركة الاسترداد المسيحية، فقد وافق مجلس الأعيان الأراغوني على تجهيز حملة ضد ميورقة وذلك خلال اجتماعه المنعقد سنة 626ه/1228م، ودخلها جاقمة في 15 صفر سنة 627ه/ يناير1230م منتصرا على الجيش الموحدي بالجزيرة[2]، ونظرا للرابط الديني بين هذه الجزيرة والإمارة الحفصية وإدراكا منها لأهميتها الاقتصادية فقد بلغت -جاقمة الأول- عن طريق التاجر القطلاني -رامي دي بليجامانز- ، Rami Di Blijamenzeأن العاهل الحفصي أبو زكرياء يتأهب لإعداد حملة لمساعدة مسلمي الجزيرة لاسترداد ما سلب منهم، ليعد جاقمة حملة سار بها نحو الجزيرة في شهر صفر 628ه/يناير1231م وظلت هذه النجدة معلقة لم تنزل إلى أرض الواقع.

كمااستنجد زيان ابن مردنيش بشرق الأندلس بأبي زكرياء يحيى ضد نفس الملك الأراغوني جاقمة الأول-الذي تحول في أبريل من نفس السنة مع كوكبة من جنده إلى ميورقة الخاضعة لسلطته منذ سنتين، فحاصر ابن مردنيش في بلنسية، فبعث هذا الأخير إليه ببيعته واعترافه بالتبعية له بما بقي لديه من مدن في بلاد الأندلس - الجزيرة،

---

[1]. مجموعة من خمس جزر رئيسية وعدد من الجزر الصغيرة تقع في شرقي اسبانيا في البحر الأبيض المتوسط ،عاصمتها هي بالما وهي تشكل الآن مقاطعة من اسبانيا وقد درج الجغرافيون على إطلاق هذا الاسم على جزيرتي ميورقة و منورقة أكبر جزيرتين ضمن الأرخبيل المتآلف أصلا من يابسة و فرمنتيرة و كبريرة و كونجيرة وتعتبر ميورقة أكثرها خصبا انظر الزهري،المصدر السابق،ص128.

[2] .*Las Matrie, op.cit, introduction, p54.*

دانية، ومرسية –[1]، بعد أن فقد الأمل في الموحدين، وكثرت نقاط الضعف لدى المسلمين، إذ بلغ عدد الثغور التي أصبح بإمكان العدو مهاجمة المسلمين منها سبعا[2]، وهذا ما ندركه من خلال قول ابن خلدون ((وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم وقد ظهر أمر بني حفص بافريقية فأمّل بن مردنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبي زكريا للكرة))[3]، وقد قدمها إلى أبي زكريا يحيى كاتبه الفقيه أبو عبد الله ابن الآبار– الذي جاءه صريخا وأدى بيعة بني مردنيش في يوم مشهود بالحضرة، وأنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين يستصرخه فيها للمسلمين[4].

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا****إن السبيل إلى منجاتها درسا[5].

ونظرا لأن الأمير الحفصي لم يكن في وضع يسمح له بمواجهة العدو عسكريا، فقد اقتصر رده على طلب ابن مردنيش ببعث أسطول مشحون بالمؤن المتمثلة في مدد الطعام والأسلحة والمال مع أبي يحيى بن أبي يحي بن أبي حفص، وكانت قيمة ما بعث به هو مائة ألف دينار[6]، لكن هذا المدد لم يجد نفعا لأنه لم يرفق بقوة الصّدام التي تفك الحصار المضروب على المدينة –بلنسية –وتوصله إلى طالبيه، إذ أفرغت حمولته في مرسى دانية، ورجع بالنّاض، إذ لم يخلص إليه من قبل ابن مردنيش من يتسلّمه[7]، وهذا ما زاد من شدة الحصار ووقعه على أهل بلنسية، إذ انعدمت الأقوات وهلك الكثير من شدة الجوع، فاستسلمت المدينة لجاقمة ملك أراغون الذي راود أهلها على الإسلام، في

[1]. روبار برانشفيك ،المصدر السابق، ج2، ص62

[2]. اثنتان منها على بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وجيان طبيرة مرسية بلبلة،انظر عبد الرحمن ابن خلدون،المصدر السابق،ج6، صص385-386

[3].عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج6، ص385-386.

[4]. نفسه،ج6، ص385-386.

[5]. ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري،الدار العربية للكتاب، 1984،ص59، للاطلاع على القصيدة كاملة، انظر عبد الرحمن ابن خلدون، العبر،ج6 ص 386الى ص 388.

[6].عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق ،ص.388

[7]. نفسه، ج6، ص 388.

صفر سنة 636ه/1234م[1]، حينها خرج منها ابن مردنيش إلى جزيرة شقر[2] فأخذ البيعة عن أهلها لأبي زكرياء، فضيق العدو الخناق عليه ليرغمه على مغادرتها نحو دانية، التي دخلها في رجب من سنته، وأخذ عليهم البيعة لأبي زكريا[3]،ثم بعث أبو زكرياء مددا آخر آخر لاشبيلية حين حصارها إلا أن هذا المدد وقع في أيدي العدو واستولى على المدينة فيما بعد.

يرجع المطوي أسباب عدم جدوى المعونة التي قدمها أبو زكرياء أو بالأحرى الإمارة الحفصية لأهل الأندلس إلى طريقة نشأة هذه الإمارة في حد ذاتها، إذ لم تكن أصيلة النشأة رغم ادعاء أهلها بأنهم ورثة الموحدين الشرعيين ،لأنها قامت ومنذ البداية على حركة انفصالية داخلية في هيكل الدولة الموحدية، وبذلك لم تكن حركة انبعاث جديدة تعتمد على عناصر القوة الأساسية لتكون الدولة القوية في تلك العصور، كما أنها افتقدت العناصر الأساسية لتكوين الدولة القوية في تلك الفترة وهي العصبية القبلية التي انتهجتها قبلها دولة المرابطين المعتمدة على قبيلتي لمتونة ومسوفة البربريتين، و الموحدية التي اعتمدت على قبيلة المصامدة البربرية أيضا[4].

كما أنها لم تقم على فكرة دينية أو قومية واسعة ذات أهداف وحدوية وإنما تشتيتية إن صح القول مع جيرانها وخاصة مع الدولة الزيانية، ونحن لا نستثني هنا الإمارات المغاربية الأخرى- الزيانية و المرينية- لأنها تناحرت فيما بينها لتوسيع ومد حدودها على حساب الجيران في حين كان العدو في الضفة الأخرى يتربص بهم ويطمح إلى توسيع نطاق حركة الاسترداد إلى إفريقيا وليس بلاد الأندلس المتبقية فقط.

---

[1]. نفسه، ج6، ص 388.

[2]. بفتح أوله وسكون ثانيه جزيرة في شرق الأندلس، وهي أنزه بلاد الله وأكثرها روضه وشجرا وماء، ياقوت الحموي، المصدر نفسه،ج3،ص355.

[3]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج6، ص 388.

[4]. محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية-تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان 1406/1986، ص139.

ولعل ما يبين لنا الهوان الذي بلغه أهل الأندلس في أنفسهم وفيما بينهم هو تقديم محمد بن هود[1] يد العون لأراغون في حصارها لاشبيلية، أي في الوقت الذي كان فيه الأمير الحفصي يبعث بمدده إلى أهل هذه المدينة المحاصرة.

وكذلك نجد الوزير أبو عبد الله محمد بن الرميمي، بعد وفاة محمد بن هود بالمرية في سنة 635 ه/1238م ونتيجة لمضايقة ابن الأحمر له يبعث ببيعته سنة 640ه/1243م إلى السلطان أبي زكريا يحيى، ونظرا لطول حصار ابن الأحمر له نجده يخرج من المدينة في اتجاه سبتة مع أهله وذخيرته، وقد أحله هناك أبو علي بن خلاص محل البر والتكريم، لكنه سرعان ما بدأ يجمع الثورة به، ليتنقل في اتجاه تونس على متن أسطول قادم من اشبيلية أين نزل على أبي زكريا واستقر هناك حيث تملك الضياع والقصور إلى أن وافته المنية[2].

أما ابن نصر صاحب غرناطة و مالقة فقد اتخذ الموقف الشرعي المفروض عليه في نظر أبناء ملته الأندلسيين، إذ أمر بالدعاء للأمير الحفصي في الخطبة[3]، وقدم له شواهد الطاعة بواسطة سفير[4]، وبالمقابل تلقى من الحفصيين مرارا وتكرارا إعانات مالية لمساعدته في الحرب التي كان يخوض غمارها ضد النصارى[5].

ومما يبين طيبة العلاقة مع أهل الأندلس أن أبا زكريا يحيى الأول كان حريصا وخاصة قبل نهايته التي كانت في 25 جمادى الثانية 647ه/ أكتوبر 1249م على الاستعانة ببعض خدمات الأندلسيين، ذلك لأن مسلمي الأندلس الفارين من غزو النصارى قد توافدوا على

---

[1]. ثار بشرق الأندلس هو وابن مردنيش ضد الموحدين فغلبهم و أخرجهم منها، فملك اشبيلية سنة ست وعشون وستمائة، بينما ثار ابن الأحمر بغرب الأندلس،انظر عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج6، ص392-393 .

[2]. عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص395.

[3]. إن الدعاء لملك أو خليفة على المنابر سواء في الخطب الدينية أو غيرها دليل على التبعية والخضوع أما انقطاعها فيعني خلع وشق عصا الطاعة عنه.

[4]. السفير هو الممثل الشخصي لرئيس دولة ما في عاصمة دولة أخرى.وهو دبلوماسي بلده الأعلى مرتبة في البلد الآخر، ويتفاوض السفير مع الحكومة أو الدولة المضيفة من أجل تحسين العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية بين الدولتين. كما يُشكِّل القناة الرسمية للاتصال وذلك بالحفاظ على استمرار الاتصالات مع رئيس الدولة ووزير الخارجية والموظفين الآخرين .

[5]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1،ص63.

سواحل إفريقيا الشمالية[1] في مجموعات من الأدباء والحرفيين حاملين معهم عناصر حضارة راقية، ومن أولئك الأديب محمد بن أبي الحسين وابن الآبار الذي قدم عليه بعد سقوط مدينة بلنسية وتعيينه على رأس كتابته بعدما تسنى له تقدير مواهبه.

ب/مع الممالك النصرانية (قشتالة وأراغون):

ابتدأت علاقات الدول النصرانية مع الحفصيين مع مطلع القرن 13 ميلادي – السابع هجري– فكانت تخاطب ولاة تونس بصفة مباشرة دون أن ترى نفسها مضطرة لأن تخاطبها دوما وأبدا عن طريق الخليفة في مراكش[2]، أي أنها اعترفت وفي وقت مبكر بهذه الدولة الحديثة التي كانت أول ما انسلخ من بلاد المغرب عن دولة الموحدين، لأن تلك الدول أدركت بأن الدولة الموحدية قد بلغت قمة المنحنى التصاعدي فباتت نهايتها وشيكة وأكيدة، وأن الدولة الحفصية الجديدة مهما سيكون أمرها فلن تطمح من جديد في التفكير بالعودة إلى الأندلس أو توحيد الأقطار الإسلامية كما فعل الموحدون على الأقل في ظل تلك الظروف المشحونة

بالفوضى والاضطراب، ولذا وجب التطلع إلى التعامل مع بديلها ألا وهي الدولة الحفصية، وبالمقابل فقد خيل للدول المسيحية المتعصبة ضد الإسلام أنه بضربها سيتم ضرب قلب الإسلام[3]، ولهذا فقد اختلفت طبيعة العلاقات السياسية لهذه الدولة الجديدة من دولة لأخرى والتي تراوحت بين الود والرجاء وبين العداوة والصدام، حسب درجة العداوة للإسلام وقدر المصالح التي تريدها أو تراها في افريقية.

انتاب العلاقات السياسية التي جمعت الأمم النصرانية بالدولة الحفصية الكثير من التغير وعدم الثبات تبعا لشخصية الملوك والسلاطين من الجهتين، وكذا حسب قوة

---

[1]. ابن الشماع، المصدر السابق، ص36.

[2]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص55.

[3]. محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس–من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال –ط3 ،تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، دار سراس للنشر، تونس1993، ص53.

وضعف الدولة الحفصية، دون أن نغفل بعض الأحداث الخارجية التي كان لها تأثيرها على مجرى ومسار الأحداث في هذه الدولة وما له من تأثير على تلك العلاقات.

وما يجب التأكيد عليه أيضا أن العلاقات السياسية بين هذه الدول ارتبطت أيما ارتباط بالجانب الاقتصادي وذلك ما ندركه من خلال القضايا السياسية التي أثارتها الأمور التجارية ذات الصلة بالقرصنة البحرية أو وضعية التجار الأسرى بها، وكذا المعاهدات التجارية التي أرفقت الكثير منها بملاحق سياسية تضبط العلاقات بين أطرافها في إطار إقرار السلم أو الدعوة إلى التحالف وفقا لمصالح الدول ووفقا لموازين القوى التي لم تكن لتعرف الاستقرار في تلك الفترة .

فعلى عكس مملكة قشتالة وعلى عكس ما سيكون عليه وضعها مع بني مرين فإننا نجد تاريخ علاقات مملكة أراغون السياسي طويلا ومليئا بالأحداث سواء على المستوى العسكري أو الدبلوماسي، ففي خضم الصراع الدائر بين المسلمين والنصارى بالأندلس، وجه الطرفان أنظارهما نحو السلطان الحفصي الجديد، وذلك رغبة في تدخله في الصراع الدائر بينهما والذي أصبح يزداد شراسة ووحشية بمرور الأيام، أما عن العامل الأساسي الذي يمكن أن نعتبره محركا أساسيا لتلك العلاقات، فيتمثل أولا في سير الأحداث بشبه الجزيرة الأيبيرية وما تميزت

به العلاقات بين الطرف الإسلامي هناك ممثلا في دولة بني نصر أو بني الأحمر والطرف المسيحي ممثلا في مملكة أراغون وقشتالة لما كان يجمعها من هدف صليبي مشترك هو القضاء على آخر معقل للإسلام بالمنطقة، وهذا ما أدى إلى شحن تلك العلاقات بالشك والترقب وعدم صفاء النوايا، فقد تحول ملك أراغون –خايم الأول (الغازي) – *le conquérant*– في ابريل 628ه/1231م كما أشرنا سابقا رفقة كوكبة من الجند إلى ميورقة الخاضعة إلى سلطته منذ سنتين وذلك بعد أن بلغته إشاعة مفادها أن

هناك حملة حفصية قد تتم ضد الجزيرة[1]، وبعد سبع سنوات من ذلك التاريخ، أي سنة 635هـ/ 1238م، وبعد أن اتسعت وتوطدت قوة أبي زكرياء، استنجد به المسلمون في الأندلس-زيان بن مردنيش صاحب شاطبة - لكننا نجده يتحاشى الصدام والمواجهة العسكرية المباشرة معه-[2]، لكن دون أن يتخلى عما يتوجب عليه فعله في بلاد الأندلس، خاصة و أنهم -أي بنو حفص -نصبوا أنفسهم خلفاء للموحدين ومنافحين عن ما تبقى لهم بالأندلس، فكلف ابن عمه أبا زكريا يحيى ابن أبي يحيى الشهيد بإيصال كمية من الأسلحة والمئونة إليهم عن طريق البحر، لكن الأسطول الحفصي المتكون من اثنتي عشر سفينة قفل راجعا دون إتمام المهمة نظرا لشدة الحصار المفروض على المدينة بلنسيةُ- لتستسلم في صفر 636 ه/ أكتوبر 1238م.

لكن وبعد سنوات قلائل من سقوط بلنسية عدل الأمير أبو زكرياء [3] عن موقفه، إذ أقام علاقات سرعان ما أصبحت متينة مع هذا الملك ، والتي تواصلت على ذلك النحو لمدة طويلة، وهذا ما ندركه من خلال مسعى وترجي سفير أراغون لدى الحفصيين في 643ه/ جويلية 1246 م- الكونت دامبورياس -من البابا[4] اينوسان الرابع *Innocent IV* إعطاء ضمانات صريحة حول السلم، لتصبح مملكة أبي زكريا في منأى عن أي هجوم نصراني محتمل قد يقوم به الملك الفرنسي والذي غير وجهته نحو مصر، لكن رجع دون

---

[1]. انظر روبار برانشفيك ، المرجع السابق، ج1، ص61.

[2]. ابن الشماع، المصدر السابق، ص59.

[3]. هو الذي لقب نفسه بالأمير دون إضافة كلمة المؤمنين أي اقتصر على الأمير وقد لقبه الشعراء بذلك لكنه رفض، انظر،ابن الشّماع،المصدر السابق، ص58.

[4]. وردت فيه العديد من التعاريف، فيعرفه الحموي في معجمه بأنه:الذي تطيعه الفرنجة وهو لهم بمنزلة الإمام متى خالفه أحد منهم كان عاصيا مخطئا، يستحق النفي والطرد والقتل، يحرم عليهم نسائهم وغسلهم وأكلهم وشربهم" الجبرتي عبد الرحمن بن حسن، دار الجيل، بيروت.ج3، ص100. وبأنه"رئيس الإفرنج هو عندهم نائب المسيح كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين"نفسه،ج1،ص323. ج3،ص100.،أما عبد الرحمن بن خلدون فيرى بأن معنى الكلمة هو أبو الآباء، ظهر أول مرة بمص، المقدمة، ص 234. ونفس التعريف نجده لدى القلقشندى، المصدر السابق،ج5، ص442.

الحصول على تلك الضمانات[1]، فكيف لملك نصراني أن يقف موقف المدافع عـن ملـك ومملكة مسلمة في فترة بلغ الصراع الإسلامي النصراني أوجه أو نقطة اللا رجوع لو لا حاجة في نفسه ؟

2-مع فرنسا وايطاليا: حسب ما توفر لدينا من وثائق ومعلومـات فـإن الجمهوريـات الايطالية والكونتيهات[2] (les comtes) الفرنسية كانت تسعى في تلـك الفتـرة إلـى توطيـد علاقاتها الدبلوماسية لأغراض اقتصادية، فنجد مرسيليا تبعث بغليوم شاروال Guillaume Charouelle لأداء زيارة عمل إلى بجاية سنة625ه /1228م بوصفه قنصلها في تلـك المدينة، وأن مرسيليا في قانونها الأساسي المؤرخ في 650ه/1253م كانت تعتبر مدينـة بجاية من بين مدن ما وراء البحار التي توجد بها قنصليات مرسيليا، ومن هنا لا نسـتبعد قيام باقي المدن أو الكونتيهات الفرنسية بنفس هذا العمل وأن العمل الديبلوماسي كان قائما بين هذه المدن أو الكونتيهات والدولة الحفصية لأن العمل التجاري كان دوما يتطلب عملا ديبلوماسيا لتنظيم تلك العملية .

ب/ مرحلة تشكل الدولة واستقرارها:

ويمكن تحديدها بالفترة الممتدة من648ه/1250م تاريخ وفاة أبي زكريا يحيى باعث الدولة الى غاية وفاة المستنصر الذي مثل عهده فترة اكتمال الدولة وبلوغها أقصى اتساع لها 674ه/1276م وانفصلت بشكل نهائي عن الموحدين وبلغت فيه السلطنة أقصى اتساع لها في النفوذ والاشعاع.

أ-مع الممالك الإسلامية:

---

[1]. انظر أيضا روبار برانشفيك، المرجع السابق،ص67.

[2]. كانت فرنسا في ذلك الوقت تتشكل من مجموعة من الكونتيهات نذكر منها كونتتيه بروفانس، تولوز كونتية نيس، كونت مونبيلييه .انظر *Mas Latrie, op.cit, introduction, pp-37-92-135*

استمرت العلاقة حسنة بين بلاد الأندلس والدولة الحفصية وما يدل على متانتها هو أنه على عهد أبي عبد الله المستنصر ابن أبي زكريا 647-675ه/1249م-1277م) الذي تظاهر بمظاهر الملوك العظماء[1]، انفصل عن محلته أو انشق عنه أخوه المولى -أبو إسحاق -لخوفه منه، وكان قد قصد الزاب، وأطاعته بسكرة وبايعته رياح ثم قصد قابس فانقادت له جموع وافرة، ثم قصد بعدها المغرب الأقصى لينتهي به الأمر إلى الأندلس، أين أكرمه حاكمها الأمير-أبو عبد الله بن الأحمر-وعلا صيته هناك، وبالمقابل كان أخوه المنتصر يوجه الهدايا الضخمة لابن الأحمر ليمسك عنه أخاه[2]، دون أن تتكدر أو تسوء تلك العلاقة.

إضافة إلى ذلك فقد جلب لبلاطه مجموعة من الأدباء الأندلسيين الفارين من سياسة الاسترداد[3] ومحاكم التفتيش الأمر الذي أزعج العائلات الموحدية، التي كانت ترى بأنه أعطى الأولوية والصدارة للعنصر المنافس لهم[4]، وتواصلت عملية الدعم المادي على عهد -أبي فارس عبد العزيز-،الذي أوقف أوقافا كثيرة، منها ما عينه لأهل الأندلس إعانة لهم على العدو في كل عام والمقدرة بألفي قفيز طعاما وما يتبعها من أدام وغير ذلك[5].

وما يبين تلك المكانة التي يمكن القول بأنها تجاوزت الحد المعقول هو ما منحه لهم يحيى الواثق- ذو القلب الطيب والعاطفة النبيلة والمفتقد في نفس الوقت للحكمة والحزم- حتى أصبح بذلك ألعوبة بين أيديهم ومطية لتحقيق أغراضهم، ثم ضحية فيما بعد لسياستهم،لدرجة أن ساد بينهم تطاحن خطير داخل البلاط الحفصي.

---

1. أحدث هذا السلطان البساتين الغناء ذات الفوارات في ضواحي تونس كما أنشأ حديقة صيد بالقرب من بنزرت.
2. ابن الشماع، المصدر السابق، ص64.
3. هي حرب أعلنتها الدول النصرانية الاسبانية ضد المسلمين في الأندلس قصد استرجاع المناطق والمدن التي سيطروا عليها منذ بداية الفتح الإسلامي سنة 92 للهجرة .
4. روبار برانشفيك ،المرجع السابق، ج1، ص72.
5. الزركشي،المصدر السابق، ص116.

إذن فالفرق بين ابن مردنيش وابن الأحمر يكمن في أن الأول كان يدرك الخطر القادم من النصارى ويدرك بأن قوته لا تسمح له بالصمود أمامه أو مواجهتـــه عســكريا، عكس ابن الأحمر الذي تشبث هو وخلفه بأهداب عرشهم إلى آخر رمق، وراحوا يستقوون حتى بأعدائهم.

ب-مع قشتـــالة وأراغون:

بالنسبة لقشتالة فقد دارت بينها وبين الدولة الحفصية جملة من الأحداث تبين لنا الجانب الحسن من العلاقات والذي غلبت عليه مظاهر التودد والمجاملة، ومن ذلك قدوم مبعوثين موفدين من إفريقية من قبل المستنصر إلى بلد الوليد[1] *(Valladolid)* لحضور حفل زفاف الأميرة -كريستين- *Christine* بنت ملك النرويج- مع الأمير- فيليب- *Philippe* Don شقيق ملك قشتالة خلال سنة655ه/مارس 1258م، وهي إشارات محتملة لعلاقات المجاملة القائمة بين السلطنة الحفصية ومملكة قشتالة[2].

إضافة إلى هذا فان المستنصر كان قد ألحق بمصالحة منذ 657ه/1260م أميــرين نصرانيين من محبي المغامرات وهما: أميرا قشتالة هنري *Henri* وفريديريك Frederic اللذان فرا من أخيهما ألفونصو العاشر، وأثناء المعركة التي شنها شارل ضد منفريد تحول فريديريك إلى ايطاليا لخوض غمار المعركة إلى جانب منفريد، وبعد الهزيمة رجع إلى تونس، كما ارتحل إليها أيضا رفيقان من رفقاء منفريد *Manfred* هما نيقولا ماليتا وفريدريك لنشــيا *Fréderic Lanza*[3].

لقد وقف كل من فريديريك قشتالة وفريديريك لنشيا إلى جانب الأمير الحفصي المستنصر في الحملة الصليبية التي أقيمت ضد بلده من طرف الملك لويس التاسع وأخيه،

---

[1]. مدينة تقع في القسم الشمالي لشبه الجزيرة الايبيرية بين مدينة شقوبية جنوبا ومدينة برغش وبين مدينة تطيلة شرقا وسمورة غربا ،كانت تابعة في هذه الفترة لمملكة قشتالة وليون.،انظر خريطة بلاد المغرب على عهد الامارات المغاربية الثلاث ،ملحق رقم........

[2].*Mas Latrie, op.cit, introduction, p134.*

[3].*Ibid, introduction, p135.*

إذ كانا يحيطان به في خيمته إلى جانب كبار الدولة واللذان كانا قادرين على مساعدته وتقديم الخطط إليه ضد إخوانهم في الدين، وضد عدوهما شارل دانجو سنة668ه/ 1270م[1].

ويشير ابن خلدون أيضا إلى مثل هذا الجانب من الملاطفات السياسية، ففي سنة 658ه/ 1261م، وصل -دون الرنك-(الأمير هنري) أخو ملك قشتالة ألفونصو مغاضبا لأخيه ووفد على السلطان بتونس وتلقاه بالمبرة والحباء بما يلقى به كرام القوم وعظماء الملوك ونزل من دولته بأعز مكان[2].

ربما كان ذلك من باب ردّ الجميل، إذ وقف -دون الرنك- هو الآخر إلى جانب الأمير أبي حفص ضد أبي علي الملياني الذي استغل الظروف حين رأى تقلص ظل الدولة وفتن مغراوة مع يغمراسن ومزاحمته لهم فحدثته نفسه بالاستبداد، فخلع طاعتة عن بني حفص ونبذ دعوتهم وانبرى بها داعيا لنفسه، لكنه فرّ بعد حصار مدينة مليانة واقتحامها نحو بني يعقوب من آل العطاف أحد شعوب زغبة الذين أجاروه وأجازوه نحو المغرب الأقصى[3].

يبدو أن بعض الاضطرابات قد حدثت في الفترة 657-665ه/ 1260- 1268م في صفوف الجالية القشتالية بتونس[4]، فأوفد الملك خايم Jacme حاكم برشلونة -غليوم غروني- سفيرا إلى السلطان للتفاهم معه وتهدئة جاليته في آن واحد، فلم تسفر تلك العملية عن أي نتيجة إيجابية ليرخص الملك657ه/ 27 أكتوبر 1260م في القيام بأعمال قرصنة ضد السلطنة الحفصية، وفي658ه/ 24 يناير من 1261م أعلن الملك خايم أن قراره يخص جميع

---

[1]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1، ص92.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج6، ص417-418.

[3]. نفسه، ج6، ص420-421 .

[4]. هنا يرى روبار برانشفيك بأن العلاقات بين أراغون والسلطنة الحفصية انقطعت أوائل سنة 1268م لأمور مجهولة لترسل بعدها بعثة -كيرالت -إلى تونس لتسوية الوضع فنجحت في مهمتها، إذ قام الملك خايم في أبريل و أوت من نفس السنة بعمليات بيع وتعيين قانونية تتعلق بالفنادق القطالونية الموجودة بافريقية،انظر روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1، صص 82-83.

المسلمين،ولم يستأنف علاقاته الودية مع المنتصر إلا في سنة 661ه /أواخر جويلية 1264م إثر المهمة التي قام بها السفير دي غارسيا آرتيس دي أساغران.

أما مع أراغون فظلت الاتصالات قائمة، ففي الفترة 660-665ه/1263-1268م وطدت أراغون علاقاتها مع الدولة الحفصية وبصفة دائمة، وتشير الوثائق إلى أن هناك جيشا تشكل من بعض الفرسان المسيحيين من رعايا ملك أراغون لحماية السلطان الحفصي في إطار الارتزاق الرسمي أي برضا ملكهم، كما تم تبادل السفراء فيما بينهما بصفة ودية سنة 654ه/ 1257م.[1]

إذا فقد حرص ملوك أراغون حرصا شديد على الإبقاء على جو الود والسلم مع الحفصيين، وهذا ما ندركه من خلال اللوم الذي وجهه الملك خايم الأول لرئيس أساقفة – طرغونة(طركونة)[2]– 654ه/في أكتوبر 1257م بسبب توجيهه لبعض القراصنة في البحر المتوسط ضد الإفريقيين (التونسيين) وبالتالي خرقهم لمعاهدة السلم المبرمة مع ملك تونس[3].

وما يمكن ملاحظته في هذا المجال، أنه رغم حرص كلا الطرفين على استمرار ودية وسلمية العلاقات، إلا أنه غلب عليها نوع من التقلب، فسرعان ما تعكر صفوها مرتين متتاليتين، الأولى حينما استقبل بعض المسلمين القادمين من تونس في بلاط أراغون خلال صائفة657ه/1259م، والثانية حينما رخص الملك خايم لتابعيه في مساعدة صهره ألفونصو

---

[1]. تنص وثيقة مؤرخة في 19 أوت 1257 على قدوم مبعوث من تونس إلى برشلونة منذ مدة قليلة ،وقرب إيفاد بعثة إلى تونس بقيادة القطلاني جاك دي مونجويش، روبار برانشفيك،المرجع السابق، هامش 18، ص75 .

[2]. مدينة بمملكة قشتالة وليون /بينها وبين مدينة لاردة خمسون ميلا ،وهي مدينة قديمة ،وهي مبنية على سلحل البحر الشامي تشتهر بكثرة رخامها، أما أصل الكلمة فلاتيني والتي تعني الأرض المشبهة بالمجنة لانها كانت تحتوي على مجموعة من الأرحاء تطحن عند هبوب الريح وتسكن بسكونها وكانت تمثل حدا بين المسلمين والنصارى. الحميري ،صفة جزيرة الأندلس، ص126.

[3]. عندما كان يتم إبرام معاهدة ما وتوقع من طرف الجانبين المتعاقدين، فانه عادة ما يعلن عن هذه المعاهدة بصوت عال، وعلى الأقل في أبواب المسيحية، ولكن هذه الاتفاقية التي كانت ضعيفة نظرا لأنها لا تربط أميرين فحسب بل تربط دولتين، فإذا مات أحد الأميرين تفسخ المعاهدة تلقائيا ويتحتم على الأمير الجديد أن يبادر بتجديد الهدنة،انظر عطا الله دهينة، الجزائر في التاريخ ،ج3،–العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني– الحضارة الجزائرية في عهد الدولة الزّيانية–الحياة السياسية والإدارية–المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص472 .

العاشر ضد المسلمين واستثنى بصريح العبارة السلطان الحفصي ورعاياه من التبعات المترتبة عن ذلك الترخيص[1]، وهذا ما يخالف ويخل صراحة بالاتفاق الثنائي بين الطرفين.

لكن وبعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات أي 660ه/1262م حدث ما يخالف ذلك،إذ أجاز هذا الملك لشخصين من برشلونة [2] كانا قد تعرضا لبعض التجاوزات في افريقية-الانتقام وتعويض خسارتهما على حساب أهالي افريقية حسب مشيئتهما، كما منع أية معاملات تجارية معهم[3]، ولعل السبب يرجع إلى أمير قشتالة -هنري- الذي طرده خايم من مملكته وجعل من البلاط الملكي بتونس ملاذا له وبقبول البيت الملكي[4]، لكن من جهة أخرى نلاحظ أن حكام أراغون استعملوا أو لجئوا إلى سياسة الكيل بمكيالين وهذا طبعا لخدمة مصالحهم الاقتصادية، فلم يعلنوا عدائهم الصريح أو يدخلوا معهم في صراع واضح ولم يلجئوا إلى سلم واضح ومستمر.

كانت العلاقات الدبلوماسية بين أراغون وتونس قد انقطعت أوائل سنة 666ه/ 1268م، لكن أراغون توصلت إلى تسوية الوضع بنجاح، إذ قام الملك -خايم- في أبريل وأوت من نفس السنة بعمليات بيع وتعيين قانونية تتعلق بالفنادق القطالونية الموجودة بافريقية[5]، وهذا ما يدل على وجود النية في استمرار العلاقات السلمية من الطرف النصراني، وبعد أقل من ثلاثة أشهر على ارتحال الصليبين من إفريقية على إثر الحملة الصليبية الأولى 26 ذي القعدة 668ه/17جوان1270م [6] أبرم مبعوث المستنصر 669ه /17 فيفري 1271 م في مدينة بلنسية الاسبانية معاهدة مع ملك أراغون، ولا استغراب من سرعة هذا التقارب، إذ يبدو أن خايم الأول

---

[1]. روبار برانشفيك ،المرجع السابق، ص82 .

[2]. برشلونة مدينة للروم بينها وبين طرطونة خمسون ميلا ،وبرشلونة على البحر وهي دار ملك الفرنجة اشتهرت بخصبها وكثرة حبوبها وهي مدينة حصينة تسكنها أغلبية يهودية تعادل النصارى.انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص42.

[3]. روبار برانشفيك ،المرجع السابق،ج1، ص82.

[4]. نفسه، ج1 هامش 37، ص82 .

[5]. روبار برانشفيك ،المرجع السابق، صص82-83.

[6]. كان عدد جند الصليبيين زهاء 6000 فارس و30000 راجل، و كانت الأمداد تصلهم يوميا دون انقطاع،انظر ابن الشماع، المصدر السابق، ص 72.

الذي فشلت محاولته الشخصية للقيام بحملة صليبية في اتجاه المشرق فشلا ذريعا في 667ه/سبتمبر 1269م،كان ينظر إلى حملة 1270م التي يقودها الفرنسيون، نظرة ملؤها الغيرة والريبة، فمنذ 19 سبتمبر بينما النصارى لا يزالون يحاربون في قرطاج[1] التونسية نجده يقدم مساعدة مالية في سبيل انتداب إثني عشرة رجلا من بين رعاياه للعمل في تونس تحت قيادة –فريديريك قشتالة- *Frederic Castille* أي ضد الصليبيين، هذا وأن معاهدة 669ه/1271م التي تعتبر أقدم معاهدة بين الدولة الحفصية ومملكة أراغون، كانت سارية المفعول لمدة عشر سنوات، ويبدو أنها لم تأت بجديد فيما يتعلق بإقامة الأجانب في افريقية وتعاطيهم للتجارة، ولعلها قد أوضحت التعهدات المتبادلة بين الطرفين بخصوص حفظ أمنهما في البحر والسواحل كما كان الشأن في الماضي، وقد استمر خايم الأول في بيع فنادقه وقنصلياته بتونس وبجاية للقشتاليين[2].

مع فرنسا و شبه الجزيرة الايطالية:

إن وفاة أبي زكريا أعطت دفعا ونفسا جديدا للعلاقات الحفصية مع الجمهوريات الايطالية وخاصة مع البندقية، التي أسرعت إلى إرسال سفيرها إلى تونس لإعادة السلم أو توطيدها، ففي 648ه/01 أبريل 1251م تم إبرام معاهدة بواسطة مبعوث البندقيةً- فيليب جيولياني(*PhilippeGiuliani*) لمدة أربعين سنة والتي استعادت بعبارات متماثلة للغاية أحكام اتفاقية 1231م، ولكنها أكملتها بالنسبة لجملة من النقاط: كالإعفاء من أي أداء بالنسبة للذهب والفضة والأحجار الكريمة التي يبيعها أهل البندقية في دار السكة أو مباشرة للسلطان والسماح لهم بتصدير الرصاص من افريقية بدون رسوم وتوضيح الحريات التي يتمتعون بها في البلاد الحفصية والتوسيع من نطاقها لا سيما حق إصلاح الكنيسة الموجودة في فندقهم وتوسيعها [3].

---

[1]. من أعظم المدن في العصور القديمة ، أسسها البحارة الفينيقيون ومثلت مركزا تجاريا هاما على شبه جزيرة في شمالي إفريقيا بالقرب من مدينة تونس الحالية (الوطن القبلي)،أما الاسم الأصلي فهو قرط حدشت أي المدينة أو العاصمة الجديدة.

[2] .*Mas Latrie, op.cit, Introduction, pp -154 - 155.*

[3]. *Mas Latrie, op.cit, introduction, pp129 -130.*

أما مرسيليا التابعة لشارل أنجو فعينت في 20 أفريل 1268م أحد مواطنيها المدعو –هوك بورغونيون– قنصلا في بجاية، وما يدل أكثر على التقارب بين هذا العاهل والمستنصر، هو الرسالة التي وجهها شارل أنجو من معسكره المنصوب أمام مدينة – لوسرة[1]– Lucera–، وهو يحاصر المسلمين الثائرين إلى كبار موظفيه يدعوهم فيها إلى استقبال المبعوثين اللذان أعلن السلطان الحفصي عن قدومهما بكل حفاوة وتبجيل، فلم يكن هناك أثر لأي حقد باستثناء الخلاف حول الضريبة، وهناك وثيقة مؤرخة في 1268م صادرة عن الدوائر الدبلوماسية في نابولي تدل على أن الأقساط السنوية الثلاثة المستحقة لم تسدد منذ ارتقاء شارل أنجو العرش[2].

---

1. منطقة بجزيرة صقلية الايطالية .

2. رربار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص86 .انظر أيضا Mas Latrie, op.cit, Traités, 156 . p

المبحث الثاني:في عهد الاضطراب والانقسامات[1]

يبدأ هذا العهد بانتصاب أبي يحيى الواثق سنة 675ه /1276م الذي مثل فترة تحول وبداية النزول من القمة والتراجع التي أشار إليها ابن خلدون بقوله ((ثم رجعت من بعده أدراجها)) نتيجة لأسباب داخلية وخارجية،أما نهايته فتبدأ بانتصاب أبي العباس موحد الدولة في الثامن عشر من ربيع الأول 772ه09-11-1370م وهو مايمثل العهد الثاني لها

أ- مع أراغون و قشتالة :

ما يمكن ملاحظته في هذا العهد أن قضية المسلمين في بلاد الأندلس لم تعد كما كانت تمثل جوهر ومحرك العلاقات السياسية بين الطرفين والسبب يعود إلى ظهور البديل الذي أخذ على عاتقه تلك القضية وهو الدولة المرينية، لكن رغم ذلك فلم تتوقف الاتصالات الدبلوماسية بين الدولتين والتي كانت في الغالب مصحوبة بتبادل الهدايا بين العاهلين، وذلك لتوطيد العلاقات الودية القائمة بينهما، وتسوية الخلافات التي تنشأ عن تعاطي القشتاليين للملاحة أو التجارة في سواحل إفريقية[2]، لكن العلاقات السياسية تطورت تطورا خطيرا، إذ أصبحت مملكة أراغون تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة الحفصية وذلك على عهد الواثق والملك بيدرو الثالث *Pedro III*[3] الذي يروى أنه وجه عشر سفن حربية بقيادة أحد الصقليين وهو الأميرال -كنراد لنشيا- *Conrad Lança* لتساند في

---

[1] ووقف أبو بكر الحفصي ضد أخيه أبي البقاء حالد الى جانب ابن عمه ابن اللحياني في الزحف على تونس ،فأوقع بجيش أبي البقاء واعتقال قائده ظافر الكبير ثم واصل الجيش زحفه ليعلن ابو البقاء استسلامه وأشهد على نفسه بالتنازل عن السلطنة وحل البيعة التي عقدت له ،لكن ذلك لم يجده نفعا اذ اقتحم مخمد المزدوري قصر الإمارة بالقصبة وقبض عليه وقتله قبل وصول ابن اللحياني،انظر ابن القنفذ القسنطينيي،الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص160.

[2]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص95.

[3]. ذلك أن بيدرو لم يرتق إلى العرش قبل الواثق إلا بعشرة أشهر، ويمثل توليه العرش تحولا حاسما في سياسة مملكة أراغون الخارجية، حيث ستحل مكان العمل الاسباني الذي كان يقوم به أخوه خايم الغازي مطامع متوسطية أوسع،وفي مقدمتها العمليات الايطالية ضد عائلة أنجو.

البحر الهجوم الذي سيشنه أبو إسحاق إبراهيم الأمير الحفصي المتمرد عن أبي محمد بن تافراجين[1].

لكن الواثق كان دوما يبدي مشاعر التودد، ففي ربيع سنة 676هـ/1278م سعى من جديد إلى التقرب من مملكة أراغون، إذ طلب من الملك –بيدرو– أن يوفد إليه مبعوثين يضمن لهما الأمن والحماية، فقبل بيدرو بذلك لكن بنوع من البرودة والفتور،لأنه أعلن فيما بعد كتابيا إلى أهالي برشلونة وبكل سرور أنه أسقط (عدوه) ملك تونس –الواثق– وعوضه بملك آخر[2] وليدعو تجاره إلى الاستفادة إلى أقصى حد من الإمكانات المتاحة لهم مع هذا السلطان الجديد، وحسب الراوي القشتالي –منتانير– *Muntaner* فإن الملك الأراغوني قدم مساعدة مباشرة لأبي إسحاق المطالب بعرش افريقية[3].

لكن يجب علينا هنا أن نطرح جملة من الاستفهامات حول الأسباب التي كانت وراء مناهضة بيدرو للواثق ؟ فهل هي أعمال القرصنة ،أم الضريبة ؟ أم تعبير إفريقية عن مشاعر الصداقة تجاه صقلية ؟

إن أهم سبب يكمن وراء ذلك هو عدم اعتراف الواثق بملكية أراغون لجزيرة صقلية، أي وقوفه بذلك أمام المساعي الأراغونية لضمها،هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كان يرى في مساعدته لأبي إسحاق في الوصول إلى العرش إخضاعا له لسيطرته وسلطته وذلك ما سيساعده في جعل افريقية مركزا متقدما يمكنه من مراقبة الأمور عن كثب انطلاقا من الجزيرة.

---

[1].ابن الشماع، المصدر السابق،ص101.انظر أيضا *Mas Latrie op.cit, Introduction, p144.*

[2]. حسب مؤرخي الدولة الحفصية فان الواثق هو الذي خلع نفسه،انظر الزركشي،المصدر السابق، ص43،ابن الشماع، المصدر السابق،ص101.

[3]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ص108–109.

لم تمض أكثر من سنتين ونصف السنة على تولي أبي إسحاق الحكم[1]، حتى اندلعت ثورة ابن الوزير والي قسنطينة الذي استبد وأزعج السكان الذين اشتكوه للأمير واتهموه بالمروق عن الدين والتعسف، وكان قد جلب لخدمته عددا من الجنود النصارى وأعلم حليفه الأوروبي بأنه قد لا يستنكف عن اعتناق النصرانية، فأتاح ذلك العرض لملك أراغون الفرصة من جديد للتدخل في شؤون افريقية بصورة مباشرة[2].

لقد لاحظ ابن الوزير في صائفة677ه/ 1279م ما يوليه ملك أراغون من أهمية لشؤون الدولة الحفصية وكان على علم بما يقوم به من استعدادات عسكرية للهجوم على المسلمين، فطلب إليه الإعانة، وتلقى منه وعدا بالمساعدة العسكرية، ذلك أن- بيدرو- قد اقتنع بأنه لا يمكن التعويل على التحالف مع أبي إسحاق، وسرعان ما اضطر للتخلي عن فكرة اعتبار الأمير الحفصي تابعا له وخادما أمينا لسياسته، ويبدو أن السبب في ذلك هو فشل السفارة التي أرسل بها إلى تونس بخصوص إبرام اتفاق على قدم المساواة في678ه/ أوت 1280م، أي سنة بعد اعتلاء أبي إسحاق العرش.

إن العداوة الأراغونية المنتعشة ضد افريقية لم تقتصر قط على مثل هذه النوايا النظرية، إذ لم يتورع لا الأميرال -روجير دي لوريا- *Roger de Loria* ولا ابن أخيه -يوحنا- الذي يعمل في خدمة ملك أراغون من تدمير كثير من المراكز الواقعة على سواحل افريقية بغض النظر عن جزيرة جربة التي أصبحت حقا مكتسبا لصقلية بعد أن عين مونتانير حاكما لها إلى جانب جزرة قرقنة[3] باسم حاكم صقلية[4]، فقد شهدت سنتا 684ه-685ه/1286-1287م-كثيرا من تلك الغارات الرهيبة التي نجهل تفاصيلها لكن

---

[1]. هو الأمير أبو إسحاق إبراهيم ابن المولى أبي زكرياء، اعتلى العرش بعد خلع الواثق نفسه،انظر الزركشي،المصدر السابق،ص43،ابن الشماع،المصدر السابق، صص101-102.

[2]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1، ص113.

[3]. قرقنة جزيرة تقع ما بين قصر زياد وصفاقس وسطا وهي جزيرة قوية العمارة شهيرة الذكر على القدم والنصارى في وقتنا هذا متغلبون عليهامتحكمون في أهلها وطول هذه الجزيرة في البحر ستة عشر ميلا وعرضها ثلث ذلك.انظر التجاني،المصدر السابق، ص66 .

[4] .*Mas Latrie, op.cit, Introduction, p159.*

يبدو أنه قد ذهب ضحيتها الكثير من سكان جزيرة قرقنة التي استولى عليهـا النصـارى كما استولوا على جربة من قبل، وسكان مرسى الخرز وشبه جزيرة ريس وساحل سوسة والمهدية، وكان النصارى يقتلون وينهبون ويحرقون ويقتادون الأسرى، وقد بقيت ذكـرى مثل تلك الأعمال الشنيعة عالقة في أذهان الأهالي الذين كانوا يقومون من حـين لآخـر برد فعل لا سيما في منطقة الساحل عن طريق إعلان الجهاد[1].

و باعتلاء أبي حفص العرش[2] وجد نفسه أمام دولة أراغونية قوية متركزة في صقلية وقادرة على تعريض بلده للخطر على المدى القريب، وأن الذي سيهجم عليها فـي وقت مبكر هو –روجير دي لوريا– أمير البحر المنتصر على –آل أنجو –بصـقلية فلقـد استهدف بمهارة جزيرة جربة[3] البعيدة عن العاصمة الحفصية والآهلة بالسكان المسـلمين الخوارج الذين لم يهم مصيرهم سلطان تونس بقدر ما يهمّه مصير بقية رعاياه، ورغم أن الحملة اكتست طابعا شخصيا[4] إلا أن الملك الأراغوني –خايم– *Jacme* لم يتـورع فـي الترخيص له بذلك، فأبان بذلك عن عداوته للدولة الحفصية، ولم يجد –روجير دي لوريا– صعوبة في الاستيلاء على الجزيرة التي كانت ناقصة أو منعدمة التحصين في عام 683 ه/سبتمبر أو أكتوبر 1284م وقد قام المغيرون بعملية سلب ونهب وقتل حقيقية لـم يـنج منها لا الرجال ولا النساء[5].

---

[1]. روبار برانشفيك، المصدر السابق،ج1، ص129.

[2]. هو المولى أبو حفص عمر بن المولى أبي زكرياء،ب ويع بتونس يوم الاثنين 24 ربيع الثاني 683ه/10 جويلية 1284م،تميز بكونه ملكا عاقلا فاضلا كريما وحليما، توفي اثر وجع أصابه في ذي الحجة 694ه/ اكتوبر 1295م،انظر ابن الشماع المصدر السابق ،ص81-82.

[3]. كانت جزيرة جربة قبل ذلك التاريخ بمائة وخمسين سنة أولى المناطق التي استولى عليها ملك صقلية النورماني – روجار الثاني– ،وهي في نفس الوقت جزيرة الجنوب التونسي الكبرى التي لم تكن بمعزل عن المعابر البحرية الكبرى كما هي الآن وذلك بالنظر إلى ظروف ملاحة القرون الوسطى التي كانت تسيطر عليها المساحلة في غياب وسائل ملاحة بحرية متطورة فكانت بذلك تمثل قاعدة ممتازة بالنسبة للتجارة أو القرصنة في البحر.

[4]. لأن الأميرال المذكور قام بتلك المغامرة لحسابه الخاص وبجنود تولى انتدابهم على نفقته.

[5]. قطع المنتصرون خط الرجعة في وجه أهالي الجزيرة الذين حاولوا النجاة بأنفسهم بالفرار إلى اليابسة،فالقي القبض على عدة آلاف من الأسرى وأرسلوا إلى صقيلية لتعزيز صفوف الرقيق ،وبقي الآخرون داخل الجزيرة بمنزلة العبيد ما

رغم أن عملية جربة لم تقم بها مملكة أراغون بصفة رسمية، فإنه لا يمكن تفسيرها إلا في إطار العداوة التي ما فتئ الملك بيدرو الثالث يبديها ضد الدولة الحفصية والتي ستسهم في تعكير العلاقات التي هي سيئة من قبل بين الدولتين، ففي 684ه/ 04 أبريل 1285م تلقى

ملك أراغون شكوى صادرة عن اثنين من رعاياه مفادها أن الموظفين التونسيين قد انتزعا منهما بضائعهما، فرخص لهما بحجز أملاك رعايا السلطان الحفصي وتقديمها إلى حاكم قطلونيا الذي سيعوض لهما قيمة البضائع المنتزعة منهما[1]، ونظرا لما سيلحقه هذا الوضع من أضرارا جسيمة بالتجارة والجباية في تونس، فقد بادر أبو حفص إلى إرسال بعثة إلى –بيدرو الثالث–للتفاوض معه بشان السلام، فوقع مبعوثو أبي حفص يوم 02 جوان من نفس السنة على المعاهدة التي وافق عليها الملك بيدرو أيضا.

والجدير بالملاحظة أن معاهدة684ه/ 1285م قد استعادت جميع بنود معاهدة 1271م بصورة تكاد تكون حرفية، وذلك فيما يتعلق بالملاحة والأداء الجمركي، ولكن لمدة خمسة عشرة سنة بدل عشر سنوات كما أضيفت إليها بعض البنود الأخرى ذات الصبغة السياسية التي كانت كلها تصب في خدمة النصارى ومملكة أراغون، ومما جاء فيها:

- حرية النصارى في ممارسة شعائرهم الدينية والسماح لهم بقرع الأجراس الكنسية في الدولة الحفصية.

- الاعتراف بحق الصقليين والقطالونيين في بناء فنادقهم في أي بلدة يختارونها.

- حق ملك أراغون في تعيين من يشاء من القناصل في افريقية وكذلك تعيين قائد جند النصارى في افريقية وحق القناصل المذكورين في زيارة السلطان مرة واحدة في الشهر على الأقل.

عدا الذين تمكنوا منهم من شراء حريتهم بصورة فردية وقام روجير ببناء الحصن المشهور الذي يحمل اسم القشتيل لحراسة الجزيرة وإيواء الحامية العسكرية،وأجبرالأهالي على أن يدفعوا له أداء باهظا.انظرعبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق، ج7، ص266، روبار برانشفيك ، المرجع السابق،ج1،ص125.

[1] .Mas Latrie, op.cit,............ p43.

-حق اختيار القطالونيين لجباية ضريبة الملح في تونس .

وأخيرا تحتوي تلك المعاهدة على أهم بند من وجهة نظر السياسة الدولية وهو البند الــذي ينص على أن ملك أراغون و صقيلية هو الذي يقوم مقام -آل آنجو -فيما يتعلق بالحقوق والديون التي اكتسبوها على حساب حكومة تونس بوصفهم أصحاب صقلية[1].

أما على عهد ابن اللحياني فنجده لا ينتظر طويلا ليعيد ربط العلاقات مع مملكة أراغون، فما أن دخل مدينة تونس منتصرا حتى أوفد مبعوثه الطبيب ابن عيشون إلى خايم الثاني يوم 26 رجب 8/711 -12 1311م، وما كادت سنة 1312م تنتهي حتى استأنف المحادثات إثر إبرام المعاهدة بين تونس و ميورقة، والتجأ إلى وساطة مواطنين قطالانيين هما برنار دي فونس *Bernard de Fonts* ولوران دي بارغا *Loraine di Pargua* قائد وكاتب جند النصارى في تونس، واستجابة لهذه الطلبات قرر خايم الثاني في أواخر سنة 712ه/1313م إيفاد مبعوثه الخاص غيوم أولومار إلى تونس و قد فوض إليه جميع السلطات اللازمة، وبعد مباحثات مطولة أمضى أولومار مع ابن اللحياني في 05 ذي القعدة 1314/2/21/713 معاهدة صلح وسلام تكون سارية المفعول لمدة عشر سنوات[2].

والجدير بالملاحظة أن التعليمات التي أعطيت للمبعوث الأراغوني هي الحصول على 5/1 ما يدفعه رعايا مملكة أراغون من أداءات جمركية لفائدة ملكــه، أو المطالبــة على الأقل في صورة الرفض وكشرط لازم بالحصول على وعد من قبل السلطان بــدفع خمسة آلاف ديبلون ذهب للملك خايم عن كل سنة من سنوات صلاحية المعاهدة، إذ وبعد المفاوضات الطويلة التي جرت مع السفير الأراغوني اضطر في الأخير إلى ضمان السلم

---

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1،ص126.انظر أيضا *Mas Latrie, op.cit, Traites, pp 286-287-288.*

[2]. انظر روبار برانشفيك ،المرجع السابق،ج1،ص 166، انظر أيضا، *.Mas Latrie, op.cit, Traites, p306.*

مقابل دفع مبلغ أقل من المبلغ المطلوب، ذلك أن أولومار حمل إلـــى ســيده معــه 2500 دبلون إضافة إلى بعض الهدايا الثمينة.

ومما لا شك فيه أن السلطان قد وعد بدفع مبالغ أخرى فيما بعد رغم أن المعاهدة لم تشر إلى تلك المسالة المالية، فيبدو حينئذ أن المملكة الأراغونية عرفت كيف تفرض بواسطة الضغط الدبلوماسي لا غير ضريبة مالية، وذلك بسبب ما كان يشعر به السلطان ابن اللحّياني من ضعف إزاءها، ومن هنا ندرك أيضا بأن شخصية السلطان تلعب دورا هاما في توجيه السياسة الخارجية للدولة، وفي نفس الوقت ترسم ملامح سياسة الدول الأخرى تجاهها، وبقدر ما

تكون شخصية السلطان أو الحاكم قوية تحافظ على ملكه تكون شخصيته الضعيفة عاملا من عوامل ضعفه وزوال ملكه .

ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة لمملكة بجاية التي قبلت هي الأخرى بدفع ضـــريبة مماثلة، فما أن علم أبو بكر –الذي كان يقوم بحملة في فرجيوة– بوصول أولومار إلى تـــونس، حتى أوفد إلى تونس في جمادى الثانية 713/ أكتوبر 1313م قنصل أراغون ببجايـــة –جـــان بكولول– *JeanPoculuyl* للتفاوض مع خايم (جاك الثاني) وفـــي714ه/ 07 ينـــاير 1314م أمضى هذا الأخير في بلنسية وثيقة تجديد معاهدة 1309م لمدة خمس سنوات، وقـــد أعـــادت المعاهدة الجديدة أغلب بنود المعاهدة القديمة[1]، ونصت على حل المشاكل المتعلقة بالقرصـــنة – التي قام بها القراصنة القطالونيين في البحر– بالتراضي، كما نصت بالخصوص على أن يدفع ملك بجاية للملك خايم مبلغ خمسة آلاف دبلون ذهبا بحساب ألف ديبلون ذهب في السنة طوال مدة التسلم، وسيخصص نصف ما يدفعه رعايا مملكة أراغون من أداءات جمركية بل حتى أكثر من ذلك إن لزم الأمر لتغطية ذلك المبلغ ولئن وافق أبو بكر على مثل ذلك البنـــد فلأنـــه كـــان يخشى خصومه عبد الواديين ويرغب في إبرام حلف عسكري بحري ضدهم، فقد حاول أبو بكر حتى قبل استيلائه على تونس إعطاء العلاقات الرسمية التي تربط بينه وبين ملك أراغون صبغة التحالف العسكري ضد تلمسان، وسوف يجني أمير المملكة الحفصية الغربية فائدة كبيـــرة مـــن

[1] . *Mas Latrie, op.cit, Traites, p304.*

موقفه المتسامح، فمن الراجح جدا أن لمقاومة أسطول صاحب تلمسان أبي حمو ولئن كان من غير المتأكد قبول ملك ميورقة التدخل في ذلك النزاع، فمما لا شك فيه أن الأسطول القادم من برشلونة وبلنسية والمعزز بالسفن التي قدمتها اشبيلية قد تمكن من إبادة أسطول بني عبد الواد وإنقاذ الأمير أبي بكر من الخطر الذي كان يهدده، ولكن هذا الأخير لم يعترف بالجميل المقدم إليه، فقد رفض رفضا باتا تسديد نفقات الحملة المنظمة لإنقاذه معتبرا أن المغيرين قد تحصلوا على ما يكفي من الغنائم بعد انتصارهم لتعويض خسائرهم[1].

وفي خلال صائفة 720ه/1320م استقبل الأمير أبو بكر سفارة ميورقية برئاسة – برنارد بننكاس– *Bernard Benancasa* سفير أراغون في بجاية، وفي نفس ذلك التاريخ أو بعده بقليل وضع الملك سانشو على ذمته عشر سفن حربية أنقذت بجاية من هجوم أسطول بني عبد الواد، ولكن أبا بكر التجأ إلى نفس الطريقة التي استعملها من قبل مع القطالانيين فلم يدفع له سوى جزءا من النفقات وبقي مدينا له بمبلغ 4500 دبلون[2].

ب/مع الجمهوريات الايطالية:

لم تكن افريقية في منأى عن الصراعات التي تقع بين الجمهوريات الايطالية مثلما كان الأمر بالنسبة للنزاع الذي نشب بين الجمهوريتين البحريتين –البندقية و جنوة – فقد تعرضت مرات عديدة لانعكاسات الحرب الضروس التي اندلعت بينها وكذا تلك التي حدثت بين جنوة و بيزة منذ 678ه/ 1280م، فقد استعملت سواحلها التي لم تكن توجد قوة بحرية جدية تحرسها أحيانا كميدان للعمليات الحربية الجارية بين المتخاصمين، فمنذ عهد ابن أبي عمارة وحتى خلال الصائفة الأخيرة من عهد أبي إسحاق، جدت حوادث من هذا القبيل على السواحل التونسية وحتى في ميناء العاصمة تونس، فقد حجزت سفينة تابعة لبيزة سفينة أخرى تابعة لجنوه بالقرب من رأس الجبل، كما تم أسر سفينة جنوية كانت راسية في ميناء تونس من قبل

---

[1] *.Mas Latrie, op.cit, Traites, p310.*

[2]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص184.

ثلاث سفن شراعية حربية تابعة لبيزة ، وقد تم تجهيزها في كالياري[1] *Cagliari* للقيام بأعمال القرصنة، وفشلت بنفس المناسبة السفن التابعة لبيزة في الهجوم على سفينة صغيرة تابعة لجنوه، فقامت جنوة برد الفعل حيث استولت إحدى سفنها على سفينة شراعية حربية مجهزة كذلك في كالياري من طرف بيزة وتحصل ملك تونس، بوصفه صاحب المكان الذي جرت فيه المعركة حسبما يظهر على السفينة المغلوبة على سبيل الهبة، كما احتفظ في السجن بعدد من أعضاء طاقم السفينة، ووجه أغلب البحارين الواقعين في الأسر أثناء المعركة مباشرة إلى جنوه حيث وضعوا على ذمة السّلط[2].

وفي شهر جوان سنة 1280م اتجه عدد كبير من الفرسان لاستخلاص الضريبة التي كانت تدفع بانتظام، وفي شهر جويلية من السنة الموالية قبض أمناء مال الملك شارل إيرادات بيع بعض كميات الحنطة الصقلية التي نقلت من نابولي إلى تونس.

كان أهل بيزة يقومون بنشاط حثيث في موانئ افريقية حتى قبل قيام السلطنة الحفصية، فمنذ مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي كانت سلطة بيزة على اتصال مستمر مع الوالي أبي زيد عبد الرحمن، وفي في 14 شوال 662هـ/9 أوت 1264 أرسلوا سفيرا إلى تونس يدعى --بارنت فيسكانتي – *Parent Visconti* والذي أبرم مع أبي الحسين معاهدة جديدة تعتبر نسخة طبق الأصل لمعاهدة631 ه/ 1234م مع تخفيض مدة صلاحية العقد من ثلاثين إلى عشرين سنة، والتي كان من بين الشهود المسلمين عليها محمد بن عبد الجبار الرعيني المدرس المتوفى سنة 662 وأبو القاسم بن علي بن البراء التنوخي قاضي القضاة ومحمد بن علي بن إبراهيم وعبد الرحمن بن عمر القيسي وعبد الحميد بن أبي الدنيا الصدفي وعلي بن إبراهيم بن أبي عمرو ومحمد بن إبراهيم الأربسي وأحمد بن محمد الخباز وكلهم

---

[1]. كالياري،إقليم من أقاليم جزيرة سردينيا الواقعة بالبحر المتوسط والتي كانت هي الأخرى خاضعة لحكم مملكة أراغون.انظر. *Mas Latrie op.cit,Introduction,p* 223 ولمعرفة الموقع الجغرافي لها انظر.الخريطة ضمن الملاحق

[2]. روبار برانشفيك،المصدر السابق،ج1،ص122.

تقلدوا وظيفة قاضي القضاة باستثناء الأول[1]، وقد مارست بعض المدن الأخرى التابعة لمنطقة توسكانة وشمال ايطاليا تعاطي تجارة مزدهرة مع تونس وبجاية خاصة تحت إشراف بيزة[2].

وخلال السنوات الأخيرة من ولاية أبي عصيدة كانت العلاقات بين صقلية وافريقية على عهد فريديريك مرتبطة بالضرورة بالمسائل التي يبدو أن معاهدة– كالابيلوتا –لم تحاول فضها أي استخلاص الضريبة التونسية واحتلال جربة، ولو أن جزيرة جربة لم تكن تابعة رسميا لصقلية، شأنها في ذلك شأن جزر قرقنة، وكل ما هناك أن البابا –بونيفاس الثامن– *Boniface VIII*

قد سلم يوم 11 أوت 1295 كلا من جزيرة جربة وجزر قرقنة إلى روجر دي لوريا والذي استولى عليها وذلك من باب الإقطاع وبصورة وراثية مقابل دفع ضريبة سنوية وقدرها خمسون أوقية ذهب[3]، ولكن روجر دي لوريا كان مشغولا جدا هو وعائلته بشؤون ايطاليا الجنوبية، الأمر الذي كان من شأنه إثارة اهتمام كل من ملك صقلية ونابولي بمصير تلك الجزر التونسية لا سيما وأن الأميرال كان لا يقيم في أغلب الأحيان في تلك المناطق الآهلة بالسكان المسلمين وكان يقتصر على إبقاء حامية عسكرية هناك، ولكن ما كان يثيره من خشية ولو من بعيد كان كافيا لإخضاع الأهالي لسلطته.

ومع مطلع القرن الرابع عشر نجد نابولي تغير سياستها تجاه المملكة ففي 05 ماي 1309 توفي شارل الثاني ملك آنجو وارتقى إلى عرش نابولي ابنه روبار الذي كان إلى حد ذلك التاريخ الوكيل العام في المملكة، فبعدما أصبح ملكا اقترح على المعنيين بالأمر تسوية جديدة للقضية الصقلية لصالحه إذ اقترح على فريديريك أن يتخلى عن الجزيرة مقابل حصوله من أخيه خايم ملك أراغون على الحقوق التي يمارسها هذا الأخير على سردينيا وكورسيكا ويمكن للملك خايم مقابل ذلك على أن يستولى على بجاية[4]، وقد

---

[1] .Mas Latrie, op.cit, traites, pp 95-96.

[2]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1، ص83-84.

[3] . Mas Latrie, op.cit, Traites, pp18-19.

[4]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص169 .

رفض الملك الأراغوني هذه الخطة البارعة بشيء من الاحتقار، ولكن بعدما أبرم فريدريك مع ملك أنجو اثر فترة جديدة من الحرب المعلنة هدنة لمدة خمسة عشر شهرا في شهر ديسمبر 1314 فكر خايم بدوره في انجاز مشروع مماثل ينص على إمكانية قيام الملكين بغزو تونس ولكن لصالح فريدريك فوافق روبار على ذلك المشروع مبدئيا ولكنه اقترح حلا آخر لا يمس بحرمة تونس الترابية ويتمثل فيما يلي : يتحصل روبار على نصف صقلية مقابل التخلي لفائدة خايم عن الضريبة التونسية التي لا يقبضها في الواقع[1] مقابل التنازل لفائدة فريدريك عن حقوق مملكة أراغون على سردينيا وكورسيكا، ولكن المفاوضات التي سارت سيرا حسنا قد تعطلت اثر استئناف العمليات الحربية إلى أن أبرمت الهدنة في أواخر جويلية 1317م إلا أن الوضع الجديد بافريقية بعد سقوط ابن اللحياني وانتصار أبي بكر لم يسمح بالتفكير بمثل ذلك الطيش في غزو تلك البلاد من طرف النصارى[2].

إن عدم الاعتراف بسلطة بيدرو الثالث ملك أراغون على صقلية من قبل الحكومة التونسية على عهد ابن أبي عمارة جلب إلى تونس صداقة –آل آنجو– الذين احتفظوا بجنوب شبه الجزيرة الايطالية بصعوبة، ففي شهر ماي 1283م استقبل مبعوثوه بالقصر الملكي بنابولي، وفي شهر مارس من السنة الموالية أوفد شارل الأعرج أمير سالارن *salerne* وممثل أبيه شارل الأول في المملكة بدوره سفيرين من جنوه –جيبو–و –جاك أمبرياكو – إلى السلطان التونسي ليؤكدا له عن رغبة الأمير الصادقة في مواصلة العلاقات الودية التي كانت سائدة في الماضي بين والديهما –أي بين شارل الأول ووالد الفضل يحيى الواثق –ومن ناحية أخرى كلف مبعوثيه بأن يقترضا من ملك تونس أرفع مبلغ مالي ممكن وتوجيهه إليه عن طريق بعض أصحاب البنوك التوسكانيين[3].

---

[1] *.Mas Latrie, traites, op.cit.p99.*

[2]. برانشفيك، المرجع السابق، ص170.

[3]. نفسه،ج1، صص123-124.

أما بالنسبة للبندقية فقد حاولت الحفاظ على علاقاتها السلمية مع السلطنة الحفصية وذلك ما يتضح من خلال إيفادها لمبعوثها وسفيرها *Michelet Micheli* إلى تونس في 13 ماي 1317م للاتفاق مع أبي يحيى زكرياء اللحياني السلطان الحفصي على معاهدة تجارة لمدة خمسة عشر سنة إذا ما أخذنا في اعتبارنا أن التجارة بين تلك الدول كانت دوما مرتبطة بالسلم[1]، لكن سرعان ما تعكر صفو تلك العلاقات بسبب الأضرار التي لحقت ببعض رعاياها وقنصلها بتونس، فأوفدت لذلك نفس السفير في سنة723ه/ 1323م للتشكي لدى أبي بكر من تلك الأضرار، ولكن يبدو أن الأمور لم تتحسن لأن أعضاء مجلس الشيوخ في البندقية قد أبدوا انشغالهم مرات عديدة طوال ثلاث أو أربع سنوات بالتجاوزات التي كان يتعرض لها مواطنوهم بتونس وقد جرت اتصالات جديدة سنة 730ه/1329م، ويبدو أنها تمت هذه المرة بمبادرة من السلطان الحفصي الذي أوفد بعثة إلى البندقية لطلب تعويضات عن السفينة التي احتجزت بدون موجب شرعي،ولكن في 11 جويلية 1332 م تضايقت جمهورية البندقية من المضايقات التي يتعرض لها رعاياها في افريقية فحجرت عليهم القيام بأي عملية تجارية في الأقطار التابعة للملك الحفصي واعتبرت الاتفاقية التي عقدت سنة 717ه/1317م في استمرار هذه الحالة لاغية[2] .

وتشير الوثائق التاريخية أن ابن اللحياني وابن تافراجين عقدا علاقات دبلوماسية مع دول نصرانية منها جمهورية بيزة، ففي 14سبتمبر من سنة 1313م نجد تونس تبادر إلى عقد معاهدة سلام لمدة عشر سنوات بين أبي يحيى زكريا اللحياني السلطان الحفصي وجمهورية بيزة بواسطة المبعوثين البيزيين جان فيجيولي *Jean Fagioli* و رينيه دال بانيو *Rainier del Panio* سفيري بيزة في تونس[3]، وهذا ما يدل على تواصل العلاقات الديبلوماسية بين الدولتين ومعها استمرار التمثيل الديبلوماسي والقنصلي على الأقل من

---

[1] . *Mas Latrie, op.cit, Traites, p216.*

[2] . *Mas Latrie, op.cit, Introduction, p216.*

[3] . *Mas Latrie, op.cit, Traites, p49.*

الطرف البيزي والتي ارتبطت أيما ارتباط بالعمل التجاري أي أن الهدف منهـا تمهيـد الأرضية للممارسات التجارية خاصة وأن الجمهوريات الايطالية كانت تعول كثيرا علـى هذا الجانب الاقتصادي.

ثم نجد الجمهورية نفسها تحرص على تجديد هذه العلاقات ، فقبل حملة أبي عنان الكبرى على افريقية وفي حين كانت فيه بجاية خاضعة للمرينيين أبرمت بتونس معاهـدة سارية المفعول لمدة عشر سنوات في 11 ربيع الثاني754هـ/16 ماي 1353م باسم أبي إسحاق مع سفير بيزة[1] رينييه بورشليني *Rainier Porcellini* وهـي معاهـدة مكـررة وتوضيحية لبعض المسائل لا سيما المتعلقة منها بالعمليات والرسوم الجمركية، وقد عقدت هـذه المعاهدة في جناح من حديقة القصر الملكي ولا تزال النسخة العربية واللاتينية موجودتان[2].

ج- مع فرنسا :

لم تكن علاقاتها مع الدولة الحفصية عميقة وواضحة الأهداف بالقدر الذي كانت عليه علاقات أراغون وقشتالة، لكن رغم ذلك فقد تميزت في فترات ضيقة بالتوتر وعدم الاستقرار،اللذان تسبب فيهما الحقد خاصة من الطرف الفرنسي، فجاءت عمليات التصادم مبكرة من خلال الحملة التي قادها ملكها لويس التاسع[3] الملقب بالقديس في مراكب لا تحصى[4] في 25 من ذي الحجة سنة 668ه 15 مارس 1270 م[5] غادرت العاصمة باريس لتحقيق ما نذر به نفسه، فقام بعملية حشد لأنصاره وأتباعه في ميناء إيغ مورت*Aigues-Mortes* - ومن هناك أبحر مع من معه من المقاتلين على متن سفن مستأجرة من جنوة يوم02 جويلية من نفس السنة

---

[1]. مدينة ايطالية قديمة و شهيرة ببرجها المائل الذي شرع في إنشائه عام 1173 وتم انجازه فيما بين 1360و1370تقع على ضفتي نهر أرن.

[2]. *Mas Latrie, op.cit, Traites, p173.*

[3]. لويس التاسع عشر (1214-1270) ابن لويس الثامن وكلمة لويس تطلق على عدد من مشاهير الملوك الفرنسيين وكان هناك اختلاف ومبالغة من المؤرخين في تحديد عدد الجند من الطرف الفرنسي مثال ابن أبي زرع و الزركشي في حين قدر العدد بما لا يزيد عن الأربعين ألفا.

[5]. الزركشي،المصدر السابق، ص112

بعد أن أقام لويس قداس عيد العنصرة[1] بكنيسة سان جيل، لتتوقف السفن بعد خمسة أيام في كالياري التابعة لبيزة، وفي ذلك الميناء الواقع في جزيرة سردينيا تضخم جيش الصليبيين،إذ انضمت إليه جموع من الفرنسيين والأجانب الذين أبحروا من مرسيليا أو من غيرها من المراسي[2]، وقد تجلى حقد وصليبية الحملة، من خلال مشاركة ملك فرنسا بنفسه إلى جانب أبنائه الثلاثة: فيليب وبطرس وجان ترستان وأخوه الفونس كونت بواتييه *Poitier* وتولوز *Toulouse* وابنته إيزابيل وصهره تيبو ملك نافار وكونت شمبانيا[3] وسفير البابا الكاردينال رودولف دالبانو *Rudolph del Panno* كما كان يرافق الملك عدد كبير من الفرسان وبعض الرهبان وكان الجميع يعتقد أنه يتوجه نحو فلسطين أو مصر، إلى أن عقد قائد الحملة مجلسا على متن السفينة ذاتها يومي 12 و13 جويلية وعرض على أهم مرافقيه اعتزامه التوجه إلى تونس، فوافق على هذه الفكرة الكاردينال سفير البابا ثم تبعه بقية الحاضرين، وبعد ذلك بأربعة أيام وصلت الحملة إلى ميناء قرطاج، وبدأ الصليبيون يستعدون للنزول[4]، يوم 18 جويلية 12—1270م بعد وصولهم بيوم واحد، ولم يتعرضوا لأية مقاومة نظرا لان المسلمين كما يرى ابن خلدون كانوا يفضلون نزول العدو في منطقة غير بعيدة عن العاصمة المليئة بالجنود عوض المقاومة الفورية التي من شانها أن تشجع العدو على اقتحام بلدة أخرى تفتقر إلى التحصينات وربما يعود السبب إلى المباغتة وهو الأقرب حسب رأينا للصواب لان العدو هو الذي يختار منطقة الهجوم لا الطرف المهاجم، لكن ربما جرت العادة أو على الأقل في اغلب الأحيان مهاجمة المركز أو العاصمة أولا لان سقوطها يعني سقوط الدولة، فقام العدو بطرد السكان من أطلال قرطاج التي لا تزال قائمة واستقروا بها لتبلغهم رسالة من الملك شارل يدعوهم فيها إلى تأجيل الهجوم إلى حين وصوله، فاستجاب الملك لويس لطلبه عن طيب خاطر لأنه كان في حاجة ماسة إلى مدد يساعده على القيام بهجوم واسع النطاق، ويرى برانشفيك أن الأمل كان لا

---

[1]. العنصرة،عيد من أعياد المسيحيين، يحتفى فيه بذكرى تخليد نزول الروح القدس على الحواريين.

[2]. برانشفيك،المرجع السابق، ص86-87.

[3]. شمبانيا *champagne* مقاطعة تقع في الشمال الشرقي من فرنسا، وكانت مكانا لأولى الأسواق الأوروبية الكبرى لأن مدنها كانت تقع على الطرق التجارية التي تربط إيطاليا بأوروبا الشمالية .انظر *Lecuppre Gille, op.cit,p30*

[4]. انظر ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق،ج6، ص427.

يزال يحدو الملك لويس في تنصير المستنصر إذا ما استمر في ربح الوقت، ولا شك أن الكثير من أهل افريقية وكذا الأعداء، وهذا ما دفع بعض المسلمين إلى التظاهر بالتنصر وضرب النصارى غدرا، ورغم المناوشات التي قام بها المسلمون إلا أن الأعداء اكتفوا بالتستر خلف الخندق الذي أنشئوه حول معسكرهم، وذلك نزولا عند رغبة وطلب قائدهم الذي لبى طلب الملك شارل بانتظاره، والذي تأخر عن القدوم.

وفي أوائل شهر أوت تفشى وباء الإسهال جراء الحرارة والاكتظاظ والنظام الغذائي فبدأ يفتك بالصليبيين وأودى بحياة أصغر إخوة لويس التاسع، جان تريستان *JeanTristan* يوم 03 أوت ثم لحقه السفير البابوي في السابع من نفس الشهر، كما أصيب الملك نفسه قبل وصول أخيه شارل[1].

إن هذه الحالة إلى جانب بقاء العدو مكتوف الأيدي أمام هجمات المسلمين أدت إلى امتعاض الجيش ولترضيته نظمت بعض الهجمات فيما ين 17و22- 1270 دون تأثير كبير ومع مرور الأيام تفاقم خطر الوباء إذ أودى بحياة الكثير من الجند ،كما لقي الملك لويس التاسع حتفه في 25 أوت فنقلت رفاته من قبل رفقائه بالقتال ودفن بباريس في دير سان دوني *Saint-Denis* أما أحشاؤه فقد وضعت بكنيسة مونريال *Montréal* بالقرب من بالرمو[2] .

وبعد وفاة لويس التاسع بسب الإسهال وتولي أخيه -فليب الثالث- عرش فرنسا،أصبح -شارل دانجو- سيد الموقف ورئيسا للحملة الصليبية ومسيطرا على ابن أخيه فليب، والذي كان همه رفع معنويات الجيش النصراني وترهيب السلطان بالقيام بعملية عسكرية سريعة،إذ تسربت بعض السفن الحربية الصغيرة إلى بحيرة تونس للجمع بين غارتين في البر والبحر ،فقام المسلمون بهجوم مضاد لمنع العملية فردهم شارل على أعقابهم وكبدهم خسائر فادحة، فتملكهم الجزع وحفروا خندقا بسرعة حول معسكرهم، والظاهر أن شارل لم يكن له استعداد لمواصلة هذا الانتصار إلى ابعد الحدود،لكنه حاول استغلال هذا الانتصار دبلوماسيا

---

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1، ص90.

[2].روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1، هامش 69، ص91.

بالشروع في مفاوضات مع المستنصر بشكل خفي،والذي كان يريد قبول شروط خصمه بشكل سريع والتي كانت تكتسي طابعا ماليا لو لا خوفه من حاشيته ورعاياه واستمرت الأوضاع على تلك الحال إلى أن قام المسلمون يوم 2 أكتوبر من نفس السنة بهجوم جديد انقلب ضدهم إذ استولى النصارى على معسكرهم ونهبوه ،فأصبح الطرفان عندئذ مستعدان للتفاوض ،فمن جانب الحفصيين أظهرت المحاولتان الفاشلتان استحالة التصدي لحملة نصرانية منظمة إضافة إلى تفشي مرض الإسهال في صفوف الجنود المسلمين أيضا،هذا من جانب ومن جانب آخر فان قرب فصل الشتاء، يعني انصراف البدو ورجال القبائل نحو مراعي المناطق الجنوبية حسب عادتهم المألوفة أي انصراف الكثير من المؤيدين والأنصار وحينها سيجذ نفسه مضطرا للجلاء عن عاصمته والانتقال نحو قسنطينة أو القيروان .

أما من الجانب النصراني فنظرا لعدم موافقة الكثير منهم في قرارة أنفسهم على هذه الحملة الموجهة ضد تونس، فان الحماس الذي انتعش فيهم برهة في أوائل سبتمبر سرعان ما فتر وضعف من جديد إذ لم يكن لا الملك فيليب الذي تماثل للشفاء ولا الملك شارل يرغبان في التوسع في الأراضي التونسية،كما أن معظم المشاركين كانوا يودون الرحيل أو الإبحار قبل حلول فصل الخريف إما للتوجه نحو الأراضي المقدسة أو الرجوع إلى بلدانهم المختلفة ،وعلى هذا الأساس نجد ملوك النصارى الثلاث يوم 30 أكتوبر مع وفد من المسلمين برئاسة محمد بن عبد القوي بعد بضعة أسابيع من التفاوض يتفقون على بنود معاهدة تكون سارية المفعول لمدة 15 سنة شمسية ابتداء من تاريخ أول نوفمبر الموالي، وبعد ذلك ببضعة أيام وعلى الأرجح بعد خمسة أيام أقسم المستنصر بحضور مستشار صقلية –جوفروا دي بومون– على البنود التالية :

– التصالح مع جميع الأمراء والفرسان المشاركين في الحملة الصليبية، وإطلاق سراح الأسرى وضمان الأمن المتبادل لفائدة المسافرين و التجار .

–منع إيواء أعداء المتعاقدين و الاعتراف بحق الرهبان والقسيسين النصارى في بناء كنائس على ارض الدولة الحفصية والقيام بشعائرهم الدينية بها بكل حرية .

–موافقة السلطان الحفصي على دفع غرامة حربية لمجموع المشاركين في الحملة الصليبية ومقدارها مائتان وعشرة ألاف أوقية ذهبا، يسدد نصفها محضرا والنصف الثاني مقسط بين

عامين شمسيين ويدفع في الحال لملك صقلية ما تخلد في ذمته من الأداء بالنسبة للسنوات الخمس الماضية،بحسب القيمة القديمة ويتعهد بان يدفع له فيما بعد سنويا ضعف المبلغ الأول ،إذ وقد تم كل شيء يوم 10 نوفمبر، قدم أمير صليبي جديد صحبة جنوده وهو الأمير ادوارد ابن ملك انجلترا هنري الثالث الأكبر وولي عهده،وقد اتخذ المتعاقدون مسبقا احتياطاتهم لتشريكه مسبقا في المعاهدة، فاضطر إلى الرحيل مع بقية المقاتلين النصارى الذين اجلوا ارض افريقية فيما بين 10 و18 نوفمبر واتجهوا نحو تراباني وقد خسروا بعض السفن من جراء العواصف وتوفي تيبو ملك نافار في صقلية يوم 5 ديسمبر وتمكن الملك ادوار في العام الموالي من الوصول إلى الأراضي المقدسة وتعذر عليه القيام بأي عمل ايجابي وهكذا انتهت هذه الحملة الصليبية[1] .

بعد انتهاء الحملة لبى المستنصر ما عليه من أموال متخلدة فعمل الملك شارل على الحفاظ على مودة السلطان فعززها بتبادل عدة سفارات،إذ تشير الوثائق إلى وجود بعثات تونسية رسمية لدى ملك صقلية في671ه/ شهر أوت 1274م وشهر/672ه نوفمبر 1275م و قد اصدر شارل في هذا التاريخ أمرا إلى محافظ بروفانس لمنع القراصنة في مرسيليا ونيس من الهجوم على رعايا ملك تونس [2].

أما عن الذريعة التي تحجج بها ملك فرنسا في عملية الغزو فهي أن تجارا من بلاده ادعوا على اللحياني بعد نكبته أنهم أسلفوه 300 دينار ذهبا دون سند يثبت ذلك ، فرفض إعادة الأموال إليهم فاشتكوه إلى ملكهم،أو بسب أسره لؤلئك التجار ،وفي ذي القعدة سنة 668 ه/ 17جوان 1270م نازل الفرنسيون مدينة تونس بجموع وافرة من الفرسان و المشاة لان ملك فرنسا كان قد حشد أهل ملته من دول أخرى ،وكانت بينهم وبين المسلمين حروب مات فيها خلق كثير من الفريقين وقد استمر تواجدهم لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام ،وفي 10محرم سنة 669 ه/29 أوت1270م، مات طاغيتهم وقد قيل إن السلطان الحفصي بعث إليه بسيف مسموم، وقيل مات بسبب الوباء الذي أرسله الله عليه و على جيشه، فمات منهم عدد كثير وطلبوا

---

[1]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1،ص92-93.

[2]. نفسه ،ج1،صص98-99.

الصلح فصالحهم السلطان على الانصراف من غير تعرض لجهة من جهات المسلمين[1] على أن يدفع لهم (ألف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطير من الفضة)1110قنطار، و إن تعقد الهدنة لمدة 15 عاما فتم الصلح .

لكن ما هي الأسباب التي جعلت لويس التاسع يغير وجهة الحروب الصليبية من المشرق إلى المغرب رغم بعد تونس عن الأراضي المقدسة وقلة مناهضتها للنصارى؟ لقد وجدت علاقات دبلوماسية بين الملك الفرنسي والأمير الحفصي إذ لوحظ وجود مبعوثين من الأمير الحفصي في القصر الملكي بباريس في 666ه/أوائل أكتوبر1269 الذين كانوا يبحثون عن صداقة الملك الفرنسي الذي كان يتأهب للقيام بعمل ما في المتوسط،وقد جاءوا لتذليل الصعوبة الناتجة عن إعدام اللّياني،الذي توفي تاركا في ذمته أموالا وديونا لبعض الرعايا الفرنسيين الذين طلبوها من الأمير الحفصي والمقدرة بنحو ثلاثمائة دينار حسب ابن خلدون والتي لم يكونوا يملكون مستندا يؤكد زعمهم هذا [2] لكن دون جدوى، فاشتكوا إلى ملكهم وحرضوه على التدخل، نظرا لما رأوه في تونس من ضعف ومجاعة وكثرة الوفيات[3]، فامتعض لهم،واستنفر ملوك النصارى لذلك [4]، فقد خيل للقديس لويس زمن قيادته الحملة الصليبية أنه يضرب قلب الإسلام[5]، لكن المفاوضات لم تنته إلى مخرج رغم عروض المبعوثين بتسديد تلك الديون والتي يكونوا قد سددوا جزءا منها[6]، ويرى برانشفيك أن هنالك عوامل وأسباب أخرى تكون قد لفتت نظر ملك فرنسا ودفعته للقيام

---

[1]. رغم أن النصارى هم الذين طلبوا الصلح إلا إن المنتصر باله هو الذي دفع أموالا طائلة لهم تتمثل في 110من الفضة الخالصة لمدة 15 عاما ورغم ما تعرضت له بلاده من التدمير وانقطاع لسبل وأسباب العيش والأموال التي أنفقت في المعركة من بيت المال.ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس،ص128، ابن الشماع،المصدر السابق، ص72.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق ،ج6، ص426.

[3]. نفسه،ج6، ص426 .

[4]. نفسه ،ج6، ص426.

[5]. محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس–من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال –ط3 ،تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، دار سراس للنشر،تونس1993،ص53.

[6]. هناك تشابه في القضية الأولى ((الديون)) مع أسباب احتلال فرنسا للجزائر سنة))1830 بكري و بوشناق)).

بهذه الحملة كالمساعدة التي قدمها لأنصار أسرة هوهنشتافن، ويغلب السبب الديني أي الصليبي بالنظر لظروف القرون الوسطى، وتوجه وفكر لويس التاسع ،إذ كان يرى في تحقيق أهداف هذه الحملة –أي إخضاع شواطئ افريقية عاملا مسهلا لمقاومة المماليك في مصر وسوريا– ولما لا تنصير المستنصر إذا ما علمنا أن هذا الملك قام بمحاولات حثيثة لتنصير الأمراء المغوليين، وما كان للمبشرين المحترفين من تأثير على ضميره كالفرنسيسكيين[1] الذين كانوا يعملون بنشاط في المملكة الحفصية وكان عدد كبير منهم من بين الصليبيين[2].

ما تجدر الإشارة إليه هو أن مرسيليا كانت تابعة ل–شارل دانجو– وقد عينت في 20 أبريل 1268م أحد مواطنيها المدعو –هوك بورغونيون– *Hugues Borgonion* قنصلا لها في بجاية[3]، وما يدل أكثر على التقارب بين هذا العاهل والمستنصر هي الرسالة التي وجهها شارل دانجو من معسكره المنصوب أمام مدينة لوسرة الصقلية، وهو يحاصر المسلمين الثائرين إلى كبار موظفيه يدعوهم فيها إلى استقبال المبعوثين اللذان أعلن السلطان الحفصي عن قدومهما بكل حفاوة وتبجيل،فلم يكن هناك اثر لأي حقد باستثناء الخلاف حول الضريبة،وهناك وثيقة مؤرخة في 1268م صادرة عن الدوائر الدبلوماسية في نابولي تدل على أن الأقساط السنوية الثلاثة المستحقة لم تسدد منذ ارتقاء شارل دانجو العرش[4].

وفي السنة الموالية يبدو أنه طلب إلى مبعوثي المستنصر دفع الاستحقاقات المتأخرة منذ وفاة فريديريك، ولقد دارت مفاوضات ودية بهذا الخصوص كان مآلها

---

[1].أعضاء في منظمات نصرانية مختلفة تنتمي إلى الرومان الكاثوليك، أخذوا إلهامهم ونظام حكمهم وبرنامج حياتهم من القديس فرانسيس، وفي عام 1209م أسس فرانسيس نظام الفراير وبين عامي 1212م و1214م أسس فرانسيس والقديسة كلير نظامًا للنساء يُدعى النظام الثاني للقديس فرانسيس، وقد كرّس الأوائل جهودهم في الوعظ والاهتمام بالإحتياجات الروحية للناس، ولكن سرعان ما تم تقسيم النظام إلى تربوي واجتماعي وتنصيري.

[2]. انظر روبار برانشفيك ،المرجع السابق،ج1،ص88.

[3] . *Mas Latrie, op.cit, Traites, p91.*

[4] .*Ibid,traites, p156.*

الفشل، ليوفد –شارل دانجو– مجموعة من المبعوثين منهم الدومينيكي بيرنجي للتفـاوض في تونس في الفترة التي كان غادر فيها شقيقه ملك فرنسا باريس لخوض غمار الحـرب الصليبية الموجهة ضد افريقية [1].

مرحلة الوحدة المؤقتة وبداية الانهيار: هي الفترة التي أعقبت انتصاب أبي العباس أحمد الى غاية بداية ظهور التحرشات الاسبانية على سواحلها والتي أفضت فيما بعد الى ظهور الأخوين التركيين بربروسا عروج وخير الدين.

أراغون: تميزت هذه الفترة بامتزاج العمل العسكري مع الدبلوماسي فعلى عهد المولى أبي فارس عبد العزيز الذي امتاز بشجاعته حتى خافه القاصي والداني حسب ابن الشماع[2] بعث سلطان النصارى القطلاني رسولا إلى حضرة تونس برسم التحدث في الصلح في سنة 827هـ/ 1430م وهي السنة التي افتتح فيها السلطان أبو فارس تلمسان واستقر في قصبتها واستولى على جميع ما فيها[3]، فوجد الرسول السلطان بالمغرب، فبعث إلى سلطانه يخبره بغيبة أبي فارس، فرجع الرسول في حينها بأمر من سلطانه على متن الغراب الذي جاء فيه، ليبعث بعمارة تتكون من خمسين جفنا فقصدوا قرقنة ونزلوا بها ليلا على حين غفلة من أهلها، وكان عدد النصارى حوالي عشرة آلاف مقاتل والمسلمون نحو ألفين ما بين رجال ونساء وأولاد وكانت الجزيرة تفتقد إلى أي تحصين دفاعي، لكن رغم ذلك فقد وقف أهلها واستماتوا في الدفاع عنها وقتلوا من النصارى حوالي أربعمائة وقتل منهم نحو مائتين، لكن هذا كله لم يمنع من استيلاء النصارى على الجزيرة، لقد رجع السلطان أبو فارس من المغرب وأخبر في حينها عن العمارة القطلانية –أراغون– أي بعد وصوله إلى قفصه فسارع نحو صفاقس فتوافق ذلك مع وصول النصارى فطلبوا منه الأمان لينزلوا

---

1. انظر روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1،ص86.
2. ابن الشماع، نفس المصدر، ص116.
3. الزركشي،المصدر السابق، ص126.

ويتحدثوا في فدية المسلمين، فأعطاهم الأمان ونزل منهم ستمائة من كبارهم فأعطاهم السلطان خمسين ألف دينار فدية فأبوا فأتى المرابط ابن أبي صنعونة،السلطان وقال له أن النصارى خانوك فإنهم بعثوا رسولهم للصلح وفعلوا ما فعلوا وليس لخائن أمان،فالرأي عندي والصواب هو القبض على هؤلاء حتى يردوا المسلمين)) فقال لا لئلا يتحدث الناس أني خائن نعطي الأمان ونخون ،نعوذ الله من ذلك ،فقال له المرابط إن لم تفعلها أنت ،نفعلها أنا، تمشي أنت للصيد وانأ نأخذهم في غيبتك، فنهاه وطلعوا لأجفانهم على الأمان وسافروا بالمسلمين[1].

وهنا نضع علامات استفهام حول هذا الموقف المتخذ من قبله، فهل كان موقف نبل وشهامة حسب ما ادعاه ،أم موقفا ينم عن ضعف وخوف عما قد يحدث مستقبلا في حال إقدامه على اتخاذ عمل عدواني ضدهم ؟ ربما يكون الرأي الخير هو الأرجح لأننا كما سنرى سيتخذ موقفا متخاذلا مع الملك القشتالي بشأن موقفه من غرناطة.

وفي سنة 832 ه/1429م نجد السلطان نفسه يجهز أسطولا بقيادة مملوكه رضوان والذي نزل به في جزيرة مالطة التابعة لأراغون أين قضوا بضعة أيام [2]، ويوردها الزركشي لكن بمعطيات أخرى فيقول((....وفي سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة عمر السلطان من تونس أسطولا كبيرا ،وبعثه إلى جزيرة مالطة وأمر عليه مملوكه القائد رضوان،وأمره أن ينازلها ثلاثة أيام فان أخذت وإلا رحل عنها فنازلها وضيق عليها الحصار ،ثم أقلع عنها بعد أن أشرف على أخذها...))

بعد أن رتب ألفونصو الخامس أموره وعاد إلى قطلونيا عاصمة دولته، تـــزعم الحملة الصليبية الثانية على جزيرة جربة التي كانت في أمم لا تحصى وذلك في العشـــر

---

[1]. الزركشي،المصدر السابق، ص127.

[2]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1،ص231

الأول[1] من ذي الحجة من عام 835ه/ أوت 1432م[2] إذ بلغه خبر ذلك وهو ببلاد الجريد[3] بتفقد البلاد ويمهد أحوالها فطوى المراحل وبادر إلى الجزيـــرة فوافاهـــا يـــوم الســـادس والعشرين من نفس الشهر، ولم يزل يحاول حتى خلع عنها النصارى فرحلـــوا خـــائبين واستشهد فيها جماعة من الناس، وقد تراجع النصارى نظرا لأنهم لم يضعوا في حسبانهم بأن للجزيرة مدخلا أخر غير القنطرة التي كان قد قطعها العدو عند قدومه إليها[4].

أما بخصوص صقلية التابعة لأراغون فنجد لوب خيمينيس دوريا Lop Ximénies Durrea نائب ملك أراغون يعد رافاييل فيفيس *Raphael Vives* ملك البرتغال في20 نوفمبر 1472م، بمنحه مبلغ 60 ألف دوبلو ذهبا بعد عقد السلم الذي سيتم التفاوض بشأنه بين ملك أراغون وصقلية وملك نابل من جهة والأمير التونسي من جهة أخرى، وبعد افتداء خمسمائة مسيحي أسروا بالأراضي الحفصية وهذا ما يدل على وجود اتجاه من هذه الأطراف لتهدئة الأمور وتسوية المشاكل العالقة بالطرق الدبلوماسية[5]، وفي السنة الموالية وتحديدا في 19 ديسمبر 1473م ببالرمو نجد نائب ملك أراغون يحمل بلاغا رسميا بخصوص الهدنة لمدة سنتين بين ملك أراغون نافار وصقلية والأمير الحفصي وتؤكد على النظر بإخلاص إلى قضية السلم في جزر صقلية ومالطا[6]، والتي كانت تسببها أعمال القرصنة التي كانت في الواقع قد تراجعت وتيرتها طيلة القرن الثالث عشر وأفقدت الدول المغاربية الكثير من حيويتها الاقتصادية بما كانت تدره عليها من

---

[1]. وردت في سابع عشر ذي الحجة عند ابن الشماع ،المصدر السابق،ص116.انظر أيضا الزركشي،المصدر السابق، ص129.

[2]. الزركشي،المصدر السابق،ص129.

[3]. سميت بذلك الاسم عند العرب وهي البلاد التي ينمو فيها النخيل ،بين تطلق عليه تسمية نوميديا باللاتينية،انظر الوزان،المصدر السابق،ج2، ص36،أما الزركشي فيروي بان الملك كان بمحلته حينما قدم النصارى للجزيرة انظر الزركشي، المصدر السابق،ص129.

[4].الزركشي،المصدر السابق، ص129-130.

[5] . *Mas Latrie, op.cit, Traites, p174.*

[6] .*Ibid, Traites, p175.*

أموال أو عوائد [1] – ليعلن لوب خيمينيس دوريا نائب ملك صقلية في 23 ديسمبر 1473م جاك بونانو *Jacques Bonnano* قنصلا في المملكة الحفصية مع منحه الحق في تنصيب نواب للقنصل باسم ملك أراغون و نابل في فترة الهدنة المعلنة لمدة سنتين أو لفترة أطول في حال ما عقدت معاهدة السلم بشكل نهائي [2].

قشتالـــة:

نجد السلطان أبا فارس عبد العزيز يهادي ملك قشتالة بهدية نفيسة[3] في إطار الصراع القائم حول غرناطة، إذ استجاب إلى ما تقدم به حاكم مرسية ألفونصو دي لوركا، و جهز للسلطان أبي عبد الله الأيسر [4] جيشا قوامه خمسمائة رجل فتمكن به من الانتصار الانتصار على محمد الزغير [5] ليستعيد مكانته على غرناطة، ويرسل هو الآخر بطلبه إلـــى ملك قشتالة طالبا تجديد الهدنة معه،هذا الأخير الذي بالغ كثيرا في قبول هذه الهدنـــة بمـــا وضعه من شروط تكاد تكون تعجيزية[6]، رفضها وهدد ملك قشتالة بالحرب.

---

[1] . *Abdallah Laroui, the history of the maghrib, an interpretative essay, translated by ralph Manheim, princeton Univercity press, New Jersey m 1977,p262.*

[2] .*Mas Latrie, op.cit, Traites, p176.*

[3]. روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1، ص228.

[4]. امتاز عهده بالاضطراب،إذ كان النصارى يتربصون الدوائر بغرناطة محاولين غزوها وتصفيتها فزحفوا عليها سنة831ه/ 1428م وتوغلوا في أرجائها وعاثوا في بسائط وادي آش فسادا ،فازدادت أحوال البلاد والعباد سوءا،الأمر الذي أدى إلى نقمة الرعية عليه وزحفهم على قصر الحمراء والمطالبة بتغييره. عبد الله عنان،نهاية الأندلس،ص155.

[5]. هو الأمير محمد بن محمد يوسف الثالث ابن أخ الأيسر وفي رواية أنه ولده و يلقب في بعض الروايات بأبي عبد الله الصغير أي أن الزغير هي نفسها الصغير بالنطق الأندلسي. عبد الله عنان ،نهاية الأندلس،ص156.

[6]. من بين ما اشترطه هذا الملك ،أن يؤدي الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة في سبيل استرداد عرشه ،وأن يؤدي جزية سنوية اعترافا منه بطاعته لقشتالة وان يفرج عن سائر النصارى الموجودين في بلاده. انظر عبد الله عنان، نهاية الأندلس ،ص158.

ونجد خوان الثاني *Juan II* ملك قشتالة هو الآخر يبعث بسفرائه ومعهم هدايا نفيسة إلى أبي فارس الحفصي ليقنعه بعدم التدخل في شؤون غرناطة، الأمر الذي حدث أيضا مع السلطان المريني عبد الحق بن عثمان، فوعداه بذلك ليجهز خوان الثاني بقواته على قرطبة و جيان و أستجة ورندة وغيرها من أراضي الأندلس سنة 834ه/1431م[1].

إن ما دفع السلطان الحفصي إلى مثل هذا الموقف هو ضعفه العسكري، فلم يكن بمقدوره الدفاع عن مملكة غرناطة، رغم علمه وتأكده من عزم ملك قشتالة على اقتلاع هذه المملكة، ومن جهة أخرى توجسه من أراغون التي أصبحت كما أشرنا سابقا قاب قوسين من مملكته بسيطرتها على جزيرة صقلية وما جاورها من الجزر مثل كورسيكا سردينيا ومالطا وما يترتب عن ذلك من مشاكل تنجم عن تهديداتها لسلطنته خاصة إذا ما علمنا أن افريقية كانت أكثر الدول المغاربية الثلاث عرضة للتحامي الصليبي.

ج/فرنسا:

قامت فرنسا في هذه المرحلة بدور مهم في إطار الحملات الصليبية الموجهة ضد الدولة الحفصية، ومن ذلك عملية الإنزال التي تمت بالمهدية[2] بالاشتراك مع جمهورية جنوه في 05 شعبان عام 792ه/جويلية 1390م -أي في نفس السنة التي توفي فيها الأمير إبراهيم الحفصي أمير قسنطينة، وتمت هذه الحملة في مائة قطعة بين مراكب

[1]. عبد الله عنان، نهاية الأندلس،ص185.

[2]. المهدية كما يصفها التجاني مدينة جليلة القدر ومن قواعد الاسلام الشهيرة وهي مدينة تقع على الساحل التونسي مؤسسها هو عبيد الله المهدي الشيعي أول خلفاء العبيديين والذي شرع في بنائها في الخامس من ذي القعدة سنة 303 للهجرة،انظر التجاني المصدر السابق،ص320.

كبيرة وأغربة[1] وبمباركة الكنيسة والبابا بروما على عهد المولى أبي فارس عبد العزيز[2]، وقد أقلعت من جنوه لتحط بمرسى المهدية.

ومن مظاهر التحامي الصليبي على تونس في هذه الفترة أن الحملة اشتملت على متطوعين من عدة أقطار أوروبية[3]، فرمى أهل المهدية النصارى بالحجارة والنفط والسهام، فاحرقوا بذلك البرج الذي أنشاه النصارى فأفزعهم ذلك، وفي تلك الأثناء وقع الخلاف وسوء النية بين الجنونيين والفرنسيين بسبب طول مدة الحصار ونقص الزاد والذخيرة والخوف من دخول فصل الشتاء[4]، فأراد الطرف الجنوي الغدر بالآخر، ليرحل الفرنسيون بسفنهم، فرأى الجنويون أنه لا قبل لهم بالمسلمين لوحدهم فرحلوا أيضا بعد أن أقاموا بها مدة شهرين[5] ليتراجعوا ويركبوا

البحر من غدهم[6]، وقد فقدوا نحو خمسة وسبعين من جندهم، وهنا يثني الزركشي على المولى أبي فارس الذي واجه العدو بنفسه وشتت شمله، لكنه وقع في قبضة العدو[7].

مع الجمهوريات الايطالية:

استمرت العلاقات بين الطرفين سلمية وودية ومن ذلك نجد جمهورية بيزة تجدد المعاهدة التي أبرمت بتونس في 11 ربيع الثاني754هـ/16 ماي 1353م السابقة

[1]. الزركشي،المصدر السابق، ص112.

[2]. يعتبر من ألمع سلاطين بني حفص في عهد الدولة الثاني منذ توحيدها على يد والده أبي العباس وقد أفرد له ابن القنفذ وصفا بقوله ((رتب الأحوال وأعطى الأموال وأخذ بالحزم في إمارته ...وجعل في كل خطة من يصلح لها ....)) انظر ابن القنفذ ،المصدر السابق، ص189-190.

[3]. المطوي العروسي،المرجع السابق،ص537.

[4]. نفسه،ص539.

[5]. الزركشي،المصدر السابق ،ص113.

[6]. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج6، ص579.

[7]. يروي لنا الزركشي،الحادثة فيقول بأنه حوصر من جميع الجهات، وبأنه جرت العادة لدى النصارى أنه لا ينزل ملك أو أمير من على صهوة فرسه، فأخذوا بعنان فرسه وساروا به، فألهمه الله فكرة بأن خلع العنان من رأس فرسه وألح على هذا الأخير وهمزه، فخرج من بينهم فرموه بأسنة وسهام وتبعوه بخيلهم لكنه أفلت منهم ووصل إلى المسلمين،أما بن خلدون فيشير إلى هذه الواقعة دون تفاصيل بقوله((وكاد الأمير أبو فارس منهم أن يتورط لولا حماية الله التي وقته)) انظر، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج6، ص579.

الذكر في 14 ديسمبر 1397م بين السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز وجمهورية بيزة وقد وقعها عن الطرف البيزي السفير أندري دال كامبو *Andre del Campo*[1] .

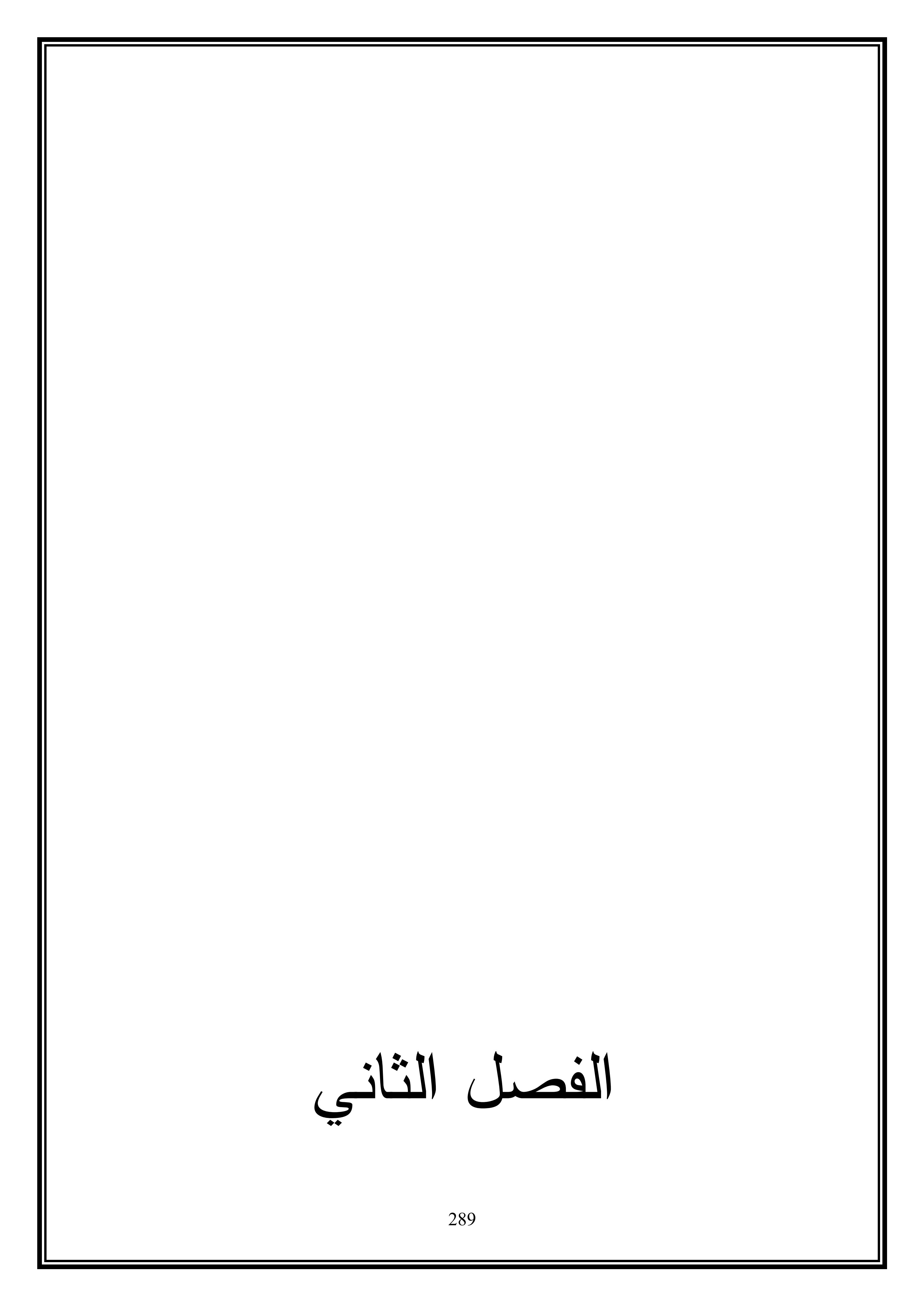
حرص الطرفين في هذه الفترة على استمرار العلاقات السلمية بينهما ففي 07 شوال 827ه/ 05أكتوبر 1421 م عقدت بتونس معاهدة سلم دائم بين الأمير الحفصي أبي فارس عبد العزيز من جهة و بين جمهورية فلورنسا و بيزا من جهة أخرى بواسطة بارتليمي دي غاليا *Barthelemy de Galéa* سفير فلورنسا والتي تأكدت سنة 1423م بواسطة سفير فلورنسا نيري فيورافانتي *Néri Fioravanti*[2] لأن كلا الطرفين أدرك بأن الجو المشحون والمتوتر لا يساعد ولا يخدم مصلحتهما وخاصة على المستوى التجاري الذي تعول عليه الجمهوريات الايطالية و يعد عماد اقتصادها في تلك الفترة، ثم تلجأ جنوه إلى تجديدها في 19 أكتوبر 1433م بتونس لمدة عشرين سنة بواسطة أندري دي ماري *Andre de Marie* مع أبي فارس ملك تونس عنابة وبجاية[3].

---

[1] *.Ibid, Traites, p70.*

[2] *.Mas Latrie, op.cit, p344.*

[3] *.Ibid., traites, p134.*



الفصل الثاني

العلاقات السياسية للدولة الزيانية

قبل أن نخوض في الموضوع وددنا أن نعطي عرضا ولو موجزا عن أسس وخلفيات السياسة الخارجية التي رسمتها الدولة الزيانية لنفسها، فبعد مخاض التكوين العسير والانفصال عن الدولة الموحدية واصل يغمراسن بن زيان باعث هذه الدولة جهوده الدبلوماسية الحثيثة بجرأة ودهاء سياسي كبير بما كان له من شدة بأس ومهابة وإجلال في النفوس، وبما كان له من اضطلاع بالتدبير والرياسة قبل وبعد توليه الملك[1]، وفق ما كانت تمليه الضرورات الإستراتيجية الكبرى بضمان الأمن وتحقيق الرخاء لخلفائه ولرعاياه من بعده، فكان من الضروري بعد سقوط تلك الدولة أن يسهر على توطيد دعائم دولته الناشئة بإحسانه للرعية وكرم الجوار، ويحرص على تعزيز هيبتها بإخضاع بني مظهر وبني راشد الذين كانوا قد خرجوا على أخيه أبي عزة زكران[2]، وقصد إبطال مزاعم المرينيين في أنهم وحدهم دون غيرهم ورثة الموحدين[3]، ولا شك أن الموقع الاستراتيجي بالاضافة إلى التجارة وما كانت تجلبه لهذه الإمارة كان سببا في ظهور المطامع الرامية إلى تملك تلمسان وإخضاعها، وهوما جعل

[1].عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7، صص 105-106.

[2]. نفسه،ج7، ص106.

[3]. جيلالي صاري ،المرجع السابق، ص40.

تاريخ بني عبد الوادي كله تاريخا عسكريا، تخللته الكثير من الحروب والتي كانت في مجملها استباقية أو وقائية للحفاظ على الهوية التي تتسابق الجارتان –الشرقية والغربية– لأجل القضاء عليها، وقد دأب أمراء بني زيان على العيش في هذا الجو المضطرب، فكانوا هم أيضا لا يترددون في التدخل في شؤونهما وإعانة بعضهما على بعض، ولعل هذه السياسة كانت وسيلة من وسائلهم في المحافظة على بقائهم الذي كان عسيرا بوقوعهم بين شفتي الرحى ولأن سندهم الشرعي لرياسة بني زيان في تلمسان كان سندا واهيا، فقد كانوا أولا وأخيرا غاصبين مستبدين جازوا هذا البلد بالذكاء والحيلة والمكر وحكموا أهله حكم المستبد القاهر للمستضعف المقهور، وكان الحفصيون والمرينيون جميعا ينكرون إمارة بني زيان ويدّعون الحق في ضمها إلى بلادهم، فالمرينيون لا ينسون دورهم العسكري إلى جانب الموحدين، والحفصيون يرون أحقيتهم في بلاد المغرب كلها لأنهم الورثة الشرعيون للموحدين بانتمائهم انتماءعضويا لهم، وبما كان لجدهم الأعلى من مكانة وحظوة في مجلس العشرة وهو أبوحفص الهنتاتي، بينما ظلت الدولة الزيانية التي لم تمتلك الرّكانة السياسية والعسكرية التي تعطيها المنعة ورهبة الجانب– خارج حدود الاعتراف المشروع بها من قبلهما[1].

كان يغمراسن بن زيان يسعى بفضل نظرته الواقعية وبصيرته النفاذة إلى تحقيق مشروعه الحضاري بذكاء وجرأة، ومن هنا نجده مهتما وحريصا بشكل دائم على توطيد العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأوروبية المسيحية وخاصة المتواجدة بشبه الجزيرة الأيبيرية –قشتالة و أراغون– أملا في تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسة لإمارته التي كان يرجوها من وراء ذلك،وهنا نجد جيلالي صاري يطرح سؤالا مفاده : ألا يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان هذا القائد الاستراتيجي يسعى من وراء سياسته تلك لاقتناء السفن والتجهيزات من شريكه المسيحي كضمان لحرية دولته في التصرف وفق ما يحمي مصالحها عبر البحار ويساعدها على الإفلات شيئا فشيئا من قيود التبعية الاقتصادية؟[2].

---

[1]. سليمان عشراتي، الشخصية الجزائرية،الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية ، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،2002م، ص158.

[2]. جيلالي صاري،المرجع السابق، ص41

فما هي أهم هذه الدول التي ارتبطت مع الدولة الزيانية بعلائق دبلوماسية ؟ وما مظاهر تلك العلاقات؟

لم يكن لدولة بني زيان والبلدان المسيحية حدود برية مشتركة لأن البحر الرومي -المتوسط-فصل وباعد بينهما، لكن التوسع البحري والاقتصادي والعسكري لأوروبا الغربية في العصر الوسيط امتد في وقت قصير ومنذ البداية إلى بلاد المغرب، وهكذا كانت الاتصالات قد تضاعفت بين أسرة بني زيان والبلدان المسيحية[1]، بحكم الترابط القائم بين الدول الاسلامية فيما بينها من جهة ووقوع بعض الدول كمحور وجه وحدد صبغة تلك العلاقات، ويبدو أن أسرة بني زيان كانت لا تسعى إلى إقامة علاقات جديدة مع الدول المسيحية بل اكتفت على الصعيد الدبلوماسي بتبادل السفراء المؤقتين مع القوى التي تعاملها سياسيا أو تلك التي ترغب في التعامل معها، وكانت هذه الأسرة لا تقوم إلا في النادر جدا بمبادرة المفاوضات[2]، وما يدل على ذلك هو عدد الرعايا الزيانيين المقيمين بالبلدان المسيحية القليل الذي يفسره عدم وجود قنصل يمثل بني زيان هناك[3].

اتبعت الدولة الزيانية طريق الترجيحات السياسية بين القوى، ليستند ضعفاء سلاطينها في النهاية إلى العدو الاسباني، شأنهم في ذلك شأن الكيانات الإسلامية الأخرى كلها تقريبا في ذلك العصر ومهدوا بذلك لظهور مغيث ملي هم العثمانيون[4]،لأ نه في الوقت الذي كانت فيه بلدان المغرب تفقد قوتها وتتهاوى كانت الأمم النصرانية تتبحث عن عنصر القوة الذي يمكنها من استرداد ما تبقي من بلاد الأندلس بحوزة المسلمين ومن ثم

---

[1].عطا الله دهينة،الجزائر في التاريخ، ج3،-العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني- الحضارة الجزائرية في عهد الدولة الزّيانية-الحياة السياسية والإدارية-المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1984))ص471.

[2]. نفسه،ج3، ص472.

[3]. نفسه،ج3، ص471.

[4]. سليمان عشيراتي، المرجع السابق، ص159.

التقدم نحو سواحل بلاد المغرب فكان أن اتحدت مملكة قشتالة وأراغون بزواج الملك فرديناند و ايزابيلا لتظهر بذلك مملكة اسبانيا الحديثة التي اضطلعت بالمهمة.

عموما فإننا نجد تجليات العلاقات بين هذه الدولة ودول أوروبا ضيقة إذا ما قارناها بجارتيها، لأن هذه الدولة لم تكن طرفا فاعلا في بنائها، بل كما أشرنا سابقا أنها اتبعت طريقة الترجيحات السياسية، فلم تكن تبادر هي لصنع الحدث أو بناء تلك العلاقات بالانحياز الى طرف ضد آخر كما سنرى، وما يمكن ملاحظته على هذا الجانب أيضا أن العلاقات الزيانية مع دول الحوض الغربي للمتوسط اقتصرت على الجانب الدبلوماسي دون حدوث تصادم عسكري يذكر على غرار ما حدث مع المغربين- الأقصى والأدنى. عموما يمكن أن نبرز تلك العلاقات في الآتي.

المبحث الأول:مع ممالك بلاد الأندلس الإسلامية

1- مع دولة بني الأحمر:

هناك جملة من الأحداث التاريخية التي تكشف لنا عن طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الدولة الزيانية ودولة بني الأحمر والتي يمكن أن نصفها في مجملها بالطيبة والحسنة منذ ظهور الدولتين والى غاية نهايتهما، لكن بما نفسر هذا الاتجاه في تلك العلاقات ؟

إن بني الأحمر حكام غرناطة هم الذين بدؤوا علاقاتهم ببني زيان واستنجدوا بهم ضد بني مرين الذين وإن كانت نواياهم صادقة في الحفاظ على تلك المملكة واستمراريتها، فإن بني الأحمر كانت دوما تساورهم الشكوك في القضاء على استقلالهم وإخضاع بلادهم، عموما فإن المواقف في تلك الفترة كانت تقتضي التعاون والمساندة، فبنو زيان عندما أحسوا بقوة الخطر المريني واستعدادات ابن عبد الحق المريني القوية وحشده الجيوش الجرارة وحرصه على التدمير والزحف إلى تلمسان، فإن أول ما استنجد

به يغمراسن هم بنو الأحمر، والذين كان لهم نفوذ كبير على الدولة المرينية أو على الأقل تعاون ومصالح مشتركة على أرض الأندلس[1]، فحث ابن الأحمر أبا العباس المريني عن كف يده عن حرب ابن زيان لكن السلطان المريني أصر على الزحف على تلمسان واستولى عليها،وعندما حدث الخلاف في البيت المريني بين ابن العباس وموسى بن عنان جهز بنو الأحمر جيشا لمؤازرة أبي عنان ونزل الجيش الغرناطي سبتة عام 756ه/1384م وتوجه إلى فاس فاستولى عليها، وقد كان لدخول الجيش الغرناطي أثره في مساعدة أبي حمو الثاني الزياني ولو بطريقة غير مباشرة في العودة إلى عرش بلاده من جديد، حيث رفع بنو مرين الحصار عن تلمسان فور سماعهم أنباء الجيش الغرناطي وسقوط فاس[2].

إذن فقد عمل بنو الأحمر على تأييد بني زيان بشتى الوسائل كي يظلوا شوكة في جنب الدولة المرينية فيشغلونهم عنهم نظرا لنفس الهواجس التي لم يستطع بنو مرين استئصالها من نفوس حكام غرناطة ، وكان من نتائج هذه السياسة أن تأثرت تلمسان إلى حد كبير بالحضارة الأندلسية في مختلف الميادين[3].

إن مدى متانة العلاقة التي كانت قائمة بين الإمارتين تبينه وتعكسه الأسس التي كانت الدولة المرينية تبني عليها جوانب من سياستها مع الدولة الزيانية في بعض الأحيان، ومن ذلك أنها أرسلت حملة عسكرية ضد تلمسان سنة 680ه/1221م لاعتقادها بوجود اتفاق بين يغمراسن سلطان تلمسان ومحمد الفقيه سلطان بني الأحمر، ومحور ذلك

---

[1]. تتمثل المصلحة المشتركة بين الطرفين- المرينيين وبني الأحمر في بقاء غرناطة أو ما تبقى للمسلمين من أراضي في بلاد الأندلس بعيدة عن سيطرة النصارى.

[2]. عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب،166-177.

[3]. من تلك المجالات نجد السياسية والحضارية والثقافية، إذ صار لها طابع أندلسي نلمسه بوضوح في مساجدها ومدارسها ومبانيها،و مما ساعد على تدعيم هذه الروابط أن معظم ثغور الدولة الزيانية كانت عامرة بالجاليات الأندلسية من قديم بل أن بعضها كان من بنائهم ومن تلك الثغور –هنين –وهران ومستغانم.انظر، احمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، تقديم احمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1997م ص340.

الاتفاق حسب وجهة النظر المرينية أن يقوم يغمراسن بالضغط على حدوده الغربية تجـاه الدولة المرينية، مما يجبر السلطان المريني على سحب قواته من الأنـدلس ليقابـل بهـم الزيانيين، فيخف الضغط المريني على ابن الأحمر[1]، ولذا عمل بنو مـرين علـى شـن الحملات العسكرية ضدها وعقد اتفاق صلح معها لفك أي علاقة سياسية بـين تلمسـان وبني الأحمر.

وهناك من يشكك في هذا الاتفاق لأن يغمراسن لن يستفيد شيئا منه، خصوصـا وأنه يعلم جيدا بأن الدولة المرينية ستهاجم دولته وعاصمته كذلك، فإن الصلح الموقع بين الزيانيين والمرينيين سنة 674ه /1279م يمنع يغمراسن مـن مثـل هـذا العمـل، وأن المؤرخين عبد الرحمن بن خلدون والناصري إنما تحدثا عن الاتفاق لتبرير موقف وحملة الدولة المرينية ضد تلمسان[2]، فقد وقف يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانيـة إلـى جانب ابن الأحمر ضد المحاولات التوسعية لبني مرين على بلاد الأندلس، وتبادلا الهـدايا فيما بينهما،إذ يقول ابن خلدون في هذا

الخصوص ((إذ أسنوا فيما بينهما الهدايا والتحف، وجنب يغمراسن إليه ثلاثين من عتـاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف، وبعث إليه ابن الأحمر مكافأة تقدر بعشرة آلاف دينـار فلم يرض بها وردها..))[3]، وربما يكون رفض يغمراسن للمكافأة نابعا من إحساسه بـأن المال كان مقابلا أو بابا من أبواب رد الجميل للمساعدات والإمدادات التي قدمها لـه أو لما أرسله إليه من الهدايا، لكن ومهما يكن من أمر فإن في ذلك ما يـدل علـى اعتـراف ضمني و رسمي من يغمراسن بكيان واستقلالية دولة بني الأحمر خاصـة عـن أعـداءه المرينيين،وادراكه بأن ذلك الوضع لن يدوم وانما كان من باب تشتيت جهود المـرينيين

---

2. بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني ،رسالة ماجستير في التاريخ،جامعة النجاح الوطنية،نابلس –فلسطين ـ1422–2002،ص95.

[2]. بسام كامل شقدان،المرجع السابق، ص95.

[3]. انظرعبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق، ج7، ص202 والناصري السلاوي،المصدر السابق،ج1،ص 50 .

لئلا يتفرغوا للزيانيين وحدهم ،لأنه في نفس تلك الفترة كان بنو أشقيلولة قد تخلوا ليعقوب بن عبد الحق عن مالقة فتملكها[1]، وهم الذين كانوا يدركون الأمور ادراكا حقيقيا ويتعاملون معها بحكمة العقل والمنطق لا بمنطق حب السلطة والحفاظ على العرش تحت أي مسمى.

لكن ما يؤكد وجود هذا التحالف وتفشي سره،هو مسارعة أبي يوسف من مراكش نحو طنجة،وبعثه برسول إلى يغمراسن يطلب منه تجديد الصلح، فأساء له هذا الأخير القول: "لا صلح بيني وبينه أبدا وليس له عندي ما عشت إلا الحرب وكلما وصله من صلح مع ابن الأحمر، فهو حق، فقل له يتأهب للقائي وليستعد لنزالي وقتالي"[2] وبهذا التصريح انكشفت خيوط المؤامرة التي أحبكها سلطان غرناطة وحليفه ملك قشتالة- سانشو[3] فكان رد فعل أبي يوسف عنيفا، إذ زحف على يغمراسن بن زيان ومزق صفوفه في لقاء كرزوزة[4]، ففر إلى الصحراء
ناجيا بنفسه وفي طريقه مر بفساطيطه[5] فأضرمها نارا تفاديا من حصرة استيلاء العدو عليها[6]، تاركا بني مرين يعبثون بمقدرات مملكته سنة678هـ /1279م.

إن الحلف الذي وقع بين الأطراف الثلاثة لم يكن نابعا من مصلحة ذات أبعاد مشتركة وإنما من قبيل -عدو العدو صديق- على الأقل بالنسبة ليغمراسن الذي كان يرى في ذلك انتقاما من بني مرين، الذين كانوا يمثلون خطرا على مملكته من الناحية الغربية بشكل عام، ومن يعقوب بن عبد الحق الذي نقض الصلح المبرم بينهما، بهجومه على سجلماسة

---

[1]. انظر عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7،ص119.

[2]. نفسه،ج7، ص417. انظر أيضا ، الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج1، ص32.

[3]. هو ابن أخ أذفونش(ألفونصو)

[4]. يوردها عبد الرحمن بن خلدون- خرزوزة-، انظر العبر،ج7،ص120.

[5]. جمع فسطاط، و هو البيت المصنوع من الشعر،انظر الرازي (محمد بن ابي بكر بن عبد القادر)، مختار الصحاح،طبعة خاصة مدققة، مكتبة لبنان، بيروت 1986،ج1، ص211،انظر أيضا ابن منظور، المصدر السابق،ج7ص،371.

[6]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج1، ص32.

التي كانت على يد يغمراسن بشكل خاص[1]، ويرى عدم أحقية بني مرين في السيطرة على غرناطة باسم الجهاد[2] أو وراثة الموحدين فيها، بينما كان هذا التحالف بالنسبة لابن الأحمر آنيا ونابعا من ظروف ومستجدات أوجدها الزحف المريني على الأندلس،لأنه أي- ابن الأحمر- خشي على نفسه ومملكته من يعقوب بن عبد الحق المريني حينما رآه يثخن العدو ويخضع المنطقة تلو الأخرى، فخشي أن يفعل به ما فعل يوسف بن تاشفين بابن عباد، فلجا حينها إلى الاحتماء والاعتداد بالعدو-قشتالة- الذي أرسل أساطيله في البحر لمنع عبور السلطان المريني يعقوب عند الزقاق -جبل طارق- وراسلوا من وراء البحر يغمراسن[3]، وأوحوا إليه بشن غارات عليه قصد شغله عنهم، وهنا يقول ابن خلدون بأن جملة من الرسائل تبودلت بين الطاغية ويغمراسن، ورغم مهادنة يعقوب له وتركه للتفرغ للجهاد إلا أن يغمراسن أصر على إعاقته.

هناك من يلوم يغمراسن بن زيان على هذا التحالف مع كلا الطرفين، سواء مع بني الأحمر أو مع ملك قشتالة، بشنه لتلك الغارات على ثغور المغرب الأقصى، في زمن كان يعقوب بن عبد الحق مرابطا بالأندلس ضد العدو المتسلط على بلاد المسلمين[4]، ولم يعلم بأنه هامة الغد، وأن حليف اليوم سيتحول إلى عدو في المستقبل، وأن التعاون الذي كان قائما بين بني زيان وبني الأحمر لم يكن لأجل المصلحة الإسلامية وحركة الجهاد أو ضد عدو مشترك عاث في الأرض فسادا وتدميرا وإكراها على العدول عن الإسلام، وإنما لضرب قوة بني مرين، تلك القوة الوحيدة التي وقع عليها عبء الجهاد في الأندلس في تلك الفترة، وهنا نجد مقلد الغنيمي يقول بأنه لو وجدت هذه الحركة الجهادية المؤازرة من قبل بني الأحمر وبني زيان وبني حفص والقوى الإسلامية الأخرى لتغير وجه الإسلام

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص85.

[2]. لقد رفع السلطان المريني في العملية شعار الجهاد الديني ضد الملك القشتالي، انظر الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج1، ص70.

[3]. ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق،ج7،ص119.

[4]. محمد بن عمرو الطمار،تلمسان عبر العصور، ص92.

في الأندلس[1]، لكنه أغفل من جهة أخرى أن هذه الدول أو الإمارات في حد ذاتها نشأت عن حركة انفصالية من صلب دولة كان هدفها توحيد هذه الأرجاء تحت لواء واحد هو لواء التوحيد، وراحت كل منها تدعي الأحقية في خلافتها تحت مسميات عدة.

إذن فالمسؤولية هنا لا تقع على الزيانيين فقط لأن صراعهم مع جيرانهم المرينيين والحفصيين هو الذي أرهق قواهم الاقتصادية والعسكرية وجعل دورهم الجهادي في بلاد الأندلس ينحصر ولا يتعدى الإمدادات المالية والمواد الغذائية دون الإمدادات العسكرية من الرجال والسلاح، فكانوا يخشون على أنفسهم الجهاد والمشاركة في جهاد أهل الأندلس تاركين بلادهم التي يطمع فيها الجيران، كما يمكن أن يكون بعد المسافة عاملا آخر من عوامل الحيلولة دون إرسال تلك الإمدادات العسكرية أو قوات عسكرية إذا ما قارناها بنظيرتها المرينية التي لا يفصلها عنها سوى مضيق جبل طارق-13 كلم- خاصة إذا علمنا أن دولة بني زيان لم تكن دولة بحرية في الكثير من فترات تاريخها وخاصة في فترة الحصار المريني الذي انحصرت فيه حدودها داخل أسوار مدينة تلمسان أو الفترات التي أصبحت تابعة لإحدى الجارتين، ولم يكن لها الأسطول الذي يعتد به ويملك القدرة على الاشتراك في قتال بحري أو نقل إمدادات وقوات حربية أو متطوعين، فكانت الظروف المحيطة أقوى من تفكير الدولة في الاشتراك في الجهاد[2]، ولقد كان الأحرى ببني الأحمر في غرناطة أن يطلبوا من بني زيان المشاركة في حركة الجهاد والتعاون مع بني مرين بدلا من طلب الاعتداء على حدودهم وإشغالهم عن التحرك للجبهة الأندلسية، وأغفل في نفس الوقت الأيدي الخفية التي كانت تعمل على تعكير صفو العلاقات المرينية الزيانية كلما تقاربت وجهات النظر بينهما حول مصير بلاد الأندلس التي أصبحت تتكالب عليها القوى الصليبية، فالهادي التازي يرى أنه في الوقت الذي كان فيه سلطان المغرب أبو يوسف يعقوب يستعد لإقناع يغمراسن بالعدول عن موقفه المعادي

---

[1]. مقلد الغنيمي،المرجع السابق، ص168.

[2]. مقلد الغنيمي، المرجع السابق،صص168-169.

للمرينيين، وفدت عليه سنة 670هـ/1271م سفارة من ابن الأحمر تستصرخ وتطلب النجدة، وقد قدموا إليه وصفا مؤلما لما يوجد عليه حال المسلمين بتلك الديار، ومن هنا طرأت عليه فكرة العدول عن مواجهة يغمراسن والاتجاه إلى الأندلس، فكانت السفارة المرينية الأولى إلى يغمراسن، وتتألف من أشياخ القبائل وأعيان بني مرين، ومما جاء في رسالة يعقوب ((إن الصلح خير كله فإن جنح يغمراسن إليه وأناب فذاك، وإلا فأسرعوا إلي بالخبر))، لكن يغمراسن الذي كان قد اجتمع بظاهر تلمسان وقد جمع قبائل زناتة من بني عبد الواد وبني راشد وأحلافهم ومغراوة وعرب بني زغبة أبى واستكبر وصم أذنيه وقال ((أبعد مقتل ولدي أصالحه والله لا كان ذلك أبدا حتى أثأر به وأذيق أهل المغرب النكال من أجله))[1] هذا ما يذكره بن خلدون اذ توفي ابنه أبو حفص عمر أعز ولد يغمراسن في موقعة تلاغ[2] ليلتحم الجيشان في معركة وادي إيسلي من بسيط وجدة سنة 647ه/124التي انتهت بهلاك عدد كبير من الطرفين و انهزام يغمراسن ومقتل إبنه فارس[3].

لا شك أن الاتفاق والتصافي بين المغربين الأقصى والأوسط،لم يكن يرق للعدو المشترك –قشتالة– الذي سعى دوما إلى إذكاء نار الفتنة والحقد بينهما، و نجح أيضا في تأليب سلطان غرناطة على ملك المغرب لتتوجه أواخر سنة 1278/676 سفارة من السلطان ابن الأحمر ومن ملك قشتالة إلى السلطان يغمراسن قصد مشاقة السلطان أبي يوسف وإفساد ثغوره وإنزال العوائق المانعة لحركته.

لكن هكذا ونتيجة لجهل حكام المسلمين بالمسئولية التاريخية الملقاة على عاتقهم في مناصرة الشعوب المضطهدة ورعايتها تضيع أرض آخر قلاع الإسلام وآخر حبة من حبات الرمانة التي قرر زعماء حروب الاسترداد أكلها فتطوى صفحة تاريخ

---

1. الهادي التازي،المرجع السابق،ج7،ص10.
2. الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج 7،ص115
3. نفسه،ج7، ص115.

مشرق ترك المسلمون بصماتهم عليه واضحة،حينها قامت النصرانية في جميع مدائن الأندلس ونهبت أموال المسلمين وأملاكهم،ومن بقي على ملكه وجب عليه الأسر أو أن يكون على دين النصرانية،حيث ضعفت قوة ذوي الإسلام وماتت الأبطال وكانت المجاعة الكبرى بالعدوة وقلت رجال العدوة وقطع الجواز منها إلى الأندلس الأقوات[1].

وعلى أيام سعيد عثمان بن يغمراسن(681 -703هـ/1283-1304م) [2]، استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين في نفس الاتجاه ومن نفس المنظور، إذ كان يبعث بكميات كثيرة من الأطعمة تجاه بلاد الأندلس، وبالمقابل تلقى العديد من الهدايا منها العلج "هلال القطلاني" وهو من سبي النصارى، وهو نفسه الذي وسوس لأبي تاشفين وشجعه على قتل أبيه والاستيلاء على الحكم من بعده[3]، وقد سلك مسلك أبيه في التعامل مع قضية حركة الجهاد في بلاد الأندلس بالتحالف مع بني الأحمر ببعثه لوفود وسفارات لترتيب أمر هذا التحالف، وخاصة حينما عقد يوسف بن يعقوب المريني الصلح مع القشتاليين ليتفرغ لمحاربة بني عبد الواد،

إذ هاجم تلمسان العاصمة الزيانية سنة 689ه/1291م فلم تنفع عثمان بن يغمراسن طلباته للنجدة والمعونة من خلفائه[4].

وحينما تمرد عبد الرحمن بن أبي يفلوسن والي مراكش على السلطان المريني أبو العباس بن إبراهيم قدم له أبو حمو المساعدة ، لكن بعد أن أخضعت المدينة من طرف أبي العباس قرر هذا الأخير أن يقتفى آثار أبي حمو إلى تلمسان حيث طرده منها سنة 785ه/1383م، فاستنجدت تلمسان حينها بغرناطة لتبعث لها الأمير موسى بن أبي

---

[1]. مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ،ط1،ضبطه وعلق عليه الفريد البستاني مكتبة الثقافة الدينية،مصر 2006،ص46.

[2]. بويع عقب وفاة أبيه، فبعث لحينه ببيعته للخليفة الحفصي، فقبل بيعته وعقد له على إمارته ،كما أخذ بنصيحة أبيه يغمراسن بمسالمة بني مرين فخاطب لذلك السلطان يعقوب بن عبد الحق. فأفد عليه أخاه محمد بن يغمراسن،انظر ابن خلدون عبد الرحمن،المصدر السابق،ج7،ص123.

[3]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص235.

[4]. نفسه،ج7، ص126.

عنان الذي استبد بالحكم في العاصمة فاس، لكن أبا العباس لم يلبث أن تمكن من ناصية العاصمة وأعان أبا تاشفين على قتل أبيه أبي حمو واعتقل أخاه أبا زيان رهينة للتهديد به إذا ما شغب عليه مرة أخرى بأحد الأمراء المبعدين[1].

كما جرت جملة من المراسلات بينه وبين السلطان ابن الأحمر على غرار ما كان يتم بينه وبين سلاطين بني مرين الذين كانوا يقدمون لهم المدد العسكري في جهادهم ضد النصارى، ومنها رسالة التشكر والامتنان التي وجهت من الوزير لسان الدين باسمه إلى العاهل الزياني ويخبره فيها أيضا بفتح قنيط أحد الحصون الشهيرة المجاورة لغربي مالقة بالأندلس[2].

كما تبرز الرسالة ذاتها أن سعيد عثمان ليس هو أول السلاطين الزيانيين الذين قدموا مثل هذه المساعدات ولا أول من دارت معه مثل هذه المراسلات.

إن الدولة الزيانية ظلت مفتوحة أمام أهل الأندلس، منذ بداية حرب الاسترداد وتنصيب محاكم التفتيش[3] حتى آخر أيام المسلمين في المنطقة، فوصل الأمر ببني زيان إلى درجة إشراكهم في شتى شؤون الإمارة سواء الاقتصادية أو الفنية أو الفكرية وحتى السياسية، فكان ابن وضاح مع جالية من مسلمي شرق الأندلس أول من وفد على دولة بني زيان بعد تأسيسها وانفصالها، فآثره يغمراسن وأكرم نزله وجعله من أهل الخلة والشورى، إضافة إلى أبي بكر بن خطاب الذي استكتبه لما كان عليه من درجة كبيرة

---

[1]. الهادي التازي، المرجع السابق،ج7، ص22.

[2]. ورد في هذه الرسالة. ((....وصفينا الذي نسهب القول في شكر جلاله ووصف خلاله إسهابا السلطان أبو سعيد عثمان ابن الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان مع ذكر ألقاب كل منهم بحسبه أبقاه الله للدولة الزيانية يزين بالأعمال الصالحة أجيادها ويملك بالعدل والإحسان قيادها ويجري في ميدان الندى والبأس ووضع العرف بين الله والناس جيادها ...) انظر القلقشندى، صبح الأعشى،ج7، ص48.

[3]. كانت في الغالب موجهة ضد المسلمين وأنشأت ضدهم ليمتد نشاطها بعد ذلك لبعض اليهود الذين شكلوا أقلية ضئيلة جدا لا تمثل خطرا حقيقيا على اسبانيا وامتدت بعد ذلك الى المسيحيين البروتستانت لان الكنيسة الكاثوليكية هي التي كانت ترعى هذه المحاكم وأنشئت في ظلها،انظر عبد العاطي محمد الورفلي، أوراق أندلسية، ط1، دار الكتب الوطنية ،بنغازي-ليبيا-1990، ص140.

من البلاغة والاسترسال وصنعة الشعر، فسخره في كتابة الكثير من الرسائل التي كان يخاطب بها خلفاء الموحدين[1]، كما شغل بعض أهل الأندلس مناصب عليا في الدولة، ومن أولئك بنو الملاح الذين اختصهم السلطان بحجابته سائر أيامه نظرا لما عرفوا به من أمانة وإخلاص، فاستمرت خدمتهم على عهد عثمان بن يغمراسن وأبي حمو موسى الأول كوزراء[2]، وبالمقابل فإن بني زيان كانوا يحضون دوما بمساندة غرناطة في إطار صراعهم مع بني مرين، الذين كانوا دوما يشعرون بأنه لا قبل لهم بهم[3].

أما في فترة حكم أبي حمو موسى الثاني المتقطعة[4]، فقد ارتسمت واتضحت طبيعة العلاقات وطيبتها بين الطرفين، إذ كان كريم الأخلاق سخيا، يتبرع في كل سنة على أهل الأندلس بالمال والخيل والزرع[5]، إحساسا منه بضرورة الوقوف إلى جانب مسلمي الأندلس في محنتهم ضد النصارى، واعتبر ذلك بابا من أبواب الجهاد لتحرير أرض الأندلس الإسلامية مسقط رأسه[6] من وطأة و تسلط النصارى، وكانت له مواقف أخرى مشرفة في إنقاذ أهل الأندلس من الهلاك، فقد وجه إليهم في سنة 763هـ/1361م خمسين ألف قدح من الزرع[7].

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص106.

[2].عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7، ص140-141.من بين أولئك: محمد بن ميمون بن الملاح الذي تولى الوزارة في عهد أبي حمو الأول وهو من رجال المال والأعمال الذين قدموا من قرطبة واستقروا بتلمسان،ثم ابنه محمد الأشقر بن محمد بن ميمون بن الملاح الذي تولى وزارة و حجابة السلطان نفسه، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج 7، ص140-141.

[3]. عبادة كحيلة،المرجع السابق، ص134.

[4]. تولى العرش سنة 760هـ/1359م، ثم نفي سنة761هـ/1359م، ثم عاد الى العرش ليظل فيه الى سنة773هـ/1371م ثم عزل ليعود إليه سنتي 785و798هـ، وتوفي سنة789هـ/1387م.

[5]. انظر المقري،المصدر السابق،ج6، ص508- 510.

[6].أبو حمو موسى الثاني بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ،ولد بالأندلس سنة 723ه/1323م،وهو بن أخ ي كل من السلطان أبي سعيد والسلطان أبي ثابت اللذين حكما معا تلمسان بعد أن استعادا عرش بني عبد الواد.

[7]. انظر محمد عمرو الطمار، الروابط الثقافية، ص221،تلمسان عبر العصور، صص200-201،عبادة كحيلة،المرجع كحيلة،المرجع السابق،ص137.

وفيه قال شاعر يخاطبه و يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس.

لَقَـدْ زَاَر الجزيرة منك بحـــــــــــــر ***** يمد فليس تعرف منه جزرا

أعدت لها بعهدك عهد موسى ***** سميك فهي تتلو منه ذكرا

أقمت جدارها وأفدت كنـــــــــــــــــزا ***** ولو

شئت اتخذت عليه أجرا

وقال أيضا:

وقالوا الجزيرة قد صوّحت **** فقلت غمام الندى تنتظـــــــــــــر

إذا وكفت كف موسى بها ****غماما يعود الجناب الخضر[1].

كما فتح أبو حمو أبواب مملكته لأهل الأندلس، وقلد بعضهم أمور الوزارة والحجابة، كما أسلفنا الذكر، ونجد لسان الدين بن الخطيب[2]، يرى في دولة بني زيان وطنا ثانيا ربما يكون أحن عليه من بلاد الأندلس، ولا شك أنه قد اكتسب هذا الإحساس خلال فترة استوزاره، وما لمسه من طيبة سلاطينها والعلاقة الطيبة التي تربطهم ببلاد الأندلس حينما ينشد قصيدته السينية، ويقدمها بين يدي نجوى أبي حمو حينما أحس بتغير سلطانه، لتمهد له مثواه إذا ألجأه الأمر إلى المفر[3].

وفي بعض فترات عمر الدولة الزيانية والتي يمكن وصفها بالضعيفة وحينما تمرد عبد الرحمن بن أبي يفلوسن والي مراكش على السلطان المريني أبو العباس بن إبراهيم، قدم له أبو حمو المساعدة، لكن بعد أن أخضعت المدينة من طرف أبي العباس قرر هذا الأخير أن يقتفى آثار أبي حمو إلى تلمسان حيث طرده منها سنة 785ه/1383م، فاستنجدت تلمسان حينها بغرناطة لتبعث لها الأمير موسى بن أبي عنان الذي استبد بالحكم

---

[1]. المقري، المصدر السابق،ج6، صص508-507.

[2]. أصله من لوشة الواقعة على مرحلة من غرناطة، وكان أسلافه قد استخدموا في الوزارة .

[3]. انظر المقري، المصدر السابق،ج6، ص195.

في العاصمة فاس، لكن أبا العباس لم يلبث أن تمكن من ناصية العاصمة و أعان أبا تاشفين على قتل أبيه أبي حمو واعتقل أخاه أبا زيان رهينة للتهديد به إذا ما شغب عليه مرة أخرى بأحد الأمراء المبعدين[1].

إن بني الأحمر ورغم الحواجز الطبيعية-البحر المتوسط- ظلوا يحسون بأن بني زيان يمثلون امتدادا للمملكة الإسلامية، ومما يدل على استمرارية العلاقة الطيبة بين المنطقتين هو التجاء ملكها المنكوب أبو عبد الله محمد بن سعد -الزّغل- إلى عدوة وهران فيمن انضوى إليه من الأعيان والكبراء الذين أيقنوا بنهاية الأندلس الإسلامية، حينما لم يبق

لهم جاه ولا حظوة عند صاحب قشتالة[2]، ورفضوا حياة الدّجن[3]، كان ذلك في عهد السلطان محمد السابع[1] ثم انتقلوا إلى تلمسان فاستقبلهم الملك بأوفى ما يجب أن يكرم به

---

[1]. الهادي التازي،المرجع السابق،ج7، ص22.

[2]. مجهول، نبذة العصر، ص113.انظر أيضا، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ط2، دار الكتاب البليدة، الجزائر، 1963م، ص33.

[3]. الدجن هو القبول بالعيش في كنف الحكم المسيحي الاسباني، بعد سقوط الحواضر الأندلسية وبعدها غرناطة،المدجنون :إن تاريخ لفظ مدجن غامض حتى الآن ويبدو أنه استعمال دارج جرت به ألسنة المسلمين في تسمية إخوانهم الذين بقوا في بلادهم بعد استيلاء النصارى عليها وهو مشتق من دجن أي أقام خاضعا /وكما انتقل لفظ مستعرب من ألسنة الناس الى كتابات النصارى في بلادهم فكذلك حدث للفظ دجن عير انه تحرف على السن الأسبان في بعض الأحيان الى دجل ودجر،وصار الموصوف به يسمى مدجل في أحيان قليلة ومدجر في معظم الأحيان وعلى هذه الصورة انتقل الى الاسبانية الدارجة فقالوا Mudéjar واختفى أصله باختفاء اللغة من السن المسلمين الذين تطاولت بهم السنون في أرض النصارى، ولكن معناه ظل واضحا ففي القاموس المسمى Vocabulista in Arabico الذي ألف في شرق الأندلس في ق13 م يترجم لفظ Mudéjar ب Tributarius أي معاهد مما يدل على إن أولئك المسلمين الذين دجنوا كانوا يعتبرون معاهدين وبالتالي فان اللفظ أصبح يطلق على كل من يبقون في بلادهم من المسلمين بعد استيلاء النصارى عليها،وهو سابق على لفظ الموريسكيين Moriscos الذي استعمل أول الأمر في القرن 15 أثناء الصراع الأخير بين النصرانية ومملكة غرناطة للدلالة على من كان يدخل في طاعة ملوك النصرانية من أهل نواحي مملكة غرناطة ثم أطلق على مسلمي غرناطة أجمعين عندما سقطت في أيدي ملكي قشتالة وليون ثم حل محل موديخار خلال ق16 في الدلالة على من بقي من العرب في الأندلس سواء= =منهم من بقي على دينه ومن تنصر وسواه أكان معاهدا حرا أو خاضعا للسلطان المسيحي مباشرة .انظر الونشريسي (أبو العباس أحمد) أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من الأحكام والزواجر تحقيق حسين مؤنس،مكتبة

الملوك والأمراء والسادة، وما توجبه الروابط الإسلامية، رغم إدراك هذا السلطان لمغبة وعواقب فعلته هاته، فاستقر الزغل هناك، وترك بهاعقبا له عرف بعد ذلك ببني سلطان الأندلس[2].

كما استقبلت الدولة الزيانية عددا كبيرا من علماء الأندلس -غرناطة- الذين تولوا مهام التدريس في مساجد ومدارس تلمسان وغيرها من المدن الزيانية،وقد استمرت المدن الزيانية مفتوحة أمام أهل الأندلس أيام محنتهم،ومن أولئك العلماء محمد بن عبد الله بن داوود الذي وفد إلى تلمسان وكان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا وبها كتب عن يغمراسن بن زيان وتوفي بها سنة 636ه/.... والفقيه محمد بن يوسف بن سعادة الاشبيلي الذي كان مجودا للقرآن ضابطا محدثا، والقائمة طويلة جدا.[3]

كان من بين من وصل الى تلمسان آخر أمراء الأندلس المعروف بالزغل، ومما يدل على متانة العلاقة بين الدولتين -كنظامين سياسيين- هو لجوء الدولة الزيانية إلى إبعاد المعارضين لها إلى الأندلس ومن أولئك نذكر جماعة من بني كمي الذين أبعدهم السلطان يغمراسن ومنهم يحيى بن كمي وابنه الزعيم إلى الأندلس رغم أنهم من أقربائه، ولم يسمح له بالعودة إلا بعد أكثر من ثلاثة عقود.

ولجأ لهذه السياسة السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول[4] أيضا، فقد أبعد أو بالأحرى نفى أقربائه إلى الأندلس خوفا من مطالبتهم بالعرش أو الثورة ضده[1]، ومن

الثقافة الدينية،مصر1996،ص140-141.انظر أيضا،مجهول نبذة العصر،ص113ومايليها،كمال السيد أبو مصطفى ،تاريخ المغرب والأندلس،مركز الإسكندرية للكتاب،2006،ص220 وما يليها.

[1]. هو أبو عبد الله محمد -السابع-بن أبي ثابت ،اشتهر بالثابتي نسبة الى جده تملك بعد أبيه عام902هـ/1496م،وكان من ذوي الفطانة والذكاء ورجاحة العقل وحسن التدبير وفي أيامه كان سقوط غرناطة عاصمة بني الأحمر النصريين آخر معاقل الإسلام بالفردوس المفقود.

[2]. المقري،المصدر السابق،ج 4،ص524.

[3]. يحيى بن خلدون ،المصدر السابق ص69-70..

[4].هو إبن السلطان،أبي حمو ابن السلطان أبي سعيد بن أبي يحيى يغمراسن بن زيان،ولد سنة 692ه/12... امتاز بكرمه وسخائه وميله إلى اللهو والمجون ،انظر يحيى بن خلدون ،المصدر السابق،ج 2،صص132-133.

أولئك والد أبي حمو مع جميع أفراد أسرته، وهناك ترعرع أبو حمو موسى وهناك أقبل على جلسات الدرس فتذوق الشعر والأدب والفن، فيقيم فيما بعد المآدب الفخمة في بلاط تلمسان[2] كما أبعدت الدولة الزيانية بعض زعماء القبائل العربية والبربرية إلى الأندلس حين كانت تشعر أنهم يشكلون خطرا عليها وخاصة في عهد السلطان أبي حمو الثاني.

لا يوجد فيما اطلعنا عليه من مصادر، ما يدل على تأزم العلاقات بين بني الأحمر وبين الدولة الزيانية، وربما تعود أسباب ذلك إلى البعد النسبي بين المنطقتين، أي عدم الاشتراك في الحدود أو وجود نقاط تماس بينهما، وإلى تأزم أوضاعهما الداخلية، فدولة بني زيان انكفأت تدافع عن حدودها وكيانها من عدويها التقليديين، ودولة بني الأحمر ظهرت في زمن وظرف عصيب تمثل في تكالب القوى المسيحية على كل ما يمت بصلة إلى الإسلام أو يرمز إليه، ناهيك عن تسلط بني مرين في إطار ما اعتبره سلاطينهم نوعا من الجهاد، وتصارع بني الأحمر فيما بينهم حول السلطة، ومن هنا نلاحظ بأن هناك تشابها في ظروفهما وربما كان ذلك السبب الذي أدى إلى تحالفهما الذي أشرنا إليه سابقا.

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون ،ج7، صص141-142.

[2].عطا الله دهينة، مساعدة الزيانيين لمسلمي الأندلس ،مجلة تاريخ وحضارة المغرب ،الشركة الوطنية للنشر والتوريع،الجزائر 1976م،عدد13، ص8.

المبحث الثاني:علاقات الدولة الزيانية مع الدول المسيحية

1-مع قشتالة وأراغون:

ليس هناك ما يشفي الغليل من المادة التاريخية بخصوص هذا الجانب من العلاقات، اللهم إلا ما أورده بعض المؤرخين، حول التحالف الثلاثي الذي تم بين الدولة الزيانية ومملكة قشتالة على إثر الهزائم التي لحقت بجيوشها على أيدي الجيش المريني، وظهور إحساس لدى سلطان غرناطة ابن الأحمر من أن السلطان المريني أبي يوسف يريد مد يده الى بلاده[1]، أذكاه أمير قشتالة الذي حاول جاهدا الإفساد بينهما بإعمال المكيدة والحيلة، فراسل يغمراسن بن زيان لينظم إليهما في هذا التحالف ضد أبي يوسف[2]، لإدراكهما مدى حساسية العلاقة بين الزيانيين والمرينيين لما كان بينهما من الحروب، فأشارا عليه بالإغارة على الأراضي المرينية ليكون ذلك بمثابة مكبح يؤخر ويعيق أبا يوسف من التوجه الى الأندلس[3]، بينما قاما بمحاصرة الجزيرة الخضراء لمنع وصول

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص89.

[2]. مجهول، نبذة العصر ،ص50.

[3]. نفسه، ص50.

الإمدادات الى العدوة، وقد تأكدت حقيقة هذا التحالف ضمن المراسلة التي تمت بين أبـــي يوسف المريني ويغمراسن[1].

أما على عهد بيدرو الثالث الملك الأراغوني 1276-1285 والذي كان يتحلـــى بالأناة والمهارة وبعد النظر، ويتهيأ لإعداد تدخل مسلح في شؤون صقلية على الصـــعيد الدبلوماسي فقد أحاط نفسه بعدد من أعيان المهاجرين الصقليين وربط علاقات ودية مـــع أنصار عائلة هوهنشتوفن في ايطاليا الشمالية، واستطاع قبل الشروع في المغامرة أن يقيم حول خصمه شبكة مفيدة من التحالفات تضم قشتالة وغرناطة -وتمتد في المشـــرق نحـــو بلاد المشرق إلى مصر وبلاد الروم وكان بالضرورة يرى صداقته مع كل من ســـلطان تلمسان وسلطان فاس ذات أهمية أقل في إطار سياسته التوسعية، ولكنه رغم ذلـــك ســـعى بنجاح للحفاظ عليها[2]، لكن المؤكد هو أنه فعل ذلك من باب الحفاظ على مـــوازين القـــوى وتأمين طريقه نحوها في ظل التهديد الذي يتلقاه من السلاطين الحفصـــيين لقربهـــا مـــن دولتهم وخاصة على عهد الواثق،واسرة آل آنجو المزاحمة له في صقيلية.

واستمرت تلك السياسة على عهد خلفه ألفونصـــو الـــذي عقـــد معاهـــدة - 684ه/1286م-مع أبي سعيد عثمان بن يغمراسن والتي ذكرها بيار غارسيا الذي ســـافر إلى تلمسان حيث أبرمها، ونجد العاهل الزياني يتمنى في مادتها الأولى إبرام صـــداقة أو بالأحرى تجديد علاقات الود التي كانت على عهد الملكان بيدرو وجاك ويتعهد فيها الملك الزياني عثمان بمنح نصف العائدات التي يجنيها من موانئه الحالية والمســـتقبلية، ويمـــنح للملك الفونصو خانا[3] للمسيحيين بمدينة وهران، كما ينبغي على جميع الموانئ التي يملكها

---

[1]. فبعث إلى يغمراسن يسأله عن الذي بلغه عنه، ويطلب منه تجديد الصلح، وجمع الكلمة فلج في الخلاف وكشف وجه العناد وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة الأندلسية، مسلمهم وكافرهم من الوصلة"،عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7، ص203. الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج1، ص53، 54.

[2]. انظر روبار برانشفيك،المرجع السابق،ج1، ص108.

[3]. أصل الكلمة أعجمي ،يرجع أصلها إلى موضع بأصبهان،وهي المنازل التي يسكنها التجار،ومثم أصبحت الكلمة تعني هو الفندق لدى أهل المشرق.انظر ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج2،ص341.

أو سوف يملكها ملك تلمسان المذكور –أبي سعيد عثمان– أن تدفع نصف العائدات التي تجنيها من الخانات الأخرى للمشرف (رئيس الجمارك أو المفتش الذي يعينه الملك الفونس في وهران ،يسري هذا على جميع المسيحيين ،زيادة على هذا يوافق ملك تلمسان المذكور أعلاه على دفع 5000 دينار لحساب ملك أرغون الوارد ذكره أعلاه–الفونس– وهو مبلغ مستحق للملك بيدرو يعود الى الفترة التي أرسل فيها هذا الأخير قائده –جاك بيريز– *Jacques Perez*.

أما في المادة الثانية من هذه المعاهدة فيؤكد الطرف الأراغوني –الملك ألفونصو –على حريته المطلقة في اللجوء الى استيراد المواد الغذائية من جميع المقاطعات الواقعة تحت سلطة ملك تلمسان، مع إعفاء الواردات الخاصة بالملك ألفونصو شخصيا من أي ضريبة لصالح الملك عثمان.

أما في مادتها الثالثة والتي تبدو الأخطر فقد نصت على أن جميع المسيحيين المتواجدين في مملكة تلمسان وبغض النظر عن مراتبهم أو المقاطعة الاسبانية التي ينحدرون منها يخضعون للمحاكمة وفق المواثيق السارية في مملكة أراغون ويكون ذلك من طرف القائد الذي يفوضه ملك أراغون لتمثيله لدى تلمسان

.إن هذا المطلب في الحقيقة يمثل تدخلا سافرا في شؤون الدولة الزيانية الداخلية وهو يمثل نوعا من الامتياز القضائي الذي ظلت تستعمله الدول الأوروبية كوسيلة للتدخل في شؤون الدول العربية ومن ثم إخضاعها للسيطرة[1].وما يستكمل به انتهاك هذه السيادة هو منح الحرية التامة للمسيحيين المتواجدين بالمملكة الزيانية الحول إليها أو الخروج منها بمقتضى تصريح من القائد وبغض النظر عن أي حظر شفوي أو كتابي من طرف ملك تلمسان قد يتعارض مع جواز المرور الذي يسلمه القائد المذكور[2] .

---

[1]. الامتيازات التي ظهرت في عهد الدولة العثمانية ،دينية ،قضائية اقتصادية فاحتلال .

[2]. انظر جيلالي صاري، تلمسان الزيانية–إرهاصات ظهور الدولة الجزائرية في العصر الحديث –ترجمة مسعود حاج مسعود دار القصبة للنشر الجزائر ،2011–.ص51.

ونجد نفس الملك الزياني- عثمان بن يغمراسن- سنة 689هـ/1290م لما أحس بقوة الجيوش المرينية التي تفرغت لقتاله في عهد يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني يذهب مذهب أبيه في التحالف مع الطاغية القشتالي وابن الأحمر، فأرسل برسله إليهما لكن دون جدوى[1]، لأن يوسف بن يعقوب كان قد عقد الصلح معهما بتنازله لابن الأحمر عن الثغور الأندلسية التي كانت له.

وبعد وفاة أبي حمو مقتولا في جويلية 719ه/1318م والذي كان عدوا مشتركا لملك أراغون وبجاية[2] أظهر ملك أراغون جاقمه *Jacme* نيته في إقامة علاقات جيدة مع خلفه أبي تاشفين الأول، ففي 24 أبريل 1319م كلف الفارس بيرنارد ديسبويغ *Bernard Despuig* وهو من أعيان برشلونة و-بيرنارد زابيلا- *Bernard Zapila* بالسفر إلى تلمسان قصد عرض قضية على سلطان تلمسان الجديد مفادها أن الملك جاك يعرف اتجاهاته الجيدة نحو مملكة أراغون قبل وأثناء اعتلائه عرش تلمسان وأنه يرغب في عقد معاهدة سلام معه ويريد شراء أو افتداء الأسرى الأراغونيين المتواجدين بكثرة في مملكته، وقد أصدرت الأوامر إلى السفراء الأراغونيين برفض أي معاهدة إذا لم يستطيعوا أن يتحصلوا من أبي تاشفين على تحرير كل الأسرى أو جزء منهم يقدر بخمسين أسيرا على الأقل، وأنه إذا تم تحرير 300 أسير فإنه مستعد لعقد معاهدة تمتد على مدى 10 سنوات، وفي هذه الحالة فإنه يعد السلطان أبا تاشفين بأنه يجهز عددا من السفن الحربية تعمل في الموانئ الزيانية لحسابه، ويعطي أوامره بالسماح بتكوين جهاز جديد من الميليشيات المسيحية في إفريقيا، كما دأب ملوك أراغون السابقون على فعله وهو ترك التعامل مع تلك الميليشيات للمختصين بذلك، وأنه في حال عودة امتيازاتهم فإن ملك

---

[1]. انظر عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق،ج7، ص126.

[2]. يشير ما لاتري الى مظهر من مظاهر توتر وسوء العلاقة بين أراغون ومملكة تلمسان في عهده الى السفينة الزيانية التي أسقطت من قبل العمارة أو الأسطول المجهز من قبل مدينة برشلونة وبلنسية سنة 1315م.انظر
Mas Latrie, op.cit, Traites, p310

أراغون سيكون مرحبا بإرجاع عادات ملوك تلمسان القدماء ببعث هدية من 30 ألفا إلى مملكة أراغون كعربون لحسن العلاقات والصداقة القائمة بينهما.

بغض النظر عن ما ورد من شروط محددة بهذا الخصوص أو الاعتبار الذي تضمنته المعاهدة التي كان الهدف الأساسي منها أو محورها الأساسي هو إقرار السلم مع العاهل الزياني وافتداء وتحرير الأسرى فإن سفراء أراغون طالبوا بثلاث أمور .

1-إن الحق المتعلق بغرق السفن (المتعطلة في الممالك المغربية الأخرى) لا يجب أن يطبق في حق الأراغونيين في الإمارة الزيانية.

2- أن تبقى الضريبة الجمركية في الإمارة على ما كانت عليه سابقا.

-إنه وفي حال أعلن ملك أراغون الحرب ضد ملك غرناطة سيكون من حقه شراء المؤن ومختلف البضائع من سواحل تلمسان، وأنه في حالة الحرب هاته فإن أبا تاشفين سيكون ملزما باستعمال كل جهوده من أجل منع سلطان المغرب من بعث نجدات نحو الأندلس[1].

وفي صائفة721ه/ 1320م نجد أراغونة تدخل في إطار عمل عدواني ضد الدولة الزيانية و ذلك نزولا عند رغبة الأمير الحفصي أبي بكر -الذي حاول إعطاء العلاقات الرسمية التي تربط بينه وبين الملك الأراغوني سانشو *Sanches* صبغة التحالف العسكري ضد تلمسان- اذ استقبل سفارة من ميورقه برئاسة برنارد بلنكاس ليضع بعد ذلك على ذمته عشر سفن حربية أنقذت بجاية من هجوم أسطول بني عبد الواد، مقابل دفع مبالغ من المال[2].

هذا إضافة إلى ما دار بين ملوك أراغون والسلاطين الزيانين من معاهدات دارت حول التجارة والسلم، كتلك التي أبرمت سنة 763ه/ 1362م بمدينة بربينيون" *Perpignan"* بين ملك أراغون *Pierre le cérémonieux "Pedro IV"* والسفيرين المفوضين من أبي حمو موسى الثاني وهما محمد إدريس ويوسف بن عبد الله، ونصت

---

[1] . *Mas Latrie, op.cit, introduction, p180.*

[2]. روبار برانشفيك، المرجع السابق،ج1،ص184.

على الوقوف موقف الحياد وعدم تقديم المساعدة من أحد طرفي المعاهدة[1] لأعداء الطرف الآخر[2]، وأقرا من خلالها صلحا لخمس سنوات على التوالي ابتداء من شهر صفر سنة 764هـ/1363م أي التاريخ الذي تحمله الوثيقة[3].

وهناك سلسلة من المراسلات دارت بين السلاطين الزيانيين والأمراء الأوروبيين كتلك التي دارت بين أبي تاشفين وجاك الثاني حاكم أراغون، بخصوص الأسرى المسيحيين، والتي تبرز جانبا من الجزء الخفي من العلاقات العدائية التي تربط دار الإسلام بدار الحرب أو الدول المسيحية، وفي نفس الوقت تبرز ما كان يريده عاهلا الإمارتين من استمرار للعلاقات الودية أو حالة السلم بينهما، إذ راسله جاك الثاني طالبا منه إخلاء سبيل الأسرى المسيحيين الذين بحوزته، لكن أبا تاشفين رفض ذلك مبررا أسباب الرفض ومحافظا في نفس الوقت على استمرارية العلاقات الودية، بأن أولئك الأسرى أصبحوا يمثلون جزءا من المجتمع الزياني ولهم مكانة هامة في اقتصاد بلده، لأن جلهم من أهل الحرف والصنائع ولذا فبالإمكان إطلاق سراح البعض منهم لا كلهم[4].

من هنا ندرك أنه كان للدولة الزيانية وزن وثقل سياسي في هذه الفترة، رغم أن الفائدة الكبرى كانت تعود لأراغون التيدخلت آنذاك في حرب مع قشتالة، وأنه كان هناك تواجد لقناصل وممثلين لكلا السلطتين لدى الطرف الآخر، كما استطعنا من خلال الوثيقة التي أوردها شارل ايمانويل ديفورك[5]، والتي حملها عنوان "سلطنة تلمسان في الفترة 784-787ه/1382م- 1385م من خلال وثيقة غير محققة"، وهي عبارة عن رسالة

---

[1]. احتوت المعاهدة مادة أو بندا آخر يتعلق بحرية التجارة و الملاحة في المتوسط.

[2]. للاطلاع على نص المعاهدة،أنظر: *Atta Allah dhina,op cit,pp528, 529.*

[3] *.ibid, p529.*

[4]. للاطلاع على محتوى المراسلات انظر *Atta Allah Dhina , op. cit, p515.*

[5]. *Charles Emmanuelle Dufourcq, revue d'histoire et de civilisation du Maghreb1969, p27 –* 31.

موجهة من حاكم ميورقة[1] في جوان 1385م الى السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني بعد استرجاعه لمدينة تلمسان، يطالبه من خلالها بإرجاع سلع التجار المسيحيين واليهود الميورقيين والتي تم العثور عليها داخل قصره من قبل المرينيين بعد أن تم لسلطانهم أبي العباس أحمد احتلال المدينة سنة1382م، أن ندرك مدى التقدير والاحترام والتبجيل الذي خصه به حاكم ميورقة في بداية الرسالة،والدعاء له بالانتصار والغلبة على أعدائه المرينيين[2].

إن الرسالة ورغم أنها تحمل أمورا متعلقة بدرجة كبيرة بالجانب الاقتصادي، إلا أنها تضمنت أمورا سياسية هامة، منها الاعتراف الرسمي من حاكم ميورقة بالدولة الزيانية وسلطانها بعد أفول واختفاء دام أكثر من ثلاث سنوات، وتأكد لنا من جهة أخرى على انتقال البعوث والسفارات بين الأمارتين، وتقديم الدعم المادي والمعنوي للدولة الزيانية على المرينية من خلال الخدمات الحربية التي قدمتها المليشيات العسكرية القطلانية والمايورقية،التي ربما كانوا يرون فيها قوة تحاول دوما تعويض قوة الموحدين المنهارة التي قد استبعدت عنها الدولة الزيانية التي لم تستطع تأمين حدودها وسلطتها.

كما دارت مراسلات بين ملوك الدولتين حول قضية الأسرى التي بعثت من الوزير هلال بن عبد الله إلى نفس الشخصية السابقة بتاريخ 01 صفر 723هـ الموافق ل 9 فبراير 1323 م ، والتي يرد فيها على مطالب –جاك–ملك أراغون بتسريح بعض الأسرى المسيحيين، فيقبل العاهل الزياني بذلك مقابل السلم وإمكانية إقراضه كميات من الذهب بعد تقديمه لضمانات ورهون بمقدار الذهب[3].

إن عملية تسريح الأسرى كانت تتم عن طريق التفاوض بين الدولتين،أو بتبادل الأسرى أو بالفدية،و هذا ما يؤكد أيضا وجود وساطة بينهما عبر البعوث والسفارات ،وفي

---

[1]. حسب شارل ايمانويل ديفورك،فان هذا الحاكم هو" *Francesca ca Garriga* "

[2]. *Charles Emmanuelle Dufourcq, op.cit.pp28,29,30.*

[3]. *Charles Emmanuelle dufourcq,op.cit, pp508,509.*

هذا الصدد يذكر ديفورك أن أسيرا قطلانيا أفتدي من لدى السلطان الزياني أبو تاشفين عبد الرحمن الأول بن موسى718-749هـ/1318-1348م بمبلغ يتراوح مابين أربعمائة و خمسمائة دينار[1]، وقد لعب اليهود دورا هاما في هذه العملية وخاصة أولئك المقيمين في اسبانيا الذين عرفوا باسم الفكاكين،ولم يكن لهؤلاء الأسرى دور سياسي هام في الدولة الزيانية.وهناك مجموعة من المعاهدات أو الاتفاقيات التي تمت بين الإمارات المسيحية والدولة الزيانية والتي تنظم وتحدد إطار التواجد المسيحي داخل الدولة الزيانية كتلك التي أبرمت مع أراغون 685هـ/1286م بخصوص وظيفة الكاهن أو القس داخل المعابد[2].

غالبا ما كان سلاطين تلمسان يستعيضون عن القناصل بالتجار المسيحيين أو قواد المليشيات في بعثاتهم نحو ملوك و عواهل الدول المسيحية .أما بخصوص المبعوثين الرسميين فقد استعملوا أناسا ذوي شهرة ومكانة في السلم السياسي للإمارة مثل علي – الكانية- أو- الكانه- الذي كان ضمن حاشية السلطان واشتغل كحاجب وبعث في رحلة دبلوماسية إلى أراغون في 1358-1359م/759-760هـ[3] أي على عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني بن يوسف، وابن الملك جاك الثاني هجين جاك الأراغوني الذي قام بدور الوسيط الدبلوماسي بين سلطان تلمسان والملك الأراغوني[4].

كما نجد محمد السابع يبادر الى السعي في ترضية فرديناند الخامس، ويكلف نفسه بالسفر إلى اسبانيا حاملا هدايا ثمينة منها خيول عربية عتاق،ولؤلؤة فخمة ملكية نادرة وطيور مصنوعة من الذهب الخالص، فيها من الدواجن دجاجة متبوعة بست وثلاثين نفقا

---

[1]. انظر

Charles Emmanuelle Dufourcq, prix et niveau de vie dans les pays catalanes et magrébins a la fin du 13eme et au début du 14 eme siècle revue des moyen age,No3-4, Bruxelles, 1965, p503.

[2].انظر عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص192.

[3] *. Atta Allah Dhina, op.cit,p420.*

[4] *. Charles Emmanuelle Dufourcq, op.cit, p472.*

....وقدم ذلك بنفسه إلى ملك اسبانيا ليكسر بذلك حدة غضبه جراء استقباله للزّغل ومن معه من مسلمي غرناطة، ويعود بعدها إلى وطنه آمنا[1].

وفي 04 ربيع الثاني761ه/23 فبراير 1360م بعث موسى بن أبي يعقوب بن أبي زكرياء بن أبي يحيى يغمراسن إلى ملك أراغون (بلنسية وميورقة وكورسيكا وبرشلونة) دون بيدرو رسالة يعرب فيها أبو حمو عن عواطفه ويؤكد استمرار بلاده في منح المساعدة لأراغون من زرع وغيره، ويبلغه من خلالها أيضا شكواه من طائفة من القطلانيين الذين اعتدوا على مركب بمرسى وهران لبعض التجار الأندلسيين.لتتجه بعدها سفارة من أبي حمو مكونة من محمد بن طلحة الباتلشي والقائد المنقطع بالخدمة – جوان بير ميجلين–*juan per Michelin* القطلاني وتختم بالإعراب عن الأمل في أن يبعث ملك أراغون بمن يحكم الصلح بين الطرفين وإبرام السلام، كما تبودلت البعثات في نفس السنة 761ه/1360م من أجل تسوية مشكلة الأسرى من كلا الجهتين ولم تنجح السفارة الأولى لتمسك بني زيان بموقفهم المتمثل بافتداء أسير منهم بأسيرين من النصارى[2]، وهذا ما يؤكد حرص الدولة الزيانية على استمرار العلاقات السلمية والودية بين الدولتين.

وفي شهر صفر 764ه/ ديسمبر 1362استقبل أبو حمو سفارة من أراغون كان يرأسها فرانسيس كوستا *Francis Costa* تطلب منه أن يشهر الحرب على ملك قشتالة في مقابل أن تعيد إليه بعض المشاغبين أو المناهضين لبني عبد الواد ممن يتواجدون بمملكة أراغون الأمر الذي انتهى إلى عقد معاهدة بين بني عبد الواد وبين مملكة أراغون لمدة خمس سنوات.

وتواصل الاتصال بين آخر سلاطين تلمسان وملوك إسبانيا في علاقة غير ندية، بدا من خلالها ملوك بني زيان في حالة من الوهن والضعف،جعلتهم يستعطفون ويستجيرون بالأسبان الذين أصبحوا في موقع قوة، فنجد أبا حمو الثالث (أبو قلمون) يلجأ إلى اسبانيا

---

[1]. عبد الرحمن الجيلالي ،المرجع السابق،ج2،ص201.

[2]. انظر يحيى بن خلدون، المصدر السابق،ج2، ص64-102، الهادي التازي، المرجع السابق،ج7، ص19.

قاصدا ومستصرخا الإمبراطور "شارل كارلوس" Charles Carlos لما طـرده الشـعب فتوجه إلى وهران وقطع البحر، واشتكى إليه حاله، وطلب منه أن ينجده و يعينه على أهل تلمسان والتركيان خير الدين وعروج، فأظهر الإمبراطور الكبير رحمـة وشـفقة مثلمـا أظهرها أسلافه على حد تعبير الوزان[1]، فلبى دعوته بعد أن عقد معه معاهدة أو إتفاقـا[2]، وأرسل معه جيشا قويا استطاع بواسطته أن يرجع إلى مملكته ويـتخلص مـن التركيـان وعددا من أتباعهما، وبالمقابل فإن أبا حمو كافأ جنود الإسبان لعملهم ودعمهم له وتأكيـدا لرغبته في مهادنة ومسالمة الإسبان،لكن وبوفاته آل الملك إلى أخيه عبد الله ،الذي امتنـع من طاعة الإمبراطور والامتثال إلى شروط العهد الذي أمضاه أخوه، وذلك ثقة منه فـي مساندة سليمان القانوني السلطان التركي، الذي لم يمدده إلا بالقليل من العون[3].

هناك جانب خفي للعلاقات السياسية بين دول جنوب أوروبا والدولة الزيانية ألا وهو جانب الارتزاق، فرغم عدم وجود أي إشارات تفيد بحضور أو وجـود المرتزقـة الجنويين -الذين اشتهروا بهذا العمل - بالدولة العبدوادية-[4]، إلا أن هذا لا ينفي تركيزها أكثر على خدمة المرتزقة الأراغونيين والقشتاليين والتي انتظمـت بينهمـا عبـر عـدة معاهدات[5]، فقد لجأ يغمراسن بن زيان بعد وفاة السعيد وانفضاض عساكر الموحدين، إلى الاستعانة بالجند المسيحيين للاستكثار من عدد جنوده، والتباهي بهم والاعتماد عليهم فـي وقت الشدة، فأغدق لهم العطاء وشملهم بعنايته حتى استفحل أمرهم يتلمسان، لكن النتيجـة

---

[1]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص9، انظر أيضا ،أبو رأس الناصري ،المصدر السابق، ص124.

[2]. حسب الوزان فان بنود هذا الاتفاق أن يؤدي له سنويا إتاوة تقدر باثني عشر ألف مثقال من الذهب واثنا عشر فرسا وست صقور إناث،وظل ملتزما بذلك طوال حياته، ولما مات آل الملك إلى أخيه عبد الله، فامتنع هذا الأخير من طاعته،المصدر السابق،ج2، ص9 .

[3]. الوزان ،المصدر السابق،ج2، ص9.

[4]. مصطفى نشاط،جنوه وبلاد المغرب من سنة 609-759هـ /1212-1358م، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط ، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،وجدة المقرب ،السنة الجامعية 1996-1997، ص123.

[5] . *Charles Emmanuel Dufourq ;l'Espagne catalane et le Maghreb aux 13 et 14 siècle, PUF, 1966 , P166-363-373.*

كانت عكسية لما كان يهدف له، إذ حاول قائدهم الغدر به بعد عودته من بلاد توجين في إحدى حركاته إليها، واستعراضه للجند عند باب القرمادين، فراح ضحية هذا الانقلاب أخوه محمد بن زيان، وانتهت بالإجهاز والقضاء عليهم، ونجد ابن خلدون يؤكد هذا ويقول بأن المؤامرة حيكت بمعية محمد بن زيان ضد أخيه، لكنه ولما لم يتم لهم الأمر قتله القائد تبرءا من مداخلته[1].

إن العملية الانقلابية أو محاولة الاغتيال الفاشلة التي قامت بها المليشيات المسيحية ضد يغمراسن بن زيان الذي كان معتمدا و بدرجة لا يستهان بالمرتزقة والذين قدر عددهم في عهده بألفي فارس[2]، لا يمكن أن ننظر إليها كحدث مستقل بذاته، بل أن القشتاليين رأوا فيما يقوم به من محاولة لبناء صرح دولة وقوة بربرية بالمغرب الأوسط على أنقاض الدولة المؤمنية، إحياء لها أو لدولة قد تحمل نفس لوائها الديني، ولا يمكن أيضا فصل تلك الأحداث عما قامت به المليشيات في فاس ضد المرينيين[3]، خاصة وأننا أسلفنا الذكر بأن عملية الارتزاق كانت منظمة وتتم تحت إشراف الإمارات المسيحية.

هنا يذكر يحيى بن خلدون بأن الحادثة كانت نهاية للتواجد المسيحي بالجيش الزياني[4]، وكذا عبد الرحمن بن خلدون الذي قال بأن الحادثة أدت إلى استبعاد النصارى من الجيش حذرا من غائلتهم –غدرهم[5]– لكن ربما كان يقصد بذلك عهد يغمراسن فقط، إذ يشير شارل ايمانويل ديفورك إلى استمرار استعمال السلاطين الزيانيين للفرق العسكرية المسيحية في جيشهم، كتلك التي تكونت من القطالونيين والأراغونيين والتي يقودها الأب فيلارجو "*pèreVilaragut*" ثم غليوم غالسيران دي كارتيلا" *Guillem*

---

1. انظر عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق، ج7،ص 113 .

2. يحيى بن خلدون ، المصدر السابق،ج1،ص206.

3. *Charles Emmanuel Dufourcq, revue d, histoire et civilisation, no1, janvier1966, p35,36.*

4. يحيى بن خلدون ، المصدر السابق،ج1، ص206.

5. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص113.

"*Galceran de Cartelle*"[1]، والميليشية التي استمرت حتى الحصار المريني في عهد أبـــي حمو موسى الأول، والتي كان يرأسها "فيليب دي مورا "*Felip de mora*.

إن تواجد المرتزقة المسيحيين في الدولة الزيانية لم يكن عملا منفصلا بل كـــان يحمل بعدا سياسيا ودينيا، إذ نجد البابا نيقولا الرابع *NicolasIV* يحث الجنود المســيحيين على التمسك بدينهم ويحذرهم من اعتناق الإسلام[2]، ويرى في ذلك خدمة جليلة للمســيحية في بلاد الإسلام وخاصة في مدينة تلمسان[3]، بفضل الضرائب غير المباشرة التي يــدفعها الملك الزياني، والأقساط التي كان يدفعها الجنود من رواتبهم للخزينة الأراغونيـــة، أي أن عملية ارتزاق تلك المليشيات كانت تتم بصفة شبه قانونية وباتفاق بين الدولتين.

ب/ مع شبه الجزيرة الايطالية:

إن الجانب السياسي للعلاقات السياسية بين الجمهوريات الايطالية والمغرب الأوسط، يبدو نوعا ما غامضا لقلة المصادر التي تناولت هذا الجانب، ومن هنا اعتمدنا على المعاهدات التي تنظم الحياة العامة للتجار المسيحيين قصد استخلاصها ولو أنها كانت من جانب واحد فقط[4] إذ تطلب الأمر وجود قنصليات دائمة بالمنطقة وخاصة بالعاصمة تلمسان، شجعت التجار على ممارسة التجارة معتمدين على ما تضمنه لهم تلك المعاهدات من أمن[5]، فإلى جانب الدور المنوط بالقنصل نجده تاجرا أيضا،أي أنه كان يلعب دورا دبلوماسيا سياسيا، ودورا تجاريا اقتصاديا،وهذا ما يؤكد نظرتنا أو طرحنا بأن العلاقات الدبلوماسية كانت نتاجا للعلاقات التجارية وليس العكس.

كان لكل دولة أكثر من قنصل في الدولة الزيانية، يمثلونها في المدن الساحلية الهامة مثل وهران وهنين والمرسى الكبير، وكان لكل منهم نوابه الخاصون في المدن

---

[1] . *Charles Emmanuelle Dufourcq, l'Espagne catalane, pp151-155.*

[2] .*Ibid, pp314-315.*

[3].عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص188.

[4]. أي أن التجار المسلمين أو تجار المغرب الأوسط تواجدوا بصفة فردية في الدول المسيحية.

[5]. بلحميسي مولاي، المرجع السابق،ص572.

الثانوية، ينوبون عنه في المسائل التجارية، كما كان للأجانب مندوب يعد كفيلا لهم فيها لما قد يبقى عليهم من ديون في سفرهم ولا يستطيعون بدون هذه الضمانة أن يرتحلوا، وإذا حدث خلاف لم يستطع تسويته النائب فيرجع إلى القنصل الذي ينتمي إليه التاجر[1]، وكان يسمح للقنصل بمقابلة السلطان مرة في كل شهر، أو مقابلة حاكم الإقليم أو المدينة المقيم فيها[2]، باعتبار أن الدولة الزيانية لم يكن لها قناصل في المدن والموانئ المسيحية، وأن الذين تواجدوا هناك من تجارها انتقلوا بصفة فردية لا رسمية.

تميزت العلاقات السياسية بين الطرفين بطيبتها ومن مظاهر ذلك، أن السلاطين الزيانيين كانوا يتركون كامل الحرية للإمارات الايطالية في تعيين من يدير شؤون الكنائس بالإمارة، فكان التقليد يأتيهم من أساقفة مدنهم بايطاليا، كما كان لتجار البندقية كامل الحرية في التردد على الحمامات العمومية للمدينة وفقا للمعاهدة المبرمة مع الدولة الزيانية[3]، وكان القنصل واسطة بين الجالية الايطالية المسيحية والعاهل الزّياني فكان الفندقي هو مندوب القنصل، لكن بالمقابل نجدهم يمنعون ارتفاع وعلو الكنيسة ومنارتها بشكل كبير، وهذا ما يؤكد تبعية التجار ورجال الدين للدولة الزيانية.

باستثناء الاعتداءات البحرية، التي كانت تتم في إطار القرصنة والتي أشار إليها الوزان[4]، والعداء في إطار النداء الذي وجهه البابا لمساعدة اسبانيا ومهادنتها إلى أن يتم لها إخضاع الشمال الأفريقي والمناوشات التي كانت تحصل في عهد السلطان أبي ثابت محمد الخامس ضده انتقاما لما أحله هؤلاء بمسلمي صقلية[5] فقد ظلت العلاقات ودية ترتبط

---

1. رضا كحالة،المرجع السابق، ص133.
2. انظر عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص139.
3. انظر عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص138.
4. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص30.
5. عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق،ج2، ص 199.

ترتبط بالمبادلات التجارية وحتى بعد غزو الاسبان لسواحل المغرب الأوسط إذ استمر التجار الايطاليون يترددون على موانئ العاصمة بطلب من أهلها[1].

الفصل الثالث

العلاقات المرينية

---

[1]. الوزان ، المصدر السابق،ج2،ص115.

المبحث الأول: علاقاتها مع مسلمي الأندلس

تميزت العلاقات بين الطرفين بالترقب والحذر وخاصة من طرف بني الأحمر الذين كانوا دوما يشكون في نوايا المرينيين بأنهم يتطلعون إلى السيطرة على مملكتهم وضمها إلى ملكهم، فكانت دوما بين شد وجذب و بين الود والعداء المتبادلين، على العموم فإن أساس العلاقة التي ربطت الطرفين كانت نابعة من رؤى مختلفة لديهما، فالمرينيون كانوا يرون أنفسهم القوة الممثلة للإسلام التي يتوجب عليها حماية ممتلكات المسلمين – تحت لواء الجهاد– من حركة الاسترداد المسيحية التي بدأت تلتهم المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، ولن يتم ذلك في نظرهم إلا بضمها إلى مملكتهم وخلافة الموحدين في ذلك بغض النظر عن طريقة الحكم التي ستدار بها تلك المملكة، بينما كان حكام بني الأحمر يريدون الحفاظ على ملكهم من المرينيين، فلا مانع من التعاون حتى مع الخصوم لمنع ذلك.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نقسم مسار العلاقات المرينية سواء مع مسلمي الأندلس أو غيرها من دول المنطقة إلى مراحل مثلت محطات أساسية أو معلمية في مسار هذه الدولة التي تراوحت بين القوة والضعف والتي يمكن حصرها في الآتي.

أ- في مرحلة التأسيس وإثبات الذات:

وهي المرحلة التي شملت مخاض الولادة والانفصال عن الدولة الموحدية، وحاولت من خلالها إثبات جدارتها وأحقيتها بخلافة الموحدين في حماية ما تبقى من الممالك الإسلامية في الأندلس من التكالب الصليبي في إطار حروب الاسترداد وإبطال مزاعم الحفصيين الذين أرادوا الاستئثار بهذا الإرث لأنفسهم.

تعود أولى الاتصالات الرسمية بين المملكتين حين اتجهت سفارة هامة من ابن الأحمر(مشيخة الأندلس) نحو السلطان المريني أبي يوسف يعقوب تطلب إليه نجدة الإسلام وأهل الأندلس، فوجدت العاهل المغربي في طريقه إلى جعل حد لتوسع يغمراسن بن زيان حليف ألفونصو العاشر ملك قشتالة ضد بني مرين بمنطقة أنقاد شرق بلاد المغرب الأقصى، فلما علم بحال الأندلس وما يحيط بها من أخطار جمع الأشياخ واتفق الرأي أن يعرض الصلح على الأمير يغمراسن ليتفرغ هو لإنجاد الأندلس، وأمام رفض يغمراسن للصلح –بتواطؤ مع ألفونصو نشبت الحرب بين الفريقين على مقربة من وجدة في رجب 670ه/1272م وانتهت بهزيمة يغمراسن[1].

وفي هذه المرحلة اتضح توجس ابن الأحمر بعد إجازة السلطان المريني الأولى سنة 674ه/ 1276م إلى عدوة الأندلس، فحينها أدرك قوته العسكرية فارتاب بمكانه، فبدا له ما لم يكن يحتسب، وظن بأمير المسلمين الظنون، واعترض شأنه[2]، شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس[3]، إضافة لما صدر من كلمات أحفظته وغاظته فذهب لأجلها مغاضبا وانحرف عن السلطان يعقوب ولم يشهد معه الغزو ولا عرج على الجهاد[4].

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص379، انظر أيضا ابن أبي زرع،المصدر السابق،ص309. ،انظر أيضا الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص32.

[2]. عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7،ص262.انظر أيضا ابن أبي زرع،المصدر السابق، ص405.

[3]. هو المعتمد بن عباد(431–488ه/1040–1095م) آخر ملوك عصر الطوائف بالأندلس ويعد قطب الرحئ في أحداث ذلك العصر ،اشتهر بالشجاعة والحزم ولد بباجة الأندلسية وولي اشبيلية بعد وفاة أبيه ،اسنولى على قرطبة وكثير من الممالك الأندلسية الى أن بلغ مرسية،استنجد بيوسف بن تاشفين المرابطي ضد تحرشات ألفونصو السادس الذي جهز جيشا التحم بجيش النصارى في موقعة الزلاقة فكان النصر للمرابطين، ليعاود المعتمد الطلب بعد أربع سنوات من ذلك، فاستجاب له متثاقلا لاستيائه من تصرفات ملوك الطوائف وتشاحنهم فيما بينهم ،فأفتي الفقهاء بعدها بضرورة بقاء المرابطين بالاندلس ،فرفض المعتمد الدخول في طاعته وقاومه لكنه غلب على أمره، حول هذا الموضوع انظر عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج4،صص203–204.

[4]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3، ص 49.

هنا يجب أن نطرح سؤالا هو لماذا يطلب ابن الأحمر المعونة من أبي يوسف المريني ثم ما لبث أن انقلب ضده، ربما يكون السبب هو عدم تقدير ابن الأحمر لقوة المرينيين قبل أن يراها فكان يظن بأنه جيش متواضع سيحدث الفارق إن هو اتحد مع ماالديه من قوات، وبذلك فلن تكون له أطماع في مملكته لكن تفاجئه بتلك القوة العظيمة جعلته يسترجع تاريخ أسلافه ومنهم ابن عباد حينما استولى المرابطون على ملكهم بالأندلس.

لم تكن هذه النظرة كما أسلفنا ثابتة، بل تغيرت بتغير الظروف والمعطيات، ففي كثير من الحالات نجد بني الأحمر يستنجدون بالمرينيين لجملة من العوامل والأسباب منها أن بني الأحمر لم يجدوا أمامهم من القوى الإسلامية غير بني مرين لتعاونهم وتآزرهم، فكما يقول ابن خلدون ((كانت الجزيرة الأندلسية وراء البحر منذ انقراض أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمرها، قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال إلا من يلهمه الله لعمل الجهاد من قبائل زناته المؤملين كرة الملك والمقتسمين ممالك المغرب، وخصوصا بني مرين أهل المغرب الأقصى))[1].

لقد تميزت سياسة بني مرين في هذه الفترة بعدم التدخل في شؤون بني الأحمر الداخلية وفي نفس الوقت المحافظة على سيادتها سياسيا وجغرافيا، لأن سقوطها يعني حتما نهاية المسلمين بالأندلس من جهة وتقدم الزحف النصراني نحو العدوة المغربية من جهة أخرى.

إذا والحالة تلك التي آلت إليها الأندلس، تحتم على بني الأحمر مسك العصا من الوسط، إذ أنهم لم يحرصوا على إيجاد علاقات وثيقة بينهم وبين سائر العالم الإسلامي لانشغال سائر الأمراء المسلمين من ناحيتهم بتوطيد سلطتهم في دولهم كما كان الحال بالنسبة لبني حفص وبني زيان، ولذلك انحصرت أنظارهم تجاه بني مرين لقرب دولتهم

[1]. ابن خلدون عبد الرحمن،المصدر السابق،ج7،ص485.

منهم، ولاتصال عدوة الأندلس ببسائطه ولتعدد الفرائض ببحر الزقاق القريب العدوتين على حد تعبير ابن خلدون[1]، ومن ناحية أخرى لشعورهم بمكانة المرينيين العسكرية بين سائر القوى الأخرى الموجودة في بلاد المغرب، فرغم الحركات الانفصالية التي ظهرت في افريقية والمغرب الأوسط، ظل الجيش المريني مثلا للجيش اليقظ الذي اعتمد على المشاة والفرسان، واعتمد على الخبرات التي كان يقدمها الأجانب ضمن قطاعات الجيش، وقد كان كسلفه عمل على تنظيم الاستعراضات والمناورات الدورية حتى لا تموت فيه جذوة الحماس وتتعطل دروس التمرين فيه، والتي كانت تتم أمام الملك، كما كان الجيش المريني أول جيش استعمل الأسلحة النارية في مقارعة خصومه وأعدائه واعتمد على الأنفاط القاذفة في إسكات المتمردين والمتطلعين الى السيطرة على أجزاء من بلاده[2]، وذلك قبل أن تعرف أوروبا ذلك بحوالي ثلاثة أرباع القرن[3].

إذن ما ميز العلاقة بين المرينيين وبني الأحمر في هذه الفترة والتي تجسدت خلال العبور الأول إلى الأندلس سنة674ه/1276م هو الجمود نتيجة عدم صفاء النوايا ولذلك نجد السلطان المريني أبي يوسف يعقوب يعمل لوحده ضد النصارى[4]، وقد دارت بينه وبين ابن الأحمر لذلك مخاطبات شعرية في معنى العتاب على ألسنة كتابهما[5].

كما قدمت على السلطان أبي يوسف وهو بطنجة سفارة من ابن الأحمر يرأسها وزيره ابن هشام لمرافقة العاهل المغربي الذي عبر البحر في صفر 674ه/جويلية

---

[1].عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص485، محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، ص227.

[2]. من أولئك بنو زيان الذين سيطروا على سجلماسة،إذ استعان يغمراسن بن زيان في إخضاعها بواسطة عرب المنبت من بني معقل أهل الصحراء وعقد عليها لعبد الملك بن محمد العبد الوادي المعروف بابن حنينة نسبة الى أمه أخت يغمراسن ولهذا فقد نهض إليها السلطان يعقوب في رجب سنة 672ه قصد تحريرها من أيدي يغمراسن بكل ما يملك من قوة بشرية ومادية.انظر الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص36.

[3]. الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص36.

[4]. انظر عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص262..

[5]. نفسه،ج7،ص262، -انظر أيضا الناصري، المصدر السابق،ج 3،ص49-50، للاطلاع على الرسالة انظر،عبد الرحمن بن خلدون، العبر،ج 7، ص200.أو الملحق رقم.........

1275م وكان استقبال أبي يوسف حافلا سواء من ابن الأحمر أو ابن أشقيلولة وبالرغم من أن أبا يوسف لم ينجح في التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره بني أشقيلولة فقد قرر أن يقوم بأداء رسالته فكانت موقعة أستجه Ecija التي ردت الاعتبار للمسلمين في الأندلس يوم 15 ربيع الأول-674ه/1275/9/9م بعد نكسة حصن العقاب وقتل قائد جيش ملك قشتالة وصهره الدون نونيو ديو وعدد كبير من المقاتلين[1].

حاول بنو مرين دوما إذابة الجليد الذي يغطي العلاقة بينهما وإعادة الدفء إليها، وذلك بعد العبور الثاني للأندلس (675ه/1277م) من طرف السلطان أبي يوسف يعقوب[2] والذي كان يهدف من خلاله لمهاجمة قرطبة، وقد انتهى هذا العبور بهزيمة نكراء للنصارى وتراجعهم ومن ثم طلبهم للصلح، فحاول السلطان المريني أن يبطل أو يثبت لابن الأحمر خطأ ما يجول بخلده من أفكار، بأن جعله يتولى أمر إبرام معاهدة الصلح مع النصارى، وتنازل له عند عودته على ما تحصل عليه جيشه من غنائم عند قرطبة[3]، قائلا له ((يكون حظ بني مرين من هذه الغزاة الأجر والثواب))[4]، أي أن الهدف الرئيسي لبني مرين في الأندلس هو الجهاد وصد النصارى عن بلاد المسلمين لا حيازة الأرض أو التوسع بها، لكن هذا لم يأت بالنتائج المرجوة بل جاء بنتائج عكسية، إذ اتصل ابن الأحمر بألفونصو العاشر ملك قشتالة وبيدرو الثالث ملك أراغون وعقد معهما اتفاقا دفاعيا ضد السلطان المغربي يقضي بمنع المرينيين من العبور إلى الأندلس، فقام الأسبان لذلك بإنزال أساطيلهم بمضيق جبل طارق ليعتدي جيشهم بعدها على القوات المرينية المتواجدة على أرض الجزيرة الخضراء بالاتفاق مع ابن الأحمر[5].

---

[1]. انظر عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7، ص 255-256.

[2]. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص405.

[3]. لسان الدين بن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة،ج1،ص23، الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج2،ص23.

[4].ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص328.

[5]. انظر الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج 3،ص49، انظر أيضا ، *Mas Latrie, op.cit, Introduction, pp 141*-142.

وعند وفاة أبي محمد بن أشقيلولة تكونت سفارة هامة برئاسة إبنه محمد بن أشقيلولة، وتوجهت نحو عاهل المغرب آخر شهر رمضان فتنازلت له عن مالقة قائلة:((إن لم تحزها أعطيناها للفرنج ولا يمتلكها ابن الأحمر)) فحازها السلطان فعلا ودخلها سادس شوال 676ه/2-مارس 1277م،الأمر الذي أقلق ابن الأحمر وعدا يداخل ملك قشتالة ضد السلطان أبي يوسف[1]، فاستولى عليها -ابن الأحمر- سنة 677ه/1278م ليفقد المرينيون بذلك مركزا متقدما وشبه ثابت في بلاد الأندلس في مواجهتهم للنصارى، وذلك بأن ساوم عاملها المريني يحي بن محلي بعوض[2]، وبدأ بخلق العقبات أمام أبي يوسف يعقوب قصد إشغاله وتعطيل حركته وجهاده في العدوة الأندلسية، ومن ذلك إيحاؤه ليغمراسن بن زيان بمهاجمة الحدود

الشرقية لدولة بني مرين، وفي هذا الصدد نجد يغمراسن قد أرسل إلى ابن الأحمر العديد من الهدايا منها ثلاثون من عتاق الخيل وثياب من عمل الصوف، وبعث إليه ابن الأحمر مكافأة مالية قدرها عشرة آلاف دينار فلم يرض بها وردها إليه[3].

من هنا ندرك مدى تشبث ابن الأحمر بملك غرناطة واستغلاله للظروف المحيطة به لإبطال أي محاولة ما من شأنها أن تهددها حتى من طرف إسلامي مد له يد العون بمبدأ أو بعنوان الجهاد، لانتفاء عامل الثقة لديه، لكن أبا يوسف لم ييأس في هذه الأثناء من محاولة إرجاع ابن الأحمر إلى رشده وتذكيره بمسؤوليته العظيمة، وكان ذلك بواسطة سفارات تذهب إلى الأندلس مذكرة مرشدة كما كان الشأن كذلك مع أمير تلمسان

[1]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص48.

[2]. لم يذكر الناصري السلاوي البديل أو التعويض إن كان مالا أو منطقة أخرى من بلاد الأندلس،الناصري،المصدر السابق،ج3،ص50.ب ينما ذكر ابن أبي زرع بأن العامل هو عمر بن علي، وأنه اتفق معه على مبلغ خمسين ألف دينار، وأن المنطقة هي سلوبانية، وقد تم ذلك في منتصف رمضان من سنة 677ه انظر ابن أبي زرع،الأنيس المطرب، ص329.

[3]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3، ص50.

الذي حالف ألفونصو بدوره ضد المغرب- غير أن موقفيهما كانا سلبيين بالنظر إلى ما كانت تقوم به قشتالة من جهود متوالية لتفشل وحدة الصف المنشودة [1].

استطاع أبو يوسف خلال العبور الثالث إلى الأندلس681ه/1282م[2] أن يبعد الأفكار والوساوس عن ابن الأحمر ويفك تحالفه مع النصارى، ويجعله يتراجع عن عدائه للمرينيين حينما رأى الأسطول القشتالي ينفذ بأساطيله للزقاق قصد تطويق مسلمي الأندلس ويكاد يفتتحها ويسيطر عليها، لينقلب ابن الأحمر عليهم ويعاون الأمير يوسف بن يعقوب قائد الأسطول المريني، الأمر الذي أدى إلى تحطيم الأسطول القشتالي وسيطرة المرينيين على الجزيرة الخضراء، فعظم بذلك الفتح وانجلت الشدة في وسط شهر ربيع الأول من عام 678ه/1279م، حينها اجتمع الأمير يعقوب بألفونصو العاشر[3] على صخرة عباد فأعطاه الأخير تاجه رهنا في مقابل مائة ألف دينار[4].

كان من نتائج التقارب الذي حدث بين بني الأحمر وبني مرين أن ازدادت قوة المسلمين، الأمر الذي تجلى في العبور الرابع 684ه/1285م لأبي يوسف يعقوب، وتراجع خط النفوذ الاسباني إلى ما وراء نهر الوادي الكبير، بوصول القوات المرينية إلى تخوم اشبيلية وشريس إضافة إلى انعقاد الصلح بين المسلمين والنصارى والذي أقره سلطان المغرب وغرناطة و قشتالة[5].

ب/مرحلة تعمق الشكوك والتنافر بين بني مرين و بني الأحمر:

---

[1]. الهادي التازي، المرجع السابق،ج7، ص63.

[2]. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص406.

[3]. يذكر ابن أبي زرع أن هذا الملك مات في شهر محرم من سنة 682ه، الأنيس المطرب، ص406.

[4]. لسان الدين بن الخطيب،اللمحة البدرية في الدولة النصرية،ص45،الإحاطة في أخبار غرناطة،ج2،ص566.ابن أبي زرع،المصدر السابق،ص406.

[5]. انظر الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج3،صص 52-53.

وتبدأ باعتلاء يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني[1] عرش المغرب إثر وفاة أبيه (685ه/1286م) والذي رسم لنفسه نفس نهج سلفه، ألا وهو مواصلة الجهاد في العدوة الأندلسية والدفع به إلى الأمام، وفي نفس الوقت مواصلة إزالة الشكوك التي تساور ابن الأحمر، فكان أن اجتمع به عند مربلة[2]، ومن بين ما اتفقا عليه هو أن يحتفظ المرينيون بالجزيرة الخضراء ورندة وطريف ووادي آش وأحوازها ويتنازلوا عما سواها لبني الأحمر، بل أمر أبا الحسن ابن أبي إسحاق بن أشقيلولة بتسليم وادي أش إلى ابن الأحمر معوضا إياهم عنها بعمالة القصر الكبير أو ما يعرف بقصر كتامة[3].

إن الوساوس التي راودت ابن الأحمر والتي حاول أبو يعقوب يوسف وخلفه أن يقضيا عليها زادت رسوخا بما أوحى به إليه سانشو ملك قشتالة من وساوس، تبين له خطورة تحالفه مع بني مرين، فسارع حينها إلى محالفة النصراني ومخالفة ابن الدين والملة، فكان من نتائج ذلك أن ضاعت طريف وستة من الحصون التي كان يملكها ابن الأحمر[4]، حينما رفض سانشو أن يسلم طريفا لابن الأحمر بعد استيلائه عليها[5]، ففي سنة 690ه/1291م نقض سانشو الرابع ملك قشتالة اتفاقية الصلح التي كان قد وقعها مع السلطان يعقوب بن يوسف 684ه-1285م، وقام بالإغارة على الأراضي الأندلسية، وقد أوكل تلك المهمة لقائد أعنّته بالأندلس الشيخ علي بن يوسف بن يزتاجن[6]، فأعلن حينها السلطان يوسف بن يعقوب الجهاد وقام ابن الأحمر

---

[1]. يلقب أيضا بالناصر لدين الله، لم يحضر وفاة أبيه لأنه كان وقتها بأحواز فاس وأبوه بطنجة، فأخذ له الوزراء والأشياخ البيعة التي جددت له في غرة صفر سنة685 ه،انظر الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص66.

[2]. مدينة صغيرة بالأندلس مسورة قديمة محكمة البناء تقع بالقرب من مرسى سهيل ومرسى مالقة،انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص180.

[3].لسان الدين بن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة،ج1،ص565،انظر أيضا الناصري السلاوي،المصدر السابق، ج3، ص66.

[4]. لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،ج1، ص563.

[5]. ابن أبي زرع، المصدر السابق، الأنيس المطرب، ص381.

[6]. نفسه، ص379-380.

بمهاجمة اسطبونة[1] واستولى عليها بعد التغلب على حاميتها المرينية بقيادة عياد العاصمي، وتم التفاهم بين أهل غرناطة والقشتاليين على انتزاع طريف من المرينيين بمساعدة أراغون فسقطت طريف بيد الأسبان بعد حصار دام خمسة أشهر[2].

رغم الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها ابن الأحمر نتيجة سوء تقديره وإدراكه للأمور، والتي ألحقت أضرارها ببني مرين و ببلاد الأندلس على الخصوص، فإن المرينيين تجاوزوا على عهد السلطان يوسف بن يعقوب ذلك وحاولوا مواصلة سياسة اللين التي تمثلت في استقبال وفد من غرناطة برئاسة فرج بن إسماعيل بن الأحمر[3] صاحب مالقة، والذي جاء راغبا في الصلح ومعتذرا عنه ومقدما هدية بين يديه تناسب الحال، ولما سمع بهم عامر الوّطاسي وهو في الحصن، أرسل إليه هو الآخر يطلب منه الصفح وقبول وساطة الغرناطيين الثائرين على السلطة المرينية بحصن تزوطا[4] بقيادة الوزير عمر الوطاسي -الذي استخف بالسلطان يوسف بن يعقوب المريني بعد وفاة والده- وقبل طلبهم شريطة أن ينتقل بحاشيته إلى الأندلس، ورغم عدم استساغة عامر الوطاسي لشروط الصلح إلا أنه تقبلها على مضض وأبدى الرضا ليفر بعدها نحو تلمسان[5].

---

[1]. أو أشتبين،حصن بالأندلس علي يسار الطريق تحت أصل جبل ممتنع لا يدركه مقاتل طمع وقد بنى عليه الملوك حصونا كثيرة وقد حوصر مرات كثيرة دام بعضها لمدة 313سنة،وهو يقع بمكان قريب من مالقة وطريف .انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص22،انظر أيضا عبد الرحمن بن خلدون،ج7،صص285-286.

[2]. ابن أبي زرع،الأنيس، ص380-381.

[3]. فرج بن إسماعيل بن نصر، يلقبه ابن الخطيب بالرئيس ويضفي عليه صفة الجلالة، كان والده صنه أمير المسلمين الغالب بالله أبي عبد الله ،وخلفه في منصبه بعد وفاته أبي محمد بن أشقيلولة ،امتاز بالحزم الشديد و الجزالة وفخامة الأحوال توفي سنة 720ه/1320م ،انظر ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،ج4، ص241وما يليها.

[4]. من أمنع معاقل المغرب وأحصنها اكتسب أهميته منذ أيام الموحدين لكن بانقراض أمرهم واستقامة الملك لبني مرين مرين صرفوا كل عنايتهم إليه وانزلوا به حامية من خيرة الجند لمراقبة تحركات بني وطاس الطامعين في الرئاسة،انظر الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص72.

[5]. الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص73-74.

كما حل وفد من الأندلس إلى المغرب للاعتذار عن حادثة طريف وإعادة الوفاق مع السلطان يوسف، فاستقبله حينها أحسن استقبال وأكرم وفادته واجتمع معه في طنجة وأجابه الى الصلح[1] بعد أن أدرك محمد ابن الفقيه عقم سياسته في محاباة النصارى بعد أن خدعوه واستولوا على مزيد من أراضي الأندلس بما فيها طريف التي رفضوا التنازل له عنها بعد أن كانوا قد عاهدوه على ذلك.

ربما كان قدوم هذا الوفد من قبيل جس النبض واستقصاء مدى الامتعاض الذي أحدثه هذا التحالف مع القشتاليين لدى بني مرين، ولهذا نجد محمد الفقيه يأتي بعدها بنفسه في ذي القعدة سنة 692ه/ ديسمبر 1293م للقاء سلطان المغرب والاعتذار إليه عن طريف وطلب نصرته للأندلس، وقد استقبله السلطان المريني أحسن استقبال وأسعفه بجميع مطالبه ومنحه فوق ذلك هدية مجزاة قدرت بأضعاف ما جاء به إليه[2]، رغم ما ألم به من نوائب ومنها وفاة أحد أبنائه -عبد المؤمن- بمنطقة تدعى- أزاجن[3]- وهو في طريقه إلى طنجة قصد استقباله، هذا اللقاء الذي تمخض عن تنازل السلطان يوسف المريني لابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وعشرين حصنا آخر كانت من قبل ملكا له ولأبيه، أما ابن أبي زرع فيروي بأن الأمير يوسف تنازل لابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وما والاهما من الحصون[4]، كما قدمت له مجموعة من الهدايا التي كان من بينها مصحف عثمان بن عفان الذي كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة[5]، ورافقه بجنده وعبر معه إلى طريف قصد

---

[1]. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7،ص216.

[2].ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 383- 384،انظر أيضا الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص74-75.

[3]. ربما تكون منطقة أزجن التي هي قرية ببطن بني زكون من قبيلة رهونة بدائرة وزان. انظر،ابن أبي زرع،الأنيس المطرب، هامش 185،ص384.

[4]. ابن أبي زرع،المصدر السابق،ص384.

[5]. الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج3،ص75.

تحريرها، فكلف وزيره عمر بن السعود بن خرباش الحمشي بذلك فنازلها لمدة استعصت فيها ليفرج عنها فيما بعد[1].

كما ظهرت على عهد محمد الفقيه مشكلة النزاع على مضيق جبل طـــارق التـــي بدأت تأخذ شكلها الحازم، لأن كلا من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة ومملكة بني مـــرين ومملكة أراغون ثم الجمهوريات البحرية الايطالية وخاصة بيزة وجنوة تنبهت الى أهمية ذلك الزقاق الذي يعد مفتاح البحر المتوسط، و أن السيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظمى لينفذ إلى المحيط الأطلسي والساحل الغربي لشـــبه الجزيـــرة الأيبيريـــة، وكانـــت الأنظار قد بدأت تتطلع إلى ما وراء مياه بحر الظلمات، فبالفعل نسمع أنه في ذلك العصر المتقدم حاول نفر من الملاحين البنادقة يسمون آل فيفلدي التوغل في ذلك المحيط، ويبـــدو أن سفنهم غرقت، ولكن الفكرة كانت قد استقرت في الأذهان على أي حال واشتد النـــزاع بين تلك القوات على مصير بحر الزقاق[2].

لم يشذ أبو عبد الله المخلوع[3] عن سلفه وأبيه محمد الفقيه المتوفى سنة 701ه/1301م في سياسته تجاه بني مرين والبت كانت غير قارة، إذ ابتدأت ودية، فقد حدث أن أرسل في ذلك وزيره أبو سلطان عزيز الداني[4] وكاتبه محمد بن الحكم الرّندي[5] إلى بلاط فاس أين أكرمت وفادتهما، وطلب منهما السلطان المريني بأن تمده غرناطة بالجند والقوات للاستعانة بهم في محاصرة تلمسان، فلبت غرناطة طلبه ليتحول الى عدو

---

[1]. نفسه،ج3،ص75.

[2] .حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب العربي والأندلس،ط2، مكتبة الأسرة للأعمال الفكرية،1993م،ص446.

[3]. هو محمد بن محمد تولى حكم غرناطة بعد وفاة والده محمد بن الأحمر المعروف بالفقيه سنة 701 ه،كان ضعيف الشخصية فاستبد كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي بأمور الحكم ،انظر الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج3،ص82.

[4]. نسبة الى دانية من مدن الأندلس.

[5]. نسبة لرندة إحدى مدن الأندلس.

لهم، وذلك من خلال تحالفه مع هراندة ملك قشتالة[1]، و اتضحت أبعاد هذا العداء والذي أحدث شرخا كبيرا في العلاقات حينما ألقى إلى سبته بأحد أفراد الأسرة المرينية الطامعين في الملك -عثمان بن أبي العلاء المريني- والذي استطاع بمساعدة أبي فرج بن إسماعيل صاحب مالقة من الاستيلاء عليها[2]، والتي استمرت تحت سيطرته حتى 709ه/1309م حينما تمكن القائد تاشفين بن يعقوب الوطاسي من اقتحامها و افتكاكها منه.

3-<u>في فترة الصراع المريني على العرش:</u> على عهد السلطان أبي ثابت الذي تولى عرش المملكة المرينية سنة706 ه/1306م[3] على إثر الأزمة السياسية التـــي كـــان سببها الصراع على العرش استمرت العلاقة عدائية ومتوترة، بين بنـــي الأحمـــر وبنـــي مرين، وبدت مظاهر ذلك في محاولة السلطان أبي ثابت الفاشلة لاستعادة مدينة سبتة، التي لم تتحرر إلاّ على عهد ابنه أبي الربيع سليمان سنة 708-710ه/1308-1310م الــذي بلغه استصراخ أهلها وبأمر أشياخها وموافقة عامتها الذين سئموا العيش تحت إمرة وملك أهل الأندلس[4]، ليجهز جيشا عظيما من بني مرين ويتجه به إبنه وقائده تاشفين بن يعقــوب الوطاسي في غرة ذي الحجة سنة 708ه/1309م ويتمكن من فتحها ودخولها عنوة يــوم

---

[1].هراندة بن سانشو هو الملك القشتالي فرناندو الرابع (1295-1312)،انظر الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3، ص82، انظر أيضا، سعيد عبد الفتاح عاشور،أوروبا في العصور الوسطى،ج1،ص543، وبوفاته خلفه ولده الطفل ألفونصو،انظر عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع، ص 171.

[2]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3، ص82 .

[3]. هو أمير المسلمين عامر بن الأمير عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، بويع بعد وفاة جده بحضرة تلمسان الجديدة بإجماع من الناس واتفاق من أشياخ مرين وأشياخ العرب على بيعته وذلك يوم الخميس 08 ذي القعدة عام 706ه، يوم وفاة جده. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص389.

[4]. ما تجدر الإشارة إليه هو الرسل المستعجلة التي كان يوفدها كلا الطرفين عند حدوث طارئ سياسي أو عسكري يهدد أمن بلاد الأندلس ومن ذلك ما كان يسبق عمليات العبور التي كان يقوم بها أمراء بني مرين، وما يدل على ذلك هو التناسق الذي كان يتم بينهما من خلال أماكن اللقاء في العدوة الأندلسية،كما كانت الرسائل في بعض الأحيان ترسل عن طريق الحمام الزاجل وذلك حينما تكون وطأة وشدة الحصار كبيرة جدا، فحينما أراد يعقوب المريني فك الحصار عن أهل الجزيرة وكان العدو قد أحكم الحصار عليها برا وبحرا وانقطعت عنهم الأخبار لم تكن الوسيلة الوحيدة المتوفرة لديه سوى الحمام الذي كان ينطلق من جبل طارق، انظر ابن أبي زرع ،المصدر السابق،ص313،الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص51.

الاثنين العاشر من صفر 709ه/1309م ويقبض على قائدها ومتولي حربها الشـيخ أبـي علي عمر بن رحو بن عبد الحق[1].

هنا نجد السلطان الغرناطي الجديد أبو الجيـوش نصـر 708-713ه/1308-1313م يلجأ من جديد إلى مهادنة ومصالحة أو بالأحرى استعطاف بني مرين، إذ أرسـل رسله إلى السلطان أبي الربيع المريني[2] وتنازل لـه عـن الجزيـرة الخضـراء ورنـدة وحصونها وطلب منه العروسة أخت ابن الأحمر فلبى طلبه، وأرسل له السلطان المرينـي الأموال والخيول برسم الجهاد مع ثقته عثمان بن عيسى اليرنياني[3]، ربما يعود السبب في ذلك إلى خشية السلطان الغرناطي من مواصلة الزحف ضد ما تبقى لـه ولأسـرته مـن أراضي بالأندلس لما أدركه من قوة لدى السلطان المريني، وكذا لإدراكه مدى الضـعف الذي آلت إليه مملكته والتي لا يستطيع رد أي اعتداء قد يأتيه من الجنوب أو من الغـرب وفي هذه الحالة يكون قد ضمن على الأقل جاره المريني الذي تزعم حركة الجهاد وجعلها عنوانا لتدخلاته في الميدان الأندلسي، رغم ذلك نجد الطرف المرينـي متسـامحا وفـوق العادة، بل وحرصا منه على توثيق عرى العلاقات الثنائية فقد طلب السلطان المريني أخته -سليمان بن الأحمر-وقبل بذلك وبعث إليه بالمدد والأموال والخيول برسم الجهـاد مـع عثمان بن عيسى اليرنياني[4]، وظلت العلاقة ودية حتى وفاة السلطان أبـي الربيـع سـنة 710ه/1310م لكنها اقتصرت على العون المادي .

---

[1]. ابن أبي زرع،الأنيس المطرب، ص393-394.

[2].هو الأمير سليمان بن الأمير عبد الله بن يوسف يعقوب بن عبد الحق المعروف بابي الربيع من وزرائه إبراهيم بن عيسى الياباني و عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي،بويع ب قصبة طنجة يوم الاثنين 09صفر سنة 708ه/ وعمره حينها لا يتعدى تسع عشرة سنة و أربعة أشهر ومما قام به هو عقده للصلح مع بني زيان.انظر ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص392- 393.

[3].ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب، ص394

[4]. نفسه، ص394.

وعلى عهد أبي سعيد عثمان بن عبد الحق المريني 710- 731ه/1310-1331م[1] تميزت العلاقات بالود، إذ وبمجرد اعتلائه العرش وصلته البيعة من أهل الأندلس، ولا نقصد بها هنا بيعة الخضوع والتبعية وإنما بيعة الاعتراف به كملك أو سلطان على المغرب لأن ابن أبي زرع يقول بأنه بويع من جميع قبائل بني مرين وكافة العرب والأندلس والأغزاز وقواد الروم[2]، إذ وبمجرد اعتلائه العرش خرج من مدينة فاس الى رباط الفتح قصد تفقد أمور الرعية هناك والنظر في أحوال بلاد الأندلس، وفي نفس الوقت أعطى أوامره بصنع الأجفان لمواجهة النصارى، وفي سنة 711ه / 1311م ولى أخاه الأمير يعيش الجزيرة ورندة و أحوازها من بلاد الأندلس، وعاود الكرة في سنة 719ه/1319م حين خرج من مدينة فاس الى طنجة للتدبر في أمر سبتة وبلاد الأندلس[3]، فلم تورد المصادر أي نوع من التوتر في العلاقات بين الطرفين على عهده، وربما يعود السبب في ذلك الى الفتنة التي شهدتها مملكته حينما ثار عليه القائد يحيى العزفي بسبتة وامتنع عن مقابلته، الأمر الذي دعا الى بعث الوزير إبراهيم بن عيسى اليرنياني بجيش عظيم قصد محاصرته، والمجاعة التي ضربت المغرب الأقصى سنة 724-725ه/1323-1324م،إضافة إلى صراعه مع الجارة الزيانية، إذ خرج هذا السلطان سنة 714ه/1314م من مدينة فاس نحو تلمسان قصد غزوها مسخرا لذلك كلما لديه من إمكانات عسكرية وبشرية فحاصرها وأعمل فيه إفسادا[4]، ومن هنا يمكن أن نستنتج أن هذه الحوادث شغلته عن الجهاد في الأندلس التي كانت دوما سببا في إثارة شكوك بني الأحمر وبالتالي توتر العلاقات بينهم.

أما على عهد أبي الحسن عثمان المريني (731-749ه/1331-1348م الذي يرى البعض أنه بداية للعصر المريني الثالث، استمرت فكرة الجهاد في الأندلس لدى بني

---

[1].كان معاصرا لزمن ابن أبي زرع،أما لقبه فهو السعيد بفضل الله ولد يوم الجمعة 29 جمادى الثانية من سنة 675ه /ديسمبر 1286م اشتهر بدهائه السياسي ورجاحة عقله وابتعاده عن سفك الدماء، بويع بالخلافة ليلة الأربعاء أواخر جمادى الثانية سنة 710ه /1211م بتازة .انظر ابن أبي زرع الفاسي،المصدر السابق،ص396.

[2].ابن أبي زرع،الأنيس المطرب، ص396.

[3]. نفسه، ص397.

[4].نفسه، ص 399- 400-401.

مرين، فظل أبو الحسن محافظا على الروابط الأخوية والدينية مع بني الأحمـــر، ومـــن المظاهر التي تدل على استمرار تلك العلاقات ذلك الوفد الذي حل عليـــه مـــن غرناطـــة يرأسه الملك الغرناطي محمد بن إسماعيل بن فـــرج بـــن الأحمـــر ســـنة 732ه/1332م فأكرمت وفادته، وخلال ذلك اللقاء تم استعراض الأوضاع في الأندلس وما يتعـــرض لـــه أهلها من بطش من طرف الإسبان، كما تم التطرق لأحوال جبل الفتح[1]، وكان من نتائجـــه أن تم الفتح وانتزع جبل طارق من النصارى سنة 733ه/1333م[2].

إن هذا الاجتماع وما نتج عنه من تقارب وجهات النظر و فتح إلا أنه لم يستمر طويلا، بل أدى إلى طفو مشكلة أخرى على هامش الأحداث ألا وهي قتـــل محمـــد بـــن إسماعيل بن الأحمر[3] في نفس السنة من طرف أبناء عثمان بن أبي العلاء شيوخ الغـــزو بالأندلس يوم رحيله عن جبل الفتح إلى العاصمة غرناطة نظرا لمـــا رأوه مـــن توافـــق واتصال اليد بينه وبين السلطان المريني أبي الحسن خلال تلك الزيارة، لأنهم كانوا أعداء للطرفين معا بالنسبة للمرينيين فبسبب خروجهم عليهم ومنافستهم لهم عدة مرات، أما مـــع بني الأحمـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــر

فبسب منافستهم لهم في حكمها أيضا[4].

رغم ما تعرضت له مملكة بني مرين من نكبات إلا أن العلاقـــات اســـتمرت طيبة، وما زاد من متانتها ما قام به الحجاج يوسف بن إســـماعيل (733-755ه/1333-1354م) بشيوخ الغزاة الذي وافق رغبة السلطان المريني أبي الحسن.

وفي أواخر عهد السلطان المريني أبي الحسن وحين ثـــارت القبائـــل فـــي افريقية ضده وتمرد عليه ابنه أبو عنان فارس كتب الملك الغرناطي أبو الحجاج يوســـف

---

[1].انظر عبد الرحمن بن خلدون ،المصدر السابق،ج7،ص337-338.

[2]. نفسه، المصدر السابق،ج7،ص238.

[3]. قدم أهل غرناطة أبا الحجاج يوسف بن إسماعيل خلفا لأخيه في حكم الأندلس والذي بدأ في العمل على تصفية وتغريب قتلة أخيه، فبعد سجنهم نفاهم نحو تونس. انظر الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3، ص123.

[4]. الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص123.

رسالة أو كتابا سنة 749ه/1348 من إنشاء وزيره لسان الدين بن الخطيب يسأل فيها عن أحواله ويعزيه في مصابه ويدعو له بالسلامة، ويعتذر له عن عدم تقديم الدعم له بسبب الظروف التي تمر بها مملكته وتكالب النصارى عليها، وأبلغه بأنه أعطى الأوامر لكافة العاملين على السواحل الأندلسية بتوفير كل أسباب الأمن والمساعدة للوافدين إلى بلاد الأندلس من قبله[1].

و في هذه المرحلة أوفد سلاطين وأمراء المملكتين السفارات فيما بينهما ومنها السفارة التي قام بها الوزير لسان الدين بن الخطيب سنة 755ه/1354 عن سلطانه الغني بالله (ابن الأحمر)الى السلطان أبي عنان والتي استطاع من خلالها لسان الدين بما نظم من شعر أمام أبي عنان[2] أن يؤثر فيه تأثيرا بالغا جعله سيستجيب لجميع المطالب التي جاء من أجلها، فقال له((ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم)) والتي تمثلت زمنها في العون الحربي ضد القشتاليين،ومن بين السفراء المغاربة الذين قاموا بالسفارة الى بلاط بني الأحمر الشيخ محمد بن محمد بن أبي بكر القرشي المقري الذي أرسله أبو عنان في سفارة إلى غرناطة سنة 757ه/1356م[3].

أما على عهد السلطان أبي عنان فارس المنقلب على أبيه[4] فقد تمتنت العلاقات لكنها انحصرت في الدعم المادي لغرناطة.

4/في عهد نفوذ الوزراء:

---

1. للاطلاع على الرسالة وما تضمنته انظر،الناصري السلاوي،المصدر السلاوي،ج3،ص166-167.

2. خليفة الله ساعد القدر ****علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته****ما ليس يستطيع دفعه البشر.

3. كانت تلك الرسل على مقدرة كبيرة من الإقناع وحسن إبراز الواقع وما ينعكس به من وقع على نفسية أمراء بني مرين كقدوم رسل ابن الأحمر إليه تبين له ما أصاب أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وإعواز الأقوات، واستعملت تلك الرسل أيضا في نقل رسائل العتاب واللوم التي كانت تدور أحيانا بين ملوك الدولتين من ذلك سلسلة الأشعار التي تبودلت بين السلطان يعقوب المريني وابن الأحمر على ألسنة كتابهما عقب حدوث الفتنة بينهما وما نشأ عنها من حصار الجزيرة الخضراء، انظر الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3، ص39-40-51.

4. يقول ابن خلدون أنه *دخل* في صراع مع أبيه أبي الحسن المريني الذي لم ينته إلا بوفاة الأب بجبل هنتاتة ليستوثق الحكم لأبي عنان.انظر عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص161.

ويبدأ بوفاة أبي عنان الذي يرى الكثيرون أن الدولة المرينية بلغت أوجهـا فـي

عهده

بما قام به من انجازات شملت معظم الميادين، وسمي هـذا العهـد بـذلك لأن المغـرب الأقصى عرف فيه ضيقا وتقلصا لنفوذ وسلطة السلاطين لمـا أفسـحوا المجـال أمـام الوزراء، ومن ثم فلم يكن من الغريب أن تأخذ العلاقات الثنائية منحى جديـدا أو مختلفـا عما كانت عليه في السابق.

لا شك أن الصراع من أجل المنصب أو العرش صاحبه تدني وضيق رؤى وآفاق السلاطين، فلم يعد الجهاد ونصرة أهل الأندلس الذي دخل مرحلة لفظ الأنفاس الأخيرة أو بداية النهاية همّ أولئك السلاطين، فبدل أن يجمع الاثنان قواتهما لمواجهة العدو المتربص بهما ألا وهو الخطر الاسباني المتنامي، راحا يدبران المكائد والانقلابات ضد بعضهما البعض، ومن ذلك المحاولة الناجحة التي قام بها المستعين بالله أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن 760-762ه/1359-1362م ضد السعيد بالله بن أبي عنان[1]، وقد نجح في ذلك سنة 760ه1359م، وتعدى الأمر هذا الحد فقد تحامل السلاطين المرينيون على بعضهم البعض بالاستعانة ببني الأحمر، ومن أولئك الأمير عبد الله الذي سجن أخاه أبا سعيد واستولى على الحكم بمساعدة ابن الأحمر، وهذا حسب رواية مانويل صاحب كتاب *historia di marricco* والتي نقلها عنه الناصري، وكذا محاولة ابن الأحمر وضع أمير موال له بالمغرب بعد وفاة أبي سعيد لكن أبا زكرياء يحي الوطاسي استطاع أن يثبت عبد الحق ابن أبي سعيد 238-869/1420-1464م[2].

ومن هنا وبعد ضعف القوى العسكرية للدولة المرينية يمكن القول بأن العلاقات بين الطرفين اقتصرت على الجانب الدبلوماسي، فكان سقوط جبل الفتح (جبل طارق) سنة

---

[1]. هو أول من مورس الانقلاب في حقه من بني مرين،وقد بويع وأبوه على فراش المرض، وكان يأتمر بأوامر وزيره حسن بن عمر الفودودي، إذ لم يكن يملك معه ضرا ولا نفعا،انظر الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج4، ص3.

[2]. إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص73.

867ه/1463م إيذانا بانقطاع الجهاد المغربي ضد النصارى الاسبان [1] لتترك غرناطة بعد ذلك تواجه مصيرها المحتوم لوحدها، ويزحف النصارى نحو ممتلكات المسلمين الباقية في الأندلس ويتجه أصحابها نحو العدوة المغربية متعرضين خلال سفرهم لمضايقات النصارى ومن ذلك مايذكره لنا أفوقاي الأندلسي بأن الله فرج على عباده المسلمين الذين كانوا تحت قهر النصارى وظلهم.........واتفق لكثير من من المسلمين عند خروجهم أن نهبهم في البحر النصارى وأكثرهم الفرنج البحرية الذين اكتروهم زدفعوا لهم أجرتهم على أن يبلغوهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين.....وبعد أخذ كل ما لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين))[2] ، لكن يمكن القول بأن المغرب خلد نوعا ما الى المسالمة حتى على عهد أبي عنان المريني الذي مثل فترة الانكفاء على البناء الاقتصادي والعمراني للمملكة[3].

---

[1]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج4، ص98.

[2]. أحمد بن قاسم الحجري(أفوقاي)، مختصر رحلة الشهاب الى لقاء الأحباب،تقديم وتحقيق محمد رزوق، دت،ص20.

[3]. انظر ابن أبي زرع ،المصدر السابق،ص313.

المبحث الثاني:العلاقات المرينية مع اسبانيا النصرانية

1-مع مملكة أراغون:

ويمكن أن نصنفها الى صنفين:

أ/العلاقات العسكرية والحربية (عدائية):

نظرا لتزعم المغرب لحركة المقاومة ضد الأسبان في حركتهم التي عرفت بحرب الاسترداد، فقد طبعت العلاقات الثنائية بالعداء والتوتر، لأنهم بذلك يكونوا قد ملئوا الفراغ الذي أحدثه سقوط دولة الموحدين، ومن مسار أو شريط الأحداث التي وقعت طيلة تاريخ الدولتين نلاحظ أن مملكة أراغون كانت أقل عداء للمسلمين في الأندلس من قشتالة، ولذا نجد العلاقات السياسية بين المرينيين ومملكة أراغون متنوعة مابين صدامات عسكرية ومراسلات وتعاون وصلح، فكثيرا ما تخلل ذلك العداء بينهم و بين نصارى اسبانيا فترات من السلم حكمتها معاهدات أبرمت بين الطرفين، وفي كثير من الأحيان كان بنو الأحمر يمثلون طرفا ثالثا في هذه المعاهدات.

إن المغرب الأقصى على عهد بني مرين كان يراقب عن كثب ميلان موازين القوى وخاصة بين أكبر قوتين في شبه الجزيرة الأيبيرية–قشتالة و أراغون–فعلى عهد السلطان أبي يوسف يعقوب ونتيجة للخلاف الذي كان قائما بينه وبين قشتالة نجده يعمل على تكوين محور ضدها ضم غرناطة و أراغون لكن المحاولة باءت بالفشل، لأن بني الأحمر كانت تساورهم الشكوك دوما حول نوايا المرينيين كما أسلفنا الذكر، بل قلبت الأمور ضدهم، بتحالف محمد الثاني سلطان غرناطة مع سانشو Sanches ملك قشتالة و بيدرو الثالث ملك أراغون.

تعدت العلاقات بين الدولتين مجال التطاحن والحرب في بعض الحالات لتصل الى حد طلب المساعدة والنصرة، فحينما ثارت سبتة على أبي يعقوب يوسف المريني بتحريض من ابن الأحمر، وجه أبو يعقوب يوسف طلبا إلى جاقمة الثاني (جاك الثاني) *Jacques II* ملك أراغون ليساعده ببعض القوارب الحربية، لكن جاقمة لم يلب ندائه لأنه كان قد عقد صلحا مع فرناندو الرابع ملك قشتالة، و الذي كان يشمل حتى سلطان غرناطة محمد الثالث[1]، لكن بعد ذلك وافق نفس الملك على تقديم تلك المساعدة للسلطان أبي الربيع سليمان المريني، فمكنه بذلك من الاستيلاء على سبتة سنة 709ه/1309م[2].

وما يمكن ملاحظته أن العلاقات الأراغونية المرينية على عهد أبي عنان امتازت بالهدوء في وقت حاولت الدول الأوروبية فيه جلبه – أبي عنان –إلى صفها وخاصة في إطار الصراع بين قشتالة و أراغون، لكن بعض الأحداث المحدودة التي كانت تطفو على السطح من حين لآخر كانت تعكر صفو هذه العلاقات وهي في أغلبها متعلقة بالجانب التجاري، كالاصطدام بين التجار في الشواطئ البحرية [3]، ومن ذلك ما حدث عندما كان أبو القاسم بن فتح مسافرا وصادف شيطيا للروم فأخذه، وأسر أهله وأتى بهم إلى بلد العناب مقرنين في الأصفاد، أو الخطيب أبي العباس الذي لقي أيضا في عرض البحر

---

[1]. *Mas Latrie, op.cit, p167.*

[2].*Ibid, p297.*

[3]. ابن الحاج النميري، المصدر السابق،ص103.

جفنا للروم فانقض عليه انقضاض الأجادل على اليعاقب السوابح ،فأخذ الجفن ومـــن فيـــه وجاء بأسرى على حد تعبير النميري[1].

كما سبق وأشرنا أن علاقات أراغون لم تعرف الثبات أوالاســـتقرار إذ نجـــد أساطيلها قد توحدت مع الأساطيل القشتالية لتبدأ معركة بحرية بين الطرفين في شوال من سنة 740ه/مارس 1340م بعدما حاول القائد الأراغوني –جيلافيرت غـــروبلس– عبـــور بحر الزقاق للاتصال بقائد الأسطول القشتالي –ألفونصو جفري –في مياه اشـــبيلية وقـــد تصدى له الجيش المريني في معركة عنيفة انتهت بغرق الأسطول الأراغوني ومقتل قائده وانسحاب فلوله الى برشلونة ومكن هذا النصر السلطان المريني من السيطرة على بحـــر الزقاق الاستراتيجي بأن طوق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر الى آخر الأيام حسب ابن خلدون[2].

إن التقارب الذي كان قائما بين المرينيين ومملكة أراغون كان ظرفيا ولم يكـــن نابعا من قناعة إستراتيجية دائمة، لأن أراغون هي الأخرى كانت تراقب الأمور وموازين القوى العسكرية عن كثب، مع أن ميلها دوما كان إلى جانب أبناء ملتهـــا، فحينمـــا عبـــر السلطان أبو الحسن المريني أواخر سنة 740ه/1340م إلى ميدان الجهاد ووضع نصـــب عينيه تحرير مدينة طريف وتأمين طريق اشبيلية وقادس[3] ووافاه الملك أبو الحجاج يوسف بن الأحمر ملك غرناطة على رأس قوات من فرسان الأندلس، وبدأت في حصار طريـــف في محرم 741/ جوان 1340م وشرعت في المنازلة[4]، حينها شعر ألفونصـــو الحـــادي

---

[1]. نفسه،ص104.

[2]. انظر عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق،ج7، ص338.

[3]. قادس مرسى اسباني شهير يقع على المحيط الأطلسي على بعد 97 كلم الى الشمال الغربي من جبل طارق،أسس الفينيقيون قادس عام 1130 ق.م ويعتقد الكثير من المؤرخين والخبراء أنها أقدم مدينة في أوروبا، وقد غدت حصنا إسلاميا منيعا وفي عام 661ه/1262م تمكن ألفونصو العاشر ملك قشتالة من أخراج المسلمين منه ، وقد أبحر كريستوف كولومب انطلاقا منه في رحلته نحو العالم الجديد، لسان الدين بن الخطيب،اللمحة البدرية،ص105.

[4].عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص261.

عشر بخطورة الموقف ليستنجد بملك أراغون بيدرو الرابع (ت 1387) واستنجد أيضا بصهره ألفونصو الرابع ملك البرتغال فهرع الجميع إلى إنقاذه[1].

ب/العلاقات الدبلوماسية:

والتي أتخذت مظهرين هما:

ب1-المعاهدات والاتفاقيات:

ما يمكن استنتاجه في هذا المجال أن معظم المعاهدات والاتفاقيات بين الطرفين كانت بدايتها من النصف الثاني من القرن السبع الهجري /الثالث عشر الميلادي، أي بعد وفاة السلطان المريني متزعم حركة الجهاد في الأندلس وما تبقى منها كان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أي انقطاع حبل الجهاد المريني.

في 18 نوفمبر1274/6جمادى الأول 672 أبرمت اتفاقية في برشلونة بين السلطان أبي يوسف يعقوب الملك المريني وبين جاك الأول (خايمي) ملك أرغون و ميورقة الذي وعد ملك المغرب بعشر سفن وخمسمائة فارس لمساعدته من أجل استرجاع سبتة من حوزة ملك غرناطة الذي احتلها، وفي 27 أكتوبر 1276/ 17 جمادى الاول675 كان هناك إذن بالمرور من بيدرو الثالث ملك أراغون لبيرنارد بورتي لإفريقيا قصد إبرام اتفاقية مع السلطان المغربي أبي يوسف يعقوب والسلطان الزياني يغمراسن[2].

وحينما سيطر الأسطول الاسباني على بحر الزقاق سنة 743ه/1342م واضطرت للاستسلام فيما بعد عقدت معاهدة سلمية بين أبي الحجاج يوسف بن الأحمر وبيدرو الرابع ملك أراغون لمدة عشر سنوات سنة 1344/745 ثم طلب من السلطان المريني الموافقة على الصلح فأبرم الصلح من جانبه بنفس الشروط [3].

[1]. الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3، ص136.

[2] .*Mas Latrie, op.cit, introduction, pp281-282.*

[3]. عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ج7،ص262-263.

وفي سنة 751ه/1350م أبرمت معاهدة مـدتها 14 شـهرا بـين بنـي مـرين وأراغون وجاء أبو عنان المريني بعد ذلك فأكد التزامه ببنودها وجدد المعاهدة المعقـودة بين المرينيين وبين بيدرو الرابع ملك قشتالة لمدة 5 سنوات أخرى، وكان ذلك فـي سـنة 759ه/1357م وكان خروج أي طرف على نصوص المعاهدة مدعاة إلى احتجاج الطرف المتضرر من نقض العاهدة، ففي سنة 760 ه/1358م احتج بيدرو الرابع لدى أبي عنـان المريني لعدم وفاء محمد الخامس سلطان غرناطة بنصوص الاتفاقية المبرمة بينهم[1] .

وفي سنة 769ه /1367 م أبرمت معاهدة صلح بين غرناطة وأراغون وشملت هذه المعاهدة المرينيين أيضا إذ فوض السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز السـلطان محمد الخامس –سلطان غرناطة –لإبرامها،كما أبرمت معاهدة أخرى مماثلة لها بين فاس وغرناطة وقشتالة.

وفي رسالة مؤرخة ب 01-06-1358م من بيـدرو الرابـع *PierreIV* ملـك أراغون نجد فيها هذا الأخير يطلب من أبي عنان التخلي عن المساعدة المتمثلة في الجند والخيل التي طلبها منه ملك قشتالة، وقد أعطى توصياته بذلك إلى كل من ماثيو ميرسـر *Mathieu Mercer* وأرنـو دو فـرانس *Arnaud de France* وبيرنـارد دي بينـوس *Bernard de Pinos* لإيصاله إلى السفارة الأراغونية [2].

وحينما فشل أبو عنان فارس في إقناع ملك غرناطة الغني بالله محمـد الخـامس 755-760ه/1354-1359م بفض حلفه مع الملك القشـتالي بيـدرو الثـاني (1350-1368م) و الامتناع عن دفع الضرائب لمملكة قشتالة،تحالف هو مع ملك أراغون –بيدرو الرابع– وذلك بتوقيعه لاتفاق معه كان قد راسله بشأنه الملك الأراغوني طالبا تمديد الحلف

---

[1]. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، دار القلم، الكويت1408ه /1987، ص239-240.

[2]. انظر ابن الحاج النميري،المصدر السابق، ص103.انظر أيضا *Mas Latrie,op.cit, p327*

السابق بسرقسطة سنة 1357/758م لمدة خمس سنوات، لكن هذا الاتفاق انتهى بمقتل أبي عنان سنة 1358/759[1].

كما عقدت الدولة المرينية بعض المعاهدات مع أراغون بطريقة غير مباشرة أي عن طريق التفويض[2] ففي سنة 769 ه/1367م أبرمت معاهدة صلح فوض فيها السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز السلطان محمد الخامس –سلطان غرناطة لإبرامها، وأخرى مماثلة لها مع قشتالة.

وخلال فترة حكم السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني (767-774ه/1365-1372م) عقدت في رجب 768ه/مارس 1367م) معاهدة صلح وصداقة بين السلطان المريني والغرناطي الغني بالله محمد بن الأحمر من جهة، وملك أراغون بيدرو الرابع من جهة أخرى مدتها ثلاث سنوات تعهدت فيها الأطراف الثلاثة بعدم الإضرار بالطرف الآخر في البر والبحر، وأن يكون لكل طرف حق التجول والمتاجرة بأراضي ومياه الطرف الآخر دون مضايقة أو مغارم غير عادية، و أن تطلق أراغون حرية الهجرة للمدجنين[3] وان يمتنع كل طرف عن معاونة أعداء الطرف الآخر[4].

---

[1] .*Mas Latrie, op.cit,Traites, p325.*

[2]. غالبا ما كان الملوك يفوضون أشخاصا ينوبون عنهم في عقد المعاهدات والاتفاقيات أو كتابة الرسائل بأسمائهم اذا ما تعلق الأمر بما هو أدنى مرتبة من الجهة المقابلة.كتلك الرسالة مؤرخة في 4 صفر 759ه /16-1-1358م موجهة من محمد بن الحاج الحسيني نيابة عن ابي عنان المريني الى الرينة لينور امراة ملك اراغون يخبرها فيها أن أبي عنان تلقى رسالتها في شأن اخيها صاحب صقلية الراغب في الصلح وقد اسعف رغبتها وقبل طلبها.

[3].المدجنون هم أهل الأندلس الذين تبقوا في الأندلس وأضمروا إسلامهم خشية الوقوع في محاكم التفتيش التي أقامها النصارى لكشف كل مسلم لا يزال متمسكا بدينه، ويرى البعض بأن كلمة مدجن تعني الموريسكي التي عوضتها في وثائق محاكم التفتيش التي نعتت الموريسكيين بالمسيحيين الجدد (*Cristiano nuevo de moro*).انظر هلايلي حنيفي،الجزائر والملف الموريسكي خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي،جامعة الجيلالي اليابس،سيدي بلعباس،الجزائر،العدد3-4، مارس 2011-2012م، ص98. ويرى أن كلمة الأندلسيين الموراكة هم العرب الذين بقوا في قشتالة و غرناطة اثر صدور مرسوم التنصير سنة 1502م والأندلسيين الذين نصرهم الرعاع بالقوة سنة 1521م ،وبالتالي فكلمة الموراكة تعريب لكلمة موريسكوس القشتالية التي تعني النصارى الجدد أو النصارى الصغار، انظرعادل سعيد بشتاوي،الأندلسيون الموراكة،مطابع انترناشيونال برسالقاهرة،1403ه/1983م، ص6.

[4]. انظر عبد الله عنان، دولة الأندلس، ص147-148،انظر أيضا . *Mas Latrie,op.cit,p230*

وعلى آخر عهود بني مرين وتحديدا على عهد السلطان عبد الحق بن أبي سعيد (823-869ه/1420-1465م) قام الأراغونيون والقشتاليون بإرسال سفرائهم إليه يحذرونه من مغبة التدخل في شؤون غرناطة أو محاولة حمايتها فوعدهم بتحقيق رغبتم[1] لتترك غرناطة لوحدها تواجه مصيرها.

ب2-المراسلات:

دارت جملة من المراسلات بين ملوك الدولتين، نذكر منها الرسالتين بين فرناندو ملك أراغون وأبي سعيد ملك المغرب حول ما ادعاه بعض تجار النصارى من حيف وتضييق وقع عليهم وهم بالمغرب، إذ تعرضوا لغضب شعب المغرب بسبب الاحتلال الذي وقع على مدينتهم وفي نفس الوقت يذكر السلطان بالعلاقات الودية التي كانت تجمعهما، وكذا مع ابن أخيه ملك قشتالة الذي كان تحت وصايته ووصاية أمه ثم يوصي بأولئك التجار خيرا وأن يرفع عنهم الظلم الذي يتعرضون له وأن ترد لهم أموالهم التي أخذت منهم قهرا.

ووردت الكثير من الاشارات لمراسلات بخصوص عقد الصلح والسلم بين المغرب الأقصى و الممالك النصرانية[2]، منها الرسالة المؤرخة في 25 ذو القعدة عام 750ه/27-12-1349م من أبي عنان فارس إلى بيدرو الرابع ملك أراغون يخبره فيها بما جرى بينه وبين مبعوثه الزعيم -جيل ألبيرتي- *Gil Alberti* بخصوص الصلح، وثقة ملك أراغون الذي يرغب في الصلح وقد أجاب أبو عنان بهذه الرسالة معلنا قبوله بواسطة منصور بن علي وإبراهيم بن محفوظ.

وهناك رسالة أخرى تحمل رقم 117 مؤرخة في الحادي عشر من ربيع الثاني عام 751ه/ 1250م موجهة إلى بيدرو ملك أراغون وكانت جوابا عن رسالته التي يرغب فيها من أبي عنان إبرام اتفاقية صلح بواسطة مبعوثه الزعيم -جيل البيرتي- *Jill*

---

[1]. نفسه، ص158.

[2].انظر ابن الحاج النميري، ص100-102-103.

Alberti والى ميورقة، و رسالة من أبي عنان فارس تحمل تاريخ ذو الحجة 755ه موجهة الى نفس الملك –بيدرو وهي جواب عن رسالة بعث بها بيردرو إلى أبي عنان طالبا منه السماح لتجاره بمزاولة نشاطهم في المغرب وإطلاق سراح النصارى المعتقلين، فيستجيب أبو عنان لهذا المطلب ويوافق على المقترحات المقدمة إليه.

كما توجد رسالة أخرى مؤرخة في 28 رجب 752ه/1351م موجهة إلى صاحب أراغون يخبره أبو عنان بما جرى بين التجار النصارى وحراس الشواطئ المغربية من مناوشات وخصومات بشأن القرقورة التي أخذها بعض التجار المذكورين وفيها يؤكد أيضا أبو عنان بأن عقد الصلح ثابت، وأن على ملك أراغون أن يراجع موقفه ويردّ ما كان في القرقورة ليحرر الشّيطي الذي حبسه ابن الخطيب.

وبتارخ شعبان 752ه/25-9-1351م نجد أبا عنان يبعث برسالة أخرى وهي جواب منه الى بيدرو الرابع يطمئنه فيها على سلامة التجار النصارى ويذكره بالإجراءات المختلفة التي اتخذها بشان قضية الشيطي وهي تأكيد وتزكية، ليعقبها بأخرى مؤرخة في 7 شوال 751ه/8-12-1351م يخبره فيها أنه موافق على شروط الصلح التي أقرها وأنه أمضى العقد المشار إليه وأشاع خبره في نواحي البلاد المغربية.

كما دارت مراسلات بين ملوك المغرب من بني مرين و الملكة لينور زوجة ملك أرغون وأخت ملك صقلية –فلود ريغ– التي دارت حول السلم بين صقيلية والمغرب، ومنهاالرسالة المؤرخة في11 صفر 759ه/23-1-1358من الشريف محمد بن يحيى بن يوسف الحسيني الى ملك أراغون الرابع نيابة عن أبي عنان تمثل مضمونها في إخباره بأن أبا عنان قد قبل عقد معاهدة صلح مع صاحب صقلية أخ زوجته، وموضوع أخر يتعلق بشراء حوائج في المغرب لفائدة بيدرو المذكورة .

كما وجهت الأميرة لينور رسالة إلى أبي عنان تطلب فيها عقد معاهدة صلح لفائدة أخيها، فاستجاب أبو عنان لطلبها لكن مقابل خمسة شروط لم يذكرها ابن الحاج ،

فرد عليها أبو عنان فارس برسالة أخرى صقلية يعرب فيها عن إسعافها بمطلبها وانعامه عليها به، وهي رسالة مؤرخة في صفر 759ه/25-12-1358م.

2/ مع قشتـــــالة

كانت أكثر عدوانية ودموية من نظيرتها الأراغونية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن قشتالة كانت أكثر شغفا وتوقانا للاستيلاء على البلاد الإسلامية في الأندلس، وبما أن بني مرين كانوا قد نصبوا أنفسهم مدافعين عنها فقد كان الاصطدام بها أكثر، ولعل أكثر الفترات نشاطا في هذا المجال هي فترة ألفونصو العاشر الملقب بالحكيم أو العالم في محاربة المسلمين على غرار ما كان يقوم به والده فرناندو الثالث[1]، لكننا رغم ذلك نجد هامشا للعلاقات الدبلوماسية التي طفت في فترات السلم عندما كانت الضرورة تقتضي ذلك من أحد الطرفين، وعلى هذا الأساس يمكن أن نصنف علاقات المغرب المريني مع قشتالة إلى:

أ/علاقات عسكرية (عدائية):

ارتبطت العلاقات القشتالية المرينية أيما ارتباط بمملكة غرناطة، بل يمكن القول بأن هذه الاخيرة كانت محورها ومن هنا ارتأينا أن نتبع نفس المراحل التي اتبعناها في رسم علاقاتها مع غرناطة.

أ/ في مرحلة النشأة واثبات الذات: وجد السلطان المريني يعقوب نفسه مضطرا في الرابع من شوال من سنة 670ه/ماي 1272م،لاسترداد مدينة سلا من أيـــدي القشـــتاليين الذين غزوها بأساطيلهم وسيطروا عليها وقتلوا العديد من رجالها، ولم يخرجوا منهـــا إلا

1.ابن خلدون العبر،ج7، ص236، الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3، ص38، ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب، ص301.

بعد أن حاصرتهم القوات المرينية لمدة أربعة عشر يوما، وبعد استردادها قام السلطان يعقوب بتحصينها وبناء السور الغربي الذي نفذ منه الاسبان مساعدا في ذلك بيده أيضا[1].

وبوصول الخبر إلى السلطان يعقوب بما يقوم به العدو -أي قشتالة- من استعداد لغزو بلاد الأندلس، اعتزم على الغزو بنفسه، وحتى يأمن جانب يغمراسن بن زيان، فإنه بعث حفيده -تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب- في وفد لعقد السلم معه، ليتوغل هو في الأراضي القشتالية، حتى بلغ نهر الوادي الكبير، وعقد هناك لولده الأمير يوسف على قوة عسكرية قوامها خمسة آلاف فارس[2]، فسيطر على بسائط -الفرنتيرة -جنوب غرب مملكة غرناطة وأراضي نهر الوادي الكبير وعاث فيها ووصل إلى أحواز قرطبة، وامتلأت أيدي المرينيين بالغنائم والأسرى[3].

وعند اقتراب الجيش المريني من مدينة أستجه وافاه النذير بإقبال -دون نونيو دي لارا -[4] صهر الملك القشتالي، وعلم السلطان يعقوب أن القشتاليين جمعوا له جيشا عظيما مكونا من تسعين ألف مقاتل، حينها وضع الأسرى والغنائم داخل الخطوط الخلفية عند مدينة أستجة حتى لا تقع في يد النصارى أو تعيق حركة جيشه[5]، فعقد حينها مجلس شورى مع أشياخ بني مرين ليتدارس معهم كيفية مواجهة تلك الأعداد الهائلة من جند النصارى، لكن رغم كل تلك الحشود إلا أن السلطان المريني انتصر انتصار باهرا يعود السبب فيه إلى ما قام به من حشد لقيم الدين والجهاد وفضائله في نفوس جيشه[6]، فكانت النتيجة أن قتل القائد دون نونيو وبعث الأمير يعقوب برأسه بعد أن احتزه إلى ابن

---

[1]. انظر،ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب، ص301،الوزان ج1،ص208.

[2]. انظر،ابن أبي زرع ،الذخيرة السنية،ص146.عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7، ص193.

[3].الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج3،ص40.-41.

[4].في الأصل ذي نونه، ويكتبه المؤرخون المغاربة، ذ نونه، والذي كانت النصارى تفتخر به لأنه لم ينهزم قط انظر ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص316. تعني في لغتهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك،الناصري السلاوي،المصدر السابق، ج3، ص41.

[5] .الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج40-41.

[6] .ابن أبي زرع،الأنيس المطرب،ص317-318.

الأحمر، والذي بعث به بدوره إلى الملك ألفونصو، كما فقد القشتاليون ثمانية عشر ألفا من فرسانهم وجندهم ولم يخسر المرينيون سوى اثنين وثلاثين مقاتلا فقط[1].

استمرت الحرب سجالا بين الطرفين إذ عاد يعقوب المريني في جمادى الأولى من سنة 674ه/أكتوبر 1275م ليقوم بغزوته الثانية منطلقا من الجزيرة الخضراء،غازيا اشبيلية[2]حاضرة القشتاليين ودار ملكهم، فنزل عليها بموضع يعرف بالماء المفروش[3] وشن الكثير من الغارات في أحوازها وأثخن القتل والنهب في جهاتها، ولما وقف على بابها تحصن أهلها داخل الأسوار[4] لينتقل بعدها إلى شريس ففعل فيه ما فعل في اشبيلية، ورجع بعدها قافلا إلى الجزيرة الخضراء مثقلا من شدة السبي والغنائم بعد شهرين من بداية الغزو[5].

لم تتوقف الاصطدامات بين الطرفين، ففي الثامن والعشرين من محرم سنة 676ه/حزي1277م ارتحل يعقوب المريني من جديد إلى الجزيرة الخضراء أين أقام بضعة أيام ليرتحل بعدها إلى رندة، أين تقاطرت عليه القوات والمدد من بني أشقيلولة فواصل بجيوشه المسير حتى وصل إلى أحواز اشبيلية، فقابله ألفونصو العاشر[6] (1252-1284م) بقواته على ضفة الوادي الكبير في استعداد كبير بكل أصناف الأسلحة والدروع بما يدهش الأذهان[7]، وعند تقدم الجيش المريني هال القشتاليين عدده وبأسه وإقباله على الموت والقتال، فاضطروا للإدبار فرارا نحو الوادي الكبير أين سقط عدد

---

1. انظر ابن أبي زرع، الأنيس المطرب،ص318، انظر أيضا،الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص40-41.
2. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص41-42.
3. ابن أبي زرع،الأنيس المطرب، ص321.
4. الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص42.
5. نفسه،ج3،ص42.
6. كان يلقب بالعالم والحكيم ملك النصرانية ،انظر ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب،ص323.
7. انظر ابن أبي زرع،الأنيس المطرب، ص 324،انظر أيضا ابن خلدون،العبر،ج7،ص196.

كبير منهم بين قتيل وجريح، ومن قطع الوادي لاحقه المسلمون عوما وقتل في لجته الغزيرة، حتى صار لون مياه النهر أحمرا[1].

إن هذا النصر العظيم الذي حققه السلطان يعقوب المريني لم يكن نهاية لمشواره العسكري أو الحربي ضد القشتاليين، إذ توجه في السنة ذاتها وتحديدا في الخامس والعشرين من ربيع الثاني/سبتمبر إلى شريس مثخنا في أحوازها في حين ولى إبنه الأمير يوسف مع ثلاثة ألاف فارس للإغارة على حصون إشبيلية وحصون الوادي الكبير ثم قفل راجعا إلى الجزيرة الخضراء[2].

إذن كما أسلفنا فقد أصبحت الحروب سجالا بين الطرفين فأصبح السلم هو الذي يندلع وليس الحرب على حد تعبير عطا الله دهينة[3]، فلا تكاد تنتهي حملة حتى تتلوها أخرى و خاصة من الطرف المريني الذي كان كل ما رجع من حملة منتصرا و غانما أحس بتراجع قوات قشتالة واستشعر من جانبه القوة، ومن ثمة يسارع ويضاعف من عملياته العسكرية.

ففي غرة شهر جمادى الأولى سنة 676ه /1277م، وافاه محمد الفقيه ابن الأحمر بجيوشه بناحية شذونة، بعد أن كان يعقوب المريني قد حرك في نفسه عرى الحمية الدينية و بين له نوايا الأسبان الحقيقية بقوله((إن خروجك معي إلى قرطبة يكون لك مهابة في قلوب الفرنج

ما عشت سوى ما تستوجبه من الله تعالى من الثواب في ذلك))[4]، ونظرا لما أحرزه الطرف المريني من انتصارات، باستيلائه على حصن بني بشير[5]، ودخولهم حصون

---

1. ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب،ص324.

2.ابن خلدون،العبر ،ج7،ص196.

3.عطا الله دهينة،الجزائر في التاريخ، ص472.

4.الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص47.

5. حصن منيع بالأندلس بينه وبين قرطبة ثمانون ميلا، يقع على صخرة صماء تحيط به الجنان المختلفة الأشجار والمياه المتدفقة،انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس،ص37.

أراجونة ومدينة جيان القشتالية[1]، حينها جنح ألفونصو العاشر بعد أن أدرك ما حاق ببلاده من دمار و ما رآه من تستر جنده خلف الأسوار إلى السلم وطلب الصلح من السلطان يعقوب، وبعث القساوسة والرهبان للوساطة في الأمر، فقبل يعقوب الصلح وأوكل مهمته إلى السلطان الغرناطي محمد الفقيه في رمضان سنة 676ه/ كانون2- 1278م و اعتبر نفسه ضيفا في بلاد الأندلس بقوله لوفد الفرنج ((إنما أنا ضيف، والضيف لا يصالح على رب المنزل))[2] فاتجهوا حينها إلى ابن الأحمر قائلين ((جئناك لنعقد معك صلحا مؤبدا لا يعقبه غدر و لا حرب وأقسموا له بصلبانهم))[3] ونظرا لما في الصلح من مصلحة لأهل الأندلس فقد عقد في أواخر شهر رمضان من نفس السنة[4].

إذن لم يكن الصلح الذي عقد بين الطرفين سوى صلحا تكتيكيا من الجانبين، وخاصة من الطرف القشتالي الذي رأى في مواصلة القتال انتحارا، إذ وبعد مدة وجيزة، أي في بداية سنة 678ه/1279م، تحرك الأمير يوسف بن يعقوب بأساطيله نحو جبل الفتح، أين تلاحمت مع أساطيل قشتالة التي تؤازرها أساطيل أراغون فبلغ عددها أربعمائة قطعة، ورغم ذلك فقد هزم الأسطول النصراني وأسر قائده[5].

كان السلطان يعقوب المريني يتابع عن كثب كل التطورات مستغلا ذلك في خدمة قضيته، فحينما ثار سانشو وجماعة من النصارى الموالين له،على أبيه ألفونصو العاشر لظنه بأنه شاخ ولم يعد باستطاعته تدبير أمور المملكة[6]، لم يتوان عن تقديم المساعدة له[7]، له[7]، فعبر بقواته المتوسط في ربيع الأول من سنة 681ه/1282م، وبوصوله إلى الأندلس

---

[1].عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7،ص196،الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج3،ص47.

[2].الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3، ص47.

[3]. نفسه،ج3، ص47.

[4]. نفسه،ج3، ص48.

1.ابن أبي زرع،الأنيس المطرب ،ص331-341

[6].يذكره الناصري السلاوي بهراندة،المصدر السابق،ج3،ص55، ويذكره ابن الخطيب بالفنش بن هراندة وابنه شانجة ،انظر لسان الدين بن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة ،ص564.

[7]. انظر لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ص564.

الأندلس استقبله الملك ألفونصو بصخرة عباد على مقربة من رندة[1] فجاءه ذليلا و قدم لـــه تاجه الملكي رهنا، فلم يزل بدار بني عبد الحق لهذا العهد وأمده السلطان المريني بالمـــال اللازم لمواجهة إبنه المتمرد[2]، لكن رغم هذا الدعم إلا أن السلطان المريني استغل تواجده بالمنطقة للتوغل في الأراضي القشتالية بمعية سانشو فحاصر قرطبة ثم تقدمت ســـراياه إلى جيان فافسدوا زروعها، ومنها ارتحلوا إلى طليطلة فخربوا عمرانهـــا، إلـــى أن بلـــغ حصن مجريط[3] ليقفل بعدها راجعا إلى المغرب[4].

ربما كان السلطان يعقوب يهدف من وراء هذا إلى ثلاثة أمور أساســـية، أولهـــا والذي يبدو مستبعدا هو أن يأمن جانب سانشو بوقوفه إلى جانبه لأنه سبق وأن عقد الصلح بينهما وانتقض، أما الثانية فهي تدمير عدو مرتقب قد يخلف أباه في حكم قشتالة وتقويـــة النزاع والحقد بينهما،أما الثالث فهو تخريب ما أمكـــن مـــن قـــدرات وطاقـــات قشـــتالة الاقتصادية التي قد تدعم وتقوي الجانب العسكري لها، وهذا ما يتأكد من خلال الخطـــوة الموالية للسلطان المريني يعقوب في عبوره الثالث، إذ راح يفسد الزروع ويقطع الأشجار في كل المناطق التي يحل بها مثل شريس ووادي لكة[5] واشبيلية التي صودرت حيواناتهـــا وحصدت زروع بسائطها و أحرقت ونسفت[6].

---

[1].انظر عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7،ص250.انظر أيضا الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3ص5

[2]. انظر عبد الرحمن بن خلدون العبر،ج4،ص183. انظر أيضا السلاوي،ج3ص55.

[3]. مجريط مدينة بالأندلس، بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن وهي تقريبا آخر حيز للإسلام، تمتاز بتربتها الفريدة التي التي كانت تستخدم في صنع البرام أوالأواني المستعملة في الطبخ كما تمتاز بحصنها الجليل المتين، انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس،صص179-180.

[4].الناصري السلاوي ،المصدر السابق،ج 3،ص55-56.

[5]. وادي لكة موضع من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي ،فيه التقى طارق بن زياد زجموعه مع لذريق طاغية الأندلس آخر ملوك القوط ،انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص193.

[6]. انظر ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب،ص342،انظر أيضا الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص59.

بتولي منصور بن عبد الواحد حفيد السلطان يعقوب قيـــادة جــزء مــن الجــيش المريني المتكون من ألف فارس من بني مرين والغز وعرب عاصم والخلط والأثبج[1] بعثه إلى غزو إشبيلية يوم الأحد 29 صفر من سنة 684 ه/ 1285م وكان الانتصار حلــيفهم فغنموا منها الكثير، ثم أرسل به بعدها إلى وادي لكة، فقتلوا الكثيــر وخربــوا وحرقــوا الزروع واقتلعوا الثمار وحطموا العمران[2].

بعد ذلك هاجم الأمير أبو زيان منديل إبن السلطان يعقوب منطقة الوادي الكبير بجيش مكون من خمسة آلاف من عرب بني جابر أهل تادلا الذين يقودهم كبيرهم يوســف ابن قيطون وأمره باقتحام قرمونة[3]، التي لستسلمت بعد أن تحصنت واستماتت في الدفاع، لينتقل بعدها إلى اشبيلية ويقتحم برج مراقبتها الذي كان عينا على المسلمين، وأضرم النار به ومنه رجع إلى معسكر شريس، ليستعد لاقتحام جزيرة قبتور[4] ففتحوها عنــوة وفكــوا الحصار عن شريس، حينها أدرك سانشو ملك قشتالة أنه لا قبل له بــالجيوش الإســلامية ليجنح كعادته إلى السلم، فوافقه السلطان على ذلك لكن بشروط[5].

من هنا يمكن أن نقول بأن العلاقات المرينية القشتالية تميزت على عهد يعقــوب المريني بالتوتر والصدام،إذ رغم أنه أنهى عملياته العسكرية في المنطقة، إلا أنه وضع في حسبانه تجدد الحرب في أي لحظة، ولذا نجده يعقد لإبنه زيان على الثغور الحدودية مــع

---

[1]. الناصري السلاوي ، المصدر السابق،ج3،ص59.

[2]. نفسه،ج3،ص59.

[3]. قرمونة مدينة بالأندلس،في الشرق من اشبيلية،بينها وبين أستجه،خمسة وأربعون ميلا وهي مدينة كبيرة وقديمة أما أصلها فهو لاتيني،((كارب موية)) والتي تعني صديقي.انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص158.

[4]. قبتور قرية من قرى اشبيلية ،يصلها نهر اشبيلية الذي استغلته شياطي الروم الغربيين سنة 623ه فأسروا الناس وحرقوا القوارب وغلبوا أهلها واستباحوا نسائها.انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص149.

[5]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص 6061، انظر، عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج 7، ص208-209.

بني الأحمر وينزل عياد العاصي بأسطبونة[1]،كما عقد لأخيه أبي عطيـــة العبـــاس علـــى الثغور الغربية وأبقى في الأندلس على ثلاثة آلاف مقاتل[2].

ب/مرحلة الفوضى وعدم الاستقرار المريني:

وقد شمل عدم الاستقرار أوضاع بني مرين الداخلية من جهة والعلاقات المرينية القشتالية من جهة أخرى، فعلى عهد السلطان يوسف بن يعقوب (685-706ه/1286-1306م) الذي لم يدرك وفاة أبيه[3] استمرت العلاقات بين مد وجزر، فتارة يعقد الصلح ويعم السلم وتارة يدب الخلاف وتندلع الحروب، فبعد وفاة أبيه ومبايعته بالجزيرة غرة صفر سنة 685ه/ 1286م واجتماعه مع ابن الأحمر بمربالة ربيع الأول سنة 685ه قصد مصافاته وانتزاع الشكوك التي طالما ساورته، جاءه وفد من سانشو لتجديد عقد السلم الذي كان قد أقامه مع أبيه يعقوب، لكن رغم ذلك لم يأمن الجانب القشتالي لأنه قبل أن يغادر منها إلى المغرب وضع كل الاحتياطات والتدابير العسكرية تحسبا لأي عمل عسكري مفاجئ قد يقوم به سانشو[4].

والحقيقة أنه كان يدرك كما كان سانشو أيضا يدرك أنه لا سلام دائم بـين مـن يحاول منع تقدمه لتحرير ما تبقى من بلاد الأندلس، وبين من يصر علـى اسـترداد كـل الأراضي التي بحوزة المسلمين، ولذا فقد أغار سانشو سنة 690ه/1291م على الأراضي الأندلسية في الوقت الذي كان فيه السلطان في غزوة لتلمسان علـى عهـد عثمـان بـن يغمراسن سنة 689 ه/1290م[5] فيكون بذلك قد نقض العهد الذي كان بينهما، فبرجوعـه من تلمسان أخبر بذلك، فأوعز إلى قائد المسالح بالأندلس علي بن يوسـف بـن يزكـاتن

---

[1] .عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7،ص210.

[2].الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3، ص66-67 العودة لصفحة151

[3].لأن يعقوب توفي بقصره من الجزيرة الخضراء بسبب المرض كان ابنه بأحواز فاس ولما بلغه خبر مرض أبيه أسرع الى طنجة لكن الأجل وافى أباه قبل وصوله،انظر الناصري السلاوي،ج3،ص66. مكرر

[4].الناصري السلاوي، المصدر السابق ،ج3، ص66.

[5]. نفسه،ج3، ص69.

بدخول الحرب ومنازلة شريس، ومن ثمة شن غارات على بـاقي الأراضـي القشـتالية، وبعبور السلطان إلى الأندلس من تازا لموافاة قائده، بعث سانشو أساطيله إلـى الزقـاق قصد اعتراض سبيل المرينيين الذين يريدون العبور إلى العدوة الأندلسية، ورغم تضـرر الأسطول المريني إلا أن السلطان يوسف أصّر على مواصـلة القتـال إلـى أن أخلتـه الأساطيل القشتالية[1].

بعد ذلك عزم السلطان يوسف علـى العبـور بنفسـه إلـى الأنـدلس فـي أواخـر رمضان690ه/1291م رمضان وعزم السلطان يوسف على العبور بنفسه إلـى الأنـدلس فغزا حصن بجير لمدة ثلاثة أشهر ثم توجه نحو شريس وأشبيلية شريس ونواحيها ليعود إلى المغرب بعد حلول فصل الشتاء أوائل سنة 691ه/[2] 1292م وينقلب عليه ابن الأحمر بمحالفته لسانشو وإمداده بما يحتاج من مؤن وأسلحة لجنوده، فكان ذلك سببا فـي ضـياع طريف من المسلمين كما أسلفنا لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات السلمية السلبية إن صـح التعبير، لأن السلطان يوسف انقطع عن الجهاد بالميدان الأندلسي بسبب انشغاله بحصـار تلمسان واشتغال حفدته من بعده بالأوضاع الداخلية لمملكته، وهذا مـا أدى إلـى ظهـور تكالب وجملة من التحرشات والتطاولات النصرانية[3]، والقشتالية بالأخص ضد الأراضـي الإسلامية بالأندلس ومن ذلك مهاجمتهم لجبل الفتح والاستيلاء عليه ثم محاولة السـيطرة على الجزيرة الخضراء الفاشلة والتي انتهت بعقد الصلح بين المرينيين وبني الأحمر مـن جهة و أراغون وقشتالة من جهة أخرى.

وفي سنة 718ه/1318 هاجمت القوات القشتالية بقيادة الدون بيدرو *Don Pedro* والدون خوان *Don Juan* الوصيان على عرش ألفونصو الحادي عشر (1312-1350) بمشاركة فرقة من المتطوعين الانجليز وبمباركة البابا المقيم في طليطلة الذي ذهب إليه

---

[1]. الناصري السلاوي،ج3، ص70.

[2]. نفسه،ج3، ص70.

[3]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص108.

دون بطره–بيدرو– *Don Pedro* إبن سانشو وطلب منه الدعاء له وللحملة بالقضاء على المسلمين واستئصال شأفتهم وقد انضم إليه ملوك آخرون من مناطق أخرى مدججين بكل أنواع الأسلحة والمؤن في جيش بلغ تعداده خمس وثلاثون ألفا من الفرسان ونحو مائة ألف من المشاة المقاتلين[1]، فالتقى الجيشان بعد شروط اشترطها السلطان المرينى أبو سعيد عثمان[2] لكن وبمحاولة جريئة وشجاعة استطاع عثمان بن أبي العلاء مع حوالي المائتين أو أكثر أن يباغت

النصارى ويقتل القائدين اللذين ظنا أنه قادم لأمر غير القتال فتراجع الجند ولاحقهم المرينيون يقتلون ويأسرون فكان من بين أولئك الأسرى زوجة سانشو وأولاده، وقتل الطاغية وعلق على باب غرناطة لمدة سنين ليطلب القشتاليون الصلح[3].

أما السلطان أبو الحسن المريني فبعد أن فرغ من شأن عدوه ابـن هيـدور الجـزار[4]، تجددت على عهده الاشتباكات والمعارك مع مملكة قشتالة، ففي سنة 740هـ/1339م أعطـى الأوامر لابنه الأمير أبي مالك القليل الخبرة في المجال العسكري، لاستباق الخطر أو بمعنى آخر إعلان حرب وقائية أو احترازية ضد قشتالة وذلك بمهاجمة أراضيها المحاذية للجزيرة الخضراء، فتوغل فيها غازيا وخرج بمغانم كثيرة، لكنه أخذ على حين غرة وقتل من طرف النصارى، فلما بلغ أبا الحسن الخبر جهز جيشا عظيما وطلب العون مـن بنـي حفـص[5]، وارتحل إلى سبتة، و كان ملك قشتالة يدرك كل ما يدور في الأراضي المغربية ويتوجس من

---

[1]. الناصري السلاوي ، المصدر السابق، ج3، ص108.

[2]. منها تسليمه أو تمكينه من عثمان بن أبي العلاء الذي يتولى قيادة مشيخة الغزاة بالأندلس حتى يتأتى له العبور والجهاد ضد العدو دون تشويش، لكنهم فشلوا في ذلك لشدة بأسه وبأس عشيرته.انظر الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج3، ص109.

[3] . الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج3،ص109،انظر ابن خلدون،ج7،ص149.

[4] .أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان جزارا في مطبخ السلطان أبي الحسن وكان شبيها بابي عبد الرحمن ابن السلطان الذي أودعه السجن فلحق ببني عامر الذين كانوا خارجين عن طاعة السلطان وأوهمهم بأنه هو ،ومن ثم نظم الثورة ضده. الاستقصاء،ج3،ص133.

[5]. لبى الحفصيون طلب أبي الحسن فأرسلوا له ستة عشر أسطولا بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية ،انظر الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص135.

هجوم قد يأتي في أي لحظة، فأعد لذلك أسطولا في مضيق جبل طارق ليمنع عملية العبــور ودعمته في ذلك كل من أراغون والبرتغال بقيادة الدون –جوفري تنوريو– وبمباركة الحبـر الأعظم، ورغم ذلك فقد كان النصر حليف المرينين، إذ قتل من النصارى الكثير الذين فألقيت جثثهم في اليم وقتل القائد الملند[1].

لم يلبث أبو الحسن أن تلقى التهاني عن النصر فـي 60 شـوال 740هـ/1339م ليشرع في الجهاد، فنزل بساحة طريف وقاتل من بها لتلتحق به أساطيل أبو الحجـاج يوسف بن إسماعيل سلطان الأندلس فتعاون الجيشان على طريف ليجهز ملك قشـتالة أسطولا آخر يعترض به المضيق ويمنع وصول المدد إلى الجيش المريني ثم اسـتنفر أبناء ملته من النصارى ومنهم أهل البرتغال ليهاجموا المسلمين الذين اكتملت المـؤن عندهم بعد مكوثهم

بطريف ستة أشهر، ونتيجة لخطة عسكرية تمويهيـة وغفلـة العسـس فقـد لحقـت بالمسلمين هزيمة نكراء سنة 741هـ/1340م[2].

ج/عهد نفوذ الوزراء: ويمكن أن نسميها مرحلة المسالمة، فبعد هذه الهزيمة ساد الهدوء والسلام بين الطرفين وخاصة بعد وصول الوفد القشتالي لتهنئة أبي الحسن على فتح تونس[3]،أما على عهد أبي عنان فقد ارتسمت ملامح سياسة خارجية جديدة، طبعت بعلاقات الود مع الأمم النصرانية التي انعكست على جميع الميادين الاقتصادية –ثقافية –دبلوماسية، ولم يكن هذا التحول نتيجة لضعف من بني مرين على المستوى العسكري وإنما نتيجة لما انعكس على هذه الدولة من قوة وخاصة على المستوى

---

1. نفسه،ج3، ص136.انظر أيضا عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7،ص261.
2. نفسه،ج3، ص136.
3. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج3،ص136.

العسكري مما جعلها مهابة الجانب تسارع الدول النصرانية إلى كسب ودها[1]، عكس من يقول بأن لجوء المغرب إلى الزاد الدبلوماسي هو ضعفه على المستوى العسكري.

وظلت العلاقات على تلك الحالة باستثناء بعد الحوادث الهامشية التي كانت تعكر صفوها من حين لآخر، فقد استعان الأمير أبو الفضل (محمد بن أبي الحسن)شقيق السلطان أبي عنان فارس بملك قشتالة من أجل القضاء على أخيه والاستيلاء على العرش، وفعلا فقد نزل القشتاليون عند طلبه بتجهيز أسطول وضعوه تحت تصرفه وأنزلوه ساحل السوس ولحق الأمير الثائر بجبل سكسيوة[2]، لكن محاولته باءت بالفشل وتم القبض عليه وقتله سنة 755ه/1354م[3].

بتراجع مكانة السلاطين المرينيين وبداية عصر نفوذ الوزراء،[4] انقلبت الموازين، إذ بعدما كان المرينيون هم الذين يغزون الأراضي النصرانية ويحققون الانتصار تلو الانتصار، أصبحوا هم عرضة للتدخل في شؤونهم السياسية الداخلية، ومن ذلك قيام بيدرو الأول بمحاولة للإطاحة بالسعيد بالله بن أبي عنان في سنة 759ه/1359م وتنصيب أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن[5]، إذ حمله إلى بر العدوة ليطلب ملك أبيه وألقى به المركب في ساحل بلاد غمارة مقابل منحهم ضمانات

---

[1].انظر ابن الحاج النميرى، المصدر السابق، ص 103 و ما يليها .

[2]. جبل من جبال درن بالقسم الغربي من جبال مراكش شديد الارتفاع والبرودة تغطيه غابات كثيفة وتغطيه الثلوج طيلة أيام السنة، وتسكنه قبيلة سكسيوة ،ابن خلدون ،العبر، ج7، ص388، الوزان، المصدر السابق،ج1، ص140.

[3]. ابن خلدون،المصدر السابق،ج7،ص388-389.

[4]. يطلق هذا الاسم على الفترة التي أعقبت مقتل السلطان أبي عنان،والتي شهد فيها المغرب تحولا كبيرا في نظامه السياسي لأن السلطة الفعلية في الدولة كانت بيد الوزراء، وهذا ما أحدث خللا في جهاز الحكم، فبعدما كان أولئك الوزراء أدوات لتنفيذ الأوامر السلطانية أصبحوا هم أصحاب القرار، فكان ذلك مؤشرا ودلالة واضحة على انتهاء عصر القوة في الدولة المرينية و بداية مرحلة الضعف والانهيار والسقوط.

[5]. كان ضعيف الشخصية ومغلوبا على هواه يغلب عليه الحياء،ولذا فقد القي بزمام الدولة الى أبي عبد الله بن مرزوق الخطيب ولذا كلن ممقوتا من حاشيته مات مقتولا –مذبوحا– فقطعت رأسه يوم الخميس 21 ذي القعدة سنة 762ه. الناصري السلاوي،المصدر السابق، ج4،ص37 وما يليها.

بالوقوف إلى جانبهم ضد مملكة أراغون[1]، وقد تم له ذلك فبعد أن حشد المبايعين حوله، سار بهم إلى البلد الجديد -المدينة البيضاء--فاس-في منتصف شعبان من سنة760ه/1360م[2]، لكن صديق اليوم قد يتحول إلى عدو في الغد، فقد أعطى أبو سالم المريني حق اللجوء السياسي للملك الغرناطي الغني بالله المخلوع ببلده، فطلب منه ملك قشتالة إن يسلمه إياه قصد إرجاعه إلى عرش غرناطة ، فرفض أبو سالم طلبه لتنشب أزمة سياسية بينهما هدد من خلالها بيدرو الأول بالحرب والاستيلاء على ما يمتلكه المغرب من قواعد بأرض الأندلس، ليرضخ بعدها أبو سالم إلى طلبه ويسلمه الغني بالله، ومن مظاهر ذلك التدخل أيضا مساعدة القشتاليين للاجئهم أبي زيان محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن على تولي الحكم[3]، ليوطد بعدها علاقاته مع ملك قشتالة -بيدرو الأول- من باب رد الجميل وهو الذي أوفد إليه عبد الرحمن بن خلدون سفيرا، حيث أحسنت وفادته وطلب منه المكوث باشبيلية إلا أنه آثر العودة إلى مدينة فاس المغربية [4].

رغم هذا التقارب بين المملكتين نتيجة الخدمة التي أسداها بيدرو الأول للسلطان المريني أبي زيان إلا أن التصادم بينهما تجدد على عهد السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن[5] 767-774ه/1365-1372م الذي عقد العزم على استرجاع الجزيرة الخضراء المحتلة منذ 744هـ/1343م وتم له ذلك بعد محاصرتها ومنازلتها[6].

---

[1]. الناصري،المصدر السابق،ج4، ص7-8.

[2]. نفسه،ج4، ص8.

[3]. المقري، المصدر السابق،ج8، ص119. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص317-318).

[4]. عبد الرحمن بن خلدون،المصدر السابق،ج7، صص411-412.

[5]. هو عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن،استدعي للحكم بعد أن كان مفيما بقصبة فاس تحت الرقباء والحراسة من الوزير لما كان السلطان محمد يريد الفتك به غيرة منه على الحكم أو الملك، وبعد جلوسه على العرش ، بدأ بتنظيم أمو مملكته ليشرع في مقاتلة أعدائه ومنهم عامر بن محمد المعتصم بجبل هنتاتة.انظر ابن خلدون، المصدر السابق،ج7،ص 428.

[6]. نفسه،المصدر السابق،ج7، ص434.

أما عبد الحق بن أبي سعيد عثمان المريني 823-829ه/1420-1465م فقد رضخ لمطلب القشتاليين الذين أرسلوا إليه سفرائهم يطلبون منه عدم التدخل في شؤون غرناطة أو صد أي هجوم عنها[1].

من هنا ندرك مدى الضعف الذي بلغه المغرب المريني، فبعد أن كان يأخذ المبادرة في الهجوم والغزو[2]، وبعد أن كان منصّبا نفسه حاميا للأراضي الأندلسية أصبح في موقف الضعيف الذي تسدى إليه الأوامر بأن لا يتدخل في أمور بعيدة عنه كانت بالأمس لب اهتماماته وسر استمراريتة وقوته، فكانت كما يبدو قد بلغت القمة على عهد أبي عنان فخلدت للراحة والدعة وتلذذ حكامها الطيبات ليبدأ صرحها بعد ذلك في التداعي.

فكان سقوط جبل الفتح (جبل طارق سنة 867ه/1463م إيذانا بانقطاع حبل الجهاد ضد النصارى الأسبان لتترك غرناطة تواجه مصيرها لوحدها ولم يكن هذا التراجع عن المبدإ نتيجة لضعف عسكري وإنما نتيجة لضعف الشخصيات والهمم لدى ملوك بني مرين .

ب/ علاقات ديبلوماسية: كان هامش أو نصيب العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين ضئيلا جدا اللهم إلا في بعض الحالات التي أشرنا إليها سابقا، وربما يعود السبب في ذلك إلى حدة العلاقات العدائية وانعدام الثقة بينهما لتداخل المصالح، فكلاهما كان يؤمن بدوره الديني والسياسي تجاه الأندلس، فالمرينيون يروا أن الواجب الديني يحتم عليهم الوقوف الى جانب ما تبقى من بلاد الأندلس الإسلامية والتقدم إلى غيرها من الأراضي التي استردها النصارى، بينما يرى القشتاليون أيضا أن واجبهم المقدس يحتم

---

[1]. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ع4، ص158.

[2]. للسلاوي قول في هذا الشأن((لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده أو طرق ثغر من ثغوره أو الاستيلاء على شيء من سواحله ولم يكن أهله أيضا يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم ويحامون عن بلاد الأندلس وسواحل افريقية.انظر الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج4،ص109.

عليهم استكمال حلقات حروب الاسترداد بافتكاك غرناطة آخر معاقل المسلمين في المنطقة.

ومن المعاهدات المسجلة بين المرينيين وقشتالة نذكر تلك التي تمت على عهد السلطان أبي الحسن المريني، ففي سنة 734ه/1334م و بعد استيلاء المرينيين على جبل طارق عقدت معاهدة صلح بين فاس و قشتالة وغرناطة مدتها أربع سنوات، وقد فوض يوسف الأول للسلطان أبي الحسن أمر إبرام هذه المعاهدة وقد انضمت أراغون إلى هذه المعاهدة فيما بعد، وبعد موقعة طريف التي هزم فيها المرينيون وبنو الأحمر،أصبح المرينيون وبنو الأحمر في موقف تفاوضي ضعيف، فحين حاول أبو الحسن وسلطان غرناطة الدخول في مفاوضات مع قشتالة رفضت هذه الأخيرة مقترحات المسلمين، ولم يعقد الصلح بين فاس وغرناطة و قشتالة وأراغون إلا بعد استيلاء قشتالة على الجزيرة الخضراء في سنة 745ه-1344م، وكانت مدة المعاهدة عشر سنوات وتولى عقدها عن بني مرين السلطان يوسف الأول سلطان غرناطة، الذي فوض قائده ابن كماشة بمقتضى وثيقة وجهها إلى هذا القائد.

وفي سنة 751ه/1350م أبرمت معاهدة مدتها أربعة عشر شهرا بين بني مرين و أراغون، وجاء أبو عنان المريني بعد ذلك فأكد التزامه ببنودها وجدد المعاهدة المعقودة بين المرينيين وبين بيدرو الرابع ملك قشتالة لمدة خمس سنوات أخرى، وكان ذلك في سنة 759ه/1357م وكان خروج أي طرف على نصوص المعاهدة مدعاة إلى احتجاج الطرف

المتضرر من نقض المعاهدة، ففي سنة 760ه/ 1358م احتج بيدرو الرابع لدى أبي عنان المريني لعدم وفاء محمد الخامس سلطان غرناطة بنصوص الاتفاقية المبرمة بينهم[1].

وكانت آخر المعاهدات التي أبرمت بين المرينيين وقشتالة تلك التي عقدت سنة 816ه/1413م وقد جرى تجديدها والعمل بها سنة 817ه/1414م والسنة التي تلتها.

---

[1]. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ص239-240.

3-مع البرتغال:

أ-عسكرية عدائية:

تميزت العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى ومملكة البرتغال بالتوتر وعدم الاستقرار فمنذ ظهورها على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية كانت تداعبها أحلام السيطرة الاستعمارية بفضل أساطيلها القوية والتي تجاوزت حدود المنطقة إلى ما وراء البحارمن خلال محاولاتها الرامية إلى سبر مجاهل البحر المحيط واللسيطرة على السواحل الغربية للقارة الافريقية[1]، لا سيما في الفترة التي أصبحت السلطة تخرج من أيدي السلاطين إلى أيدي الوزراء والحجاب في المغرب، وضعف اهتمام حكامه بالأساطيل البحرية، في الوقت الذي كان جنس البرتقال قد كثر بعد القلة واعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الأقطار وسما إلى تملك الأمصار على حد تعبير الناصري[2].

إن التصادم بين البرتغال والمغرب الأقصى جاء متأخرا مقارنة مع القوي النصرانية الأخرى على غرار قشتالة و أراغون، وحسب ما توفر لدينا من مصادر نجد ابن الحاج النميري قد انفرد دون غيره من مؤرخي عصره بذكره لأول تماس وقع بين المغرب والبرتغال والذي كان في شهر أكتوبر من سنة حوالي 756ه/ 1356م في معركة -لاقش-*Lagos* التي كانت من أكبر المعارك التي عرفها التاريخ بين السلطان أبي عنان والملك ألفونصو الرابع، والتي انتصر فيها أبو عنان انتصارا عظيما، وهذا ما عبر عنه إبن الحـــــــــــــــــــاج النميـــــــــــــــــــري بقوله ((وأن خبر هذه المعركة قد تقدم في الديوان وأوردناه مشروحا على قواعد الإيضاح والتبيين))[3]، والواقع أن أول وأهم هدف استعماري للبرتغال في المغرب كان مدينة سبتة، فكانت تهدف دوما من خلال استيلائها عليها أن تحقق لنفسها امتدادا خارج البحار،بعد أن عجزت عن تحقيق ذلك داخل القارة وداخل

---

[1]. هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص95.

[2]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج4، ص92.

[3]. ابن الحاج النميري ،المصدر السابق،ص99.

شبه الجزيرة الأيبيرية، لأنها كانت قد بدأت تنتشر في الأقطار وتسمو إلى تملك الأمصار، وكذا كسب الحظوة لدى البابا الذي كانت كفتا الميزان تتأرجح لديه بين اسبانيا وبين البرتغال حسب العداوة التي تكن للمسلمين أو البقية الباقية منهم في بلاد الأندلس[1] ،كما أن المسيطر عليها سيظفر حتما بمنطقة إستراتيجية، إذ من خلالها سيتحكم في مضيق جبل الفتح (جبل طارق)الذي ظل جسرا لعبور الإغاثة المادية والعسكرية للممالك الإسلامية في الأندلس ناهيك عن الأهمية التي يكتسيها تجاريا بما تؤمه من سفن تجارية من جميع الأقطار.

إن هذا الحلم كان يراود زوجة -جان الأول- حتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة إثر الوباء الذي أصابها،إذ أوصت بأن تستمر محاولات الإحتلال إلى غاية إخضاعها، وهذا ما التزم به زوجها، إذ ما أن واراها الثرى، حتى أمر أبناءه بارتداء زى الحفلات والاستعداد لغزوها، فتم لهم ذلك بعد مقاومة عنيفة من أهلها لكن بمساعدة الخونة من سكانها، فكان أول عمل قاموا به هو تحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة وخربوا قصر العامل وحملوا إلى لشبونة مجموعة من أعمدته[2].

وفي عام 818ه/24 أوت 1415م استولى عليها أسطول ملك البرتغال بعد حصار دام ست سنوات[3]، وهرب من كان فيها ودخل النصارى بدون عناء، لكن ظلوا فيها متوجسين خوفا لمدة ثلاثة أسابيع، إذ توقعوا قدوم ملك فاس لنجدتها، ولكن أبا سعيد عثمان الذي كان وقتذاك ملكا على فاس لم يكترث باستعادتها تخاذلا منه،حتى أنه كان في وليمة راقصة عندما نقل إليه النبأ فلم يقطع الاحتفال[4].

---

[1] . الهادي التازي، المرجع السابق، ص160.

[2]. إبراهيم حركات، المرجع السابق،ص73.

[3]. هذا حسب تواريخ النصارى حسب ما أورده الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج4،ص110.

[4]. انظر،السبتي(محمد بن القاسم الأنصاري)،اختصار الإخبار بما كان بثغر سبتة من سني الاثار سبتة،ط2،تحقيق عبد الوهاب بن منصور،الرباط،1403-1983،ص76،75.

لقد استولت البرتغال على سبته سنة818هـ / 1415م- على عهد السلطان المغربي أبي سعيد بن أحمد، وملك البرتغال جوان الأول - غدرا حسب ما أورده الناصري[1]، وذلك بعد أن حطوا أربعة آلاف صندوق بمرسى سبتة يوهمون أن بها سلعا وأنزلوها بالمرسى، وكان في كل منها شاب مسلح فخرجوا منها ثم استولوا على المدينة[2]، هذا ما ينقله عن صاحب نشر المثاني، الذي يقول بأن عدد قطع الأسطول البرتغالي بلغت مائة وعشرون،أما هو فيقول بأن عملية الاحتلال تمت بعد محاصرة طويلة لها من جهاتها الثلاثة، والظاهر أنهم استخدموا الطريقتين معا[3].

ولم تكن آمال البرتغاليين لتقتصر على إخضاع ميناء واحد بل كان هدفهم احتلال بلاد المغرب الأقصى قاطبة قصد إيجاد موطئ قدم لها في الطريق نحو السيطرة على منابع الذهب وتجارته الرابحة، فبعد سيطرتهم على سبتة راودتهم فكرة الاستيلاء على طنجة، إذ طلب ادوارد الأول ملك البرتغال في سنة841ه/ 1437م من البابا أن يمده بقوات صليبية للاستيلاء عليها، فتجمعت في لشبونة ثم تحركت للزحف عليها برا و بحرا لكن الدفاع المستميت لأهلها بقيادة صالح بن صالح وبمؤازرة أبي زكرياء يحيى الوطاسي الذي انقض على الجيوش البرتغالية أدى إلى استسلام الفرقة مع قائدها، فأنقذ طنجة من احتلال وشيك،فقبل المغرب بانسحاب الجيش البرتغالي مقابل تسليم سبتة وترك فرديناند رهينة، لكن الكنيسة والحكومة البرتغالية رفضت التسليم والرهن[4].

---

[1]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج4،ص92.

[2]. ابن الطيب (أبي عبد الله محمد)،نشر المثاني في أعيان القرن الحادي عشر والثاني،مخطوط، ج1، ورقة 156-157، انظر أيضا.الناصري ،ج4،ص92.

[3]. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ- من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين-ط1،مجلد2،دار الرشاد الحديثة ،الدار البيضاء،1978،ص72.

[4]. إبراهيم حركات،المرجع السابق، ص75.

وفي السنة الموالية أوحى ألفونصو الخامس ملك البرتغال الملقب ب-الإفريقـــي إدوارد- إلى إبنه- دم فرناندو Don Fernando بالزحف على مدينة طنجة سنة 841هـ/1438[1] بعدد كبير من الجند المنظم تحميهم المراكب والسفن فأمدها أمير فاس فورا بعدد من الفرســان والمشاة إلا أنه بعد معارك عديدة قتل فيها الكثير من النبلاء البرتغاليين أبرم الأميــر دون فرناندو والملك المغربي معاهدة، تعهد بموجبها هذا الأخير بأن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين، وتعهد الآخر بأن يرجع سبته، ولما لم يستطع إنجاز شيء آخر بقي رهينة هذا الاتفاق إلى أن صادق ملك البرتغال ونفذه، لكن يقال أنه هو نفسه حذر مــن الوفــاء بــه مفضلا أن يموت في الأسر على أن يرى المسيحية تفقد مفتاح المضيق، وهذا ما تسبب له في إن يعامله ملك فاس معاملة سيئة إذ مرض ومات في السجن[2]، لتنسف حظوظ الســلم بين الدولتين.

لقد حورت محاولة إخضاع طنجة الفاشلة التي عول عليها البرتغــاليون آمــالا عظيمة إلى حد ما سياسة البرتغاليين ومشاريعهم التوسعية بالقدر الذي اتضــح بــه أن هجوما مباشرا لن يضمن لهم السيطرة على المغرب الأقصى ولا على المسالك التجاريــة السودانية، ومن ثم اضطروا للبحث عن مسالك أخرى لبلوغ مصادر الذهب وكــانوا فــي الوقت ذاته يعلقون الأمل على أن يجدوا حليفا في جنوب المغرب الأقصى قــد يســاعدهم على اغتصاب جزء من أرض العدو المسلم، ومن ثم بدأت في شن سلسلة من الغــارات الانتقامية من طرف ملكها ألفونصو الخامس، فرسموا لأنفسهم بعدها هــدفا جديــدا وهــو استيلائهم سنة 863هـ/1458-1459م على قصر المجاز[3] المعروف بقصر مصــمودة أو القصر الصغير[4] بحجة أنها كانت منطلقا للسفن الحربية التــي كانــت تغــزو الشــواطئ

---

[1]. الناصري السلاوي، المصدر السابق،ج4،ص110.

[2]. مارمول ،المصدر نفسه،ج2،ص209.

[3]. الناصري السلاوي،المصدر السابق،ج4، ص110

[4]. مدينة صغيرة أسسها يعقوب المنصور على شاطئ المحيط على نفس المسافة تقريبا بين سبتة وطنجة في أضيق مكان بالبوغاز،فكان يذهب كل سنة ليحارب في اسبانيا، سنة ليحارب في اسبانيا ونظرا لان سبتة التي كان يبحر منها لم

المسيحية وإزعاجها الكبير للسفن المارة عبر المضيق، فهاجمها بسبعة عشر ألف محارب وبمائة وثمانين سفينة شراعية [1]، وقد كان بمعية أخيه –دم هنري –وحفيده –دم بيــدرو–، وقد أبلي فيها السكان بلاء حسنا رغم عدم تكافئ القوى، لكن ونظرا لإصــرار ألفونصــو على تحقيق الهدف واستعماله للسلالم والقصف المدفعي يئس أهل المدينة واستسلموا بعــد أن طلبوا المفاوضة والأمن على أرواحهم وأمتعتهم مقابل رد الأســرى المســيحيين، وأن يسلموا للبرتغاليين رهائن إلى غاية تسليم المدينة غداة غد[2].

وبعد سقوط القصر، قصد دون فيرناندو ولي عهد البرتغال مدينة أنفا[3] سنة 869ه/ 1465م[4] بنفس الحجة ألا وهي قيام سكان المنطقة بالقرصــنة فــي الشــواطئ المسيحية، وإحداثهم إتلافا بها[5]، على رأس خمسين سفينة عليها عشرة آلاف مــن الجنــد فاحرقوها و دمروها دونما مقاومة من أهلها،لأن السكان فروا بمجرد ما رأوا الأســطول البرتغالي دك أزالها من الوجود قبل أن يعود إليها ليجعل منها معقلا مــن معاقلــه عــام 1515م[6].

ب–دبلوماسية: أما عن الجانب الدبلوماسي للعلاقات المرينية البرتغالية، فيمكن رصد بعض الأحداث التي توضح الخطوط العريضة لها، فقد لجأت البرتغال إلى إرسال سفارة

تكن ملائمة لمرور الجيش فانه شيد هذه المدينة في مكان أكثر ملائمة لا يبعد عن ساحل اسبانيا إلا بثلاثة فراسخ،انظر مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص213.

[1]. كان ألفونصو يتأهب لغزو الأراضي المقدسة بطلب من البابا الذي كان يتزعمها آنذاك، ونظرا لاختلاف الأمراء المسيحيين بخصوصها، رأى بأنه أولى بأن لا يضيع ما بذله من عناء ونفقات. مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2، ص214.

[2]. مارمول كربخال،المصدر السابق، ج2، ص214.

[3]. أنفا أو أنافي ،من إقليم تامسنا أقصى أقاليم مملكة فاس من ناحية الغرب، تقع ما بين الرباط و آزمور على شاطئ المحيط بعيدةعن الأطلس الكبير باثنين وعشرين فرسخا وعن آزمور بعشرين وعن الرباط بثلاثة عشر فرسخا، مارمول كربخال، ج2، ص127،126.

[4]. السلاوي يقول بان عملية الاستيلاء حسب ما قرأ كان في حدود سنة 874هـ/انظر السلاوي،ج4، ص116.

[5]. مارمول،المصدر نفسه،ج2،ص128.

[6]. انظر،السلاوي ،المصدر السابق،ج4،ص116.انظر أيضا مارمول المصدر نفسه،ج2،ص128.

هامة سنة841ه/ 1437م لتفاوض ملك فاس بخصوص عقد الصلح، وقد قبل المغرب العرض البرتغالى، لكن على أساس إرجاع سبتة للتاج المغربي والتعهد في مقابل ذلك بتحرير القائد العسكري الأسير ومن معه من الجند، وقبل البرتغاليون في طنجة المقترح المغربي وانعقد الصلح فعلا بين الطرفين على ذلك الأساس بتاريخ 15 ربيع الثاني سنة841ه/16-أكتوبر 1437[1]، لكن القائد العسكري توفي في6 صفر 847ه/ 05 يونيو 1443م وهو بالمعتقل بمدينة فاس دون أن يقبل ملك البرتغال المصادقة على الاتفاقية، لتنسف حظوظ السلم بين الدولتين، الأمر الذي أدى إلى شن سلسلة من الغارات الانتقامية من طرف ألفونصو الخامس كان في أولها استيلائهم سنة 863ه/1459م على قصر المجاز كما أسلفنا الذكر.

وتواصلت الاتصالات بين بني مرين والبرتغاليين على خلفية ما كان يحدث من تشنجات بين عناصرالاحتلال والسكان المحليين كتلك الرسالة التي بعث بها في 29 أوت 30/1516رجب 922ه أولاد عمران إلى حاكم آزمور سيماو كاريس Simao Carrea يصفون له فيها سوء أحوال المدينة تحت حكمه ويطالبونه من خلالها بإطلاق سراح الأطفال الذين كانوا سلموهم إليهم كرهائن ويخبرونه بقرب عودتهم إلى أرضهم ومدينتهم، واستمرت العمليات العسكرية البرتغالية الرامية الى اخضاع المدن المغربية تباعا ومنها محاولة اخضاع فاس التي ظلت شجى في حلقوم البرتغال،ومن ثم بعث الاسقف دي لاميكو في 7 اكتوبر1534م/28 ربيع الأول 941ه إلى ملك البرتغال يوحنا الثالث يوصيه بالتخلي عن آسفي وآزمور وأكادير ليركز جهوده كلها في اخضاع مدينة فاس[2].

4-مع فرنسا:

نظرا للبعد النسبي للأراضي الفرنسية عن المغرب الأقصى إذا ما قارناها بقشتالة أو أراغون ونظرا لتولي الممالك النصرانية بشبه الجزيرة الأيبيرية مهمة مهاجمة

---

[1]. الهادي التازي،المرجع السابق،ج7،ص161.

[2]. نفسه،ج7،ص276.

أراضي الإسلام بالأندلس في إطار حروب الاسترداد فإن الاحتكاك بينهما يكاد يكون منعدما ومقتصرا على الجانب الدبلوماسي، كما أن اهتمام فرنسا كان متجها شطر بلاد المشرق الإسلامي في إطار الحروب الصليبية وكذا شطر الدولة الحفصية ثم المغرب الأوسط في وقت متأخر لما كان لها من ارتباط سياسي بصقلية التي كانت تحت تصرف مملكة أراغون التي كانت تخضع بعض المدن الفرنسية أيضا، إذ كانت نفس الملك الفرنسي لويس التاسع –سان لويس- *Saint Louis* تتوق للمشاركة في الحروب الصليبية، وانزعج من روح التسامح التي انتشرت في الأراضي المقدسة بين المسلمين والمسيحيين عقب الحملة الصليبية السادسة التي قادها الإمبراطور فريديريك الثاني 1227-1229م [1]،أي فترة ظهور الإمارة المغربية الأولى وهي الإمارة الحفصية التي كانت محط أنظاره وأنظار الملوك الفرنسيين كما رأينا[2].

وفي الدور الثاني من أدوار الدولة المرينية الذي واجهت فيه ظروفا قاسية وتصادف مع حروب المائة سنة التي قامت بها فرنسا و تسببت فيها إنجلترا بسبب مطالبة إدوارد الثالث ملك إنجلترا بعرش فرنسا، فقد قامت العديد من الزيارات التي أداها بعض النورمانديين إلى المغرب على عهد السلطان المريني أبي العباس (789-796ه/1387-1393م) لم يذكر الهادي التازي سببها[3].

وفي أثناء عودة الملك المريني من الأندلس ((في عمليه مساعدة ألفونصو العاشر ملك قشتالة)) وعندما وصل بالذات إلى شاطبة *(xativa)* رسالته التاريخية مصحوبة بنص التصريح المشار إليه على ما يبدو –إلى فيليب لوهاردي – *Philippe le Hardi* ملك

---

[1]. انظر الهادي التازي، المرجع السابق،ج7،ص188.

[2]. ما يؤكد هذا هو توجهه إلى تونس واضعا نصب عينيه تنصير الأمير المستنصر بالله،ومطالبته بمقاتلة بيبرس ملك مصرواحتل قرطاج 17 يوليو 26/1270 ذي الحجة،668ه فلقي حتفه هناك وفي نفس السنة،انظر الهادي التازي،المرجع السابق،ج7،ص186.

[3]. انظر الهادي التازي، المرجع السابق،ج7،ص193.

فرنسا وابن أخت شارل دانجو ملك الصقليتين يقترح عليه عون ألفونصو العاشر أو بالأحرى عقد حلف ثلاثي[1] وهذا ما أشار إليه الملزوزي في أرجوزته بقوله

ثم أتى منصورنا كتاب من عند ألفونصو له أعتاب

يقول فيه :أيها المنصور انظر مليكا قلبه مكسور[2]

وعلى عهد السلطان أبي سعيد عثمان وردت وفادة على مدينة فاس تتألف من طائفة من الفرنسيين ومعهم عدد من القشتاليين من أجل افتداء مائتين وثمان وخمسين أسيرا وافق سلطان المغرب على تحريرهم[3] وهذا ما يدل على وجود احتكاك غير مباشر بين الدولتين إما في إطار القرصنة أو مشاركة الفرنسيين إلى جانب القشتاليين في حروبهم ضد بني مرين وبني الأحمر.

وهناك رسالة أخرى موجهة من شارل السابع إلى السلطان عبد الحق بن أبي سعيد آخر ملوك بني مرين حوالي سنة 860 ه/1456م وردت مع الباخرة *notre dame et saint jacques* مع أحد المنتسبين إلى مونبيليه بيرنار دوفو *Bernard de veaux* الذي غادر بها ميناء إيغ مورت في نيم والتي طالب فيها بعقد علاقات إقتصادية مع المغرب ومنه طلب منه المساعدة على استقبال السفن التي يبعث بها وأن يضمن لها ولراكبيها الأمن والسلامة، وبالمقابل فقد تعهد من جهته بنفس الأشياء[4].

وعلى عهد بني وطاس ورغم الكوارث التي صاحبت ظهورهم،ومحاولة اسبانيا والبرتغال استغلال ارتباكهم إلا أن فرنسا كانت لا تزال ترى في مملكة فاس قادة تبعث إليهم بسفرائها وهداياها خاطبة بذلك ودهم،ومما يدل على ذلك بعثة فرانسوا الأول الى بلاط فاس في أعقاب التقرير الذي حرره التاجر الفرنسي إيمون دومولون *Aymon de molon*

---

[1] *.Mas Latrie, op.cit,Traites,p96.*

[2]. نفسه،ج7،هامش 22، ص64.

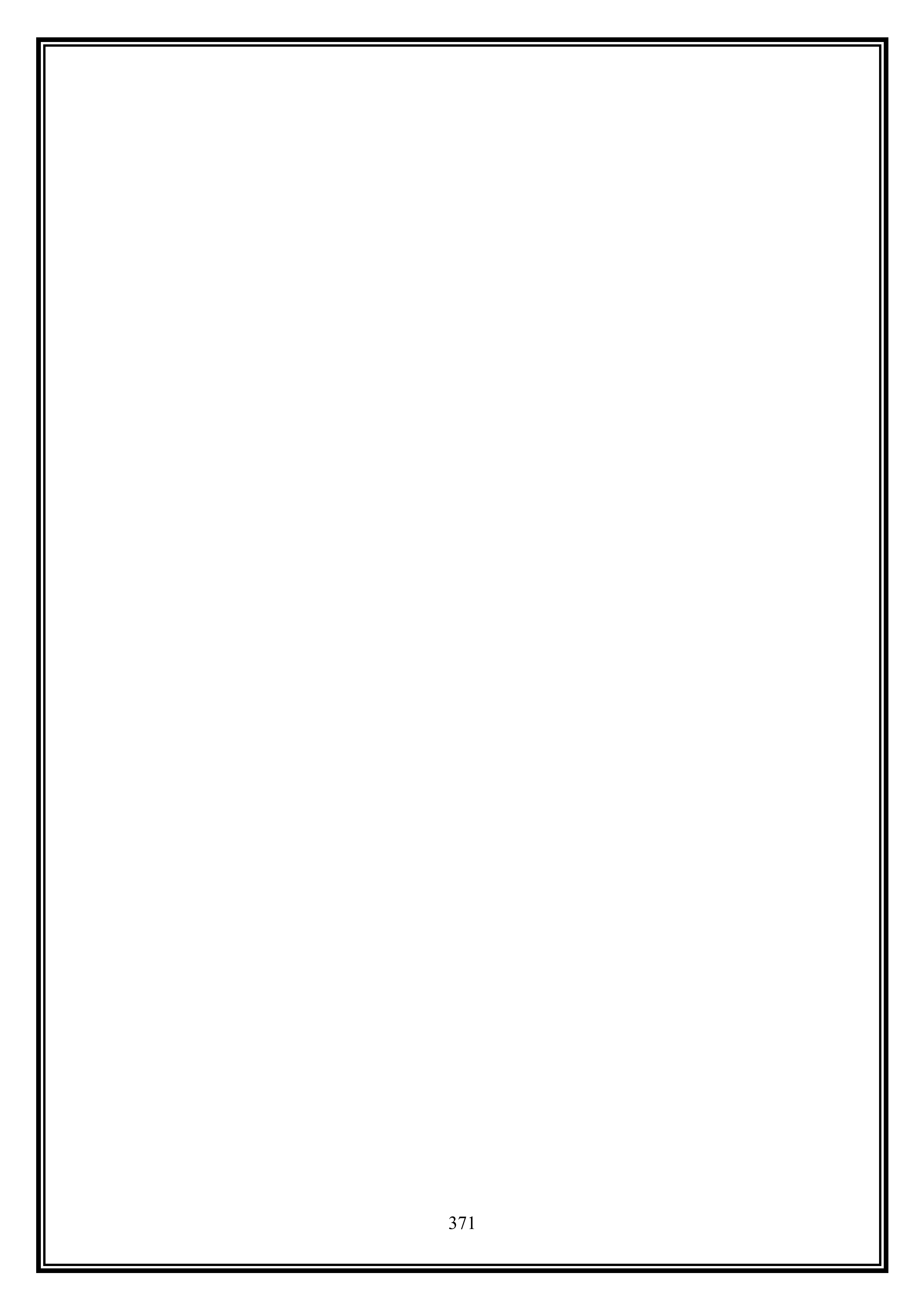
[3]. نفسه، ج7، ص193.

[4].للاطلاع على نص الرسالة مترجمة ،يرجى العودة إلى الهادي التازي،المرجع السابق،ج7،ص194.

الذي كان قد قدم إلى المغرب فيما بين سنة 937-938ه/1531-1532م،أي على أيـــام السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي،لكن الظاهر أن هذه العلاقـــة الديبلوماســـية كانت تهدف إلى ايجاد أرضية لفرنسا بالمنطقة قصد الاستفادة من ثرواتهـــا، لأن التقريـــر الذي كتب كان بخصوص ثروات وإمكانيات المغرب،وأن السفير الفرنسي الذي زار فاس حاملا الهدايا إلى نفس السلطان أعرب له عن رغبة الملك الفرنسي فـــي حصـــوله مـــن المغرب على تسهيلات تخص سفنه في رسوها بالموانئ المغربية فقبل الملك طلبه ومنحه جملة من الهدايا عاد بها إلى بلده[1]،واستمرت العلاقات ودية وسلمية واستمرت الســـفارات بين البلدين على خلفية عمليات الأسر التي كانت تتم في البحار ومن ذلك الرســـالة التـــي بعث بها نيكولا كلينار *(Nicolas Clenard)*الذي كان يدرس حينها بفاس وبعث بهـــا إلى صديقه جان بوتي *(J.Petit)* بتاريخ 21 أوت 1541م يتحـــدث فيهـــا عـــن المبعوث الفرنسي هونوروا *(Honorat)* الذي يبدو أنه كان يريد الاعتماد عليه من أجل تحرير بعض الأسرى[2].

[1]. للإطلاع على نص الرسالة الأصلية اليت بعث بها سلطان المغرب الى الملك الفرنسي ،يرجى العودة للهادي التازي،المصدر السابق،ج7،صص292-293.

[2]. نفسه، ج7،ص294.



الخـــــــــــــــــــــاتمة

بعد إنهاء مراحل بحثنا هذا خلصنا إلى جملة من النتائج منها ما كان إجابة عما طرحناه من تساؤلات في مقدمة البحث، ومنها ما كان عرضيا توصلنا إليه عبر معالجتنا لمختلف العناصر المكونة للموضوع.

- إن الباحث في موضوع العلاقات الاقتصادية أو السياسية لأي بلد ما وخاصة في العصر الوسيط سيجد نفسه مضطرا للتطرق للجانبين معا لأنهما أمران متلازمان كلاهما يرتبط بالآخر، فلا يمكن أن تقوم علاقات إقتصادية بين دولتين دون وجود روابط سياسية.

- إن العلاقات السياسية التي ربطت بين بلدان ضفتي المتوسط -الإسلامية والمسيحية- طبعت في عمومها بالعداء فكان السلم هو الذي يندلع لا الحرب، وهذه طبيعة علاقة تربط دار الاسلام بدار حرب تريد السيطرة عليها، فكانت مليئة بالحروب تخللتها فترات من السلم إقتضتها مصلحة تلك الدول، فكثيرا ما كانت بعضها تجنح للسلم حينما تحس بإنهاك أواستنزاف طاقاتها وقدراتها الاقتصادية والعسكرية على غرار ما كان يحدث بين المغرب الأقصى وقشتالة اللتان دخلتا فيما يشبه حرب استنزاف كانت مملكة غرناطة محورها.

- إن طبيعة العلاقات بين بلدان المغرب والضفة الشمالية الغربية للمتوسط تحكمت فيه شخصية السلاطين المسلمين وقوة وضعف دولهم، فنلاحظ بأن غزارة وعنفوان تلك العلاقات بكل أنواعها -تحالفات، صدامات عسكرية-مساعدات مادية لأهل الأندلس من باب النصرة وتحدي النصارى- تمت في عهد النشأة والقوة بالنسبة للممالك الإسلامية وخاصة بالنسبة للمغرب الأقْصى والأدنى، بينما خبت تلك المظاهر في عهد الضعف والاضمحلال لتتحول فيما بعد إلى علاقات تعدي من الطرف الأوروبي حين ضعف سلاطينها وخلدوا إلى الراحة والدعة.

-تأثرت العلاقات بين هذه الدول في المنطقة بموازين القوى السائدة، فلم تعرف الاستقرار، وكثيرا ما غلبت المصلحة الخاصة على المصلحة أو الاتجاه الديني ومن ذلك التحالفات التي تمت بين أطراف مسيحية وإسلامية ضد ابن الملة والدين والأرض كما

كان يحدث بين بني مرين مع أراغون ضد قشتالة مرة وضد الدولة الحفصية مرة أخرى أو بين بني زيان وقشتالة ضد الدولة المرينية مرات أخرى.

- كانت بلاد الأندلس أو ما تبقى فيها من أراضي للمسلمين جوهر ولب ومحرك العلاقات السياسية بين ضفتي البحر المتوسط وخاصة في جزئه الغربي، فنجد التحرشات الاسبانية خاصة على تلك البلاد هي التي جعلت المغرب الأقصى في صدام مستمر مع الممالك الاسبانية منذ نشأتها وحتى عهد أبي عنان فارس المريني، وأدت الى ظهور التحالفات على غرار ما حدث بين أراغون ويغمراسن وابن الأحمر ضد بني مرين، أومهادنة طرف مؤقتا قصد التفرع لطرف آخر مثل ما حدث بين بني مرين من جهة وبني زيان وبني الأحمر من جهة أخرى،ومما يؤكد هذا الاتجاه أنه بعد سقوط غرناطة استمرت التحرشات الصليبية ضد بلدان المغرب انتقاما منها لما قامت به من دور في حمايتها والدفاع عنها و بحجة احتضانها للموريسكيين الفارين من محاكم التفتيش بالأندلس.

-إن التصادم أو التجاوزات التجارية بين بلدان الضفتين كان دوما يؤدي إلى مجموعة من الإجراءات التي تتم بطرق دبلوماسية تودي إلى عقد معاهدات صلح تتضمن قضايا اقتصادية مثل ما كان يتم بين الممالك الاسبانية الثلاثة ودولة بني مرين ودولة بني حفص، ومن ثمة لا يمكن الفصل بين الجانبين الدبلوماسي والاقتصادي كما أسلفنا الذكر.

-إن حروب الاسترداد التي أعلنتها الممالك النصرانية ضد بلاد الأندلس لم تكن أقصى ومنتهى حلمها بل كانت مرحلة من حرب أعلنت ضد كل ما هو إسلامي، لأن أمراء قشتالة كانوا حقا يطمحون إلى نقل تلك الحروب إلى إفريقيا، وكانوا يرون في بلاد الأندلس حقا قديما يجب استرداده بشتى الطرق وفي بلاد المغرب هدفا مستقبليا يجب تحقيقه قصد الاستئثار بما تجود به أرضه من خيرات واستراتيجية موقع يسيطرون بها على طرق التجارة وخاصة طريق تجارة الذهب التي تحتكرها تلك الدول لنفسها وخاصة تلمسان الزيانية وهذا ما انكشف فيما بعد مع أزمة القرن الرابع عشر.

-حاولت الدول النصرانية وبشتى الطرق ومنها السلمية أن تستأثر بما تمتلكه بلاد المغرب ومن ذلك محاولة البرتغال احتكار تجارة الأنسجة والأغطية الحفصية مع بلدان الصحراء الإفريقية، وجنوة الإيطالية التي احتكرت صيد المرجان من سواحل أو شواطئ عنابة، والبندقية التي احتكرت ملح افريقية لتصدره منها نحو بلاد السودان الغربي.

-إن الدول النصرانية كثيرا ما لجأت إلى سياسة فرق تسد لبلوغ هدفها وإفشال أي محاولة وحدوية بين الممالك الإسلامية كما كان سانشو القشتالي يفعل دوما مع ابن الأحمر وملوك بني زيان مقابل ما كان يقوم به بنو مرين من محاولات لتوحيد الصف وإقناعهما بما ترمي إليه ومغبة التحالف معها.

-إن العلاقات الاقتصادية التي جمعت بين الدول الإسلامية والمسيحية كانت في حقيقة أمرها وسيلة أو سلما ركبته الدول الأوروبية لتتدخل في شؤون دول المغرب مثل ما حدث بين أراغون والدولة الزيانية لما منحتها هذه الأخيرة امتيازا قضائيا يخول لها محاكمة مرتكبي الجرائم والجنح على أرضها لدى القضاء الأراغوني، وهذا في حقيقة الأمر من أخطر أنواع الامتيازات التي تمس شخصية وسيادة الدولة ويؤكد رأينا القائل بأن العلاقات الثنائية لم تكن قائمة على مبدإ الندية والاعتراف المتبادل وإنما كان الهدف منه إيجاد موطأ قدم لهم بتلك الأراضي من أجل تحقيق هدفهم الأساسي وهو الاستئثار بمقدراتها وموقعها الجغرافي الاستراتيجي، فالعمل التجاري هو الذي أوجد العمل الدبلوماسي في أغلب الأحيان لأن القناصل الذين تواجدوا من المنطقة الأوروبية كانوا في معظمهم تجارا، على عكس تجار بلاد المغرب الذين كانوا يزاولون التجارة في أوروبا بشكل فردي لم يتطلب العمل القنصلي.

-تكاد العلاقات الاقتصادية بين المنطقتين تنحصر في العمل التجاري، اللهم إلا ما تمثل في بعض المظاهر الاقتصادية الأخرى الضيقة كمنح حق الاستغلال المباشر لبعض المعادن للأجانب كملاحة تونس وممارسة الاستغلال المباشر للأسماك في بعض البحيرات

أو صيد المرجان في بعض الشواطئ كشواطئ عنابة التي كانت مجالا لاستخراجه أو صيده من طرف للجنويين بشكل مباشر،أو ماكانت له علاقة مباشرة مع العمل التجاري مثل الجمارك أو مع الاحتلال كالضريبة التي كانت تدفعها الدولة الحفصية لمملكة أراغون.

-إن نجاح وازدهار التجارة المغربية في حقيقة الأمر كان نتيجة لموقعها الاستراتيجي بوقوعها في نقطة محورية بين إفريقيا السوداء -مناطق الذهب-وأوروبا التي كانت بحاجة إليه إلى جانب العبيد وبعض محاصيل المنطقة الحارة إذ مثل تجار المغرب وسطاء في عمليات التبادل بين المنطقتين، فبلاد المغرب الممتدة من سبتة غربا إلى طرابلس شرقا لم تكن سوى منفذا لبعض منتجات الشرق الأقصى والأدنى إيطاليا الجنوبية وفرنسا وسوقا للعبيد المجلوبين من إفريقيا السوداء على حد تعبير برانشفيك، واعتبرت في المقابل مصدرا للمواد الأولية التي مثلت موردا إضافيا بالنسبة الى الشعوب المجاورة وساعدت في نفس الوقت على تحقيق توازنها الغذائي والصناعي.

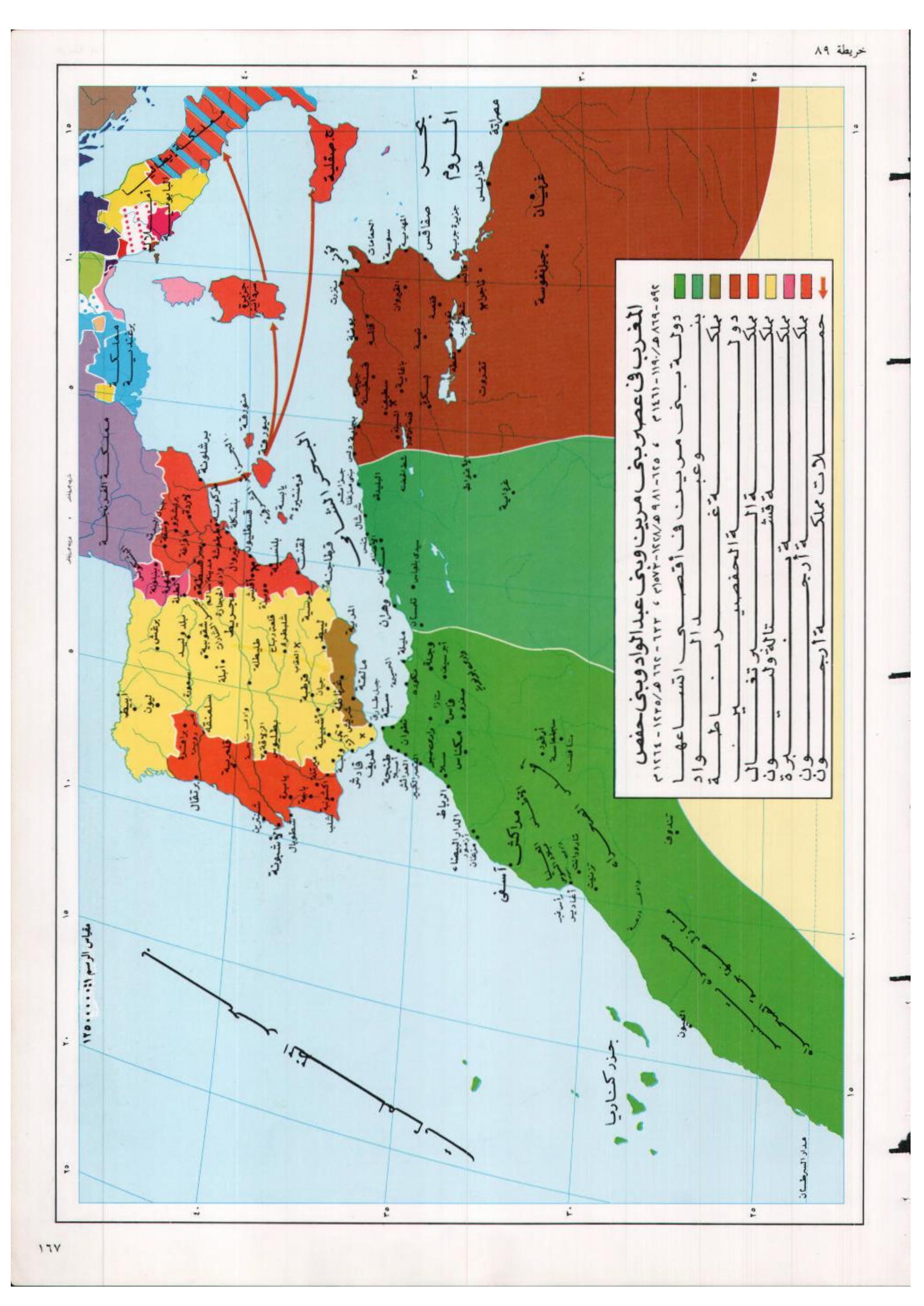
-إن التطور الذي حدث في النظم الاقتصادية -بنوك ذات فروع وشركات تجارية كبرى وشركات مساهمة وغيرها -فيما بين القرنين 13 و14 الميلاديين كرس عملية استغلال ونهب بلاد المغرب من قبل الاوروبيين وأدت من جهة أخرى الى إقصاء التاجر المنفرد وتعويضه بمنظمات أقوى أكثر منه طمعا وجشعا.

-إن تعامل الدول الأوروبية مع بلاد المغرب لم يكن بغرض تحقيق المنفعة المتبادلة فقط بل لأنه كان حتميا كما أشرنا إعتبارا لدواعي أمنية وسياسية وغيرها، إذ وبمجرد تفتح الأوروبيين بصورة مباشرة على التجارة مع الهند منبع التوابل واكتشاف القارة الأمريكية897ه/1492م ورأس الرجاء الصالح 903ه/1497م فقدت بلاد المغرب والعالم العربي عموما تلك المكانة الوسيطية في التجارة الدولية فتدهورت تجارته.

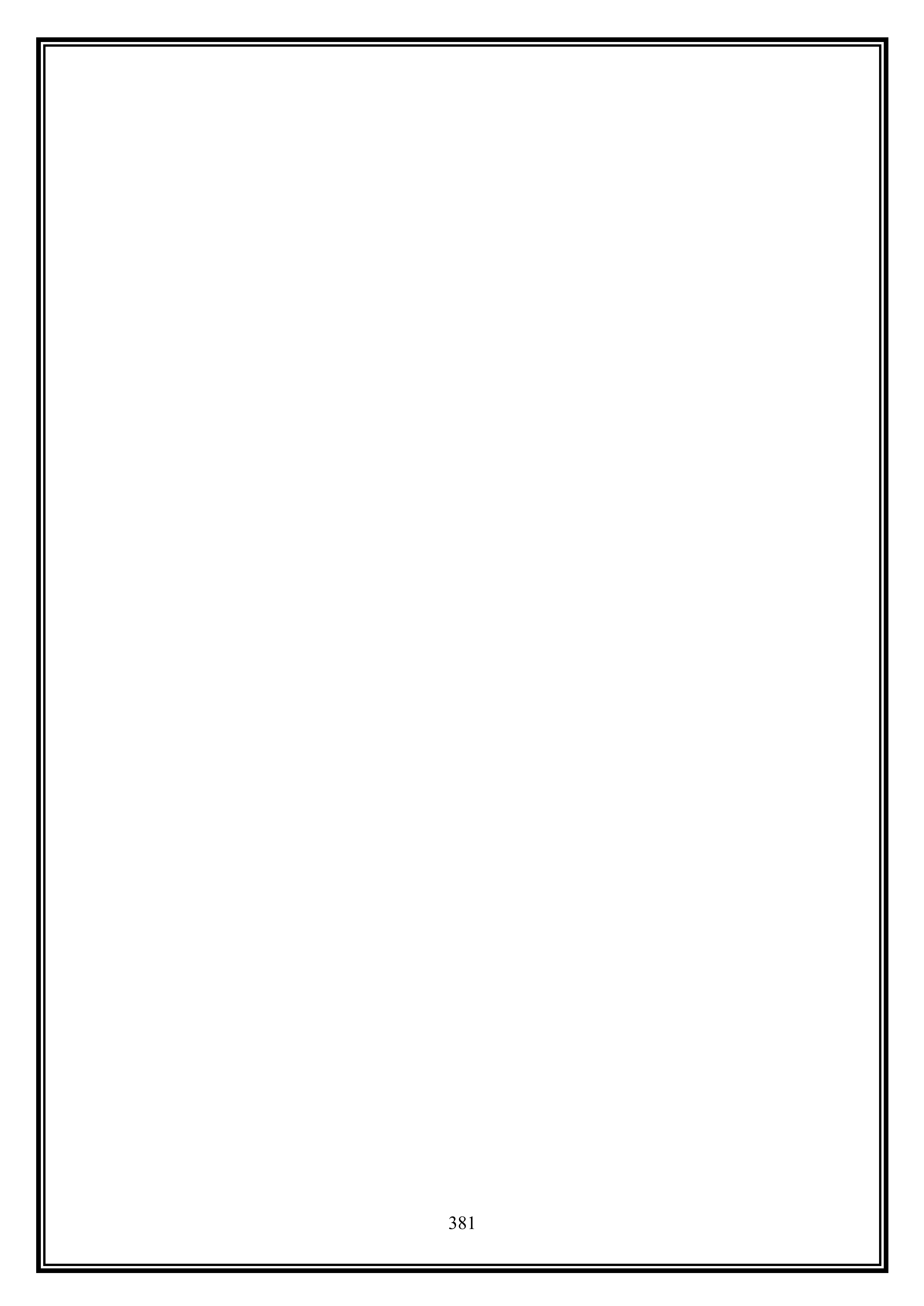
-ولب القول أن التجارة الأوروبية مع دول المغرب حتمية أوجدتها ظروف المنطقة في ظروف مرحلة انتقالية لكلا المجموعتين، فدول أوروبا الغربية كانت لا تزال في مرحلة استجماع قوتها للبت في مرحلة جديدة هي الانقضاض على شمال إفريقيا ودول المغرب كانت في مرحلة البحث عن الذات الذي أدخلها في حالة من الصراع والفوضى التي أبعدتها بشكل كبير عن الاهتمام ببناء قوتها الاقتصادية لان الأمن شرط أساسي لذلك، ولهذا فنجدها لما تهيأت لها الظروف تنقض كل واحدة منها على ما يقابلها فالبرتغال احتلت المغرب، واسبانيا ركزت هجماتها على السواحل الجزائرية،بينما اتجهت أنظار ايطاليا نحو تونس والتي اعتبرتها لفترة طويلة امتدادا طبيعيا لها.

الملاحق

ملحق- 1-


خريطة ٨٩
المغرب في عصر بني مرين وبني عبد الواد وبني حفص
جزر كناريا

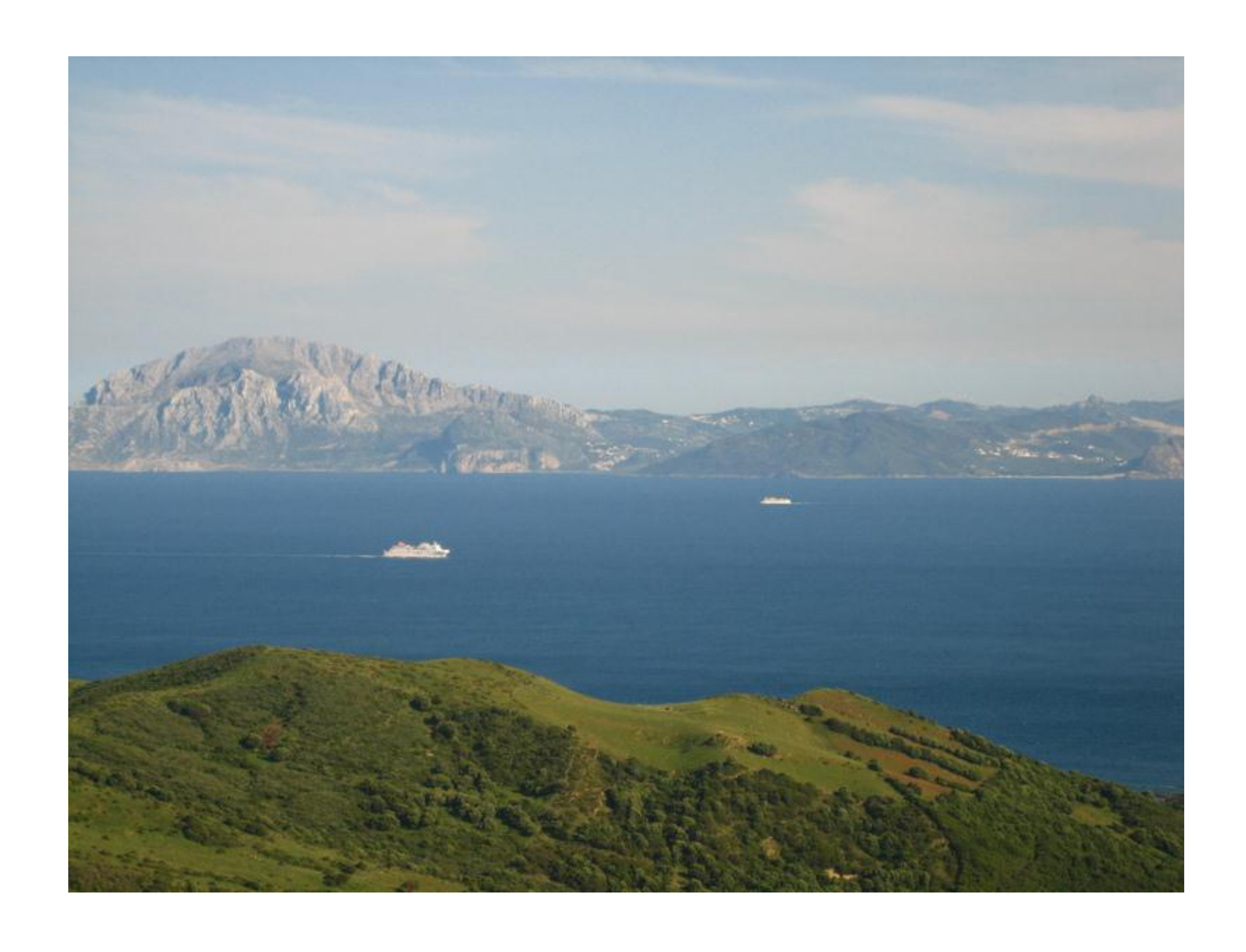
ملحق رقم 2




Archivo Fotografico Oronoz


BARBARIA
Encyclopédie Encarta, Archivo Fotografico Oronoz

ملحق- 5-



تلمسان جبرها الله تعالى ۞ ⁖

تغربت عن اهلي اليك ومالي واعرضت عن قيل عداك وقال
تماثل في دنياي اذ انت مطلبي محب له شوق اليّ ومال
سموت على قصد اليك بهمة ترا عيش كسرى مثل عيش دلال
ولاحت لي الدنيا فانصرت عمرها ولو زيد اضعافا كعمر عقال
وما عيشها الا كظل غمام وما ملكها الا كضيف خيال
وهل بعد ان اسعد اليك الطايفا يقصر عن تبيانهن مقال
وباشر قلبي باليقين مبردا حرارة اشكال اخل مجال
ارى رافعا صوتي الى غير جاهة وابسط للمخلوق كف سوال
ابعد سطوع الشيب في ليل لمتي وناي ظلال بعد فيء ظلال
اهيم بدنيا ما تساوي قلامة واخضع مرتادا لنيل نوال
ابا ذاك لي قصد الى الله صاعد وعلم سما بي فيه نحو كمال
فما انا نحو النحو اسمو بهمتي وفي اللغو اخطار اللغات ببال
ولا منطقي بطلت في علم منطق يعد حساما في مجال جدال
وليس كلامي في الكلام اقوده كاقييد ضعف للشماس موال
ولا عارضت علم العروض عنايتي لاجعله فيان نظم الال
واحسب تدقيق الحساب بطالة لابطال وقت لا يرد بحال
ولكنني مهمن خوت تفقها خلعت عذاري موضحا لحلال
ولا لست اغنى بالتفقه ما حوت دفاتر تملى من ظنون رجال
ولاكنه فقه على عن تناقض وليس لاراء الورى بمجال
ترى اطرادا منه كل قضية انابيب تبدو في متون عوال
فضايا حلا يا مثل ما لاح ساطع تطول بحند الليل اي صيال
فلست لها بالكتب يوما مطالعا ولا سامعا فيه نظام مقال
وفي عقل ذي القلب المتيم رقمها يلين بمعز كل انوك سال
فان انت لم توصل بحال وصالها فدعني وايها حليف وصال

وكان

الرسائل والمعاهدات

نص معاهدة تلمسان 05 شوال 739ه/15 أبريل 1339م

بسم الله الرحمن وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليما.

يعلم من وقف على هذا الكتاب العزيز أو سمع أنه كتاب مهادنة ومساهمة و معاهدة مصالحة عقدت بحضرة مولانا أمير المسلمين بنعمة الله أبي الحسن علي بن مولانا أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أعلى الله أمره كما رفع قدره وعن أمره إذنه في ذلك الزعماء المذكورين بعد و هم: نماريق بيسقند دالاربونة ونماريق دالاربونة صاحب طالبيرة ودالما داقسطل ولورا كيط دوبتوتوزا؛ أرسل السلطان الأسنى الأكرم الأصدق دون جقمان بنعمة الله سلطان ميروقة وكونت دار شاليون وقطاليا(سردانيا) ومولى منبشليق النائبون عنه بحكم كتابة وعهد تعريضه إليهم المطبوعين بطابعه المعلوم عقد أمضاه السلطان أبو الحسن المذكور و التزمه كما التزمه الأرسال المذكورين عن سلطانهم دون جقمان المذكور على بلاد كل واحد من السلطانين المذكورين ورعيته وجميع ما في حكمه لمدة من عشر سنين شمسية أولها أول شهر ماي القريب مجيئا لتاريخ هذا الكتاب وعلى شروط تذكر وهي أن يتردد المسافرون من كل واحد من الجهتين الى الأخرى محمولين على الأمان في نفوسهم وأموالهم وأجفانهم برا وبحرا في المراسي وغيرها فلا يعرض

أحدا من كلتا الجهتين لأهل الأخرى بضرر ولا يؤذيهم في ورد ولا صدر وأي جفن تكسر أو رمت به الريح أو البحر من أجفان الفريقين في ساحل من سواحل الجهتين فالأمان شامل للجفن وعمرته وما احتوى عليه من الأموال والتجارات والعدد يدفع ذلك لمستحقته ولا يمنع من مستوجبه وعلى أن يحمل النصارى المذكورين من بلاد المسلمين المذكورين من بلاد المسلمين المذكورة زرعا ولا سلاحا ولا خيلا ولا جلدا مملوحا ولا مدبوغا وما عدا ذلك من التجارات فهو لهم مباح على ما جرت به العادة من المغارم المعروفة والملازم المألوفة لجميع بلاد مولانا السلطان أبي الحسن المعتاد لهم بها على سائر الزمن وكل ما يجلبونه فلا يزاد عليهم فيه زائد ولا يكلفون غير من استقرت به العوائد وليمنع الجهتين من التعرض لها ويعود على هذا العقد من نقد ويقر على حكمه بالرفض من إفساد المراسي أو ترويع للمسافرين أو غير ذلك من وجود الإفساد والإضرار ومن فعل شيئا من ذلك فسلطانه يشتد عليه في غرم ما أتلفته وردما أخذه ويعاقبه في نفسه بما يحتم عليه ويجعل عقابه ردعا لغيره ودفعا لفساده وغيره وليتقدم لولاة الواحل من الجانبين بالتأكيد في هذا الأمر وحماية لهذا العقد وليعلن هذا الصلح من الجهتين .الإعلان التسامى حتى يكون هذا العقد محطوطا والعهد مضبوطا بقول الله تعالى وعلى صحة هذا العهد كتب مولانا أبو الحسن علامته المعلومة و أمر بطابعه المعروف ووضح الإرسال الموكلون المفوض أليهم المذكورون طوابعهم وكتب من يحسن الكتابة منهم خط يده وكمل ذلك كله في يوم الخميس

لشهر شوال من عام تسع وثلاثين وسبعمائة وموافقه الخامس عشر أفريل العجمي سنة 1339 م وكتب في التاريخ المؤرخ به)).

ملاحظة: كتبت هذه المعاهدة بنصيها الأصليين ضمن رواقين على نفس الورقة، النص القطلاني على الجهة اليسرى بما احتواه من امضاءات للمتعاقدين والشهود و النص العربي على الجهة اليمنى أيضا بما احتواه من امضاءات .

Mas Latrie,op.cit, Traites ,p192-195.

رسالة من أبي حمو موسى الثاني ملك تلمسان الى بطرس الرابع ملك أراغون .

((من عبد لله موسى أَميرِ المُسْلِمِينَ المتوكل على رب العالمين بن الأمير أبي يعقوب بن الأمير أبي زيد بن الأمير أبي زكريا بن مولانا أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن زيان أدام الله له عزا باهر الأنوار ونصر عالي المنار وسعدا رفيع المقدار الى السلطان الأعز الأمنع المكرم المرفع المعظم المبجل الموتر رفيع المقدار الى السلطان الأعز الأمنع المكرم المرفع المعظم المبجل الموتر المرعي الأحفل الأنور الهمام البطل الأشهر الأخطر ملك بني الإفرنج سلطان أراغون وبلنسية وميورقة وسردانية وقورسغة وقمت برشلونة وقمت الروسيون وقمت سردانية دون بيدرو أسعده الله برضاه وأرشده الى سبيل هداه وأكرمه بتقواه،أما بعد فانا كتبناه إليكم كتب الله لكم هداية تبلغ نيل الأمل والأمل وكرامة تصحبكم في كل حال من حضرتنا العلية بتلمسان المحروسة ونحن نحمد الله الذي لا شيء كمثله ونلجأ إليه في أمرنا كله ونسأله أن يوزعنا شكر إحسانه وفضله وعندنا لجانبكم المرفع تكرمة نستوفيها ورعاية ننتهي الى الغايات فيها وعلمنا بمحلكم الشهير ومكانكم الخطير يستدعي الزيادة من ذلك ويقضيها والى هذا أرشدكم الله لأحسن المذاهب والى لكم الخير المتتابع المتعاقب فانا لم نزل نمنح من وصل من جهاتكم وانخرط في سلك طاعاتكم من التجار المترددين وغيرهم من ذوي الحاجات أجمعين ونوسعهم إحسانا وإنعاما ونيسر عليهم في جميع مطالبهم وجملة مآربهم

إجمالا وإكراما ولم نضيق عليهم قط في جميع ما أرادوا أن يوسقوه لبلادهم ويحملوه في صدرهم ويرادهم من زرع وغيره من الأمور التي يقضوا منها الوطر ونرتكب فيها في ديننا الخطر مرافقة لهم فيه أرجع لهم وتوسعة في كل الأحوال عليهم.

ومع هذا فقد عمدت طائفة من القطلانيين في أجفان معدين الى مرسانا الشهير مرسى وهران المحروسة الكبير وحملوا منه على جهة العمد العدوان والجرأة والإقدام وهتكوا حرمة السلطنة وحق الإسلام جفنا موسوقا بالزرع وغيره لتجار أندلسيين كانوا أرادوا الوجه به الى بلاد المسلمين واستولوا على الجفن بما فيه وذكر لنا فيه وذكر لنا أنهم كلهم الذين حملوا الزرع في القرقورة المعروفة بالحي القطلاني بعدما وصل الى بلادكم توجه تلقاء ما ذكرناه لكم فلما رأينا أن هذه النازلة وقعت وأحوال من يرد علينا بالأجفان تشتت وتشعبت وجهنا لكم الآن خديمنا الحظي لدينا الشيخ المكرم المرعي الوجيه الحظي الموقر المحرم الأفضل الأكمل الأمجد أبا عبد الله محمد بن الشيخ المكرم المرعي الوجيه الحظي المبرور الموقر المرحوم المغم أبي الزبير طلحة الباتلشي حمله الله تعالى على كاهل السلامة وبلغه الأمل والآمان في حالي الممر والإقامة ووالى له الخير ووصل له الكرامة أودعناه

ما ينهيه إليكم من مقاصد الإكرام والبر الموفر الأقسام ليخاطبكم بهذه الأحوال ويطالعكم بما لكم عندنا من القبول والإقبال علما بأن ذلك يستنزل منكم منزلة المسرة ويرد عنكم ما يكفي إن شاء الله عنه بموصول الإكرام

والمبرة وحملناه من معنى الصلح بيننا وبينكم لما يلقيه إن شاء الله مشافهة إليكم ومحاولة إبرامه والمفاوضة في عقده وإحكامه وأردنا منكم العناية بأمره وأن تعاملوه ما تشكرون على بدله وما يكون في ذلك من المصلحة لنا ولكم فشيء لا يخفى عليكم ولا يغيب عنكم فلتتلقوا ذلك بحقه محمولا على صحة الحق وصدقه وكل مايرد من جهتكم فوارد على البر والتكرمة فننتهي فيه الى الغاية المتمة ورأينا أرشدكم الله وهداكم ووفقكم لما يرضى به عنكم من تتميم هذا المقصد والبلوغ منه الى الأمد الأبعد إن وجهنا إليكم أيضا صحبة رسولنا المذكور ما يلقى لكم من مشافهة إن شاء الله معنى هذا الكتاب ويقرر ما عندنا لكم من الإيثار الأسباب وهو قايدنا الكبير المرعي الخطير المكرم لدينا المنقطع بالخدمة إلينا جوان برمجلين القطلاني أنجده الله فإذا انصرف رسولنا وقايدنا إن شاء الله من عندكم فنريد منكم أن توجهوا زيادة الى ما تلقونه إليه ممن تتخيرونه من خدامكم ومن خواص رجالكم في معنى القد وأحكامه والصلح ومحاولة إبرامه فنحن نرتقب أثره ونصرف إليه من العناية والرعاية والقبول أوفى ذلك وأوفر،هو الله سبحانه وتعالى يوفق لما يحبه ويرضاه ويقدم الخير والخيرة فيما قضاه إن شاء الله بحول الله لا رب لنا سواه وكتب في ربيع الآخر الذي من عام أحد وستين وسبع عرفنا الله تعالى خيره وبركته بمنه وكرمه وحوله وفضله))

رسالة لسان الدين ابن الخطيب الى أبي حمو موسى

أما بعد حمد لله جامع الشمل بعد انصداعه وشتاته، وواصل الحبل بعد انقطاعه وانبتاته، سبحانه، لا مبدل لكلماته، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله، الصادع بآياته، المؤيد ببيناته، الذي اصطفاه لحمل الأمانة العظمى، وحباه القدر الرفيع والمحل الأسمى،والله أعلم حيث يجعل رسالاته، والرضا عن آله وصحبه وأنصاره وحزبه وحماته المتواصلين في ذات الله، وذاته القائمين بنصر دينه وقهر عداته، فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم سعدا ثابت الأركان، وعزا سامي المكان، ومجدا وثيق البنيان، وصنعا كريم الأثر والعيان، من حمراء غرناطة حرسها الله، والثقة بالله سبحانه أسبابها وثيقة وأنسابها عتيقة،والتوكل عليه لا تلتبس من سالكه طريقه، ولا تختلط بالمجاز منه حقيقة، وعندنا من الاعتداد بكم في الله عقود مبرمة وآي في كتاب الإخلاص محكمة،ولدينا من السرور بما سناه الله لكم من أسباب الظهور الذي حلله معلمه وحججه البالغة،مسلمه ما لا تفي العبارة ببعض حقوقه الملتزمة، وإلى هذا أيد الله أمركم، فإننا ورد علينا فلان وصل الله كرامته وسنى سلامته صادرا عن جهتكم الرفيعة الجانب السامية المراقب طلق اللسان بالثناء بما خصكم الله به من فضل الشمائل وكرم المذاهب محدثا عن بحر مكارمكم

بالعجائب فحضر بين يدينا ملقيا ما شاهده من ازدياد المشاهد بتلك الإيالة، واستبشار المعاهد بعودة ذلك الملك الرفيع الجلالة الشهير الأصالة ووصل صحبته ما حملتم جفنة من الطعام برسم إعانة هذه البلاد الأندلسية والإمداد الذي افتتحتم به ديوان أعمالكم السنية وأعربتم به عما لكم في سبيل الله من خالص النية وأخبر أن ذلك إنما هو رشة من غمام وطليعة من جيش لهام ووفد من عدد وبعض من مدد وأن عزائمكم في الإعانة والإمداد على أولها ومكارمكم ينسى الماضي منها بمستقبلها فأثنينا على قصدكم الذي لله أخلصتموه، وبهذا العمل البر خصصتموه وقلنا لا ينكر الفضل على أهله وهذا بر صدر عن محله فليست إعانة هذه البلاد الجهادية ببدع من مكارم جنابكم الرفيع، ولا شاذة فيما أسدى على الأيام من حسن الصنيع، فقد علم الشاهد والغائب ولو سكتوا أثنت عليها الحقائب ما تقدم لسلفكم في هذه البلاد من الإرفاق و الإرفاد والأخذ بالحظ الموفور من المدافعة والجهاد، وأنتم أولى من جدد عهود قومه، وكان غده في الفخر أكبر من يومه،وقد ظهرت لله في حيز تلك الإيالة الزيانية نتيجة تلك المقدمات وعرفت بركة ما أسلفته من المكرمات، وسنى الله سبحانه بين يدي وصول ما به تفضلتم وفي سبيله بذلتم أن فتح جيشنا حصنا من الحصون المجاورة لغربي مالقة يعرف بحصن قنيط من الحصون الشهيرة المعروفة والبقع المذكورة بالخصب الموصوفة ودفع الله مضرته عن الإسلام وأهله ويسره بمعهود فضله فجعلنا من ذلك الطعام الذي وجهتم طعمه حماته ونفقات رجاله ورماته اختيارا له في أرضى المرافق في سبل الخير وجهاته وأما نحن فإن ذهبنا إلى تقرير ما عندنا من

الثناء على معالي ملككم الأصيل البناء والاعتداد بمقامكم الرفيع العماد والاستناد إلى ولائكم الثابت الإسناد لم نبلغ بعض المراد ولا وفى اللسان بما في الفؤاد فمن الله نسأل أن يجعله في ذاته وذريعة إلى مرضاته ومرادنا من فضلكم العميم وودكم السليم أن تحسبوا هذه الجهة كجهتكم فيما يعرض من الأغراض لنعمل في تتميمها بمقتضى الود العذب الموارد الكريم الشواهد والله يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام الضرب الثاني أن يقع الابتداء بالمقر، والرسم فيه أن يقال المقر وينعت ثم يقال مقر فلان وينعت بالألقاب، ثم يذكر المكتوب عنه ثم يقال أما بعد حمد الله ويؤتى على الخطبة إلى آخرها ثم يقال فإنا كتبناه لكم من موضع كذا يتخلص إلى المقصد بلفظ وإلى هذا فإن كذا وكذا ويؤتى على المقصد إلى آخره ويختم بالسلام.

القلقشندي، صبح الأعشى،ج7، ص48،49،50.

جزء من قصيدة كتبها ابن الأحمر سنة 674ه بعد اعتزام السلطان المريني أبي يوسف يعقوب الرجوع الى المغرب وهي في معنى الاستعطاف والعتاب ومن نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط .

هل من معيني في الهوى أومنجدي من متهم في الأرض أو من منجـــد

هذا الهوى داع فهل من مسعـــــــــــــــــــــــــــــف

بإجـــ

ــــــــــــــــابة وإنابة أومسعـــــــــــــــــــــد

هذا سبيل الرشد قد وضحت فهـــــــــــــــــــــل بالعدوتين من امرئ

مسترشـــد

يرجـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــو النجاة بجنة الفردوس أو

يخشى المصير على الجحيم الموقد

يا آمل النصر العزيز على العـــــــــــــــــــــــدا أجب الهدى تسعد

به وتؤيـــد

سر النجاة إلى النجاة

مشمـــرا إن

الهدي لهو النجاة لمن هـــــــــــــــــــــــــــــــــــــد

يا من يقول غدا أتوب ولا غـــــــــــــــــــــــــــد

الديك علم إن تعيش الى

غـــــــــــــــــــــــــــــد

لا تغتـــرر بنسيئـــة الأجـــــــــــــل الـــــــذي

إن لم يحن لك نقده فكان

قـــــــــــــــــــــــــــــد

سفر عليك طويلة

أيـــــــــــــــــــــــــــــــــ

ـــــــامه لم تستعـــــــــــــــــــد

لطولـــــــــــه فاستعـــــــــــــــــدد

أو ما علمـــــــــــــت بأنه لا

بـــــــــــــد من زاد

لكـــــــــــــــــل

مســـــــــــــــــــــــافر

فتـــــــــــــــزود

هذا الجهاد رئيس أعمـــــــــــــــــال التقى خذ منه

زادك لارتحـــــــــــــــــالك تسعـــــــد

هذا الرباط بأرض أندلس فـــــــــــــــــــرح

منه لما يرضي إلهـــــــــــــــك و اغتـــد

سودت وجهك بالمعاصي فالتمــس وجهـــــــــــــــا

للقيـــــــــا الله غيـــــــــر مســـــــــــــــــود

وامح الخطـــــــــــــــــــــايا بالدموع

فربمـــــــا محت الدموع خطيئة

المتعمـــــــــــــــــــــــــــــــــد

من ذا يتوب لـــــــــــــــــــــــــربه من

ذنبه أو يقتدي بنبيه أو

يهتـــ

ــــــــــــــــــد

وتعوضت منهم بكـــــــــــــــــل

معـــــــــــــــــاند مستكبر قد كان لم

يتشهـــ

ـــــــد

المصدر :عبد الرحمن بن خلدون،العبر،ج7، ص263.

جداول وصور

قائمة بأسماء بعض السفراء الأوروبيين في بلاد المغرب

الاسم واللقب	الأصل	مدينة العمل	الفترة
أندري دو ماري André de MARI	جنوة	تونس	1443م
غوييالمينو سيبو Guillemino Cibo	جنوة	تونس	1250م
كونراد دو كاسترو Conrad di Castro	جنوة-	تونس	1236م
ليونارد بيمبو- Leonard Bembo	البندقية	تونس	1438م
مافيو دي بيسارو Maffeo de Pesaro	البندقية-	- تونس-	1456م
بيرنابو جيرالدو Bernabo Giraldo	صقلية	طرابلس الغرب	1356م
مارك كاروزو -Marc Caroso-	البندقية		1305م
أوبيزون أدلار Opizon Adalard	جنوة	تونس	1272م
فيتو مالكونديني- Vito Malcondignis	صقلية	تونس	1392م
زاشاري سبينولا Zacharie Spinola	جنوة-	تونس	1445م
جاك بونانو- Jacques Bonnano-	بالرم	تونس	1473م
غليوم دي بيرالتا Guillaume de Peralta	صقلية	تونس	1475م
أنطوان غريمالدي Antoine Grimaldi	جنوة	تونس	1465م
غليوم دو تالامانكا de Talamanca guillaume	صقلية	تونس	1392م
بيار ديلفينو Pierre Delfino-	البندقية	-تونس	1231م
فيليب جولياني	البندقية	تونس	1251م

بيار دو لابارب Pierre de la barbe	بيزا	المغرب	1358م
بارنت فيسكونتي	بيزا	تونس	1263م
هيوج بورغونيون	مارسيليا	بجاية	1268م
ميشلي ميشليMichelli Michelli	البندقية	تونس	1317م
جون دوندلو	البندقية	تونس	1271م
بيرنارد زابيلا	برشلونة	تلمسان	1319م
بالديناسيو دي أنطونيو ديغلي ايري Baldinaccio d'Antonio Degli Erri	فلورنسا	تونس	1445م

3- قائمة اسمية لبعض التجار الأوروبيين في بلاد المغرب

الاسم واللقب	الأصل	مكان التواجد
جون دوكانال Jean de Canale	بندقي	بتونس
بوشار bocher	جنوي	تونس
بيرا بالدوسي Pera Balducci	بيزي	تونس
روبار سبينولا Robert Spinola	جنوي	تونس
بيرنارد سيبو *Bernard Cibo*	جنوي	تونس

سيما أرنو cima Arnau	ميورقة	تلمسان1337م
لوبي أرنو Lobi Arnau	ميورقة	تلمسان 1329م
سوتزينر بير Sotziner père	برشلونة	تلمسان 1330م
فيلاسيس برنات Vilasis Bernat	بلنسية	تلمسان 1308م
رويغ بير Roig père	ميورقة	تلمسان
هوج بورغينيون	مرسيلي	بجاية1268م
كاسا	ميورقة	مستغانم وتونس-715ه
سيما دومنغو	ميورقة	الجزائر بجاية 713-716ه
دس ليدو غيلام	ميورقة	الجزائر -وهران تونس729ه
سيرا غيلام	برشلونة	وهران -بجاية 730/708ه
رويج رامون	بلنسية	وهران طبرقة 708-710ه
أندرو الأب	ميورقة	سبتة -تلمسان 729ه
فيردي سيمو		هنين الجزائر-بجاية716ه-721ه

المصدر :ما لاتري، معاهدات التجارة والسلم، روبار برانشفيك، افريقية في العهد الحفصي، بورقيبة،الجزائر عبر التاريخ

الاسم واللقب الأصل المهمة التي أوكلت له

فيبالدي	صقلية	مبعوث من طرف فريديريك 2 ملك صقلية –الى أبو زكريا يحيى سلطان تونس –المهمة –عقد معاهدة تجارة وسلام بين البلدين– ابريل 1231م
مارين مولينو– Marin Molino–	البندقية	مبعوث بيار غرادينيغو دوج الى تونس للشكوى لدي السلطان الحفصي بخوص ما تقدم به بعض البنادقة عما لحقهم من خسائر وأضرار بمملكته حوالي 1300م.
غليوم أولومار	برشلوني	كلف بمهمة أدى سلطان تونس لاقتراض أي مبلغ باسمه من السلطان الحفصي 1292م.
بيير دي فوسي– Pierre de Fosse	أراغوني	حمل رسالة من جاك الثاني ملك أراغون الى أبي عصيدة محمد سلطان تونس بخصوص الأسرى وحقوق ورسوم الجمارك 1306م.
بيرنار ديسبويغ–	أراغون	كلف بحمل رسالة من جاك 2 ملك أراغون الى أبو تاشفين الأول عبد الرحمن ملك تلمسان بخصوص عملية افتداء الأسرى سنة 24/1319/ أبريل وإمكانية عقد اتفاقية سلام.
هيوغ دي سانتا باز Hugues de	صقلية	بخصوص مسألة جزيرة 1393م جربة المحتلة

Santa Paz		
غليوم دي تالامانكا	صقلية	بخصوص مسألة جزيرة 1393م جربة التونسية المحتلة
الراهب كريستوف رادلين –هيوج سانتا	روما	يحمل رسالة من جيل الثاني 1212م بخصوص الظروف الأمنية السيئة التي كانت تشهدها أسقفية قسنطينة ويحذر من التردد عليها بسبب المخاطر التي يسببها الإقامة هناك
بيير فيجاتا Pierre vigata	برشلونة	مبعوث خاص الى بجاية سنة 1315م من طرف أعيان برشلونة الى بجاية قصد تحصيل أموال التعويض عما قدم له من مساعدات عسكرية ضد أبي حمو الأول الملك الزياني حسب اتفاق مسبق
كريستوف ماروفو Christophe Maruffo	جنوة	مبعوث جنوة الى تونس في مهمة للدفاع عن وضعية و امتيازات بلده التي أصبحت مهددة بشكل كبير من طرف القرصنة في البحر المتوسط

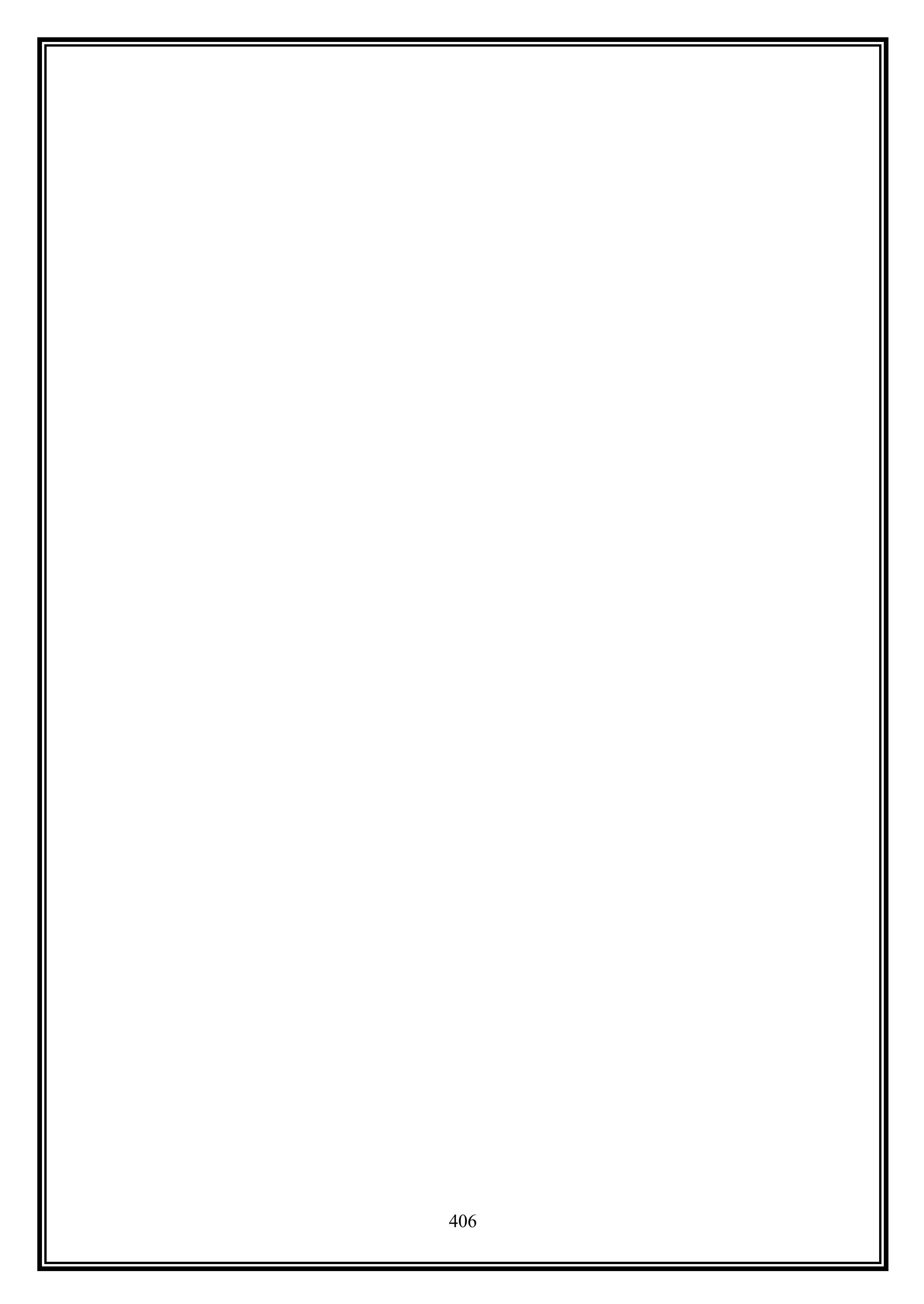
قائمة اسمية لبعض السفراء الأوروبيين في بلاد المغرب

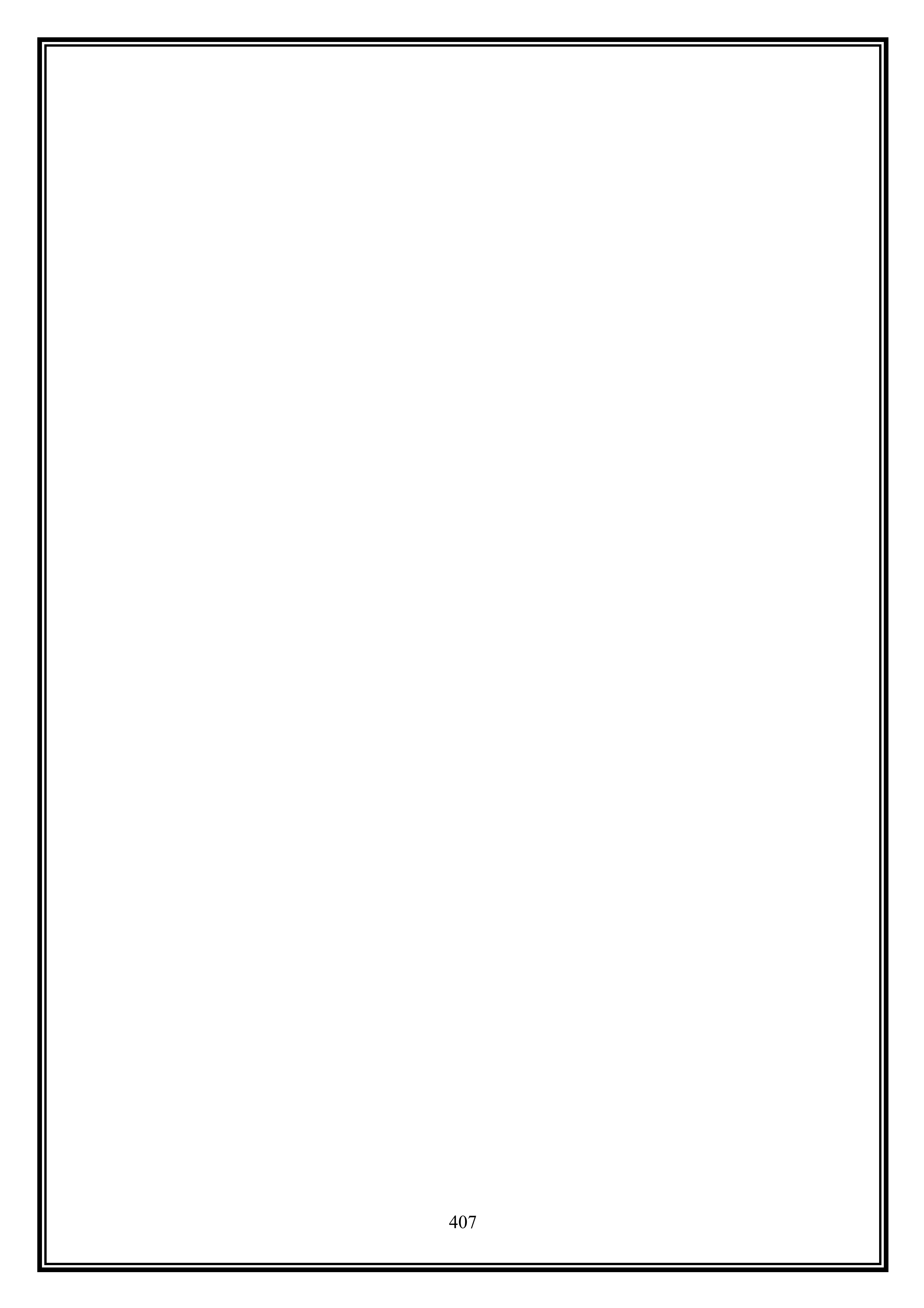
الاسم واللقب		الأصل	مكان التعيين	الفترة
أندريولو أمبرياكو	Andriolo Embriaco	جنوة	تونس	العقدالثاني من ق14م
فيدو بيزان	Vido Pisan	صقلية	تونس	1421م
جاك ميشال	Jacques Michel	قطلونيا	تونس	1421م
لوك ديلونسيانو	Luc da Lonciano	فلورنسا	تونس	1421م
هوج بورغينيون	Hugues Borgonion	مرسيليا	بجاية	1268م
جاك بو نانو	Jacques Bonnano	بالرمو-صقلية	تونس	1473م
جاك فاليريسو	JacquesVallareso	البندقية	تونس	1392م
بيار بوسو	Pierres Boussot	قطالونيا	تونس	1307م
جون بوكلول	Poculuyl Jean	بلنسية	بجاية	1314م

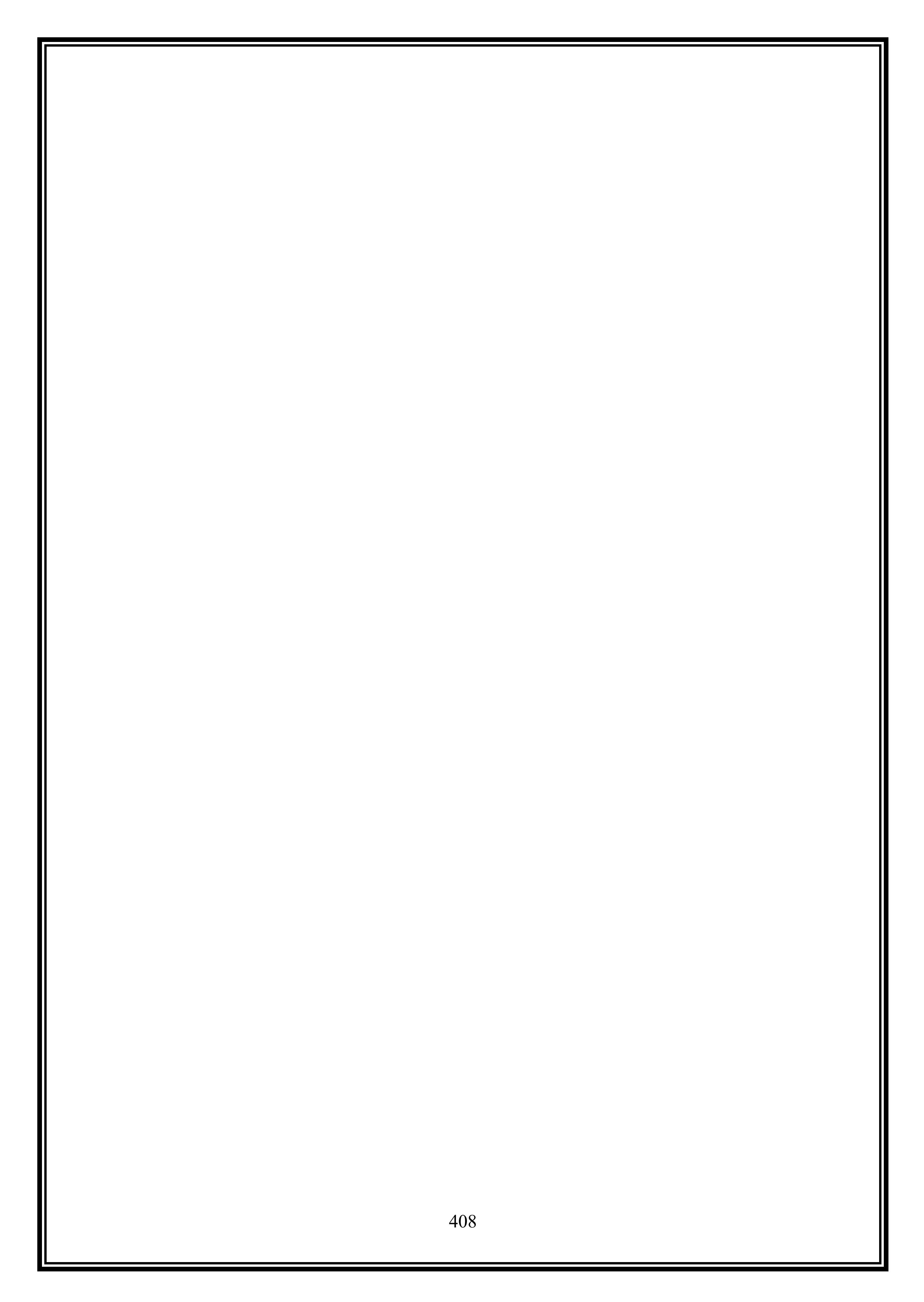
الاسم واللقب	الأصل	مكان التعيين	الفترة
برناردبينيكاس BernardBenencasa	برشلونة	بجاية	1315م
ريموندفيلناف Raymond Villeneuve	سرقسطة	تونس	1306م
بيرناردیسبويغ Bernard Despuig	أراغون	تلمسان	1319م
رومان دي كوبيار Romain de Cobiere	أراغون	فاس	1323 م

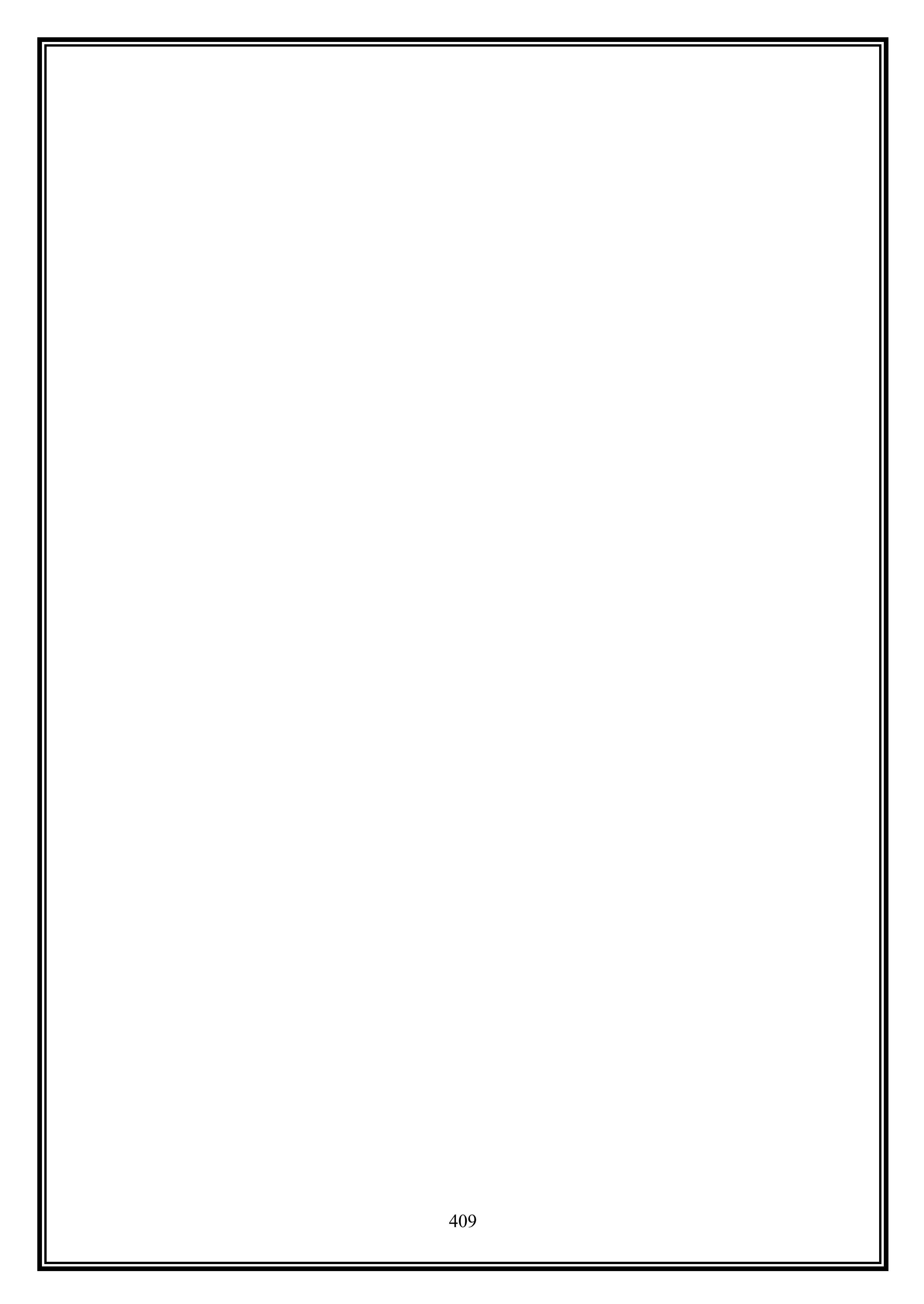
بيرنارد جيرالدو Bernardo Giraldo	البندقية	طرابلس	1356م

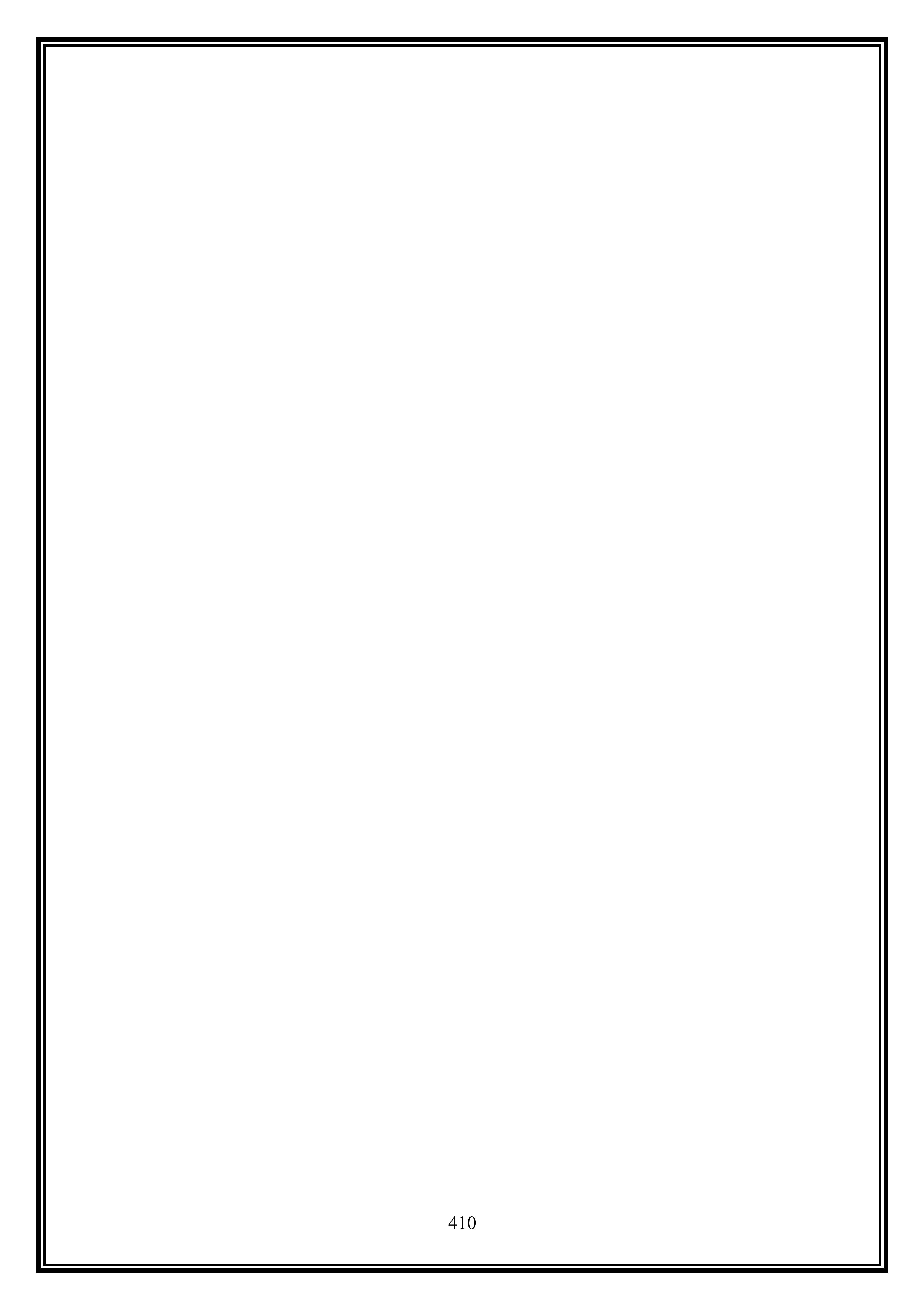
قائمة المصادر والمراجع

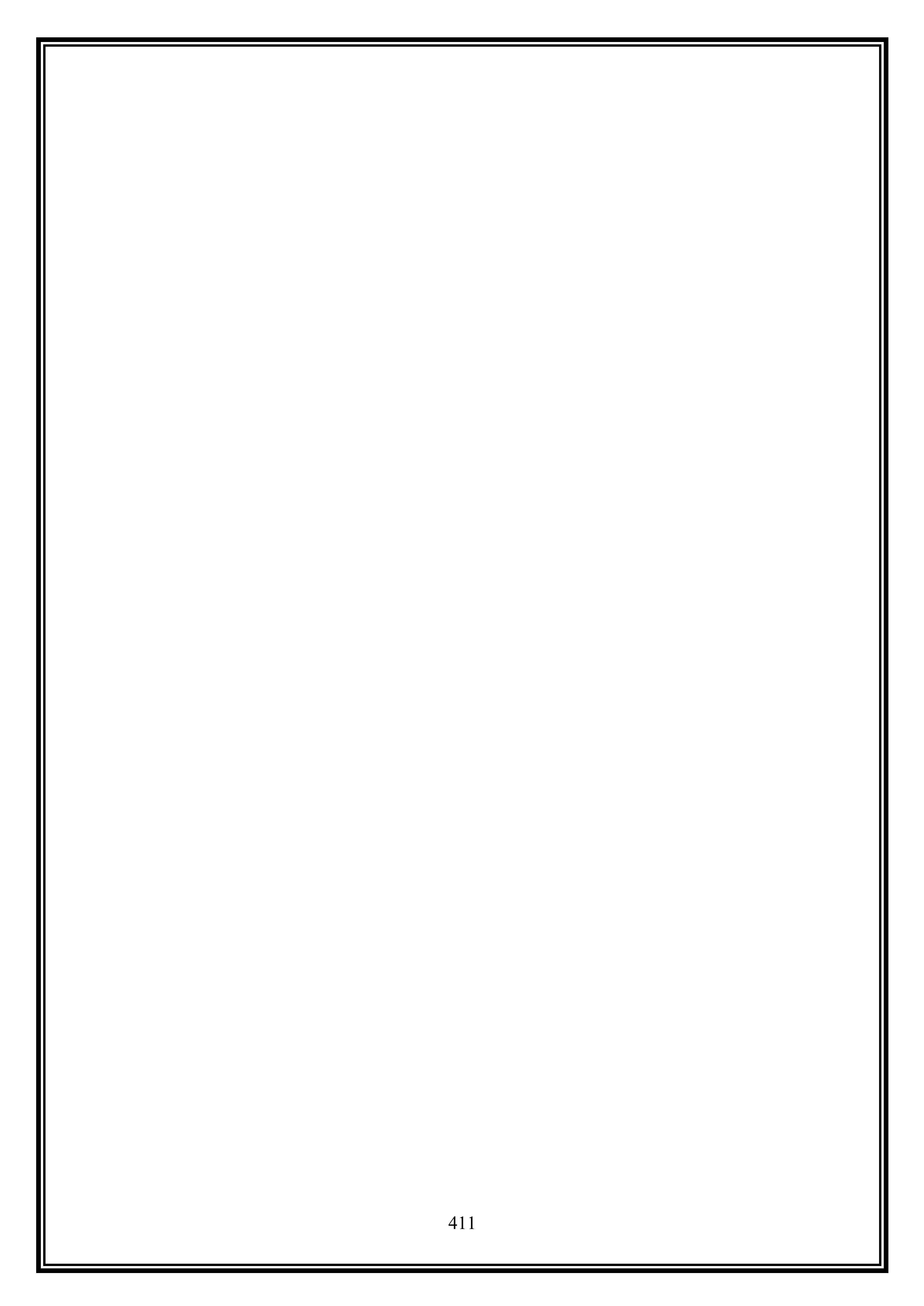


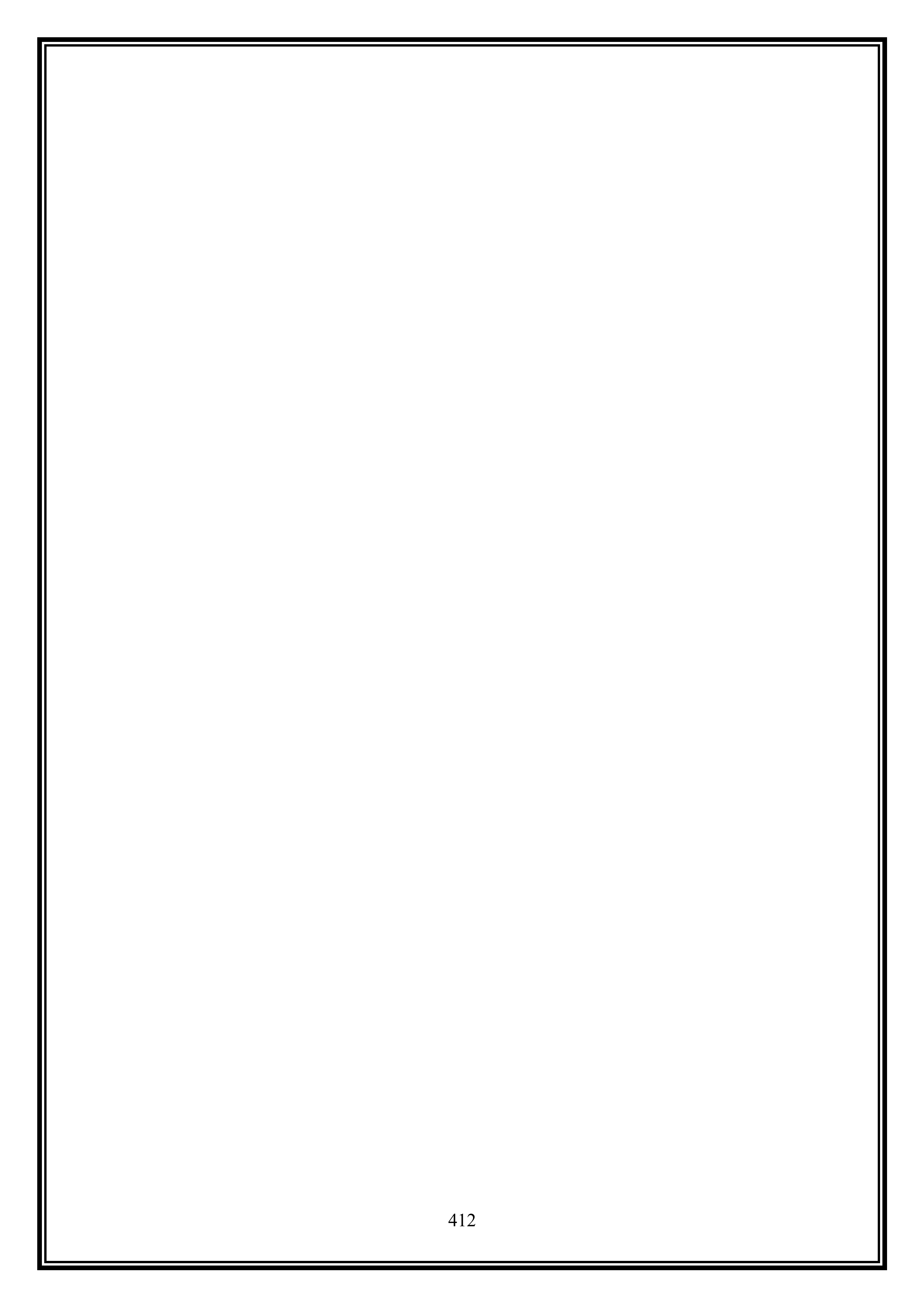


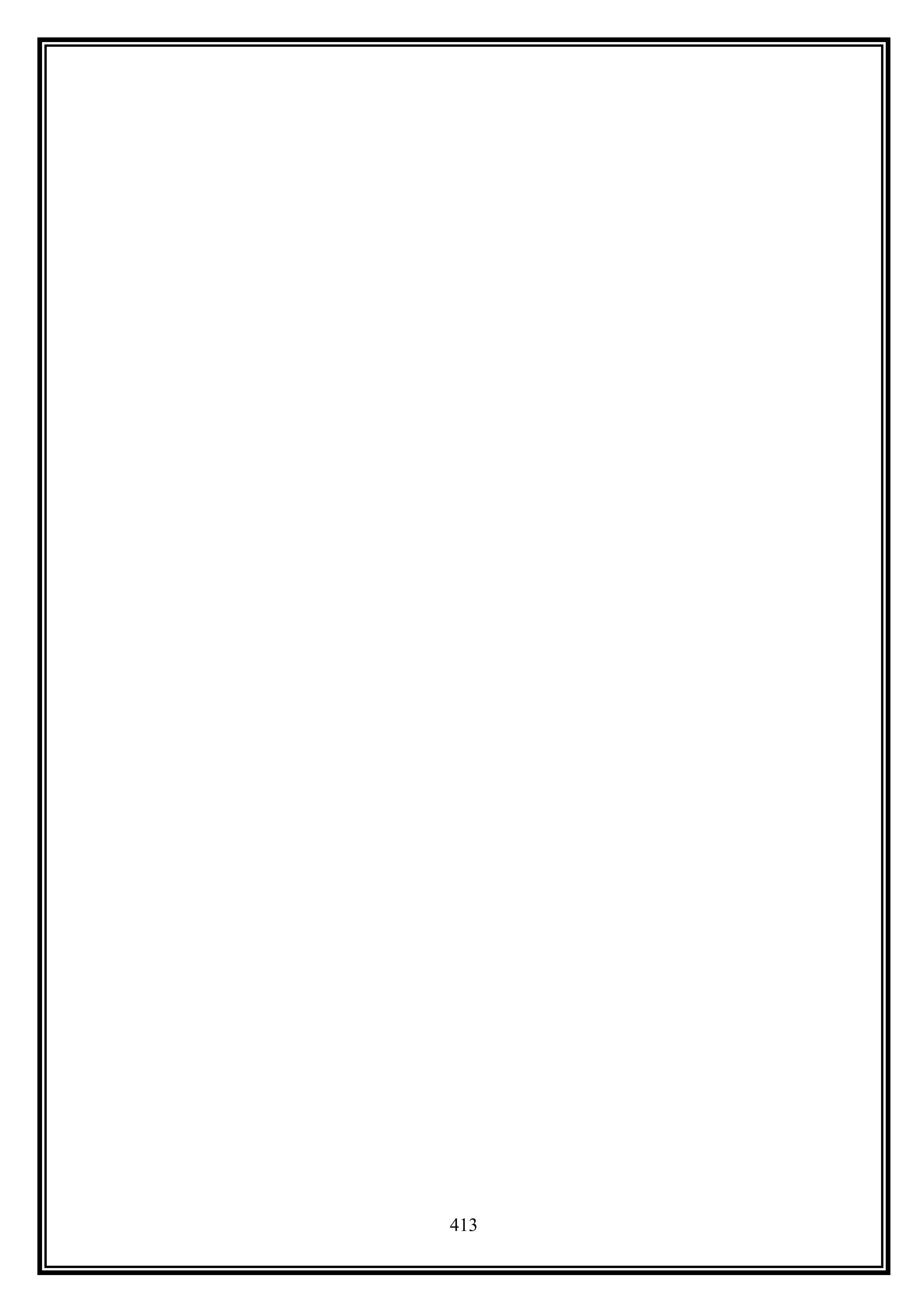


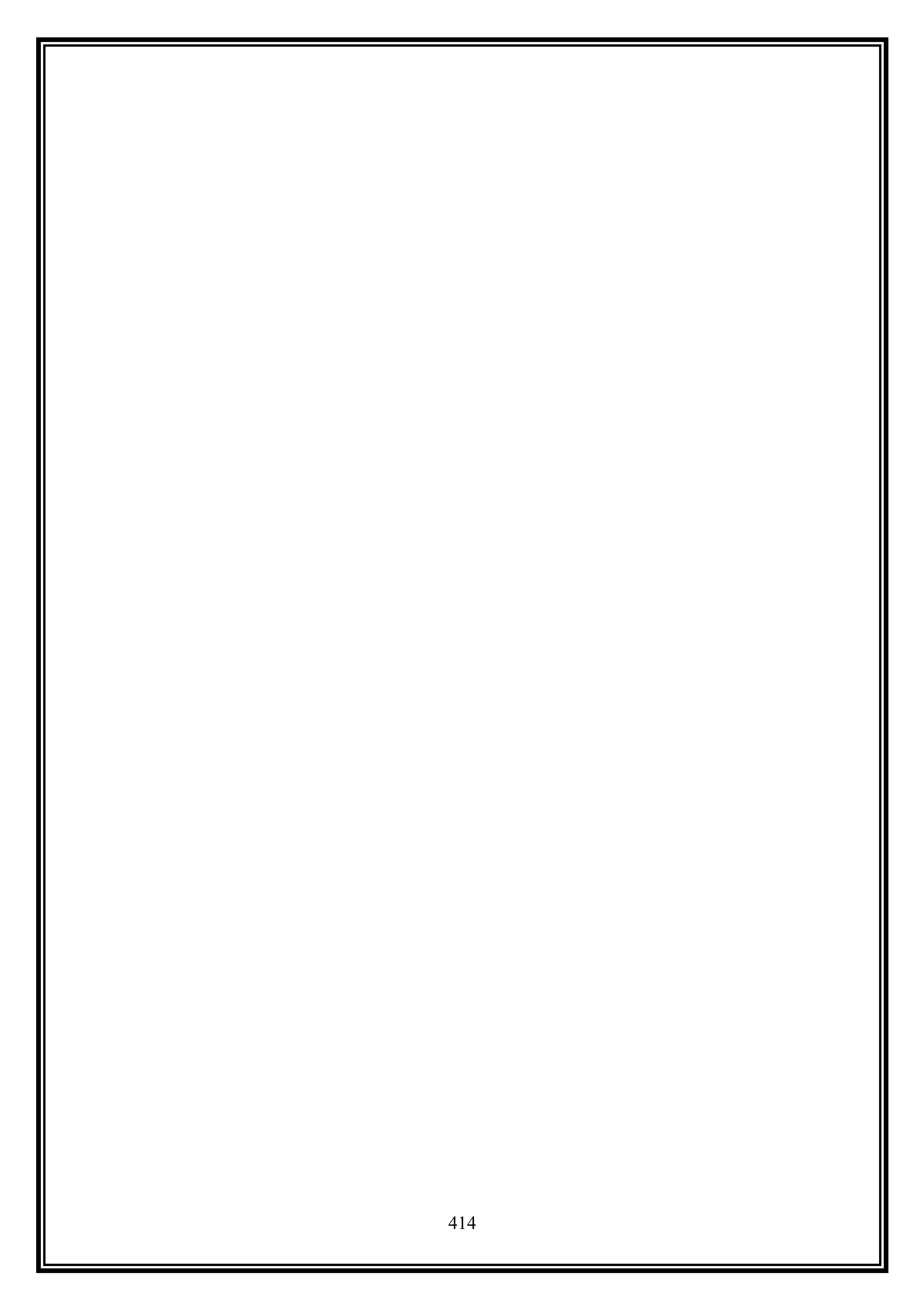


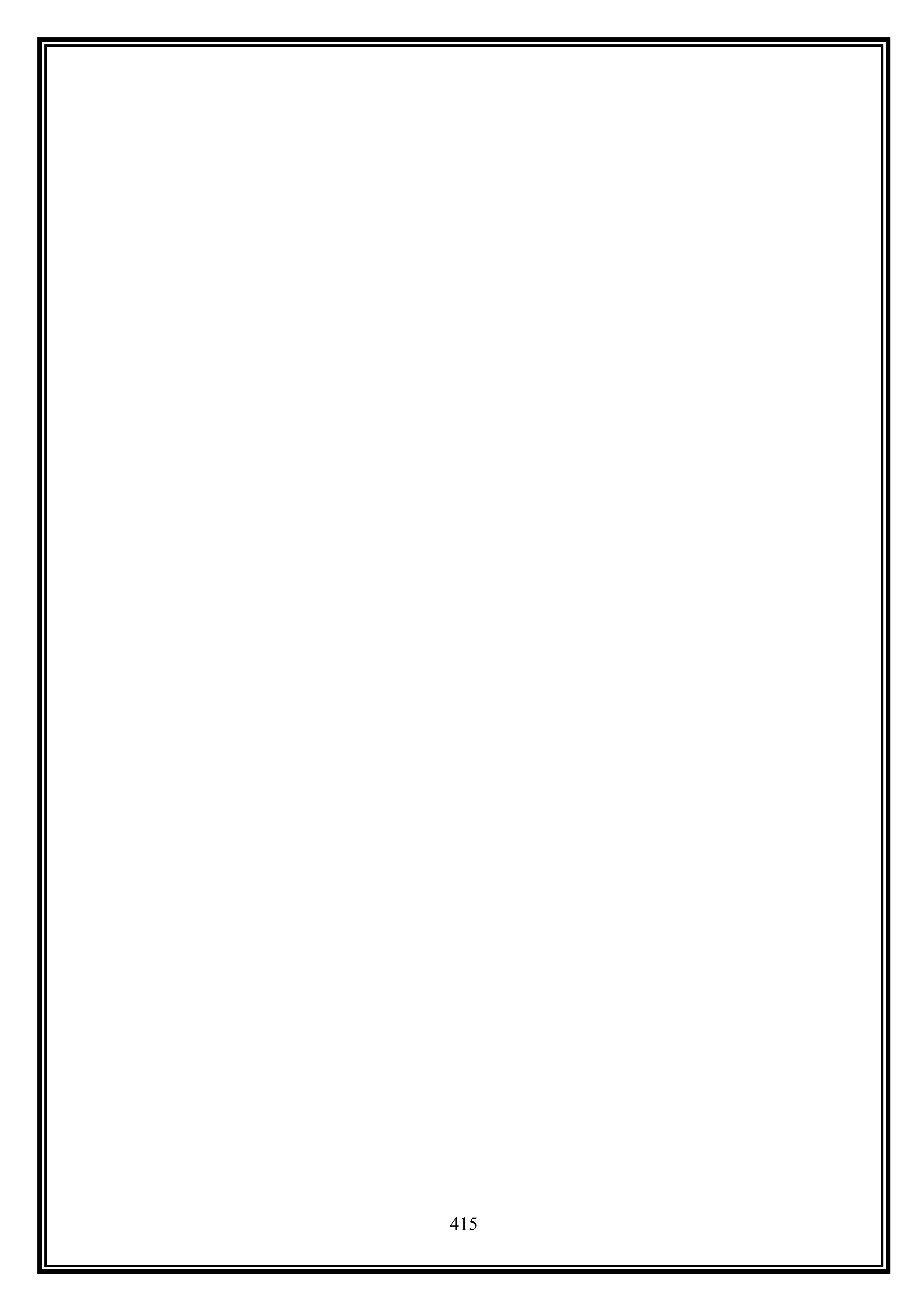


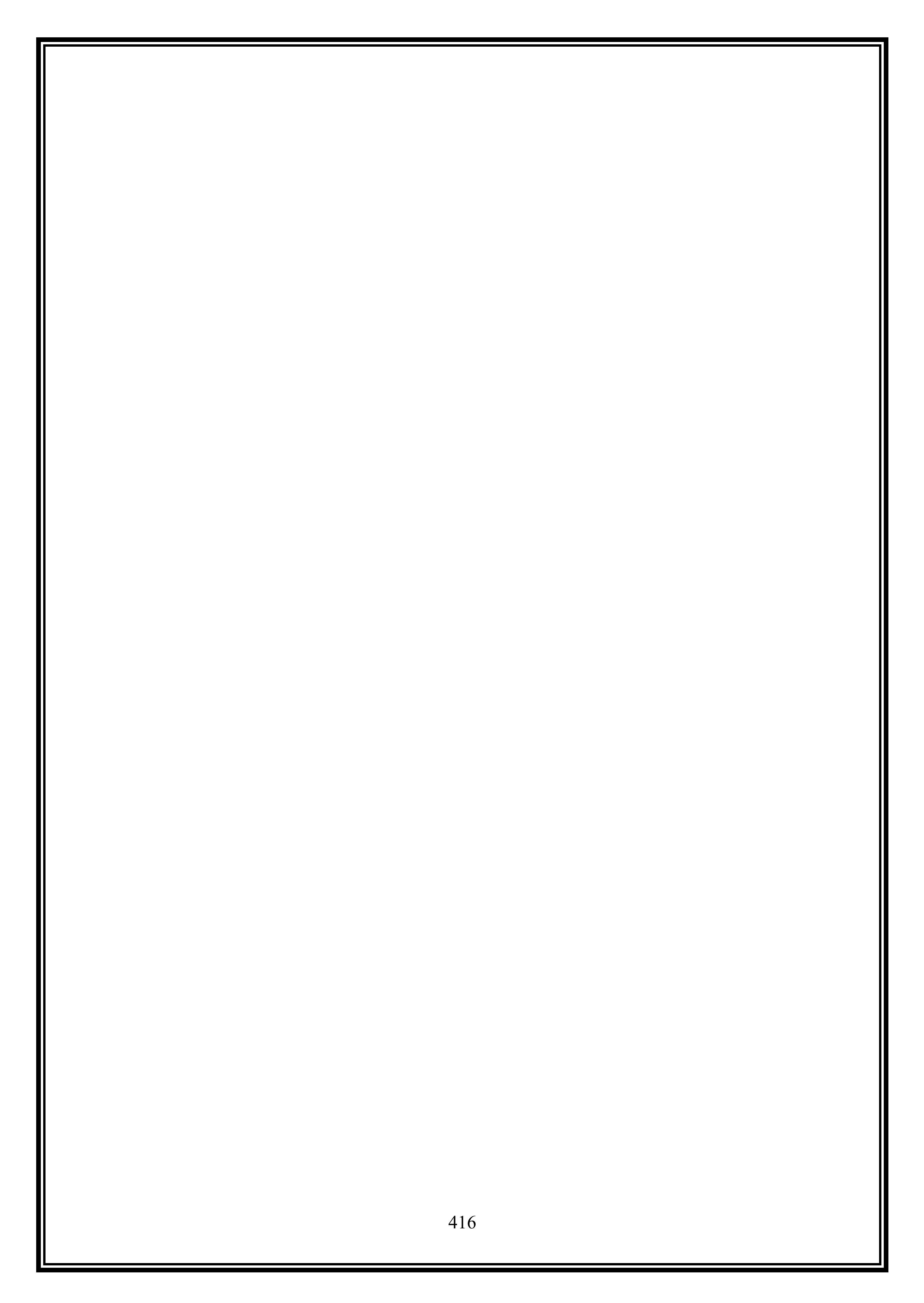


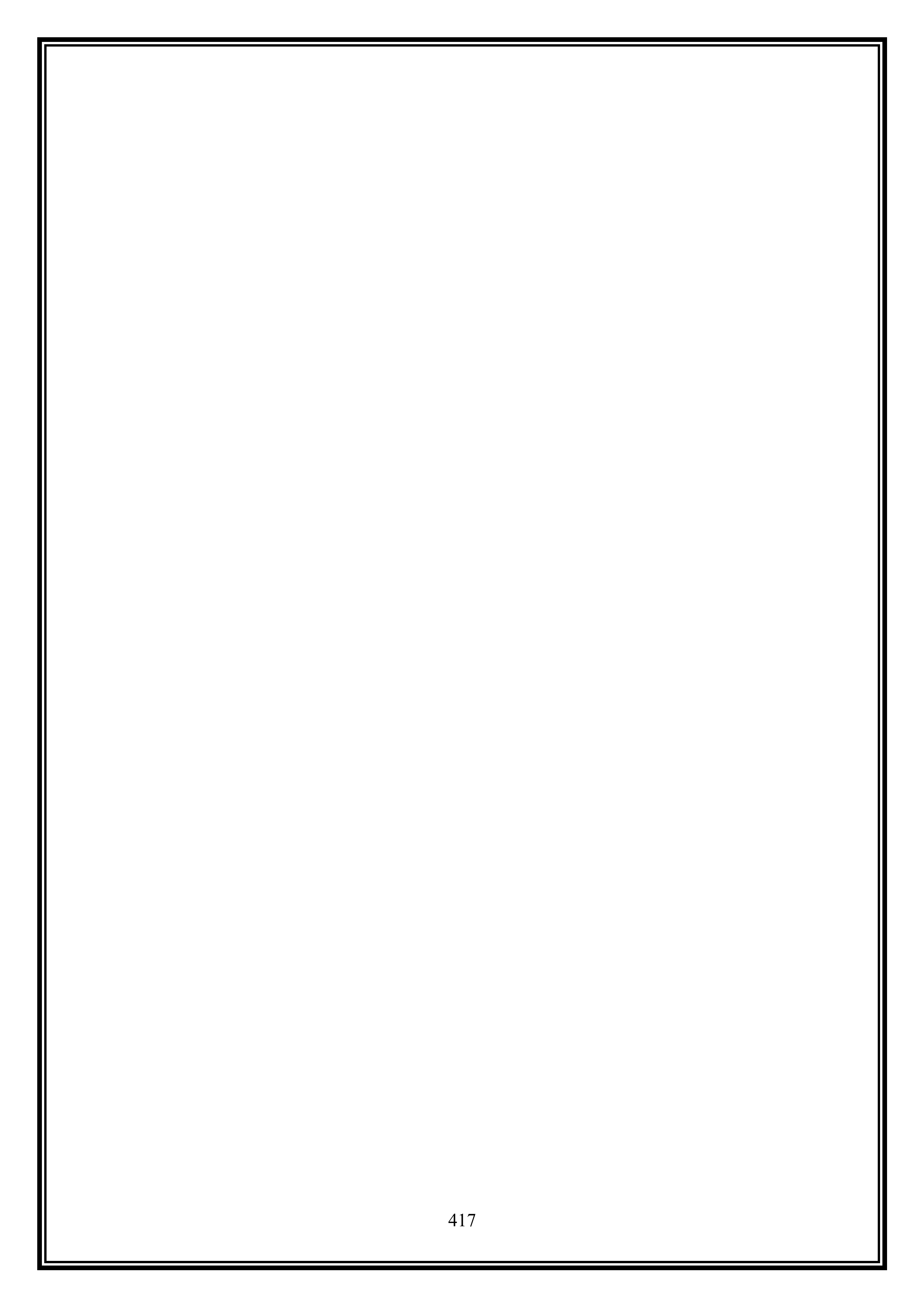


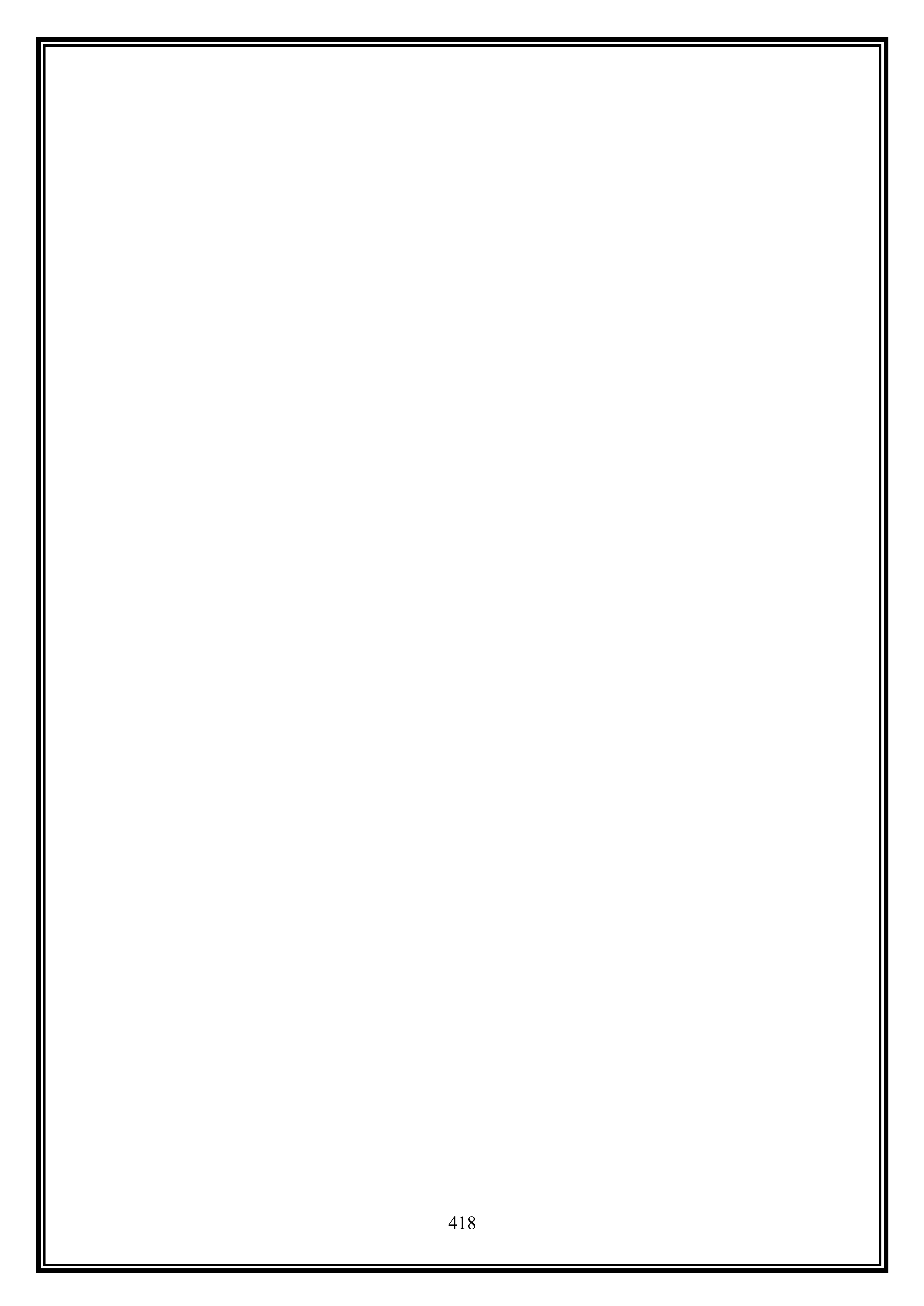


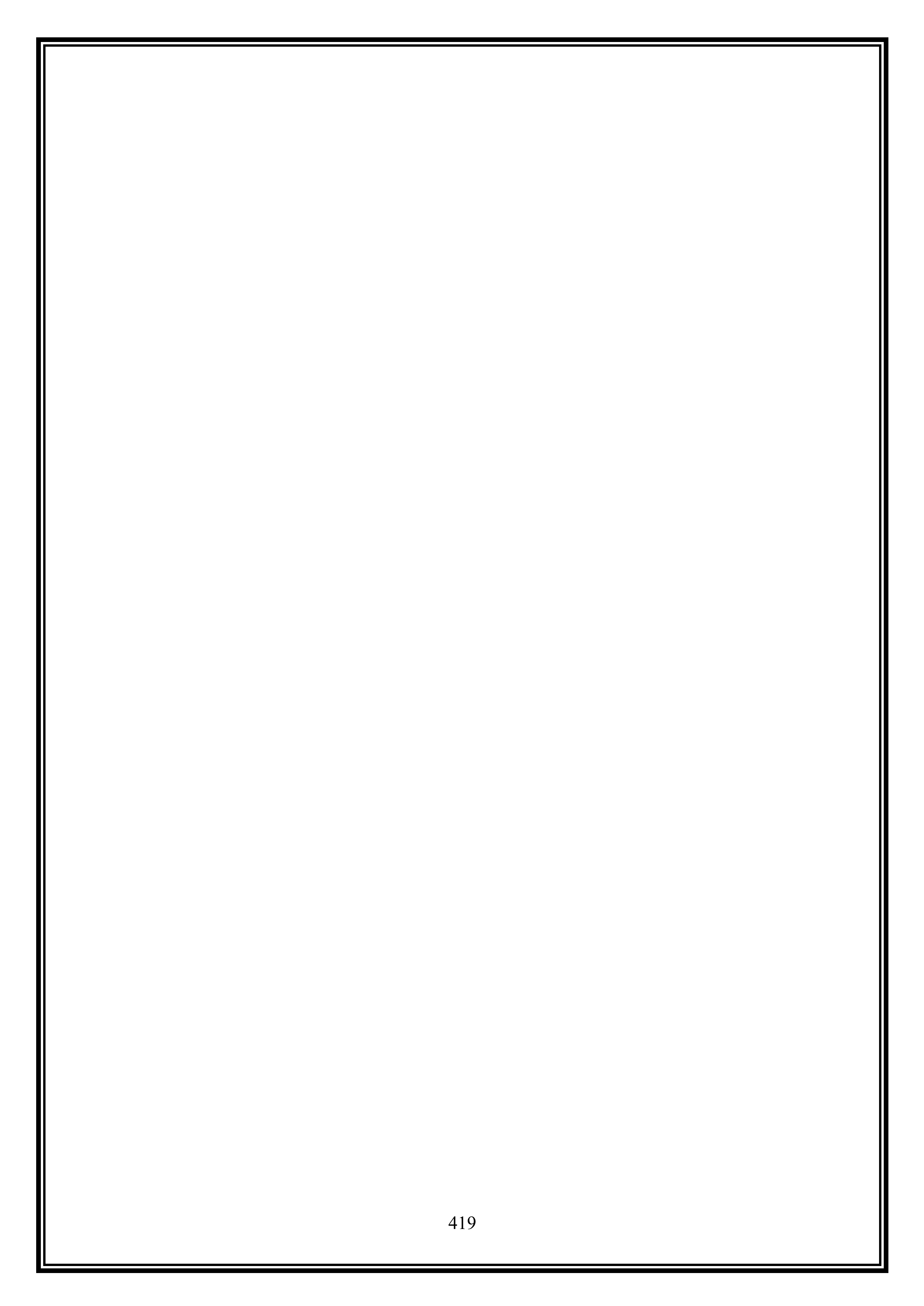


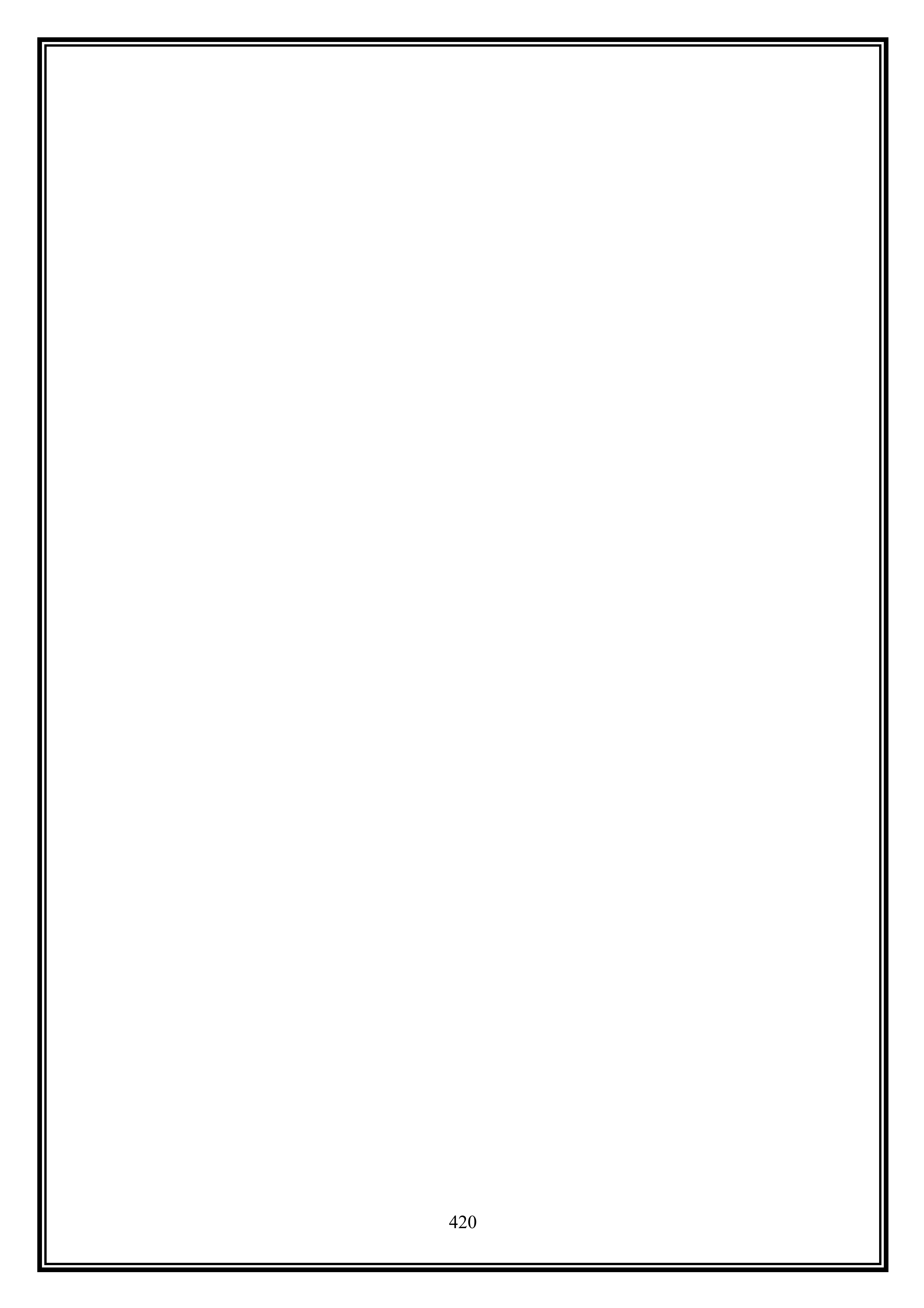


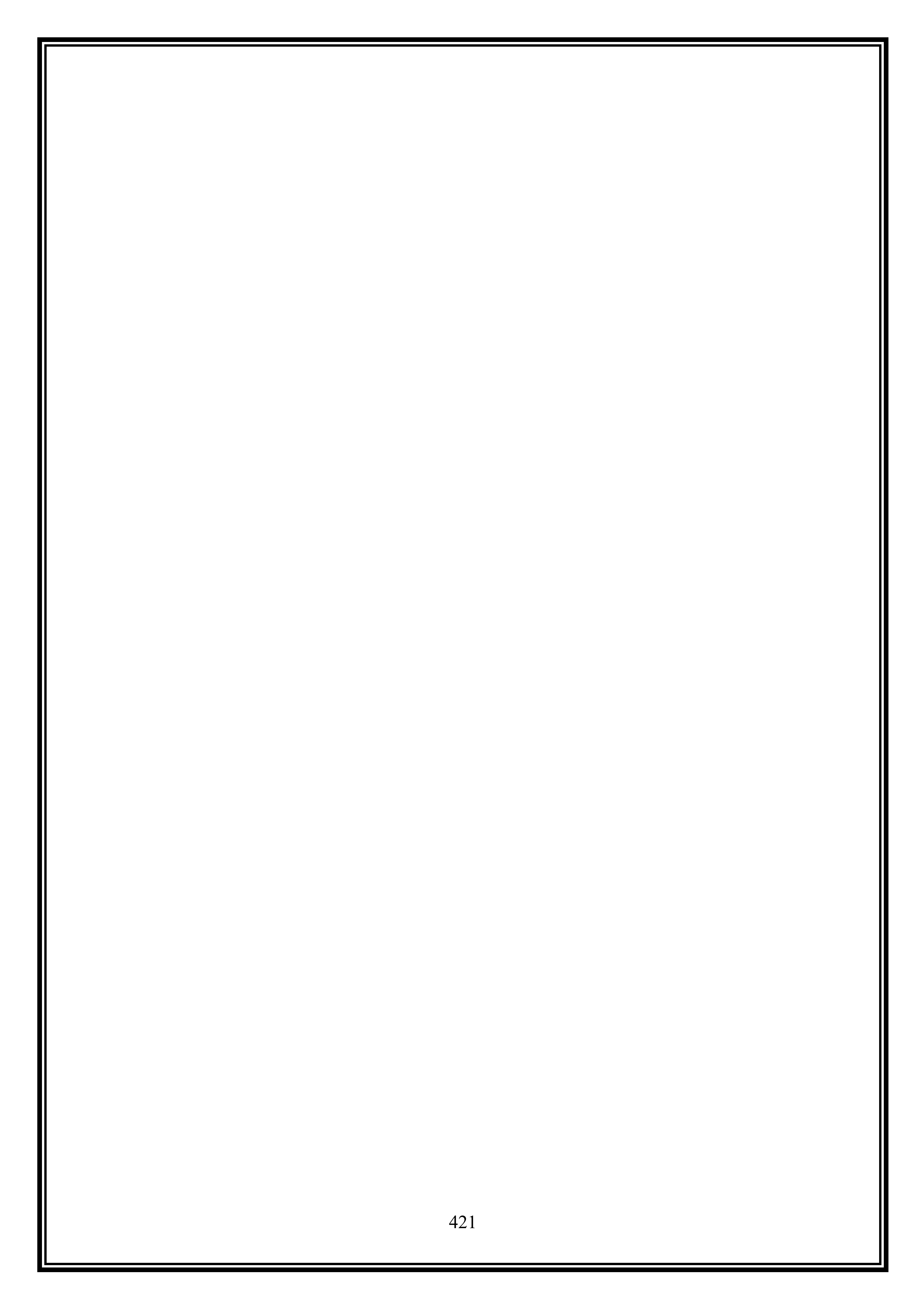


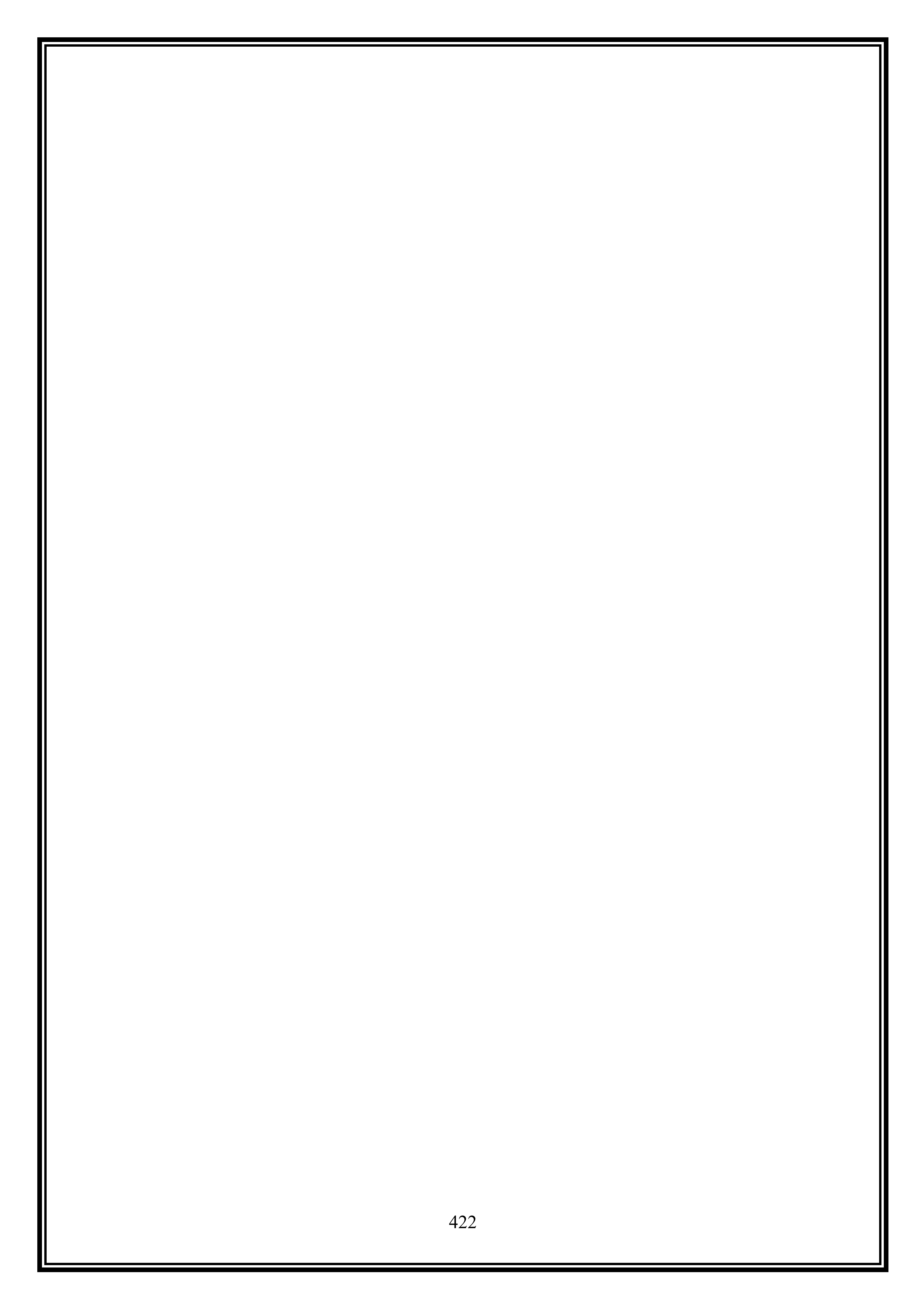


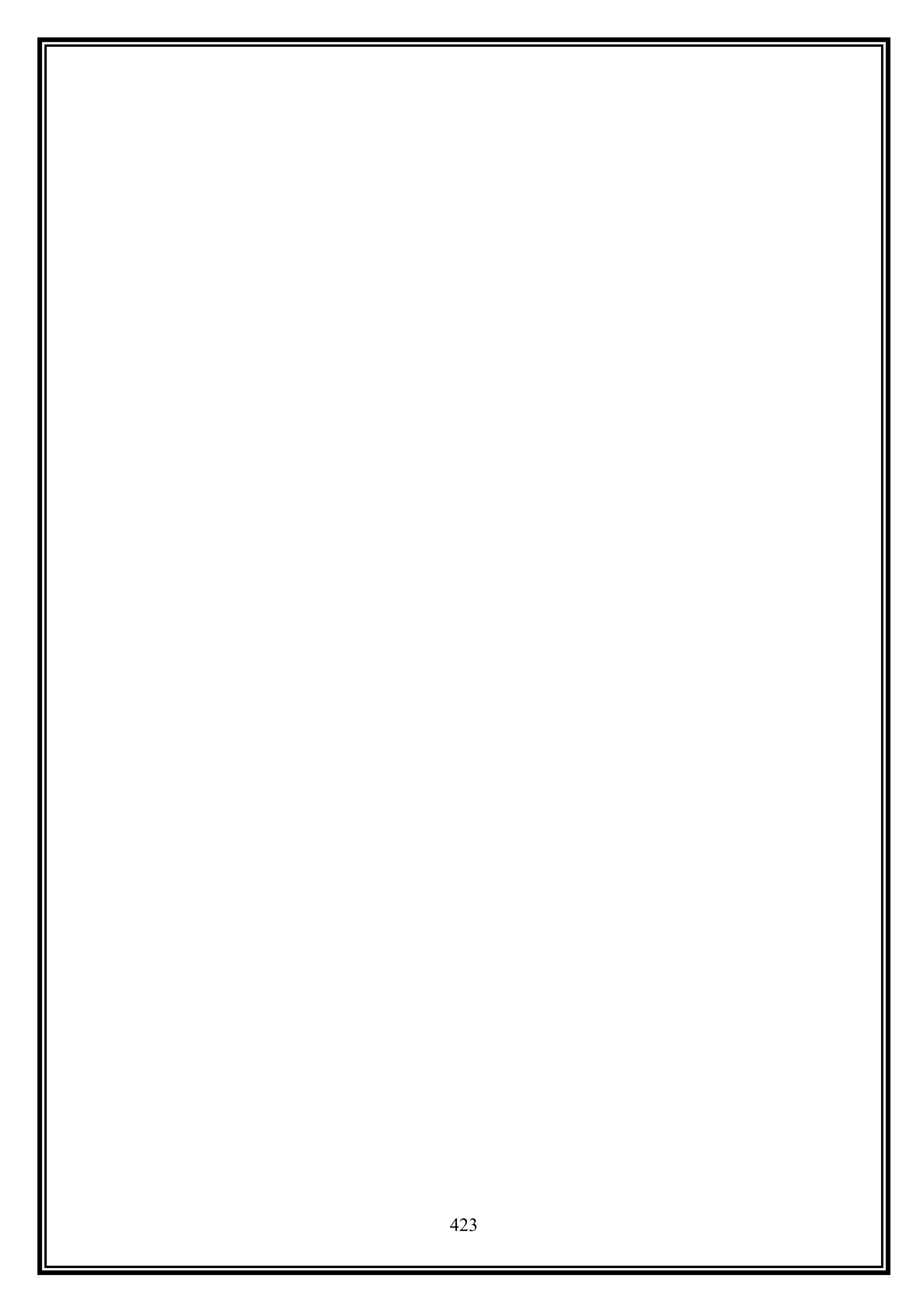


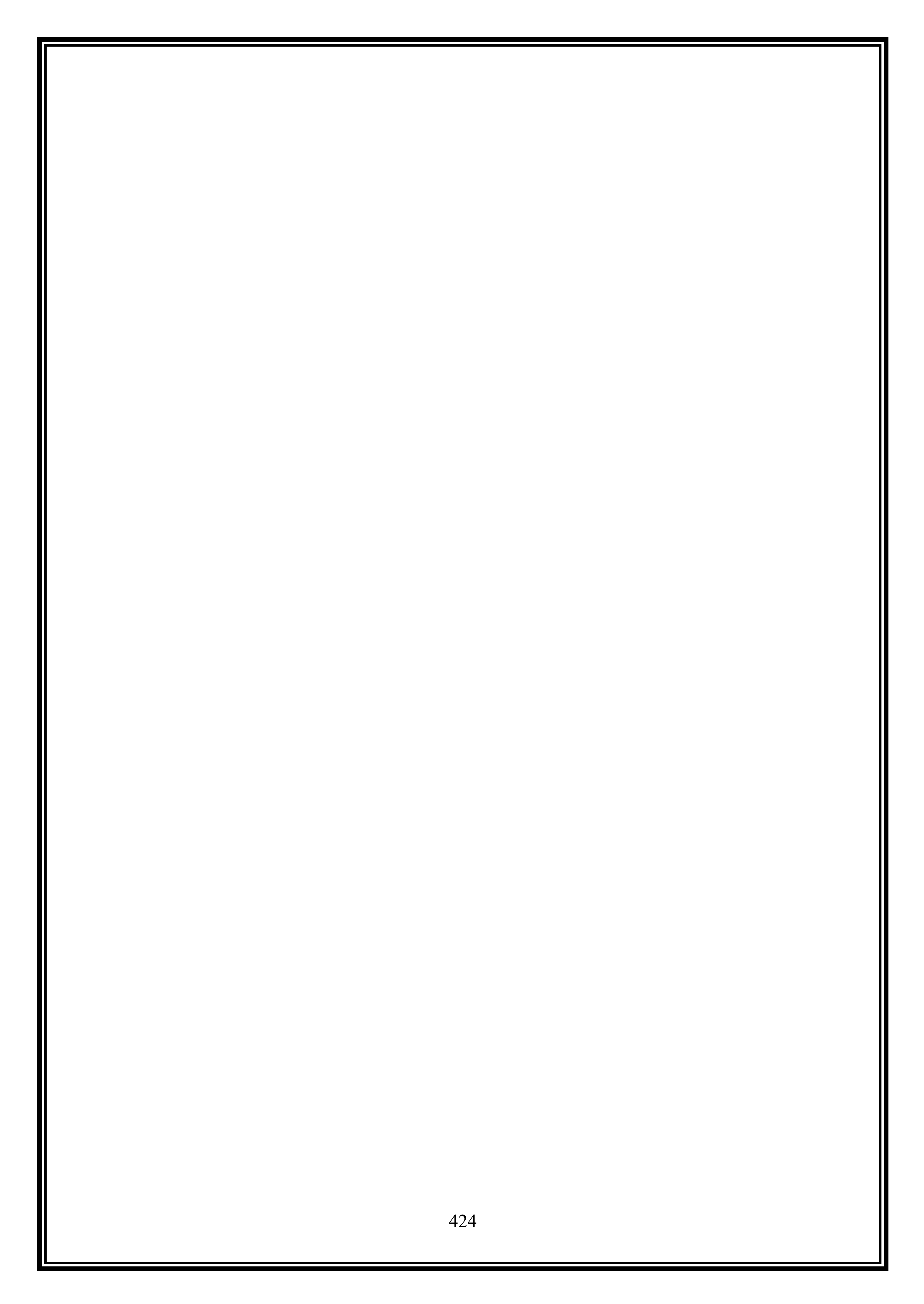


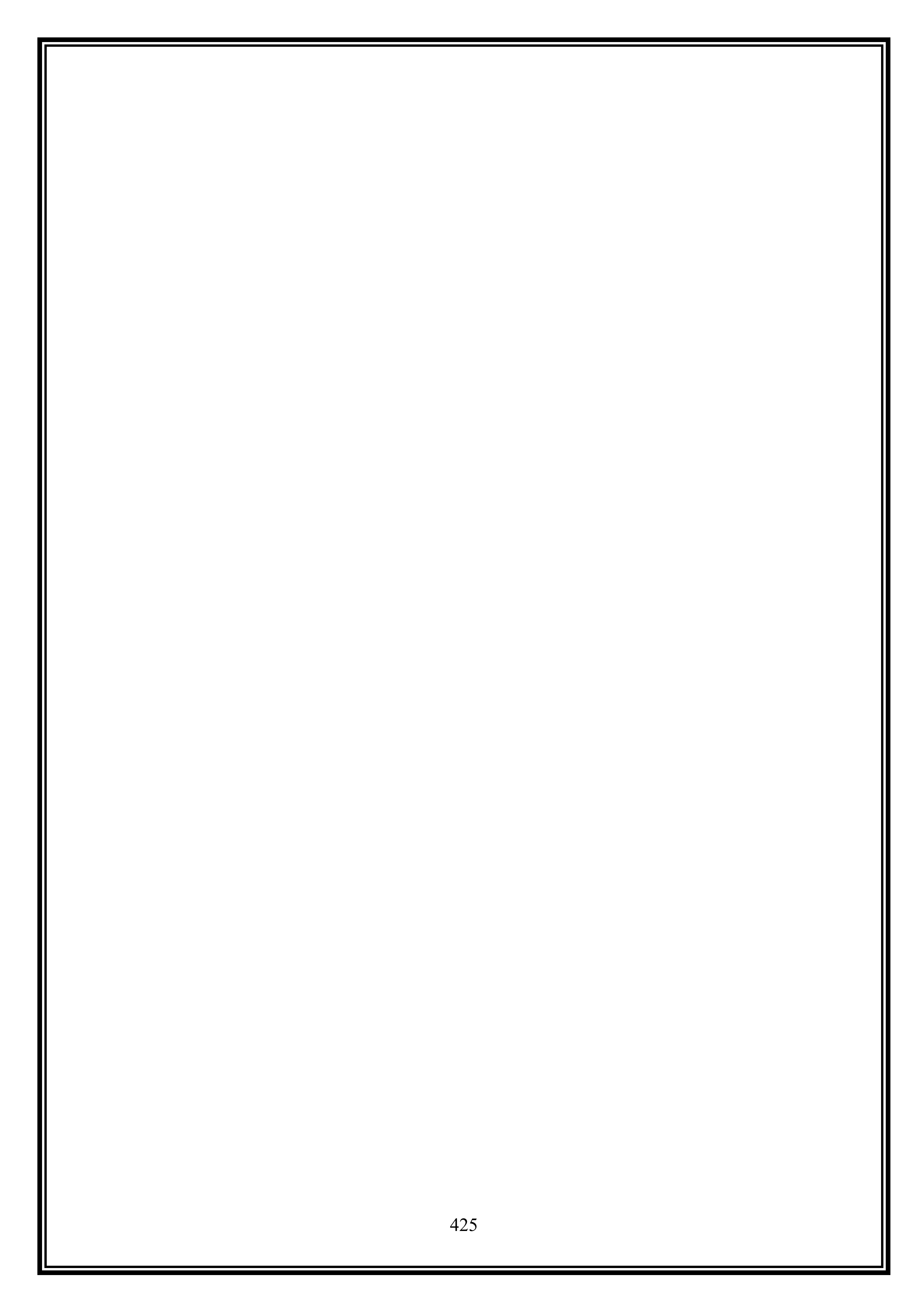


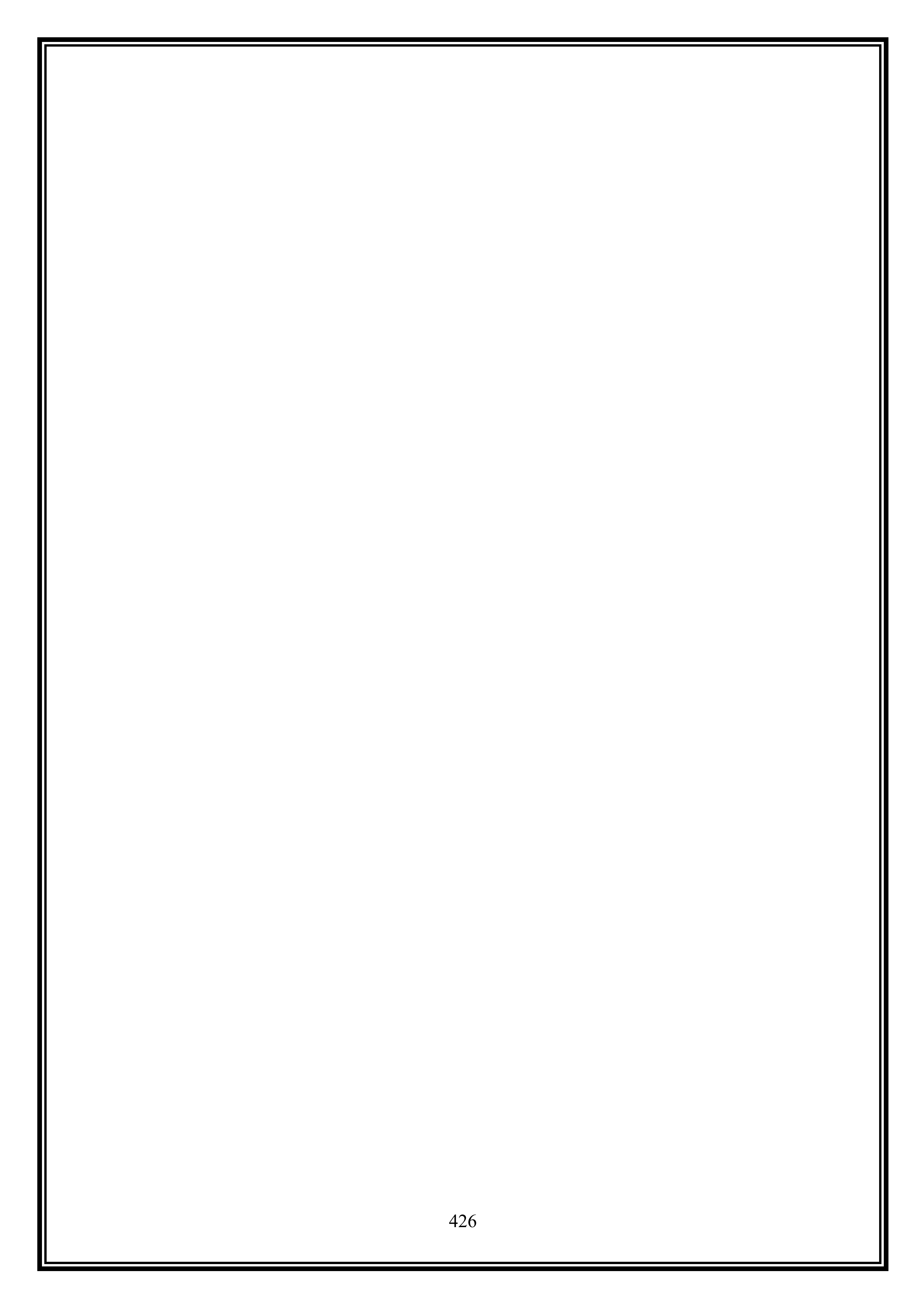


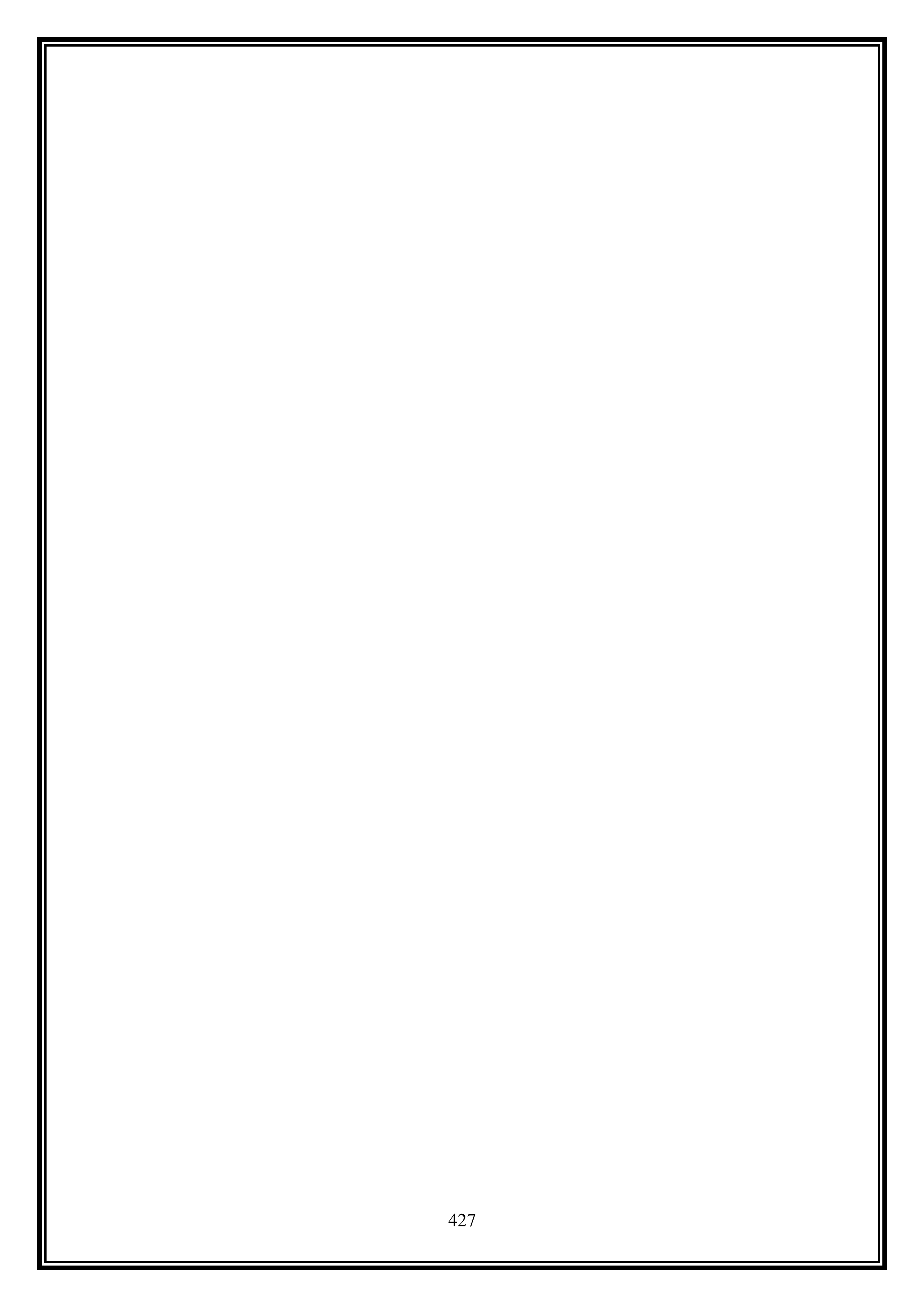


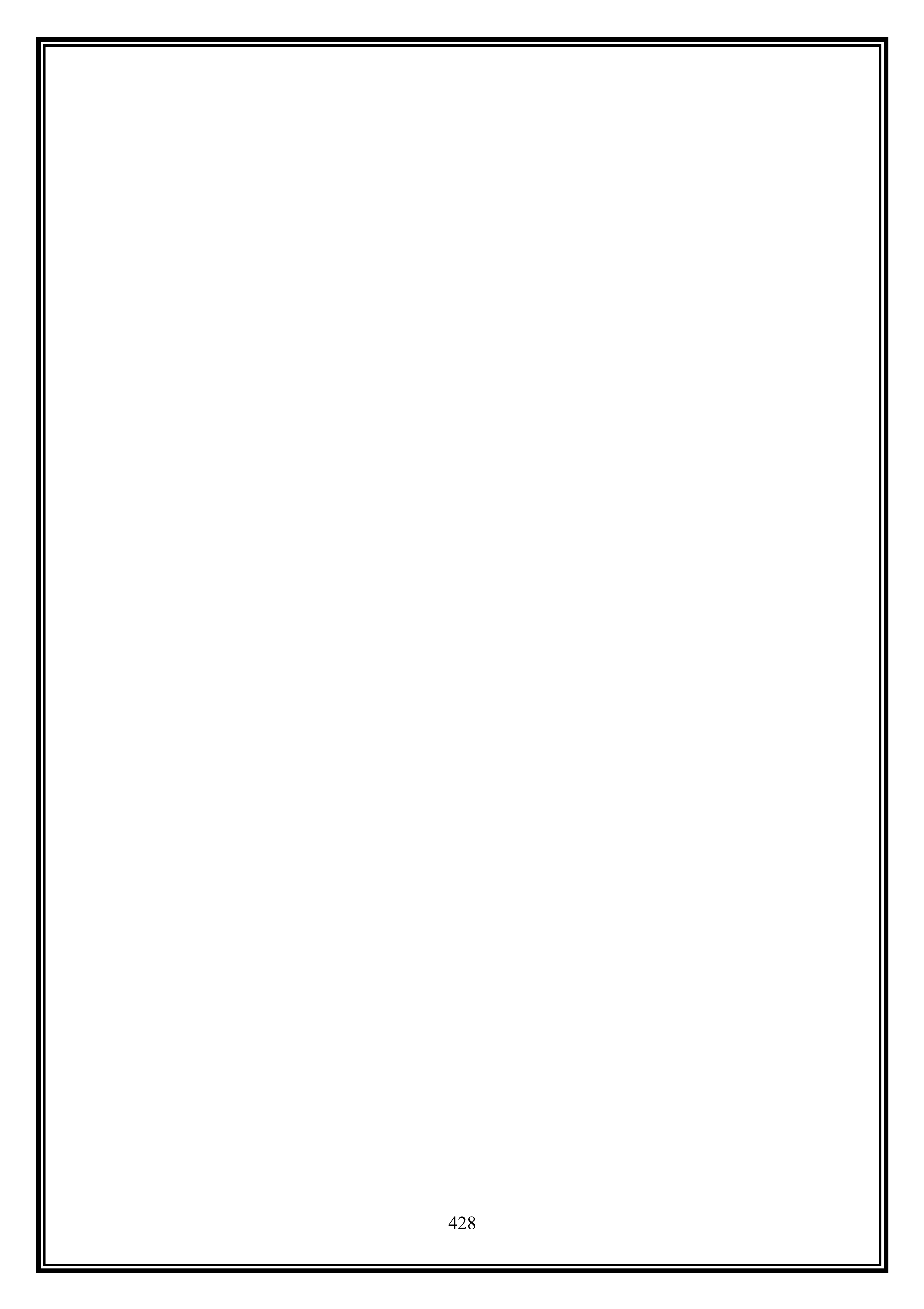


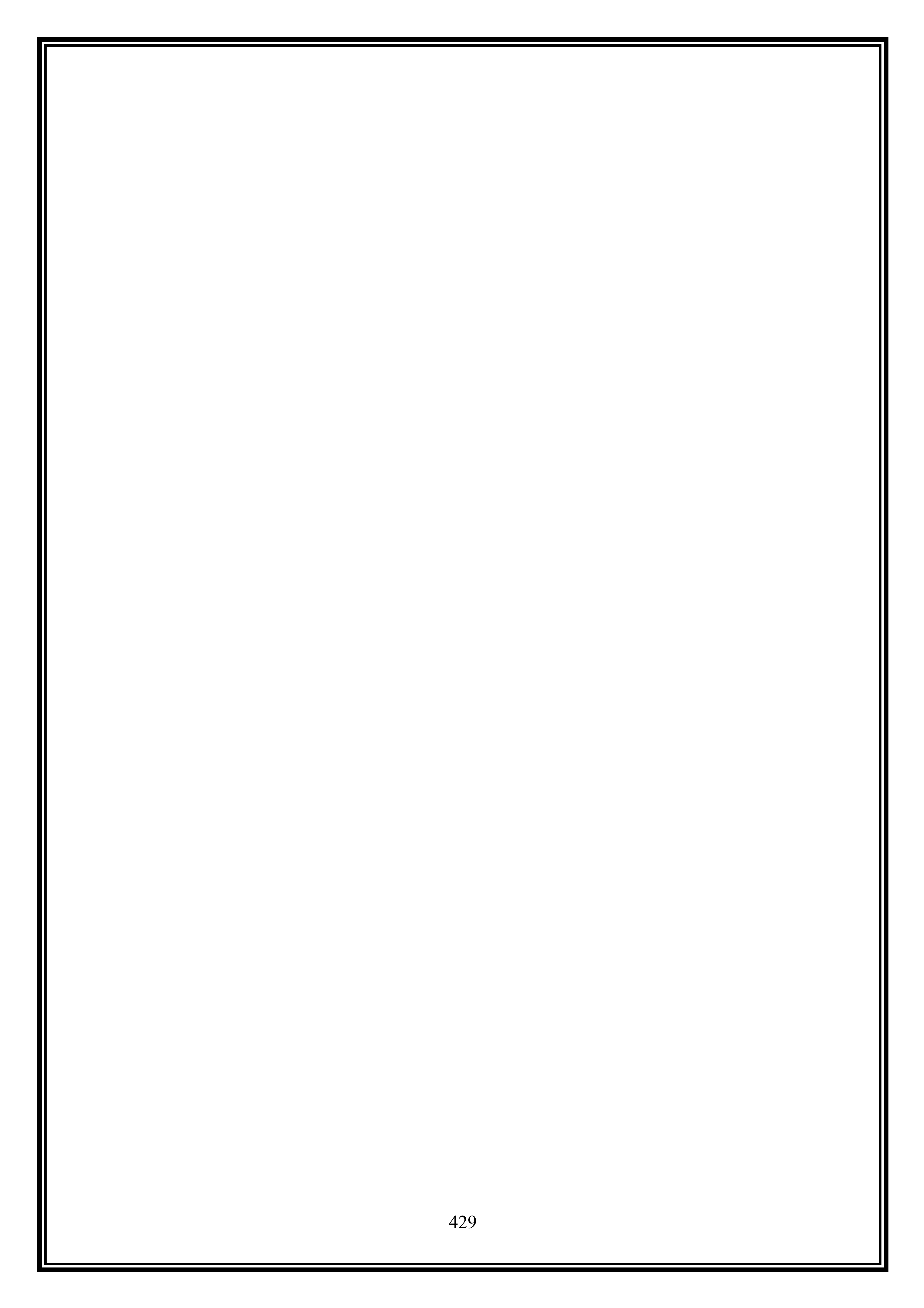


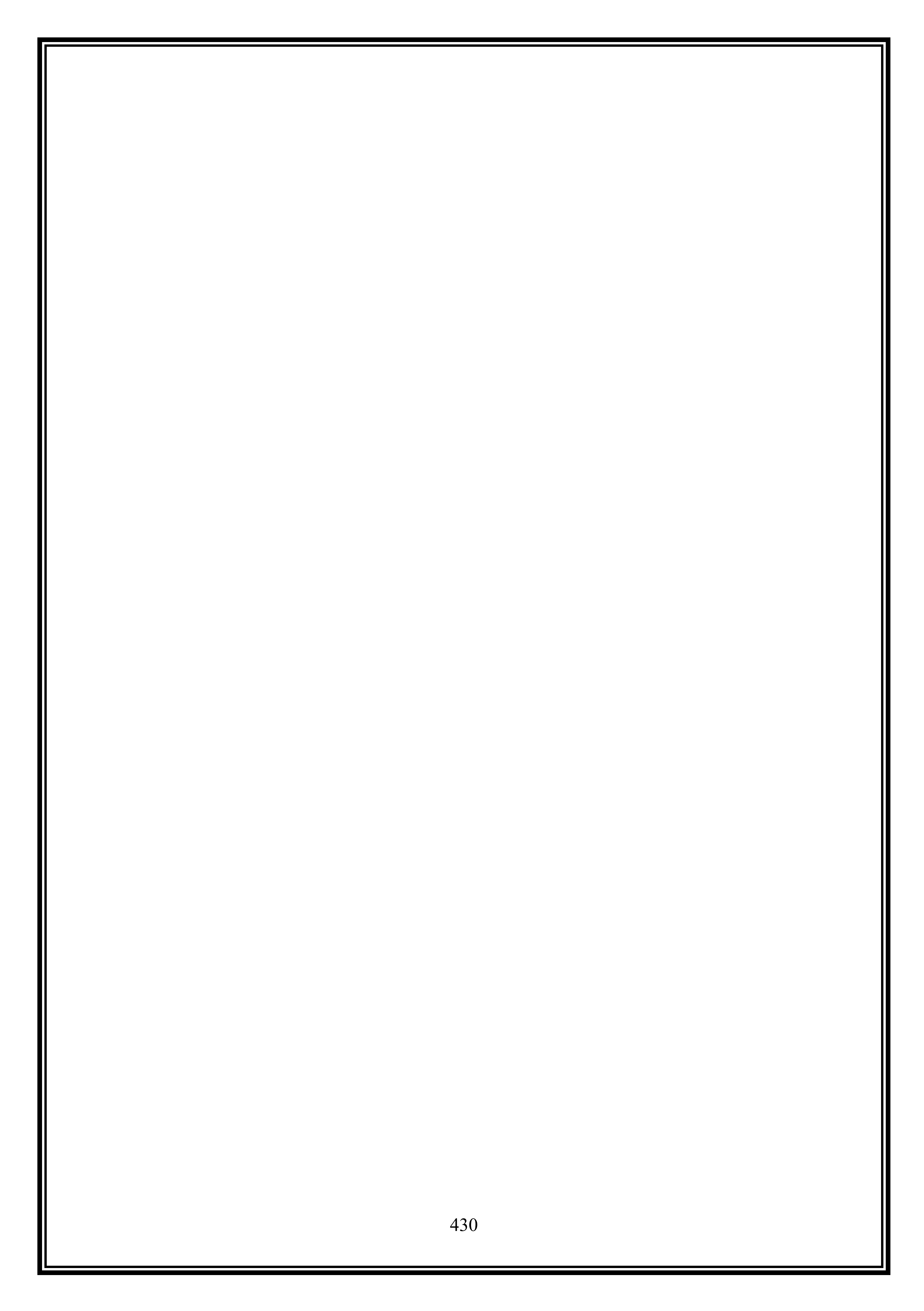


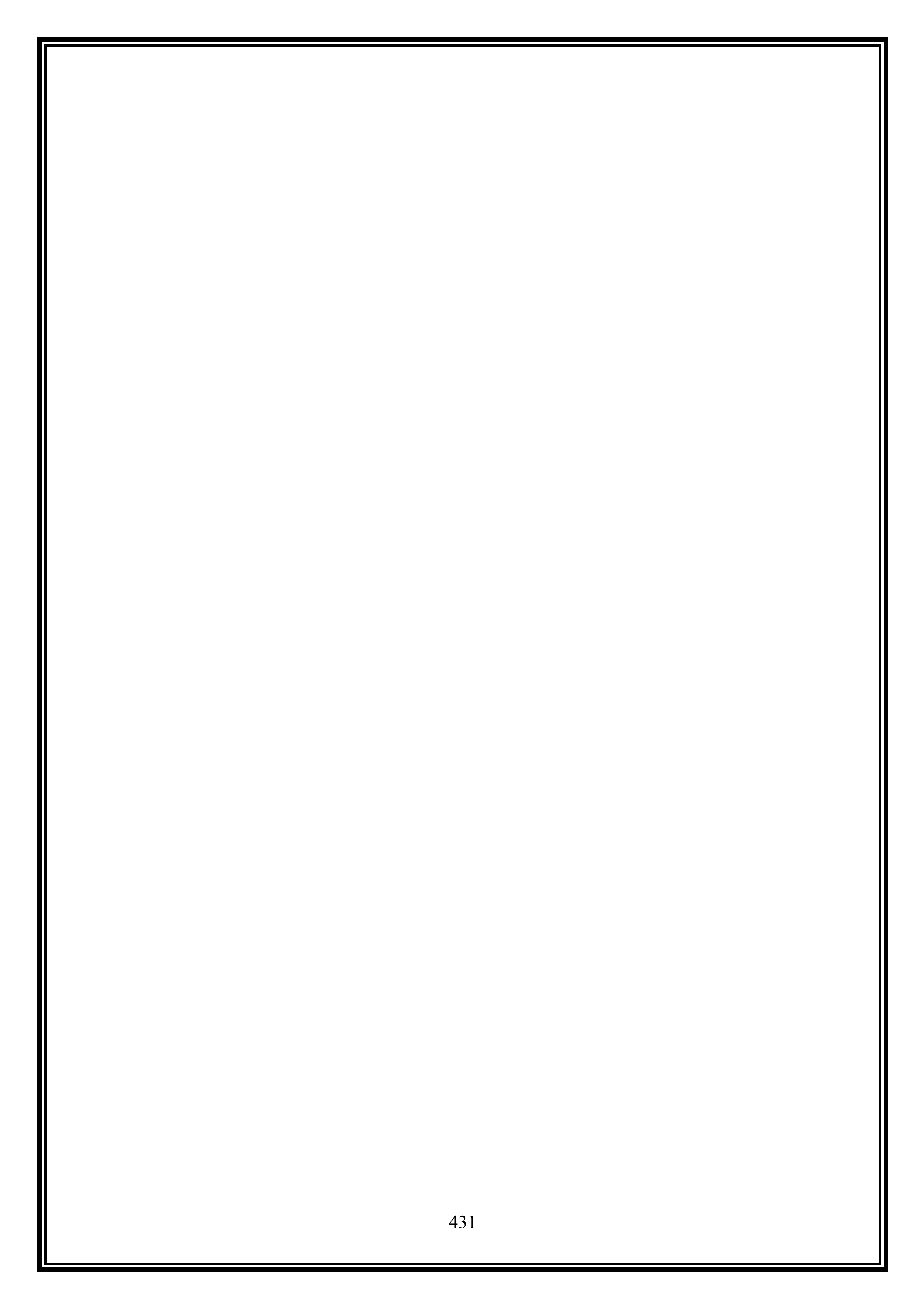


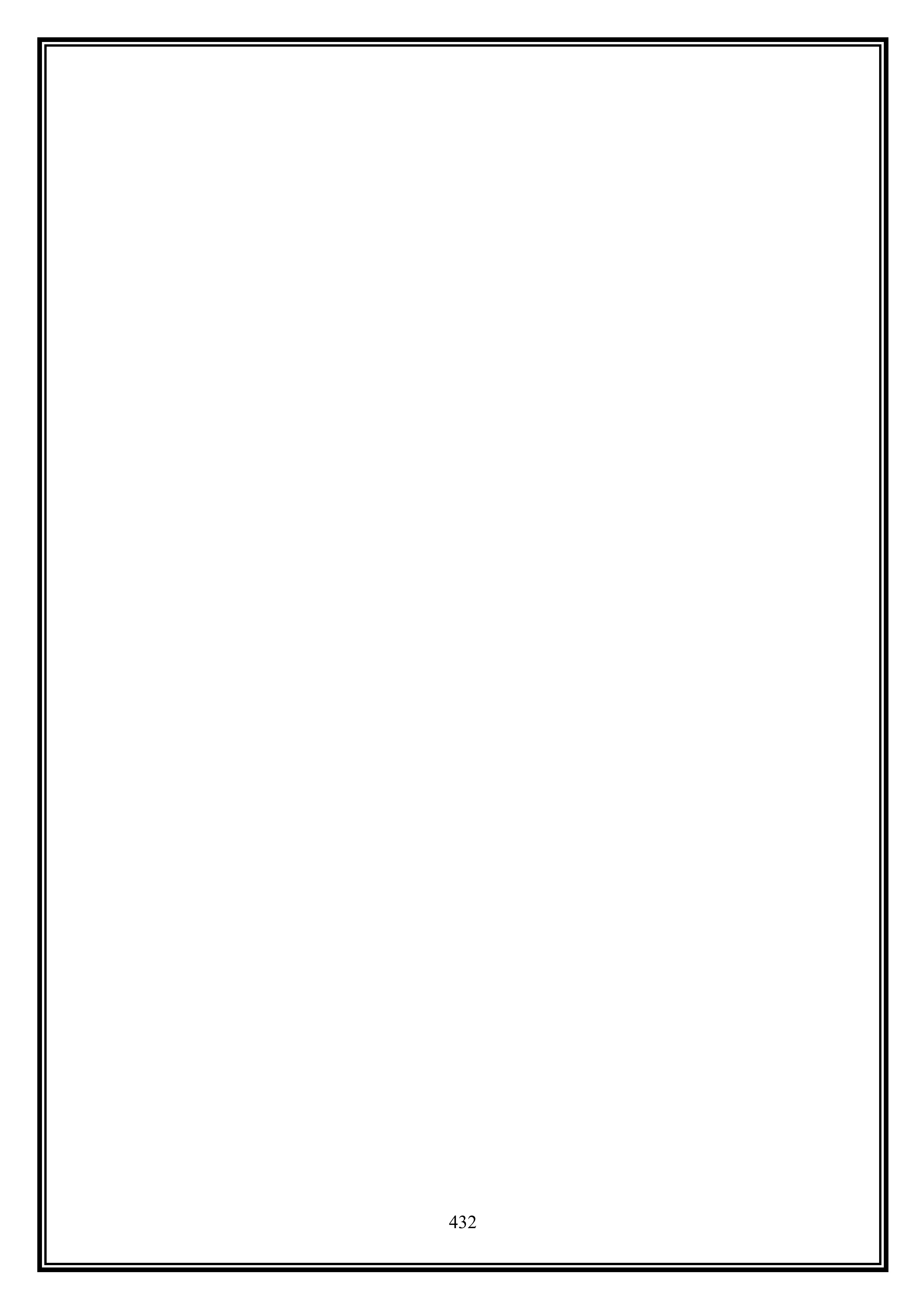












قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

أ- المصادر العربية المخطوطة:

-ابن الطيب(سيدي محمد ابي عبد الله):نثر المثاني في أعيان القرن الحادي عشر والثاني،مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم 2500.

-العبدري(محمد بن محمد بن سعود العبدري): رحلة محمد العبدري، رقم 312818 - عدد الأوراق 126.

ب-المصادر العربية المطبوعة:

- ابن أبي دينار (أبو عبد الله الرعيني):المؤنس في أخبار افريقية وتونس ،.دار المسيرة، الطبعة الثالثة 1993م.

-ابن أبي زرع (أبو العباس أحمد الفاسي): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،صور للطباعة والوراقة ،الرباط،1972.

-الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية،ط1،دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط - المغرب-1392ه/1972م.

-ابن بطوطة(محمدين عبد الله):تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المكتبة التوفيقية القاهرة مصر بدون تاريخ.

-أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (الأندلسي)، فتاوى الشاطبي ،الطبعة الثانية، تحقيق وتقديم محمد أبو الأجفان،مطبعة الكواكب، 1985م.

-أبو حمو موسى:واسطة السلوك في سياسة الملوك،مطبعة الدولة، التونسية، تونس،1279 هـ / 1862م.
-أبو راس (محمد بن احمد الناصري):عجائب الأسفار ولطائف الأخبار،ج1، تقديم وتحقيق محمد غانم،مركز البحث في الأنتروبولوجية الاجتماعية والثقافية.
-أبو العباس (شمس الدين أحمد)،وفيات الأعيان وأنباء الزمان،تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،الطبعة الأولى،1968م.
-الإدريسي(أبي عبد الله محمد بن عبد الله): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،الطبعة الأولى،عالم الكتب،بيروت لبنان،دون سنة.
-ابن الأحمر:تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان،ط1،تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة،مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع،1421ه/2001م.
- ابن حوقل(أبي القاسم محمد بن علي البغدادي النصيبي):كتاب صورة الأرض – جزءان–دار صادر بيروت الطبعة الثانية طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل،1938 م.
-ابن الخطيب(لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله):الإحاطة في أخبار غرناطة،ط2،تحقيق وتقديم محمد عبد الله عنان،مكتبة الخانجي،القاهرة، مصر1393ه/1973م.
(– –):اللمحة البدرية في الدولة النصرية،تصحيح ونشر محب الدين الخطيب،المطبعة السلفية،القاهرة،1347ه.
(––):خطرة الطيف(رحلات في المغرب والأندلس)1374–1362،ط1، تقديم وتحقيق،أحمد مختار العبادي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،2003م.
-ابن خلدون (أبو زكرياء يحيى): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،الجزء الأول، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات،المكتبة الوطنية،الجزائر1400هـ–1980م.
-ابن خلدون (عبد الرحمن):المقدمة، دار الكتب العلمية بيروت،لبنان.

-(ـــــــــــــــــــــــــــــــــــ):العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.دار الكتاب اللبناني بيروت 1960م

-ابن سعيد(أبي الحسن علي بن موسى المغربي):كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي،الطبعة الثانية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1982م.

- ابن الشماع(أبو عبد الله محمد بن احمد): ،الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية،تقديم وتحقيق،الطاهر بن محمد المعموري،الدار العربية للكتاب،تونس1984م.

-ابن عذارى(أبو العباس احمد):البيان المغرب في أخبار المغرب، ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ط1،تحقيق نحمد اراهيم الكتاني نحمد بن تاويت محمد زنيبر عبد القادر زمامة،دار الغرب الاسلامي،بيروت -لبنان- 1406ه/1985م .

- ابن القطان (أبي محمد حسن بن علي بن علي الكتامي المراكشي):نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان،ط1،تحقيق محمود علي مكي /دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان،1990م.

-ابن القنفذ(أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني): الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية،تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي،الدار التونسية للنشر،تونس 1968.

-ابن مريم(أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد):البستان في أخبار علماء وأولياء تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1986م.

-ابن منظور (الإفريقي): لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت لبنان، 2004م.

- أفوقاي (أحمد بن قاسم الحجري)، مختصر رحلة الشهاب الى لقاء الأحباب،تقديم وتحقيق محمد رزوق، دت.

-البرزلي(أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي):فتاوى البرزلي،جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام،ط1،تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة،دار الغرب الإسلامي،بيروت–لبنان2002م.

- البكري (ابن عبيد الله بن عبد العزيز):المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك،دار الكتاب الاسلامي ،القاهرة ، دت.

التجاني(أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد): رحلة التجاني،تقديم حسن حسني عبد الوهاب،الدار العربية للكتاب،ليبيا–تونس،1981م.

-التنسي(محمد بن عبد الله):،تاريخ بني زيان،ملوك تلمسان،مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان،حققه وعلق عليه محمود بوعياد،م وك،الجزائر،1985م.

- الجرجاني (علي بن محمد بن علي):التعريفات،الطبعة الأولى، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1405هـ.

-الجزنائي(أبو الحسن علي): جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ط2،تحقيق عبد الوهاب بن منصور،المطبعة الملكية،الرباط1411–1991.

-الحموي (أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان1397ه/1977م.

- الحميري(عبد المنعم السبتي): ،الروض المعطار في أخبار الأقطار، ط2، تحقيق الدكتور إحسان عباس،مكتبة لبنان،بيروت1994م.

-(ـــــــــــــ ـــــــــ ـــــــــــــ) صفة جزيرة الأندلس،ط2،نشر وتصحيح وتعليق،ليفي بروفنسال،دار الجيل،بيروت–لبنان1408ه/1988م.

-الدباغ(أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي):معالم الإيمان،في معرفة أهل القيروان،تصحيح وتعليق،إبراهيم شبوح،مكتبة الخانجي ،مصر1968م.

-الدمشقي (أحمد عبد الحي):شذرات الذهب في أخبار من ذهب،أربعة أجزاء،دار الكتب العلمية بيروت،بدون سنة.

-الدمشقي(أبو الفضل)،الإشارة إلى محاسن التجارة،ط1،تحقيق البشري الشوربجي،مطبعة الغد،الإسكندرية،نشر مكتبة الكليات الأزهرية،1397هـ/ 1977م.

الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر):مختار الصحاح،طبعة خاصة مدققة، مكتبة لبنان، بيروت 1986.

-الرقيق القيرواني(أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم):تاريخ افريقية والمغرب،تحقيق وتقديم محمد زينهم محمد عزب،دار الفرجاني للنشر والتوزيع،1414ه/1994م.

-الزركشي(أبي عبد الله محمد بن إبراهيم):ط2،تحقيق محمد ماضور،المكتبة العتيقة،تونس1966م.

- الزهري(أبو بن عبد الله محمد أبي بكر)،كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق،مكتبة الثقافة الدينية،بور سعيد-مصر-دت.

-الزياني (محمد بن يوسف)،دليل الحيران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي،ش و ن ت، الجزائر 1978م .

-السبتي(محمد بن القاسم الأنصاري):اختصار الأخبار بما كان بثغر سبتة من سني الآثار، ط2،تحقيق عبد الوهاب بن منصور،الرباط،1403ه-1983م.

-السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)،الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى،ط1،تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري،دار الكتاب،الدار البيضاء،المغرب1997 م.

- السقطي(أبو عبد الله محمد بن أبي محمد): في آداب الحسبة ،تحقيق كولين وليفي بروفنسال،مطبعة مؤسسة الدراسات العليا المغربية -مكتبة أرنست ليرو،فرنسا باريس،دت.

-العزفي السبتي(أبو العباس أحمد):إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد ،تخريج ودراسة محمد الشريف،المجمع الثقافي،أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة 1999م.

-القنوجي (صديق بن حسن)،أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية،بيروت 1978م.
- القضاعي (أبي عبد الله محمد بن عبد الله)كتاب الحلة السيراء،ط2،تحقيق حسين مؤنس،دار المعارف، القاهرة،1985م.
-القلقشندى(أبي العباس احمد)،صبح الأعشى في صناعة الانشا،دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية ،القاهرة 1332ه/1914م.
(ـــــــ ـــــــ)مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج،الطبعة الثانية، مطبعة حكومة الكويت،1985م.
-المقري(شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني):أزهار الرياض في أخبار عياض،ضبط وتحقيق وتعليق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري،عبد الحفيظ شلبي،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة 1308ه-1939م.
(ـــــــ ـــــــ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،تحقيق احسان عباس،دار صادر، بيروت408 ه /1988م.
-المقريزي(تقي الدين احمد بن علي):درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ط1،تحقيق محمود الجليلي، المجلد الأول،دار الغرب الإسلامي،1423ه-2002م.
-المكناسي(أبي عبد الله محمد): روض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الرباط، المغرب ،1371ه-1952م.
- مارمول كربخال،إفريقيا ،ج2،ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون ،دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع ،الرباط المغرب1408-1409ه/1988-1989م.
- المقدسي(أحمد بن محمد):أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،تحقيق غازي طليمات،وزارة الثقافة والإرشاد القومي،دمشق،سوريا،1980م.
-المراكشي (أبي محمد عبد الواحد بن علي)،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،الطبعة لأولى، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 1426هـ/2006م.

-مارمول(كار بخال): إفريقيا،ترجمه من الفرنسية محمد حجي وآخرون،مكتبة المعارف، الرباط، 1984م.

-مجهول،كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار.نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، المطبوع رقم 10،مطبعة جامعة الإسكندرية ،1958م.

-مجهول،نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر،تحقيق محمد رضوان الداية،دار إحسان للنشر،دمشق، سوريا،الطبعة الأولى،1404هـ/1984م.

-النميري(ابن الحاج):فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب،ط1،دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1990م.

-الوزان (الحسن بن محمد):وصف إفريقيا،الجزء الثاني الطبعة الثانية،دار الغرب الإسلامي.

- الونشريسي(أحمد بن علي):المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب،تحقيق مجموعة من الأساتذة،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،1981م.

(ــــــــــ ــــــــــ):أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر،تحقيق حسين مؤنس،مكتبة الثقافة الدينية،مصر1416ه/1996م.

<u>-المراجع العربية:</u>

- أباضه فاروق عثمان:تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،مصر،2003م.

-إبراهيم خميس إبراهيم، حسن عبد الوهاب حسين:معالم التاريخ الأوروبي الوسيط،دار المعرفة الجامعية الإسكندرية،مصر دت.

-أبو مصطفى كمال السيد:تاريخ الأندلس الاقتصادي فـي عصـر دولتـي المـرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب،2006م.
- أرسلان شكيب(الأمير):تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،دت.
(ـــــــــ ـــــــــ):الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسـية، الجـزء الثاني،دار الفكر العربي القاهرة،دت.
-بشتاوي عادل سعيد،الأندلسيون المواركة،مطابع انترناشيونال برسالقاهرة،1403ه/1983م.
- بوحوش عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي ،1997.
-بوعزيز يحيى: الموجز في تاريخ الجزائر،المؤسسة الوطنية للمطبوعات الوطنية الجزائرية، 1965م.
-التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب-من أقدم العصور الى اليوم-المجلد2، دك، 1408ه/1988م.
-التازي سعود محمد، نظم الإسلام وتراتيبه الإدارية بالمشرق والمغرب ،منشورات عكاظ،فأس المغرب 2007.
-الجبري عبد العالي محمد:أصالة الدواوين والنقود العربية،ط1،مكتبة وهبة، القاهرة 1409 هـ/1989م.
-جودة حسنين جودة:جغرافية أوروبا الإقليمية، الطبعة الخامسة، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان 1980م.
-الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد):تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دت .

- حاجيات عبد الحميد: أبو حمو موسى الثاني،حياته وآثاره،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983م .

-حاطوم نور الدين :تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، الجزء الأول،دار الفكر، دمشق - سوريا،1402-1982.

(ـــــــــــــــــــــ ـــــــــــــــــــــ): تاريخ عصر النهضة الأوروبية،دار الفكر،دمشق- سوريا،1368هـ/1968م. -- الحريري محمد عيسى: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت،1987.

-حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في إفريقيا، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية،مصر 1964م.

-الدراجي بوزياني:نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية.ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 1993.

-زبادية عبد القادر:الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1988 م.

-سالم السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب الكبير،الجزء الثاني، دار النهضة العربية، بيروت،لبنان1981م.

-سالم السيد عبد العزيز واحمد مختار العبادي ،تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ،دار النهضة العربية، بيروت،لبنان 1969م.

-سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى -التاريخ السياسي- ط8،مكتبة الأنجلو المصرية ،1985.

(ـــــــــــــ ـــــــــــــ):أوروبا في العصور الوسطى ،دار النهضة العربية للطبع والنشر،بيروت لبنان،1982

-سعيد عمران محمود: حضارة أوروبا في العصور الوسطى،ط1، دار المعرفة الجامعية،1998.

-سيد أبو مصطفى كمال:جوانب من الحياة الاقتصادية و والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي،مركز الإسكندرية للكتاب،الإسكندرية- مصر1996م.

- شاوش رمضان: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

-الطمار محمد:الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ش و ن ت،الجزائر، 1983م.

-تلمسان عبر العصور،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1985م.

-عبادة كحيلة: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب،الطبعة الأولى،المطبعة الإسلامية الحديثة،القاهرة، 1997م.

-عبادي أحمد مختار-مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس(مجموعة من رسائله)،جمع أحمد مختار العبادي،مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع،الإسكندرية مصر 1983م.

- عبد القادر نور الدين: صفحات في تاريخ الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العصر التركي ،طبعة قسنطينة 1965م.

-عبد الله عنان محمد: دولة الإسلام في الأندلس -العصر الثالث-عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس-،ط2،مكتبة الخانجي بالقاهرة،المؤسسة السعودية بمصر،1411ه/1990م.

-عريني السيد الباز:الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى،القسم الأول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1963.

- عشراتي سليمان: الشخصية الجزائرية،الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،2002م.

-عويس عبد الحليم:التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس،ط1،دار الصحوة للنشر والتوزيع،القاهرة،1994.
-دولة بني حماد، ط2،دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة 1991م.
- فرح نعيم: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ،ط2،منشورات جامعة دمشق ،1999-2000م.
-فركوس صالح :المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين الى خروج الفرنسيين،دار العلوم للنشر والتوزيع2003/2002م.
-فيلالي عبد العزيز: ،تلمسان في العهد الزياني، ط1،موفم للنشر والتوزيع، الجزائر2002م.
- كحالة عمر رضا:دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية،المطبعة التعاونية،دمشق،1393هـ-1973م.
- الكيالي سامي،في الربوع الأندلسية، مكتبة الشرق، حلب-سوريا-1936م.
- لقبال موسى :المغرب الاسلامي -منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج- ،سياسة ونظم.ط2،المؤسسة الوطنية للكتاب،1984م.
- الماحي علي حامد:المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني،دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1986م.
- محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية-مصر-1981م.
-محمد الهادي الشريف:تاريخ تونس -من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط3، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة،دار سراس للنشر،تونس1993م.
-محمد محمود أحمد النشار: تأسيس مملكة البرتغال،السياسة الخارجية لألفونسو هنريكز ملك البرتغال1128-1185م/522-581ه،ط1،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،مصر 1995م.

-محمود بوعياد:جوانب من الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري-الخامس عشر ميلادي -ش و ن ت،الجزائر.

المدني احمد توفيق:حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492هـ-1792م،ش ون ت،الجزائر دت.

-المطوي محمد العروسي:السلطنة الحفصية-تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي،دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان1406ه/1986م.

(ـــــــــــ ـــــــــ):الحروب الصليبية في المشرق والمغرب،ط2،دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان1982م.

-المنوني محمد:ورقات من حضارة المرينيين ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس ،الرباط دط-2000م.

-موسى عز الدين عمر:النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي،خلال القرن السادس الهجري،دار الغرب الإسلامي،الطبعة الثانية،1424هـ/2003م.

- مؤنس حسين: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ،المجلد الثاني ، الجزء الثالث،العصر الحديث للنشر والتوزيع.

(ـــــــــــــــــــــ ـــــــــــــــــــــ):معالم تاريخ المغرب العربي والأندلس،ط2،مكتبة الأسرة-الأعمال الفكرية -1993م.

-الميلي مبارك بن محمد الهلالي:تاريخ الجزائر في القديم والحديث،الجزء الثاني،م و، ك،إنتاج دار الغرب الإسلامي،بيروت-لبنان،دت.

-نجيب زبيب:الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس،ط1،تقديم أحمد بن سوده،ج2،دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت،1415ه/1995م.

-هني أحمد: العملة والنقود،د م ج ،الجزائر،1986م .

- يوسف جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر.

-يوسف شكري فرحات:غرناطة في ظل بني الأحمر،(دراسة حضارية)،ط1،دار الجيل ،بيروت،لبنان، 1413ه/1993م.

مجموعة من المؤرخين -الجزائر في التاريخ ،ج3-العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني- الحضارة الجزائرية في عهد الدولة الزّيانية-الحياة السياسية والإدارية- المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1984م.

المراجع المترجمة

-أندري فرنيان وآخرون،الجزائر بين الماضي والحاضر،ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور،دوم ج الجزائر، 1984م.

- برانشفيك روبار : تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، ط1، تعريب حمادي الساحلي ،ح1، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان 1988م.

-بروي ادوار:تاريخ الحضارات العام-القرون الوسطى- ط4،تعريب يوسف أسعد داغر، فريد م داغر،عويدات للنشر والطباعة،بيروت لبنان 1998م.

- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب،منشورات المكتب التجاري، بيروت،ط2، 1969م.

-عبد القادر جغلول:مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، ترجمة فضيلة الحكيم،ط1،دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع،1982م.

-كولستون ج ج:عالم العصور الوسطى في الحضارة والنظم، ط2،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،1983م.

-لي تورنو روجي: حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر،ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب،1982م.

(_________ _________)فاس في عصر بني مرين،ترجمة نقولا زيادة،مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك1967م.

-مونتغمري وات: في تاريخ اسبانيا الإسلامية،ط2،ترجمة محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت لبنان،1998.

-هنري بيرين:تاريخ أوروبا في العصور الوسطى-الحياة الاقتصادية والاجتماعية- ترجمة وتحقيق عطية الغوطي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1996م.

- هيو ج أتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ط2،ترجمة محمد زايد، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان1982.

مارسي جورج: مدن الفن الشهير -تلمسان-موقان البليدةالجزائر2004م.

المراجع باللغة الأجنبية:

- *Abdallah Laroui, the history of the Maghrib, an interpretative essay, translated by ralph Manheim, Princeton Univercity press, New Jersey m 1977.*

-sari Djilali, la renaissance d'un ancien débouche d'or transsaharien -honaine- opu, Alger.

.L.didier, histoire d, Oran1501-1550, Oran-1927.

-B.Doumerc, Venise et la dynastie Hafside a la fin du XVe siècle, *cahier de Tunisie, tXXIX, no117-118,1981.*

-Corvenin Robert ,Histoire de l'Afrique. Tome1. paris-France.

-Dhina Atta Allah, les Etats de l'occident musulman aux 13-15 siecle, OPU, Alger, 1984.

-Dominique Sourdel et Janine Sourdel Thomine, la civilisation de l'Islam classique, les éditions Arthaud, paris 1983

-Dufourq Charles Emmanuelle, L, Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV eme siècle, Paris, 1965.

(———————— ——————) la vie cotidienne dans l'Europe medievale sous domination arabe, Hachette, Paris, 1975.

-L'afrique septentrionale au moyen âge, H.P, imprimeur -éditeur paris 1866.

-Gauvet ct, l'origine des zenata »bulletin provisoire de la société de géographie d'Alger et de l Afrique du nord.2eme trimestre1942.

-julien Charles André, l'histoire de l'Afrique blanche, PUF, 8eme édition, 1976.

-J.Heers, le royaume de grenade et la politique marchande de gènes au XVE siècle, Bruxelles,1957.

M.LECUPRE GILLES, histoire médiévale -l'occident du XIIe aux XVE SIECLE- COURS complet, université de paris, 2008-2009,

-Mas Latrie, traites de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabe de l,afrique,H-P Edition,paris1866.

-Miloud Gaid, les berbères dans l'histoire de la kahina a l'occupation turque, édition Mimouni, Alger, 1980.

-Monlau jean, Les Etats barbaresques, presse universitaire de France, paris, 1ere édition, 1er trimestre1964.

-Morales Oliver, Oran y España –conférencia in I.E.A ,23novembre 1960.

-Paulume Denise, les civilisations africaines, presse universitaire de France, 6eme édition, 1974.

الرسائل الجامعية.

- بوشامة عاشور:علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والاندلس696-981هــ/1668-1573م، رسالة ماجستي، جامعة القاهرة كلية الآداب قسم التاريخ،1411هــ/1991م.

-بسام كامل عبد الرازق شقدان:تلمسان في العهد الزياني، رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الدراسات العليا،جامعة النجاح الوطنية،نابلس-فلسطين1422-2002م.

-بشاري لطيفة:التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع الى القرن العاشر الهجريين(13-16 م)،رسالة ماجستير، وهران 2004م.

- مبخوت بودواية:العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، دكتوراه دولة في التاريخ ،جامعة تلمسان، قسم التاريخ السنة الجامعية 2005-2006م.

-مكيوي محمد،الأوضاع السياسية و الثقافية للدولة العبدوادية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول،رسالة ماجستير،جامعة تلمسان،2000-2001م. - بان على محمد البياتي:النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال 3-5ه/ 9-11م، ماجستير آداب في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة بغداد 2004م.

المجلات والدوريات

أ العربية:

-مجلة إنسانيات ،"وهران مدينة من الجزائر"عدد 23، 24جانفي وجوان 2004م.

-مجلة الأصالة،السنة الثالثة العدد 14 و15ربيع الثاني جمادى الأولى والثانية -رجب 1393-ماي- جوان- جويلية -أوت 1973م.

-محاضرات ومناقشات الملتقى الثامن للفكر الإسلامي ببجاية،المجلد الثاني، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية 1394هــ/1974م.

- مجلة الفسطاط، عدد7، سنة 2006م.

- مجلة التاريخ، عدد 9، النصف الثاني من سنة 1980م، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر.

-مجلة الحوار المتوسطي، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس،العدد 03-04، مارس 2011-2012م.

-حولية المؤرخ،عدد6،جويلية 2005م.

ب-الأجنبية.

-Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb, No13, Janvier 1976.

- Revue Africaine, Alger, 1861.

فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام

-أ-

ذ-

-ر-

ز-

ش-

ص-

ض-

ط-

ظ-

ع-

غ-

ف-

ق-

ك-

ل-

م-

ن-

و -

هـ-

الملخصات

أ-العربية:

يتضمن هذا البحث دراسة للعلاقات الاقتصادية والسياسية لبلدان المغرب الثلاثة-الحفصية -الزيانية - المرينية-مع دول جنوب غرب أوروبا في الفترة الممتدة من القرن 13الى 16م،مركزين على دور الموقع الجغرافي لبلاد المغرب في اجتذاب النشاط التجاري وخاصة الأوروبي وانعكاسات ذلك على وضعها الاقتصادي باعتباره مركز عبور وانتقال للسلع بين الشمال (أوروبا) والجنوب (الصحراء الإفريقية)،كما حاولنا استنتاج الأثر المتبادل والترابط القائم بين الجانب السياسي والاقتصادي.

الكلمات المفتاحية: العلاقات-الاقتصادية-السياسية-المغرب- الإسلامي-جنوب -غرب-أوروبا

ب-الانجليزية:

Our survey deals with the political and economic links of the three states of the Islamic Maghreb-Hafsid-Zianid- merinid- during the era (13th-16th century) with the south -west of Europe, the main aim of our study is to focus on the positive aspect of the Maghreb geographical situation and its ability to attract European neibouring countries for trading activity, then numerous

consequences on its economic position since it was regarded a transitionary center of different products between the north and the south and finally the relation and effects between the economic and political relations.

KEY WORDS: Political–economic–links–Islamic Maghreb–south–east– Europe.

ج– الفرنسية:

Cette recherche a pour objet l'étude des relations politico–économiques des trois Etats maghrébines (hafside– zianide– mérinide) avec le sud–ouest de l'Europe.

Notre travail ce focalise d'une part sur le rôle de la position géographique du Maghreb zone attractive des transactions commerciale européennes et leur répercutions sur son économie étant considérée comme point de transit des marchandises entre le nord et le sud, et en plus on a essayer de conclure les rapports et la relation entre les deux domaines: politique et économique.

Mots clefs:politiques–économiques–relations–Maghreb islamique–sud –ouest–Europe.

وقد أبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة البلاء الحسن في تنفيذ أوامر العاهل المغربي فهيأ وحده 45 قطعة من الأسطول وكانت (التاريخ الدبلوماسي ص62)) ///.معركة بحرية هائلة انتصر فيها بنو مرين انتصارا باهرا، واعتقل قائد الأسطول القشتالي –الملند– في جماعة من حاشيته، و أجاز الأمير يوسف ابن السلطان يعقوب البحر و رأى انه من الحكمة ان يعقد مع الطاغية سلما يمكنه من –تنشيط—ابن الأحمر وحلفائه فقبل ذلك خوفا من باسه من جهة وتنشيط الجيش من جهة أخرى و تبودلت الاتصالات بين الأمير يوسف و الفونصو ملك قشتالة الذي استجاب إلى عقد اتفاقية سلم جديدة مع والد الأمير أبي يوسف.

المجاعة في تلمسات1227 القمح 240 فرنك لو كفيس أو أكثر من 100 دينار للهكتوليترروص القرطاس ما لاتري 220 المقدمة

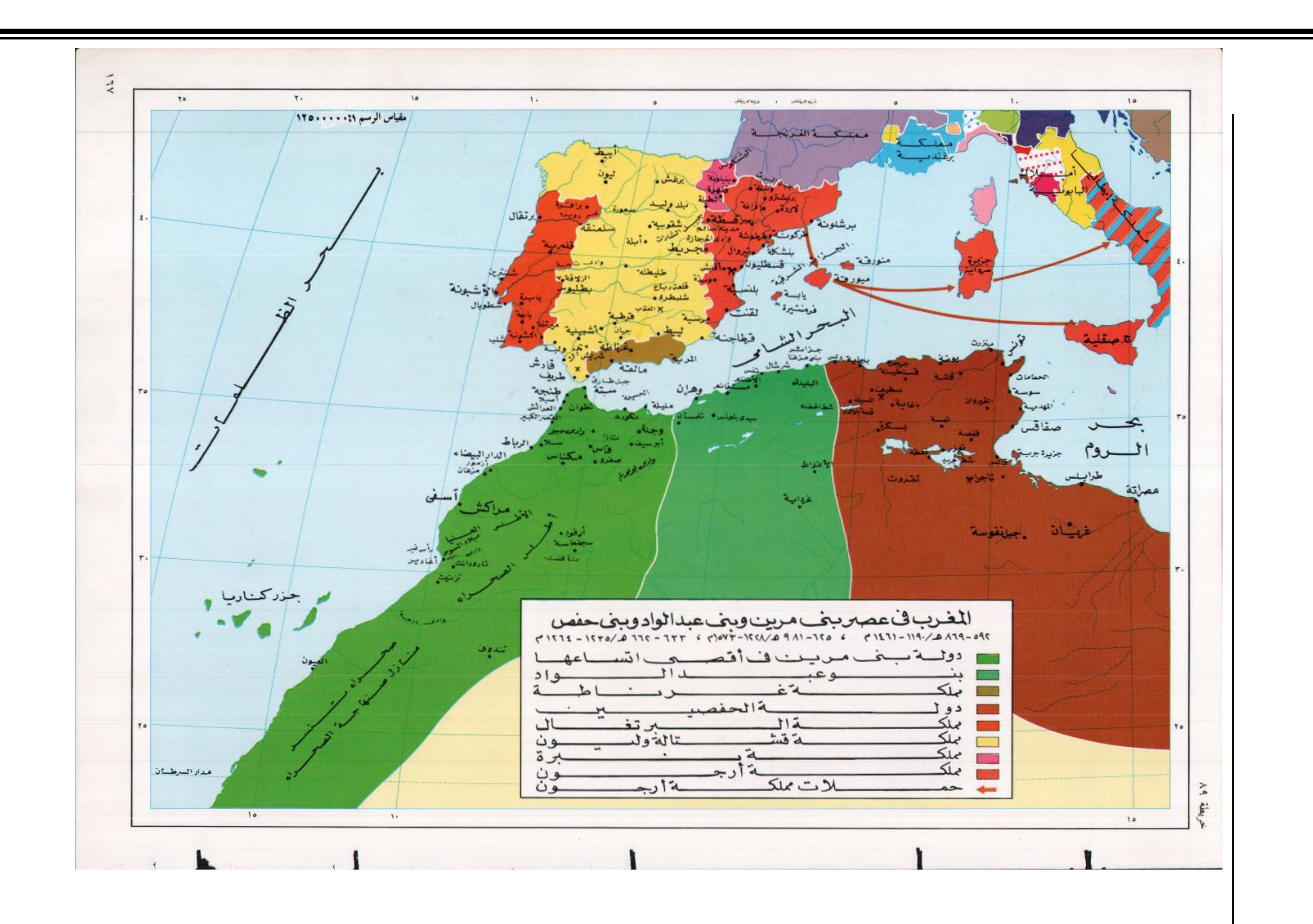
بالار،بنو مرين في الاتفاقيات المبرمة بين اراغون وغرناطة،تطوان،العدد 1963،8،ص196،193

ميناء قابس كانت المدينة تعتبر مركزا هاما بحكم موقعها الممتاز اذ كانت تتحكم في المجاز الضيق الواقع بين منطقة الشطوط والبحر الرابط عن طريق البر بين تونس والمغرب من جهة وبين طرابلس والمشرق من جهة أخرى كما كان على مر العصور الماضية نقطة وصل ملائمة بين التجارة البحرية أو البرية وبين التجارة الصحراوية/ انظر روبار برانشفيك المرجع السابق،ج1/ص345.طرة وبشرى منطقتان أو بلدتان رئيسيتان في منطقة نفزاوة كانت طرة تعرف في العصر القديم باسم توريس تملاني برانشفيك1ص346. جزيرة جربة كانت مسكونة من قبل الخوارج فرقة الوهابية الذين يسكنون الشمالوالشمال الغربي بقيادة بني سمومن وفرقة نكارة بالجنوب والجنوب الشرقي بقيادة بني عزون.349.

سلاطين وملوك المنطقة بنو الأحمر من كتاب غرناطة في ظل بني الاحمرص15وما يليها

التجار: القطلاني –رامي دي بليجامانز

خارطة سياسية لشبه الجزيرة الأيبيرية


خريطة ٨٩
١٦٧
مقياس الرسم ١: ١٢٥٠٠٠٠٠
المغرب في عصر بني مرين وبني عبد الواد وبني حفص
٥٩٢-٨٦٩ هـ/١١٩٠-١٤٦١م ، ٦٢٥-٩٨١ هـ/١٢٢٨-١٥٧٤م ، ٦٣٣-٦٦٢ هـ/١٢٣٥-١٢٦٤م
دولة بني مرين في أقصى اتساعها
بنو عبد الواد
مملكة غرناطة
دولة الحفصيين
مملكة البرتغال
مملكة قشتالة وليون
مملكة نبرة
مملكة أرجون
حملات مملكة أرجون
مملكة الفرنجة
مملكة برغندية
بحر الظلمات
البحر الشامي
بحر الروم
جزر كناريا
الصحراء
برتقال
سلمنقة
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
مالقة
برشلونة
سرقسطة
بلنسية
ميورقة
منورقة
يابسة
جزيرة سردانية
ج. صقلية
طنجة
سبتة
تطوان
فاس
مكناس
الرباط
مراكش
آسفي
وهران
تلمسان
بجاية
قسنطينة
بونة
تونس
القيروان
سوسة
المهدية
صفاقس
طرابلس
مصراتة
غريان
جبل نفوسة